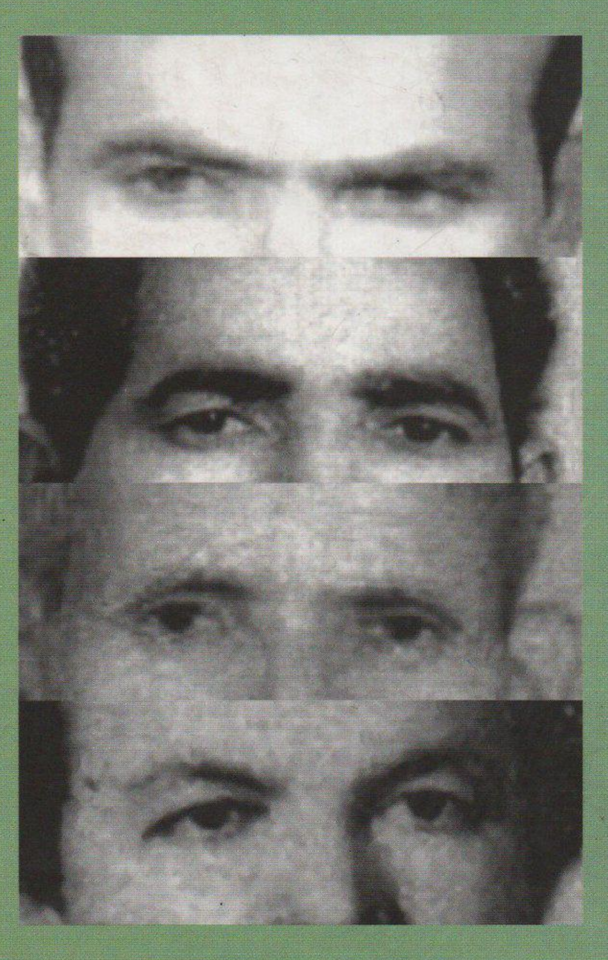
المهدي بنونة

أبطال بلا مجد

فشل ثورة

1973-1963



منشورات طارق



أبطال بلا مجد
فشل ثورة
1963 - 1973

تأليف : المهدي بنونة

ترجمة : علي آيت احماد

منشورات طارق

رقم الإيداع القانوني · 1179 / 2005
ردمك : 4 - 28 - 419 - 9954
مطبعة المعارف الجديدة – الرباط
يونيو 2005

توطئة

يوم الثلاثاء 6 مارس 1973، في مكان ما من الأطلس الكبير بالمغرب

يهوي التراب الرملي والرطب في صمت. وحدها ضربات مجرفة حفار القبور تنظم إيقاع سكون الفجر. رائحة التراب الرطب تفوح في الهواء. اللحاد يحفر قبرا وعلى جانبه جثمانان يغطيهما كفن مدعوك. وعلى مقربة، يقف رجلان. من السهل معرفة أنهما من رجال الشرطة : العميد السيد م. وبجانبه المفتش السيد أ.. يضرب أحدهما الأرض برجله. من الواضح أنه يريد من الحفار أن يسرع وأن ينهي عمله. وأما الآخر فقد بدا أكثر هدوءً، ويتظاهر بعدم الاكتراث أو الرغبة في أن ينتهي الأمر سريعا. عندما اكتملت الحفرة، ساعد الرجلان في وضع الجثمانين داخلها. ثم تناولا المحملين الفارغين وابتعدا في صمت. لقد كانا مترددين بين جلال اللحظة والإرتياح من عملٍ شاق قد انتهى.

وهاهو عمر جبيهة، الذي كان في ذلك الوقت الطبيبَ الرئيس بمستشفى مدينة قصر السوق (والتي أصبحت الراشيدية فيما بعد)، هاهو يتذكر بأن "العميد م. حضر من أجل تسلم الجثمانين غداة وصولهما. فقد حطت ثلاث طائرات مروحية تابعة للجيش في منتصف عشية اليوم السابق. وهي عملية كان بالإمكان أن لا ينتبه إليها أحد في هذه المدينة التي توجد بها ثكنة والتي اعتادت على فرق الجيش. ولكن سرعان ما حوصِر المستشفى حصارا تاما وأغلقت كل المَنافذ المؤدية إليه. مُنِع أخذُ أي صورة. كان الضابط الذي يقود العملية فرنسيا، وكذا ربابنة الطائرات. سلمني جثتين لا حياة فيهما لأتعرف على هويتهما، وسلمني كذلك رجلا ثالثا مجروحا في ساقه ينزف نزيفا. فهمت في الحين. منذ أزيد من أسبوع والمذياع يتحدث عن مطاردة مجموعات مسلحة في الجبال. كان أمامي قائدهم إذن. وقد غطت ثقوب الرصاص صدره. بل إن رصاصة أصابت رأسه كذلك. وحسب ما يُحكى فإنه كان مهندسا تكَون في ألمانيا. وإلى جانبه كان يرقد جثمان أحد رجاله المقربين. ناولني العميد م. صورا فوتوغرافية لاستعمالها في التعرف على الجثمانين. إلا أن لحيتيهما الكثتين جعلت من عملية التعرف أمرا مستحيلا. ولهذا لجأت إلى البصمات.

وحسب الإشاعات فإن الخسائر في صفوف القوات المساعدة كانت فادحة. ولكنهم ذهبوا بموتاهم وجرحاهم إلى مستشفى عسكري. وبعد أربع وعشرين ساعة، رجع العميد م. ليأخذ الجثتين ويدفنهما[1]".

كان من المفروض أن يكون يوم الثلاثاء 6 مارس يوما عاديا. لكن بدأ ينتشر خبر سقوط قائد الثوار، محمد بنونة، المعروف بمحمود، خلال اشتباك قرب كلميمة. ولربما أصيب كذلك رجلان من رجاله المقربين، وتُوُفي على الأقل أحدُهما.

وقد بات الأطلس المتوسط يفور ويثور منذ أولى عمليات تبادل إطلاق النار بمولاي بوعزة، قرب مدينة خنيفرة.

ولهذا، وبحماس واضح صريح أو يكاد، أكدت وزارة الداخلية موتَ "قائد الإرهابيين"، في بلاغ كله افتخار واعتزاز. ولكن بقي على السلطة أن تحارب ما تخشاه كما تخشى السلاح: إنها الذكرى التي تحفظ الذكريات. والعميد م.، الذي يغادر مقبرة قصر السوق تحت شمس لم تشتد بعد، يعرف هو كذلك هذا الأمر. لهذا فإنه اختار حفار قبور من رجاله. وهذا هو السبيل الوحيد لكتمان السر. إن تعليمات رؤسائه كانت واضحةً: يجب أن يبقى مكان دفن قائد المتمردين مجهولا وذلك حتى يَمْحُوَ موتُه كل أثرٍ له في الذاكرة.

وعند ظهيرة ذلك اليوم نفسه، عاد دوي البنادق من جديد قرب أسول. ثم تنغير في اليوم الموالي.

الجمعة 29 أكتوبر 1995، باريس

تجمع أناسٌ أمام الرقم 151 بشارع سان جيرمان في الدائرة السادسة بباريس. لقد كانوا مترصدين أمام المطعم ليب. كان هناك إبراهيم وعباس وخالد وإدر. كانوا في الخمسينات من عمرهم، يلبسون معاطف تقيهم شتاء فصل الخريف. تَجَمهر حولَهُم أناسٌ حضروا إلى المكان نفسه الذي اختُطِف منه المهدي بن بركة قبل ثلاثين سنة، للتأمل والتفكر.

إنها جريمة دولة تعلن بداية حرب مفتوحة بين الحسن الثاني ، ملك المغرب، وأشد معارضيه ثباتا وإصرارا. لقد خاضوا هذه الحرب عندما كانوا شبابا يوحدهم كفاحٌ واحد. ومنذ ذلك الحين تضاءلت أعدادهم. لقد اكتسى هذا الحج السنوي طابع تَلاَقي الرفاق القدماء ثانية. فيتبادل الحاضرون التحيات والأخبار. وبعد أن شَدَدتُ على أيادٍ وعانقتُ بحرارة [أعزاء]، بدأتُ النقاش وضربتُ مواعيد. هكذا بدأ هذا البحث.

ما الذي يحركني ويدفعني؟ أهي آثار فقداني لأبي؟ لربما، إن أخذنا بعين الاعتبار أن فقداني لأبي بقي لغزا حتى أتجنب الانتقام المفترض وحتى يختفي

---

1 حوار مع المؤلف.

جرحٌ لا يريد أن يندمل بسبب غياب الأجوبة عن أسئلة بسيطة من قبيل لماذا؟ وكيف؟ ...

وأمام هذه الأسئلة التي لا جواب عنها، بقيت أحمل في أعماقي الحاجة إلى البحث عن هذه الأجوبة، حاجة يذكيها محظور فيه مفارقة: ذلك أنه خصبٌ من حيث الروايات المتناقضة والشهادات التي لا تُصَدق. كان هذا كافيا لإثارة فضولِ جامِعي تخرج منذ زمن قريب من شعبة العلوم الإنسانية وتدرب على البحث الميداني.

هذه الحكاية، التي أود تركيبها من جديد، واقعية. فهي تسرد سردا وفيا أمينا قدر الإمكان أحداث مغامرة رجال حملوا أمل الثورة في المغرب؛ والقليلون هم الذين يعرفون هذه الأحداث معرفة حسنة كافية.

إبان حياة الحسن الثاني، كان تاريخ البلاد يُقرأ من خلال صمت خصومه الذين باتوا في وضع المتفرجين على سلطة تحتكر احتكارا مطلقا ذاكرة شعبها. وبعد ثلاثة عقود، ومع اعتلاء محمد السادس العرش، أخذ المغاربة يَنتَشُون ببدايةِ حريةٍ لم يسبق لهم أن شهِدوها على تراب بلدهم. هذه الحرية هي التي دفع محمد بنونة حياتَه ثمناً لها. تروي هذه الحكاية مسار حياة، وتروي كذلك موت العديد من الأبطال المجهولين الذين يذكروننا بفضل كفاحهم ضد الاستبداد باسم كرامة الإنسان، يذكروننا بالمعنى الحقيقي لكلمة "مقاومة". وذلك لأنهم كانوا أوفياء لأفكارهم، فحاولوا بشجاعة وثبات العملَ من أجل ميلاد اللحظة التي كم يخشاها ويهابها الحكام المستبدون، اللحظة التي يتراءى فيها للشعب ما لم يكن يتصور إمكانية وجوده: إنها الحرية.

عرفت هذه المغامرة نهايتها المأساوية فيما يُطلق عليه باحتشام "أحداث مارس 73". إنها صفحة غائبة عن التاريخ الرسمي، بيد أنها أحداث تاريخيةٌ لا غنى عنها لأنه لا بد للشعوب أن تعرف مِمَّ هي مُكوَنة وما هو المعنى العميق لتضحياتها وآمالها.

لقد أخذت هذه الحكاية تظهر للوجود منذ زمن قريب وشيك. وهي في مستوى الصمت الذي لفها فيه منذ سنوات طوال واضعو التاريخ الرسمي. إنها حكاية فريدة ومأساوية في آنٍ واحد.

أن تحكي ثانيةً مسارَ ثورة أُجهضت ليس بالأمر اليسير، لاسيما إن كان المراد هو اجتناب شوائب ونتوءات الخطاب النضالي، وخطاب المغالطة أو الطرائف. منذ ذلك العهد كان للعديد من الأطراف المنعتقة الوقت الكافي لوضع اللمسات الأخيرة على رواياتهم الخاصة. وفي الآن نفسه، رَفَعَ هؤلاء الذين كانوا مرؤوسين يطبقون الأوامر أيامَ القمع فتميزوا بخضوعهم وخنوعهم، رفعوا رؤوسهم من جديد. وهم كذلك بدأوا يعيدون كتابة التاريخ متدثرين بلباس المُدافع المنافح عن العدالة لأنهم قضوا، باسم النظام، على أساس مفاخر الشعوب، ألا وهي أمانته ونزاهته وشجاعته. بقي آخرون

صامتين متحصنين وراء سكوت يسكنـه الخوف. سكوت مُذل مشين. أو. وفيما يخص العديدين منهم. وراء الصمت الأبدي للأسف.

لا يهم الأمر هاهنا سرد شهادات ولا إنجاز دراسة. بل الغرض هو محاولةٌ للإحاطة. عبر مسار بعض الفاعلين في تاريخ المغرب الحديث. بنشوء حركة ثورية كادت تقلب مجرى التاريخ وإجهاضِها. إن عدم وضوح هذه الحركة والحصار الذي ضُربه التنظيم المنفصل عليها قد فرض عملا وبحثا دقيقين للعثور على مصادر متنوعة لجمع المعلومات واستثمارها. إن المقاربة النسقية بين هذه المعلومات كانت تخضع لمقاربة عملية تطبيقية. هدفها اجتناب الاختصارات التي تُرضي الآراء والأحكام المسبقة.

غرضي إذن هو إعادة الاعتبار لحلقة من التاريخ المعاصر والتفكر فيها. تاريخٌ ضلله صمتُ البعض وكذبُ البعض الآخر. إلى أي حد يمكن أن تذهب إعادةُ-صياغة التاريخ؟ وأين يمكن أن يُعاد امتلاك تجربة غير معاشة؟ يرمي عملي إلى نفض الغبار عن الشهادات والتهريات وبعض مواقف السكوت التي كانت أحيانا أبلغ من الخطابات الطويلة. والمقاربة بينها وتأويلها. ينضاف إلى هذا العائق إحساسٌ حاد بمشروعية الخطاب. فالهيآت المسيرة للحزب[2] (الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية حاليا) التي انبثق عنها الفاعلون في هذه الحكاية. يرى أعضاء هذه الهيأة في أنفسهم. كما هو شأن القصر. المؤتمَنين على الموروث التاريخي لهذا البلد. ولئن كان لكل شعب الحق في معرفة تاريخه. فإن الشغل الشاغل لرجال السياسة هو أن يضعوا فوق الأحداث أعلاما تتوافق وأهواءهم. وهكذا فهم يعتبرون أنفسهم وحدهم المؤهلين للإفصاح عن بعض جوانب الأحداث التي تشكل النسيج التاريخي لهذه البلاد أو. وهو الغالب الأعم. إقبارَ ودفن هذه الأحداث.

إن الانتفاضة التي تنجح تُسمى "ثورة". وتوضع عليها كل علامات التقدير والإجلال. كما توضع لها تماثيلها وشاهداتها. ومؤرخوها الذين يلاحقون مسار الأحداث بحثا عمن ساهم فيها. مَن تبنى ذلك أومَن جادل فيه. وأما الانتفاضة التي تفشل فتسمى "عصيانا" دون أي علامة تقدير وإجلال. دلالةً على الخزي الذي طالها. ومنا دامت الحركة يتيمة فإن الصمت يلفها. بل إن الكلمة تُعطى للموتى الذين يواصلون الحياة. محتشمين. في شكل صور مقدسة من صور الاستشهاد من أجل الثورة. يقدرهم ويحترمهم البعض. ويضارب بهم البعض الآخر. بعد أن أصبحوا صورا جامدة يحملها من أراد أن يرفع من شأنه الخاص ليتباهى بأمجاده.

يبقى التفاف الزمن والخوف من الحديث عن صفحة من التاريخ هددت الأوضاع القائمة. يمكن لمعالجة الأشياء من زاوية تاريخية أن تنير إنارة مثيرة أحداثاً اعتُبِرت. في ذلك الحين. أحداثا لا أهمية لها. وعلى العكس من ذلك. فإن تجربةً قوية مؤثرة يمكن

---

[2] ظهر الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في شتنبر من سنة 1959 بعد انشقاق حزب الاستقلال، وهو الحزب الوطني الذي هيمن منذ الأربعينيات والذي قاد الكفاح من أجل الاستقلال. وسنة 1975، تحول إلى الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية.

أن تصبح، بعد مرور زمن على حدوثها، تجربةً محصورة محدودة يُنظَر إليها على أنها حدث جزئي لا وقع له ولا تأثير.

وقد عملت، حرصاً على مجرى الأحداث، على إعادة تركيب بعض الأحداث والحوارات، رابطا بين الوثائق والشهادات التي جمعتها.

وأما تخوفات الأشخاص الذين حاورتهم، فإنني لم أجعلهم يتجاوزونها إلا بفضل عمل دؤوب هيأتهم به لذلك. ولما علم العديدون بزيارتي وبسببها، أحيا فيهم الأمرُ ردودَ فعل قديمة: مواعيد سرية حَدد ميقاتَها وسيطٌ، اختيار طاولة معزولة في مقهى مع وضع ظهر الكرسي تجاه الحائط، سطور تكتب بعجلة وسرعة على ورقة حتى لا ينطق الفرد بما لا يُقال...

توضيحٌ أخير فيما يخص اختيار طريقة السرد. فإن كانت المواقف والحوارات قد رُكبت انطلاقا من الشهادات المجمعة، التي تُكَون، فيما يخص الجزء الأساسي منها، نسيجَ هذا الكتاب، فإنني قد سمحت لنفسي، بغرض أن تكتسي الأحداث المحكية القوةَ الإيحائية الأفضل، بإضافة بعض التفاصيل. وأخيرا، فإن هَم الحفاظ على راحة القارئ فرض علي أن لا أسرد الأشخاص الذين يُضيء مسارُهم نسيج هذه الحكاية إلا بالأسماء التي عُرفوا بها. إن هذا الاختيار اعتباطي وغير عادل في الآن نفسه بالنسبة إلى أولئك الذين يستحقون أن يروا هاهنا أسماءهم مذكورة وإخلاصهم مشكورا. وأدعو القارئ غير المطلع إلى مراجعة لائحة الأسماء الموجودة في آخر الكتاب والتي تضم سيرة مقتضبة لأصحابها.

إن الصفحات التالية هي ثمرة خمس سنوات من البحث أمضيتها في إعادة تركيب بقايا تاريخٍ أُنقِذ من النسيان.

المهدي بنونة

خريطة المغرب

طنجة
تطوان
الحسيمة
الناضور
العرائش
وجدة
القنيطرة
تازة
الرباط-سلا
فاس
الدار البيضاء الكبرى
بولمان
الجديدة
خنيفرة
سطات
ميدلت
فكيك
أسفي
الراشدية
أزلال
الصويرة
مراكش
ورزازات
اكادير
تارودانت
زاكورة
تزنيت
طاطا
كلميم
طانطان
أسا الزاك
العيون
السمارة
بوجدور
الداخلة

0 100 200
Kilometres

افران
بولمان
خنيفرة
ميدلت
فكيك
الراشدية
كلميمة
تنغير
زاكورة

فجر الأبطال وانطلاقة جيل (1953 – 1963)

لأن المهدي بن بركة جاب جميع نواحي البلاد، فإنه قد لاحظ الأمرَ البديهي: النظامُ الملكي في المغرب تمتدحه الأغلبية الساحقة من المغاربة لا على أنه مؤسسة سياسية (وكيف لهم بذلك ما داموا محاصَرين حصارا شديدا خارج دوائر هذا النظام وكواليسه؟) وإنما لأن هذا النظام رمز بصفته معطى أساسيا للهوية الوطنية وملجأ يحمي من التدخل الأجنبي الذي كان ما زال ممكنا. لهذه الأسباب ولأسباب أخرى كذلك، فإن النظام الملكي مقدس تقديسا يكاد يكون لا عقلانيا، إذ أسبغت عليه خصالٌ تتعدى الخصال البشرية وقدراتٌ خارقة.

والمهدي بن بركة، إلى جانب الحسن الثاني، هو الوحيد بكل احتمال الذي عرف معرفة واضحة الدوافعَ الاجتماعية والإيديولوجية لهذا الاندفاع الشعبي وفهِمَها. ولئن اجتهد الحسن الثاني في جعل هذه الدوافع أداةً سخرها ليؤسس عليها استمرار الملكية العلوية، فإن المهدي بن بركة، من جانبه، قد عمل على إصلاح تلك الدوافع ليمتلك المغربُ مشروعَ تنمية.

إن طبيعة هذه المنافسة، والتي كانت نهايتها في غير صالح ابن بركة بل والتي أدت إلى تصفيته الجسدية، تُفسر لماذا فضل العديد من المثقفين والمهندسين، كما هو شأن محمود، خَيار حمل السلاح. ومنذ ذلك الحين، غدت نهاية الستينيات هي النهاية التي رَكِبَت فيها الطبقةُ المثقفة المغربية، مستوحية ذلك من شي غيفارا، طريقَ المقاومة انطلاقا من الجبال.

ولكن كان بعض القدماء قد مهدوا لهم هذه الطريق من قبل. إنهم أولئك الذين ضحوا بشبابهم في صفوف جيش التحرير الوطني خلال الخمسينيات. هذا الجيش الذي يبقى هو كذلك مغامرة مجهولة، والذين خيب آمالَ رجاله استقلالٌ نادَوا به وتمنوه. وبالفعل فمنذ الشهور الأولى، كانوا يشهدون عملاء الاستعمار الذين كافحوا ضدهم، يُعاد لهم الاعتبار ليصبحوا محط عناية وامتياز. شهدوا نظاما عتيقا يعود مرة أخرى وكله استعلاء، يلعب لعبة الاستعمار – الجديد. ولربما على وجه الخصوص، لا يعير

أدنى اعتبار للآمال والوعود التي كافحوا من أجلها: ليست حرية شعبهم فحسب، بل وكذلك العيش الأفضل وما يتحقق من أرباح ضرورية في مجالات التنمية والتعليم والصحة، والانعتاق من العصور الوسطى التي، وبعد أربعين سنة، لا تكاد تنجو منها جبالُ المغرب وسهولُه. يوضح هذا الفصل الأول مسار هذين النمطين من الناس وتلاقيهما، النمري وسيدي حمو فيما يخص قدماء المقاومين، ومحمد بنونة، المعروف بمحمود، ودهكون فيما يخص النمط الثاني المتكون من الطلبة الثوريين الشباب.

النمري، المتمرد

قد يحدث أن يزعزع ويحرك رجالٌ مجرى التاريخ. تحدوهم روح الكرامة وكذا الإحساس بالواجب الذي يجب القيام به فيجابهون قوىً أكبر من قوتهم. والنمري، المعروف بإبراهيم التيزنيتي، كان من بين هؤلاء. كانت هيأته الجسمية تدل على أن الرجل قد حنكته سنواتٌ من المتاعب والصعاب تجاوزها بفضل قوة قناعاته وحدها. كانت نظرته الوقورة تُوحي بأنه من الزهاد الناسكين. كان هادئا هدوءً داخلياً لا يعرفه إلا أولئك الذين عاهدوا على أن يهبوا حياتهم لتحقيق مثالٍ أعلى. وحتى إن لم تسعفه الأحداث، فإنه كان يتابع دون هوادة الطريق التي سطّرها له إيمانه بعدالة القضية التي يدافع عنها. لقد كان فعلا يملك الصفات والخصال التي يُصنَع منها الأبطال. هؤلاء الأبطال الذين يعمل الجبناءُ والطغاة على أن يطويهم النسيان.

ويُعَبر رفيقُه في السلاح، ادريس بوبكر، الذي سوف يصبح عقيدا (كولونيل) في الجيش المغربي، بعباراته الخاصة عن إعجابه بالنمري: "لن تلد امرأةٌ أبدا رجلا من هاته الطينة".

ودق الاستقلالُ سنة 1956 ناقوسَ السلم عند الأبطال، بدايةً من أولئك الذين سارعوا أن يستبدلوا وطنيتهم بامتيازات مادية. كان النمري في ذلك الحين، ضمن أطر جيش التحرير الوطني، من بين أولئك الذين كانوا يضعون كامل ثقتهم في عبد الكريم الخطابي وعلال الفاسي، الرمزان القويان للمقاومة ضد الاستعمار. كان شعارهم هو الشعار الذي أطلقاه من منفاهما بالقاهرة: "طالما أن الجزائر ليست حرة، فإننا لن نستعرض في الرباط".

لم يكن النمري مكافحا التحق مؤخرا بالمقاومة قد يرفض لهذا السبب سِلما يعتبره سابقا لأوانه لأن حماسه واندفاعه ما زالا في طور النشوء والابتداء. وإنما كان النمري من بين المقاومين الأوائل الذين التحقوا بالمنطقة التي تراقبها إسبانيا بشمال المغرب، ليلتحق بعد ذلك بمعسكرات التدريب التي سوف تتخرج منها الفرق العسكرية والتي سوف تصبح فيما بعد جيش التحرير الوطني. وهو نواة حركة مسلحة وُلِدت

في قلب الجبال بعد أن انتشرت الاعتقالات البوليسية في المدن. اعتقالات وضعت العديد من "الإرهابيين" وراء القضبان[1]. لقد وُلدت هذه الحركة لترفع ثانيةً مشعل كفاح شَلت حركَتَه عملياتُ اعتقالِ أهم القادة الوطنيين ونفيُهم . وهذه الحركة إنما كانتً تعمل على ملء فراغ سياسيٍ خلفته فرنسا وراءها.

انضاف إلى النمري وأصحابه عددٌ من الطلبة الذين كانوا مستقرين بالخارج. وهم مثقفون شباب. تخرجوا حديثا من جامعات أوروبية. فغدت مهمتهم هي أن يصبحوا أطر المقاومة في الجبال. من بين هؤلاء المكافحين الأوائل. سوف يؤثر البعض على مجرى السنوات الموالية. وخاصة منهم عبد الرحمن اليوسفي. الذي سوف يصبح فيما بعد وزيرا أولا.

كان الفدائيون في ذلك الحين يعملون تحت قيادةٍ عامةٍ مغاربية يتواجد بها جنباً إلى جنب جزائريون ومغاربة. وبالفعل فإن ما ينادي بِه قادةً جيش التحرير الوطني هو التحرير الشامل للبلاد المغاربية. فقد كانوا. وانطلاقا من معسكراتهم المتخندقة يقودون عمليات عديدة لحرب العصابات ساهمت في تسريع انسحاب الوصاية الاستعمارية الفرنسية.

سوف يكون طريق تحقيق السيادة الوطنية طريقا أطول. وعلى وجه الخصوص طريقا عرف إهدار دماء كثيرة في صفوف رفاق الكفاح الجزائريين. فالحكومة الفرنسية تراجعت جزئيا فيِ تونس والمغرب حتىٍ تتفرغ أكثر للدفاع عن مصالحها في الجزائر. وسوف يفتح تحويلُ الانتباه هذا فجوةً في صرح التضامن المغاربي الذي كان ينادي به جيش التحرير الوطني. إن السلطة. في جوهرها. ثمرة صراعات قوية وليست إرثا يُمنح عن طواعية. أيا كانت شرعية هذه السلطة. وهكذا خلقَ صنيعُ فرنسا التاريخي مفارقةً لها دلالاتها. فلئن كانت أدغال جيش التحرير الوطني بؤرة تلاقي وتكوين أجيال مختلفة من القادة الجزائريين (من بوضياف إلى بوتفليقة مرورا ببومدين). فإنها أنتجت كذلك أشد معارضي النظام الملكي المغربي عزما. وقد كان النمري من بينهم. إنه من أولئك الرجال الذين لا يعلنون انهزامهم قبل أن تنفذ آخر نبالهم. بقي الرجل إذن يؤمن بتحرير شامل للبلاد المغاربية المتحدة. ألَم يتعاهد قادة جيش التحرير الوطني. الجزائريون والمغاربة. المجتمعون بمدريد في شهر دجنبر من سنة 1956 . على مواصلة الكفاح حتى تحرير آخر شبر من البلاد المغاربية. مستجيبين في ذلك لنداء عبد الكريم الخطابي وعلال الفاسي؟

---

1 ظهرت هذه الحركة في الحقيقة. والأمر قد تبدو فيه مفارقة ولكن في الظاهر فقط. في شهر أكتوبر من سنة 1955 إبان مفاوضات إيكس ليبان. وتنّحي ابن عرفة. وهو السلطان الذي فرضته فرنسا في شهر غشت من سنة 1953 . وعودة محمد الخامس المبرمجة (أنظر الترتيب الزمني للأحداث في آخر الكتاب). ترتبط هذه الحركة بكل تأكيد. وهو الأمر الذي بات اليوم معروفا واضحا بعد أن مر زمن على تلك الأحداث. بالكفاح الجزائري الذي سيصبح ضمنيا. وحتى استقلال البلد المجاور. وترتبط كذلك بالكفاح التقدمي من أجل اشتراكية المغرب المستقل.

ولكن، وكما هو شأن النمري، سرعان ما خابت آمال أولئك الذين كانوا لا يزالون يؤمنون بالأمر. إذ إن ما كان يُراد له أن يكون كفاحا من أجل التحرير الشامل تحول إلى صراع في المواقع الخلفية. وفي شهر يوليوز من السنة نفسها، تراجع جيش التحرير الوطني. فقد هزم الجنودُ الفرنسيون الفرقَ التي كان يقودها إبراهيم المنوزي (مَاوُ داخل صفوف الفدائيين) في عين الشعير بتافيلالت. ووضع بالحاج بوبو، وهو قائدٌ آخر لجيش التحرير الوطني، السلاحَ بفيكيك وأرفود على تخوم الجنوب الشرقي المغربي.

وجد النمري إذن نفسه داخل آخر رقعة محاصرة من كل الجوانب. فتوجه نحو الجنوب واستقر بكوليمين. ولأن النمري كان أصله من تيزنيت، وهي قرية توجد على تخوم الصحراء، فقد بات مرتاحا في هذه البلدة الصحراوية. إن شساعة الصحراء اللامتناهية، والتي تعني عند البعض القفار والضياع، تعني عند النمري الأرض النافحة بالكفاح التحريري، ذلك الكفاح الذي سرعان ما تم التخلي عنه في المدن وجبال الشمال. ففي هذه البقاع لا مكان للأمور التافهة، وحدها الأمور الأساسية تهم. والدليل المرشد على الطريق هو السكينة الداخلية والصرامة، إذ بهما يمكن التعرف على سر تلال الرمال والسرابات. لقد كان النمري ينتمي بروحه إلى البدو الرحل، ومن ثمة فهو لا يعرف من الحدود إلا تلك التي تتراءى في الأفق، ولا من الحدود [الذاتية] إلا تلك التي تحد إرادته. فقد انتعشت فيه بسالة المحارب بفضل هذه الحرية التي استعادها من جديد. زاد تمردا وبات يشعر أن بإمكانه أن يقف في وجه العواصف وجيوش الاستعمار على حد سواء. فأصبحت إذن كوليمين آخر معقل لجأ إليه الرجال الذين لا يمكن قهرهم. من بينهم العديد من رموز جيش التحرير الوطني الذين يَدينُ لهم البلد باستقلاله: بنحمو وادريس بوبكر والجبلي وبنسعيد.

لم يتنازل النمري ورفاقه في شيء عن الحرية التي دفعوا ثمنها غاليا، فنصبوا أنفسهم أمناء على كفاح لم يكتمل بعد. ولكنه كان كفاحا وحيدا منعزلا. ذلك أنه، وإبان الفوضى التي تتلو الهزيمة، استسلم العديد من المقاتلين لوعود السلطة الجديدة التي انبثقت عن استقلال ممنوح. كل قائد من قادة جيش التحرير الوطني الذي يؤدي البيعة ومعه على الأقل مائة من مناصريه يُجازى برتبة ضابط وبراتب [شهري]. وهكذا ارتدى آلاف الرجال في ظرف بضعة شهور بذلَةَ القوات المسلحة الملَكية التي أوجدت على وجه السرعة غداة عودة الملك إلى العرش.

أوكلت رئاسة نواة هذه القوات المسلحة التي يؤطرها مكونون فرنسيون، إلى الأمير الحسن. وفي يوم 14 ماي من سنة 1956، استعْرَض أمام منصة الملك محمد الخامس والأمير مولاي الحسن، الذي عُين رئيسا للأركان العامة، حوالي خمسة آلاف جندي من رجال الجبال سابقا وهم يرتدون بذلتهم الجديدة، إلى جانب قناصين سابقين. يقود الجيش، وليس هذا أقل الأمور مفارقة، ضباطٌ من الجيش الاستعماري على رأسهم

محمد أوفقير، الخادم الوفي والمتفاني لسلطة الحماية الفرنسية. ففرنسا ترى فيه الحارسَ الساهرَ على دوام مصالحها في مغرب ما بعد الاستقلال، والنظام الملكي كان يرى فيه خادمَه منذ الوهلة الأولى.

سَيُؤثر هذا التحولُ تأثيراً عميقا على فكرِ النمري. إذ بالنسبة إليه، فإن تراجع إخوانه في السلاح قد قادهم، بمكر ولكن دون رجعة، إلى التعاهد مع عدو الأمس: إنه تصالح يجري ضد طبيعة مجرى الأمور[2]. وتدريجيا شهِد النمري نداءَ الاستسلام إلى القصر يتحول إلى فخ. فرفاقه الذين تخلوا عن جيشهم ليلتحقوا بالقوات المسلحة الملكية مقابل أجر زهيد، قد أصبحوا هم أنفسهم الذين يحفرون قبرَ حلمهم بالحرية. فرفاقهم بالأمس، الذين بقوا على نهجهم، إن لم يكن لهم من الذكاء ما يدفعهم إلى ركوب طريق النسيان، فإنهم يصبحون مطارَدين وتتم تصفيتهم بلا رحمة. وسرعان ما تضاءل عدد الرجال الذين يودون التنديد بالمؤامرة الجارية وفضحها. لقد غطى حجابُ الاتفاق المتواطئ الفجرَ الجديد الذي كافح من أجله النمري والذي لم ير منه سوى أولى بداياته.

لقد بات التراجع بالنسبة إليه مرادفا وإلى الأبد للتخلي، للموت البطيء. إنه إحساسٌ جعل منه وارثَ قضيةٍ يجب الدفاع عنها، قضيةُ حرية غلَّطها استقلالٌ زائف. هذا الوعي سوف يحيي في النِّمري تفانٍ من أجل الحرية لا ينضب، تَحَوّل بعد ذلك إلى تطلع إلى المطلق. في هذه البقاع الصحراوية، اكتشف النمري، رغما عنه أو يكاد، في نفسه موهبة الخطيب الواعظ لساكنة غير متحمسة إيديولوجيا. ولئن كان سوف يبقى هناك مقاتل واحدٌ سيرفض أن يُبايِع الوضع الجديد، فسيكون هو النمري. إذ بدأ بالنسبة إليه كفاحٌ جديد.

سيدي حمو، متمرد الأطلس

وراء مظهر سيدي حمو الهادئ والمهذب يختفي رئيسُ قبيلة قوي صارم. أصله من تنغير، وهي قرية صغيرة على مضيق شلالات التودرا. وقد تميز سيدي حمو بعمليات مسلحة ضد المستعمر الفرنسي، وهي عمليات ساهمت في نشر إشعاع سلطته المعنوية في الأطلس الكبير بكامله.

وجههُ النحيل ونظرتُهُ الحادة التي تتناقض مع كونه رجلا قليل الكلام تسبغان عليه معالم رجل ذي أصولٍ نبيلة. ومع ذلك فإن لقب "سيدي" الذي يسبق اسمه، المرادف لكلمة "سير" عند الأنجليز، لا يعبر سوى عن احترامٍ فرضه الرجلُ على

2 إن إعادة ترتيب رجال جيش التحرير الوطني لم تتم داخل القوات المسلحة الملكية فحسب، أي داخل الجيش، بل وكذلك داخل القوات المساعدة للمخزن المتحرك، الذي وُضع تحت سلطة وزير الداخلية، وفي الأمن المقرب من الملك، المنبثق عن القصر، وفي فرق البوليس الخاصة.

محيطه. وليس عن بقايا مجد قد ولى. سيدي حمو ليس من الأعيان البارونات. إنه رجلٌ عصري. وهاهو أحد رفاقه في الدرب يتذكر: "ابتداءً من سنة 1959، كَوَّنَ سيدي حمو شبكة من الخلايا السرية، معظمها كانت نشيطةً خلال أيام الاستعمار". ويمكن أن يُلخَص سببُ هذه التعبئة الجديدة في جملة واحدة: "إن القمع لم يعمل سوى على استبدال الشاشية بالطربوش العسكري[3]." إنَّ هذه الاستعدادات الناجمة عن تسريح الجيوش وتقهقرهم، تدل على حالة المعنويات في تلك الحقبة.

يتقاسم سيدي حمو والآلاف من المغاربة الإحساسَ بالمرارة. إنهم يجترون آمالهم التي غَدَر بها استقلالٌ كان الحصول عليه من السهولة بحيث لا يمكنه أن يكون استقلالا حقيقيا. كان سيدي حمو يشهد، من على جبال الأطلس التي وُلد بها، وحيث تُستَقبَل عموما قرارات الرباط استقبالا يلفه الشك والريبة. كان الرجل يشهد، وكله حسرة وألم، نَزعَ الحقوق والممتلكات الذي صاحب رجوعَ محمد الخامس إلى العرش. وبالفعل فقد كان من العسير تعداد المتعاونين مع المستعمِر المشنع بهم ومقاومي اللحظات الأخيرة الذين شُرفوا ورُقوا. بل إن عددهم كان يتزايد كلما تزايدت إزاحة، بل تصفيةُ، الوطنيين الصادقين.

لقد زعزع هذا الواقع غير المنتظر الكثيرَ من القناعات. وبالنسبة إلى سيدي حمو، بات للمقاومة السرية سببٌ آخر لكي تكون. فمن حركة للتحرير، أصبحت، بالنسبة إليه، سبيلاً من أجل الاستمرار في العيش والحياة. لقدً دفعه تمسكُه بالحرية، تلك الحرية التي جعلته يلتحق بصفوف المقاومة، إلى ملاقاة رجُلين تُوَحدهما إرادةٌ مشتركة لتشكيل جبهة تقف في وجه الأمير مولاي الحسن وأوفقير: والرجلان هما المهدي بن بركة والفقيه البصري.

شارك المهدي بن بركة مع عبد الرحيم بوعبيد في مفاوضات إكس ليبان في شهر غشت من سنة 1955، ولهذا فهو من بين أهم الصانعين لعودة محمد الخامس إلى عرشه. ولكن، وحول طاولة المفاوضات، كان المهدي بن بركة وعبد الرحيم بوعبيد على رأس الطليعة الشابة لحزب الاستقلال. وقد قادتهما هذه الميزة، تدريجيا ومع تزايد الصراعات والاختلافات، إلى أن يعبرا عن كونهما يختلفان عن الآخرين.

فلم تكد تمر أربع سنوات حتى أنشآ معا، يوم 6 شتنبر من سنة 1959، الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، التحق بهما محمد البصري، الملقب بالفقيه البصري. ورغم أنه يصغر عبد الرحيم بوعبيد والمهدي بن بركة بعشر سنوات، فإن ماضيه في المقاومة قد جعله من الكبار القدماء. ولأن روحه كانت روحَ المعارض ، فإنه رأى في معاهدة إيكس ليبان خيانةً. إنها في رأيه معاهدة تمت بين السياسيين من وراء ظهر المقاومين لتنزع من أيديهم الأسلحة التي كان من المفروض أن تقودهم إلى النصر الشامل.

---

3 حوار للمؤلف مع توركي عدي.

تستمد هذه الصرامة جذورها من كفاح ذي نَفَسٍ طويل لا يمكنه [بأي حال] أن يقنع بنصف انتصار.

الفقيه البصري مقاوم منذ اللحظة الأولى. درس بجامعة ابن يوسف بمراكش. في تلك الفترة، كانت مراكش تخضع لسلطة الباشا الكلاوي، وهو إقطاعي متسلط لم يكن يعرف سوى سبيل واحد يجعل النظام الاستعماري يسود. إنه الطغيان. وهكذا، ولربما من بين كل المدن المغربية، كانت مراكش هي المدينة التي اختمرت فيها أكثر روحُ المقاومة. ومن ثمة فليس من قبيل الصدفة أن يتعارف فيها الشاب محمد البصري مع حلقة صغيرة من الشباب الرافض المعارض المتعطش إلى الحرية، الذين كان من بينهم مَن سيصبحون لاحقا قادة جيش التحرير: بوراس وابن سعيد والجبلي الذين سيتواجدون جميعهم غداة الاستقلال إلى جانب النمري في معسكر مَن لا يمكن قهرهم. وبعد أن أصبح الرجلُ معروفا بالفقيه البصري، زاد من تألقه، بعد سنوات من ذلك، في شهر شتنبر من سنة 1955، تزعمُه هروباً جماعياً من السجن المركزي بالقنيطرة، فاستطاع زهاء الثلاثين سجينا من المقاومين، ومنهم عدد كبير كان يتهدده الحكم بالإعدام، أن يستعيدوا حريتهم. فساهم هذا العمل الباهر في أن يجعل منه أحد رموز المقاومة المسلحة.

وأما بالنسبة إلى المهدي بن بركة، فإن الحل المسلح قد أخذ يفرض نفسه تدريجيا على أنه آخر الدواء.

وحتى ذلك الحين، كان الزعماء السياسيون، كما كان شأن القصر الملكي، قد استفادوا من توجيه الرغبة في الانتقام من الشبكات المسلحة الرافضة للنظام الجديد نحو مساندة لوجستيكية للثورة الجزائرية. ولكن ومنذ أن أخذ النظام الملكي في ترميم السلطة ترميما كاملا، وهو الترميم الذي يجري عكس أهدافهم، ضاعف رجال السياسة من النداءات الموجهة إلى جيش التحرير الوطني يدعونه إلى تسلم مهامه ثانية.

وتتكون نواة هذه المنظمة شبه العسكرية من مقاومين تجمعهم، كما هو شأن سيدي حمو، كراهية النظام أكثر مما يجمعهم الإيمان بالمصداقية الاشتراكية لحزب ابن بركة. وأما مسألة أن يتقلد متعاونون سابقون مع الحماية الفرنسية مناصبَ حساسة في الإدارة الجديدة، وخاصة في العمالات، فإنها زادت سيدي حمو قناعةً بأنْ لا يتراخى في حذره: ذلك أنه شعر بالخيانة. ووجد استنكاره المعنوي صدى ومساندةً داخل محيط ابن بركة الذي كان يرغب في نسيان الماضي وتجاوزه. واقتنع المهدي بن بركة بأن السلطة باتت رهانا يمكن الفوز به ولو بالسلاح إن اقتضى الأمر. فقد كان يعتقد بأن وسيلة تحقيق هذا الهدف تكمن في عناصر جيش التحرير الوطني الذين يساندونه في قضيته. هل هذا هراءٌ محض أم تغيير حقيقي في الاستراتيجية؟ ففي

بوادر الاستقلال المضطربة. لم يكن هذا التوافق محسوسا ملموسا في إطار عملٍ متفق عليه. فتعددت المقاربات قبل أن تظهر علامات تحقيقها. لن تُعدَم الفرص: مخابئ السلاح ولقاءات سرية بين ضباط جيش التحرير الوطني وترحيل مناضلين مطارَدين إلى الجزائر. وهاهو أحد الأطراف يُسر إلَي بعد مرور عقود عن ذلك: "كنا قد أعددنا عدة مخازن سرية للسلاح في فيكيك وأرفود وكلميمة والريصاني وبوذنيب."[4]

وبينما سيدي حمو ينتظر وصول نداء تأخر، وهو على أهبة الاستعداد، أخذ ينظم صفوفه. إذ اكتسب مساندة عددٍ مهم من المقاومين السابقين، مساندة ضمنية أو صريحة؛ وأخذت سلطته، ولو أنها سلطة غير رسمية، تتقوى وتتعزز في المنطقة. وهو الأمر الذي سيعلمه القائد الممتاز الفلكي (رجل سلطة) وعلى حسابه الخاص.

وخلال الانتخابات التشريعية لسنة 1963، انتُزِع من سيدي حمو نصرٌ انتخابي محقق، إذ تم تزويرُ الاقتراع وسَجنُ المناصرين. وسيدي حمو، مرشح الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، الذي خدَعَه القائد الممتاز، هو كذلك شيخ لا ينصاع بسهولة لأوامر السلطة المركزية. فنَصَبَ كمينا للمحتال، ولكنه فَشَل. وسوف يُحكَم غيابيا على سيدي حمو، وهو في حالة فرار، بالسجن عشرين سنة. ورغم فشل هذه الواقعة المسلحة فإنها ساهمت، وهنا المفارقة، في تعزيز هالته وإشعاعه. ففي هذه المنطقة البعيدة المعزولة، الغيورة على خصائصها، كان كل تحد للسلطة المركزية يُستقبل في الغالب على أنه شهادة وفاء للقيم القَبَلية. إنه حادث عادي في نظر العاصمة، ولكن، وفي أعالي الأطلس، غذى الحادثُ الذاكرةَ وأثر في الخيال. إن ما يتميز به سيدي حمو دون سواه، وهو الأمر الذي يعكس العمق العميق لقَدَره، يمكن أن نقرأه في هذا العمل الذي كان يحدوه هَم الحد من ضغط الحياة اليومية على الساكنة المحلية، وهي حياة يومية بقيت هي نفسها دون تغيير.

تسربٌ إلى جهاز الدولة

إن كان صدى تحديات السلطة المركزية واسعا وآثار هذه التحديات وعواقبها غيرَ كبيرة . فقد كان تجنيد مقاومين سابقين أمرا خطيرا. ويحتفظ ساعة، واسمه الحقيقي محمد بن عبد الحق بن عمارة، والتحق بالمقاومة سنة 1953، بهذه اللحظات حية في ذاكرته : "لقد ساهمتُ في الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي حتى سنة 1956 . كنت أسَير خليةً وأحمل اسما مستعارا: عبد الله الخضار. كان تنظيمُنا يعتمد بنيةً هرمية: كل خلية تضم أربعة أعضاء، يترأس كل واحد من هؤلاء الأعضاء بدوره خليةً من أربعة أعضاء، وهكذا دواليك. على رأس المنظمة كان يوجد بوراس، المعروف بالفقيه الفيكيكي، المعروف

4 حوار للمؤلف مع محمد بن عمارة، المعروف بساعة.

ب" الأعور". وكانت أجمل عملياتنا هي الهجوم على قطار في طريقه إلى كولومب بشار سنة 1954 " [5]. لقد شحذت هذه السنواتُ التي أمضاها ساعة في المقاومة فكرَه. فقد كان الشك والريبة لا يفارقانه أبدا. ومن ثمة فإنه يتكيف مع كل الأوضاع بمجرد ما يبقى له هامش يمكنه من المراوغة.

وبعد سنتين، كان ساعة قد مر كما هو شأن رفاق آخرين له في الكفاح، بتجربة هدنة غير مكتملة. تلك الهدنة التي تعرفها عادة الأيامُ المضطربة التي تتلو الاستقلال: "لقد ألَح بالحاج بوبو، الذي كان يمثل القيادة العليا لجيش التحرير الوطني بفيكيك، كي ألتحق بالقوات المسلحة الملكية". ويتذكر أحد المقاومين في الجبال، والذي كان عمره 17 سنة عندما ساهم إلى جانبه في عملية قطار كولومب بشار قائلا: "كنت كاتب القيادة العليا لبالحاج بوبو بفيكيك بعد أن اشتغلت تحت أوامره بالناضور سنة 1955. وبعد نداء ولي العهد، ذهبنا على رأس مفرزة من الجنود إلى القصر بالرباط لنؤدي البيعة" [6]. ولكن ساعة تردد : "لقد تشاورت مع الفقيه البصري، قائد التنظيم السري، ونصحني بأن أرضخ للأوامر". بيد أن هذه النصيحة، الصادرة عن رمز من رموز القيادة له مكانته وسلطته في نظر ساعة، كانت مُرفَقةً بكلمة "لكن". ذلك أن ساعة، إن أصبح القائد المساعد (من رجال السلطة) في كلميمة (أي ممثل وزارة الداخلية على مستوى المقاطعة)، فإن تعيينَه هذا داخلَ جهاز الدولة لم يغير في شيء من روحِه المتمردة. فقد بقي ضابطَ جيش التحرير الوطني، المتخصص في العمليات الليلية. وهكذا استمرت العمليات السرية في المقاطعة التابعة له.

اختبار القوة

زاد من قوة الروابط بين المهدي بن بركة والفقيه البصري من جهة، وجيش التحرير الوطني من جهة أخرى، بقاءُ جيش الاستعمار على التراب المغربي، وبمباركة ضمنية من القصر الملكي، الذي أخذ يؤجل ثم يؤجل الاصلاحات. وعند بداية خريف سنة 1957، تضاعفت اللقاءات بين المهدي بن بركة والفقيه البصري والقيادة العليا لجيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. ويتذكر ساعة أن "المهدي بن بركة كان يلتقي بقادة جيش التحرير الوطني بكلميمة رفقة الفقيه البصري" [7]. "وبما أنني كنت مساعد القائد، فإن المهدي بن بركة كان يأتي إلى بيتي ليلا". وهكذا كان المهدي بن بركة والفقيه البصري يلتقيان في ذلك البيت

---

5 حوار للمؤلف مع محمد بن عمارة، المعروف بساعة.
6 حوار للمؤلف مع مصطفى العماري.
7 حوار للمؤلف مع محمد بن عمارة، المعروف بساعة.

بصديقين من أصدقاء الدراسة بجامعة مولاي يوسف، وهما بنسعيد وبوراس. وكانوا جميعهم يعملون على لَــمِّ شمل عناصر جيش التحرير الوطني المشتتين ليتمركزوا في منطقة الجنوب. وهكذا تشكلت قاعدة عسكرية تتمحور حول تجمعين منفصلين اثنين. يوجد التجمع الأول في الصحراء الشرقية تحت قيادة بوراس ومقر قيادته العليا بأرفود. والثاني، يوجد بكوليمين، تحت قيادة عليا تتكون من بنحمو وادريس بوبكر والجبلي وبنسعيد والنمري.

وبين شهري غشت من سنة 1956 ويناير من سنة 1957، زادت فرق جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب من ضغطها على المواقع العسكرية الفرنسية الموجودة في جنوب المغرب. لقد كان هذا التواجد حيويا بالنسبة إلى فرنسا من حيث الجانب الاستراتيجي . ففرنسا كانت تعمل على أن تستمر مصالحها داخل التراب الجزائري. إلا أنه تواجدٌ لم يكن يروق لجيش التحرير الوطني في المغرب في هذه الفترة الانتقالية نحو الاستقلال. وقد نجحت عناصر جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب، رغم بعض الاصطدامات، في أن تستولي على قطار وأن تتحكم في منافذ العبور بين تندوف وفم لحسن.

وأخذ الالتحام الممكن بين جيشَي التحرير المغربي والجزائري يهدد مباشرة الساقية الحمراء. فشعرت فرنسا بخطر عمليات المناوشة التي كانت لا تلقى معارضةً عسكرية أو سياسية حقيقية.

كان جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب لا يخضع لمراقبة القصر الملكي، ولا يقبل من الأوامر إلا تلك التي تصدُر عن أعضاء مجلس المقاومة، حلفاء المهدي بن بركة. فوقع الاصطدام الأول عندما رفضت القيادة العليا لجيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب إطلاق سراح السجناء الأسبان، كما أمر بذلك الأمير مولاي الحسن، رغم أنه كان رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة الملكية، وبهذه الصفة، فإنه كان القائد الأعلى لكل القوات المسلحة المغربية. إنها الضربة التي زاد من وقعها أن الأمير الشاب لم يدخر جهدا لإخضاع جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. فقد كان هذا الجيش يفوق، وحتى سنة 1957، القوات المسلحة الملكية عددا وعتادا. ومن ثمة فإن هذا الجيش كان يُعتبر تهديدا محتملا لاستقرار العرش وبقائه. ولأن الدسائس، المتخفية بغطاء النزاعات القبلية، ولأن محاولات الإرشاء والتهديد لم تعط أي نتيجة، لجأ مولاي الحسن إلى وسيلة أخرى أكثر جذرية. ولأن النمري علم بالأمر في حينه، فقد استطاع إفشال محاولة لاغتيال بنسعيد وبنحمو. وتمت مفاجأة المتآمرين، وهم فرع من قبيلة زمور، بكوليمين عشية تنفيذ العملية. وتواصل زحف جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. ويوم 23 نونبر من سنة 1957، هاجمت قبيلةُ آيت باعمران مواقعَ إسبانية واستولت على إفني.

وفي اليوم نفسه، شن جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب هجوما واسعا على طانطان والسمارة ووادي الذهب والداخلة والعيون والساقية الحمراء. وسرعان ما امتد هجوم جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب من الصحراء الموجودة تحت الاستعمار الإسباني إلى موريتانيا حيث اصطدم رجال النمري وادريس بوبكر بالجنود "السينغاليين" التابعين للجيش الاستعماري الفرنسي[8].

عملية المسح والتنحية

شكل هذا الهجوم الجديد الذريعة المواتية لفرنسا وإسبانيا. فوحدتا قواتهما من أجل سحق جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب وقطع الطريق أمام كل محاولة لتوسيع العمليات تجاه معقليهما الاستعماريين الأخيرين: الجزائر ووادي الذهب[9]. وأطلقت فرنسا على العملية اسم عملية "المسح والتنحية". وسمتها إسبانيا "الإعصار".

وفي يناير من سنة 1958، بعث الأسبان 10000 رجل، وبعث الفرنسيون 6000 رجل إضافةً إلى الطيران من أجل إرغام جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب على مغادرة معاقله. لم تدم هذه الحملة، التي اختصرت مدتَها قسوةٌ وحشية، سوى خمسة عشر يوما. قصفت الطائرات القرى وأبادت الماشية التي كانت مصدر عيش الساكنة. ذلك أن فقدان قطيع من الماشية كان يقضي حتما على عائلة من البدو الرحل، وكأن هذه العائلة تعرضت إلى قصف مباشر بالقنابل. ولأن مقاتلي جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب أصبحوا معزولين ومحرومين من الموارد، لم يعد لهم بُد من التراجع. استسلم بعضهم في حين لاذ البعض الآخر بالسرية. واستطاع النمري أن يفلت مع زمرة قليلة من رجاله. وزكى هذا الإنجاز صيته وسمعته الناشئين على أنه متمرد.

لم يجد القصر، وهو المؤتمَن على استقلال البلاد بعد كفاح طويل، ما يجادل فيه: فقد أضعفت العملية جيش التحرير الوطني، وعززت صفوف القوات المسلحة الملكية وجهاز أمن النظام. وواصل وُصَات الاستعمار السابقون مهمتهم كـ"حُماة" للعرش. ولأن العرش أصبح قويا بفضل هذه الضمانة، فإنه وافق على عملية الهدنة هذه وساندها وهي الهدنة التي تدخل في إطار التقليد الاستعماري المحض. وجزاءً للأمير مولاي الحسن على تعاونه، تنازل فرانكو عن طرفاية، فدخلها الأمير مولاي الحسن في العاشر من أبريل من سنة 1958 على رأس فرقة من القوات المسلحة الملكية يقودها أوفقير.

---

8 أنظر في هذا الصدد شهادة محمد بنسعيد المنشورة في جريدة أنوال، أنوال، نونبر 91-أبريل 92.

9 وادي الذهب يشكل مع الساقية الحمراء الصحراء المغربية

وفي الدار البيضاء أخذ الفقيه البصري ينظم عودةَ رجاله ويُعيد تعداد قواته المشتتة. ولكن القصر عمل على طمأنة المهدي بن بركة ومَن يحيط به بواسطة عربون على حسن النية. وكأن القصر الملكي كان يريد أن يخفف من آثار عملية المسح والتنحية، فدعا المهدي بن بركة وأنصارَه إلى تشكيل حكومة. فكانت حكومة عبد الله إبراهيم [10]. وأما الذين لم يكونوا يشكلون في ذلك الحين سوى يسار حزب الاستقلال [11]، فسوف يحاولون أن يستفيدوا من العملية، ولكن كان الثمن هو تواطؤ سوف يقود إلى الهلاك لا محالة.

وعلى مدى لعبة التحالفات هاته، سوف يربط القصر مزيجا من التحالفات، إلا أنها تحالفات لم تكن بغير المسبوقة، مع الإقطاعيين القرويين من جهة، الذين انتابهم الرعب من الأفكار الحداثية التي يدعو إليها المهدي بن بركة، ومع القوى الاستعمارية التي تحدوها روح الانتقام [12].

ولأن محمد الخامس كان خبيرا بالتكتيك، فإنه عمِل على أن يَرضى عنه الإقطاعيون في البقاع النائية من البلد. ولأن هؤلاء الإقطاعيين تورطوا مع الحماية، فإنهم أصبحوا، غداة الاستقلال، أنصارَ وخدامَ الملك الجديد، الضامنُ الوحيد لثرواتهم التي حصلوا عليها في الغالب بالنهب والسلب. ومن ثمة باتت مشاريع الإصلاح الفلاحي التي تنادي بها الحكومة الجديدة تهددهم. لم يكن على القصر إذن أن يُشعل طويلا نار الأحقاد بالتلويح بالشياطين الذين نادوا بنزعة جهوية متقادمة والذين كان المهدي بن بركة بالضبط يريد أن يستبدلهم بجيلٍ جديد من "المواطنين-المناضلين" المعبئين لبناء دولة عصرية. وما أن طلب من "الإقطاعيين" ذلك حتى هبوا لتلبية النداء. اندفعوا وراء رغبتهم المناهضة للإصلاح، فأرادوا في شهر أكتوبر، إخراج جثمان عباس مسعدي، وهو رمز من رموز جيش التحرير الوطني دُفِن في فاس، من قبره كي يُدفَنَ في أجدير، التي كانت من قبل منطقة نفوذه.

لقد كان لهذا التصرف دلالات كثيرة وقوية. وبالفعل، فإن عباس مسعدي، أحد قادة جيش التحرير الوطني، مات مقتولا لأنه حاول الالتحاق بالقوات المسلحة الملكية بدعوة من القصر، واتُّهم المهدي بن بركة بأنه هو من أمر باغتياله. سنحت هذه الفرصة للفيوداليين القرويين بأن يتحَدوا زعيمَ "الحداثيين"، مع التذكير بولائهم للعرش. فتحولت مراسيم التأبين إلى استعراض ضخم ضد حزب الاستقلال دشنت تأسيس

---

10 سوف تستمر هذه الحكومة من دجنبر 1958 إلى ماي 1960 رغم صراع صامت ومستمر مع قوات المخزن التي يسيرها ولي العهد مولاي الحسن، والذي سيصبح فيما بعد الحسن الثاني. ولأن هذه الحكومة دشنت إصلاحات اقتصادية واجتماعية لا تدخل في إطار الخيار الليبرالي للحسن الثاني، فإنها طُرِدت يوم 20 ماي 1960، عشية الانتخابات الجماعية والبلدية الأولى، وستُعوض بحكومة يسيرها مباشرة الملك محمد الخامس، ونائب رئيسها هو إبنه.

11 لم يكن الاتحاد الوطني للقوات الشعبية قد أنشئ بعد.

12 نجد نفس التلاقح في قضية الكلاوي خلال الحماية أو في قضية عدي أو بيهي بعد الاستقلال. وأُحيلُ القراء الذين يودون تعميق هذه المسألة إلى تحليل ريمي ليفو الذي يوضح هذه الأمور، الفلاح المغربي، حامي العرش، صحافة المؤسسة الوطنية للعلوم الاجتماعية، 1985؛ وتحليل المعطي منجب، الملكية المغربية والصراع من أجل السلطة، منشورات لامارتان، 1992.

الحركة الشعبية، وهو الحزب الذي يدعو إلى الشرعية الملكية، الحزب الذي يميل بقوة إلى البادية والنزعة الجهوية والذي أصبح خصم حزب الاستقلال بمباركة من القصر. ولكن مراسيم التأبين تحولت إلى مظاهرة خرجت عن السيطرة. فأطلقت الشرطة الرصاص. وكانت هذه هي المناسبة التي استغلها ولي العهد ليقضي نهائيا على من تبقى من جيش التحرير الوطني المتمركزين في الريف والذين بقوا رافضين لسلطته. وأما فرنسا التي كانت تريد ثنيهم عن مد يد المساعدة إلى إخوانهم الجزائريين، فقد وضعت ربابنة طائراتها رهن إشارة الأمير الشاب. وبمساعدة ثلاثة من قدماء جيش الاستعمار، الملازم الأول الشلواطي والقبطان المذبوح والعقيد (الكولونيل) أوفقير، سحق الأميرُ مولاي الحسن التمردَ وسط الدماء وعلى رأس 20 000 جندي. الشهادات على وحشية هذه العملية فظيعةٌ مروعة. يقول الجنود بأن المرور من تجربة الرصاص والنار يخلق إحساسا قويا صادقا بالتضامن والتآزر، إحساس يدوم إلى الأبد. ولربما الأمر عكس هذا فيما يخص التجارب التي تبدأ بالدم: ذلك أن ضباط القوات المسلحة الثلاث الذين قادوا العمليات إلى جانب ذاك الذي أصبح ملكَ البلاد فيما بعد، قد اكتشفوا في أنفسهم، وعلى التوالي، موهبة الطامعين في قتل الملك.

اعتقال عبد الرحمن اليوسفي والفقيه البصري

كانت الضربةُ القاضية يوم 15 دجنبر من سنة 1959. إذ بعد ثلاثة أشهر بالكاد من إنشاء الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في شتنبر من سنة 1959، اعتُقل عبد الرحمن اليوسفي والفقيه البصري بتهمة جريمة صحافية. ففي جريدتهما، التحرير، تجرآ ولمحا إلى أن على الحكومة أن تكون مسؤولةً أمام الشعب. إنها جريمة المس بالذات الملكية[13]. وانكشفت نوايا الملك عندما وجد بنسعيد، وهو أحد أهم قادة جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب، نفسَه هو كذلك وراء القضبان. وكاد الجبلي، رفيقُه سابقا في جامعة ابن يوسف، ومن ثمة فقد كان مؤهلا سلفا ليصبح إطارا في جيش التحرير الوطني، كاد أن يُسجَن هو كذلك: "كنا عائدين من دورة تفتيشية في الجنوب عندما أوقفنا فجأة حاجزٌ أمني. وبما أنني كنت أقود السيارة، وأرتدي جلبابا بسيطا، فإنهم اعتقدوا بأنني السائق. وأما بنسعيد فقد اعتُقِل فورا ونُقِل إلى تزنيت."[14]

---

13 كان الهدف من هذا الاعتقال هو وضع حكومة عبد الله إبراهيم، التي لم تحرك ساكنا، في موقف حرج وبنبركة نفسَه نصح بضبط النفس. فقد كان يريد أن يتجنب أي خلاف عميق قبل انتخابات ماي 1960. وكان البصري، مدير الجريدة، واليوسفي، رئيس التحرير، قد أدانا كذلك في العدد نفسه تصرفات قوات الأمن وجرماها. ويوم 25 دجنبر من سنة 1959، أدينا بتهمة المس بالأمن الداخلي للدولة، والمس بشخص الملك وإثارة الشغب. ندد الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بالمؤامرة وحاول التفريق بين الملك وابنه. أطلِق سراحُ اليوسفي يوم 30 دجنبر، وأحيل البصري في حالة اعتقال خريفَ سنة 1960 على المحكمة الجهوية بالرباط بتهمة جريمة الصحافة والقذف. (لوموند، 25-5-1960).

14 حوار للمؤلف مع عبد السلام الجبلي.

لقد كانت النية المبيتة للقصر هي شل جيش التحرير الوطني، وذلك بمنع أهم قادته من الحركة. وهكذا فإن أحدا لم يندهش عندما تحدثت التهمة عن "مؤامرة على حياة ولي العهد". وهي رواية صك الاتهام التي جاءت بعد صدور حكم المحكمة الجهوية بالرباط والتي لم تحتفظ، فيما يخصها، سوى بتهمة "جريمة السب والقذف". أحس المهدي بن بركة بأن مجرى الأحداث بدأ يتغير، فلجأ إلى الخارج. وباتت الطريقُ سالكةً أمام القصر. فحل القصرُ جيشَ التحرير الوطني-منطقة الجنوب في شهر مارس من سنة 1960. وكذا، وفي إطار الحملة نفسها، طرد حكومةَ عبد الله إبراهيم يوم 20 ماي 1960. وكان عبد الله إبراهيم منذ توليه رئاسة تلك الحكومة ممنوعا من أن يزاول مهامه وسلطه بكاملها، وعَيّنَ بدله الأميرَ مولاي الحسن رئيسا للحكومة، والعقيدَ (الكولونيل) أوفقير مديرا للأمن الوطني. وبعد مرور تسعة أيام، أصبح بالإمكان إجراء الانتخابات البلدية والجماعية التي كانت قد تقررت من قبل في سياق آخر. ومع ذلك فسوف تُحقق نجاحا نسبيا، على الأقل في المجال الحضري، للاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

قليلون هم أولئك الذين سيفلتون من عملية الإخضاع. فساعة، المقاوم السري الذي أصبح خليفة قائد كلميمة (رجل سلطة)، استدعته وزارة الداخلية إلى الرباط في دجنبر من سنة 1960، واعتُقِل بدوره. ثم حُكِم عليه بالسجن أربع سنوات بتهمة حيازة أسلحة. وبعد مرور أشهر قليلة، عند بداية سنة 1961، اغتيل القبطان بالحاج بوبو الذي كان قد أرغم ساعة على الالتحاق بالجندية، بالدار البيضاء صحبة عميد للشرطة. وفي الوقت نفسه، وقعت عدة عمليات إطلاق النار بين فصائل متنافسة من المقاومة. فكانت نهايةً دمويةً لحلَقةٍ من العنف ذهبت بالعديد من قدماء الكفاح من أجل الاستقلال.

ولم يصمد سنة 1960أمام التفكيك التدريجي لجيش التحرير الوطني سوى شبكة من الخلايا بقيت مشتتة في البلد، شبكةٌ كان قادتها إما في السجن أو في المنفىً أو لجؤوا إلى السرية.

الناجون من تصفية جيش التحرير الوطني

بعد تصفية جيش التحرير الوطني، غادر الفرشي بيتَه في الدار البيضاء وأَوقَفَ نشاطَه الذي لم ينقطع منذ سنة 1953، وهو تزويد جيش التحرير الوطني بالسلاح. وفي سنة 1959، كان سن الفرشي ثلاثين سنة باتت غنيةً بالتجارب.

وُلد بمراكش، واسمه عمر الناصر، ثم أصبح اسمه، في عهد الحماية وبعد أن رحل إلى الدار البيضاء، الفرشي. كان هذا هو اسمه داخل المنظمة السرية، وهي مجموعة

كبيرة من الخلايا السرية داخل المدن. وكانت العمليات المسلحة التي تنفذها تزعزع تفوق المستعمر. كان الفرشي يعمل بَناءً في النهار ومقاوما في الليل. كان شعاره الذي أقسم عليه على المصحف هو: "الحرية أو الموت"؛ وكان هذا الشعار يربطه بعضوين آخرين من أعضاء خليته وهما: عمرو الكمدي، المعروف ب"الفيلسوف" في إشارة إلى تمدرس كان لا يزال حينها قليلا، وعبد الرحمن الصحراوي. سوف ينفذ الصحراوي ما أقسمَ عليه، فابتلع سُما حينما اعتُقِل وذلك حتى لا يُبَلِغ عن رفاقه تحت التعذيب.

ساهم الفرشي في بناء وتوسع مدينة الدار البيضاء التي كانت تعرف انطلاقةً اقتصادية قوية، ولهذا فهو يعرف قصة الأماكن لبنةً لبنة. كان خبيرا بالمخابئ، ولذلك فإنه أصبح ، إلى جانب رفيقَيه، نشيطا خطيرا خلق متاعب كثيرة لقوات الاحتلال الفرنسية. ما أنجزه الفرشي في مجال مخابئ الأسلحة وعمليات الهروب من السجن والعمليات المسلحة يكفي لصنع صك اتهام شبيه بذلك الذي حُكِم بموجبه على رفاقه بالإعدام. كان شباب الفرشي غنيا بالتجارب، فغدت له شخصيةً من فولاذ.

عندما التقيته أول مرة سنة 1996، اكتشفت فيه رجلا ما زال لغزه مكتملا: اقتصاد في الحركة ووجه ثابت لا يظهر عليه انفعال. جسمه الشبيه بأجسام المصارعين يوحي بقوة مطمَئنة. يداه القويتان شاهدتان في صمت على حياة ملؤها الإنجازات والآلام. نظرته فيها وقارُ أولئك الذين كانت حياتهم كفاحا طويلا، كفاحا عادلا بكل تأكيد، ولكنه كذلك كفاحٌ يترك إحساسا بالمرارة لضياع الأقارب والتضحيات، وكذا بسبب الخيانات.

جرى لقاؤنا بحي درب السلطان بالدار لبيضاء، في بيت بناه بيديه هو شخصيا. كان حديثه يتوقف بين الفينة والأخرى، لتتخلله لحظات تأمل. كان الفرشي حينها يتأمل في الفضاء أجزاءً من حياته، كانت لحظات يحث فيها فضولي ذاكرتَه على أن تعود إلى الماضي. وهكذا كانت تتراءى له أمام عينيه حلقاتٌ من حياة وهبها إلى كمالٍ لم يتحقق أبدا. فبالنسبة إلى هذا الرجل، المحتشم في التعبير عن عواطفه والمتعودِ على سرية العمل السري، لم يكن بمقدور أسئلتي إلا أن تكون في غير محلها. ولكن، وبعد تَأمل طويل، وكأنه يريد به أن يتجنب الصمت والسكوت، عزم الفرشي أخيرا على أن يخرج من صمته ويبوح بماضيه. كان يأخذ الوقت الكافي ويختار كلماته ويضبط إيقاع جُمله وذلك لأنه كان يرغب بكل وضوح في أن يُفهم كلامُه الفهمَ الحسن: "في بداية سنة 1960، استطاع خائن يُدعى عبد السلام قويدر أن يساعد على تفكيك عدة خلايا سرية بالدار البيضاء. اعتُقل اثنان من رفاقي، عبد الله زناغي وبلحمو الفخري، وحُكم عليهما بالإعدام ونُفذ فيهما الحَكم. كنت الوحيد الذي نجا من بين أعضاء خليتي . كما كَان شأن شيخ العرب الذي شَهد العديد من أصدقائه يسقطون في شباك الاعتقال[15]". كانت خلية الفرشي تنتمي إلى شبكة مكلفة بنقل مخزون من السلاح إلى الدار البيضاء،

15 حوار للمؤلف مع عمر الناصر، المعروف بالفرشي.

مخزونٌ من أسلحة جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب تم إنقاذه من الضياع؛ وكان النمري هو الذي زود بهذه الترسانة.

لما لجَأ النمري إلى السرية بعد أن تَم حَل قيادته، كان آخر عمل قام به هو تجميع هذا السلاح في انتظار أيام أفضل. ولكن العملية انتهت قبل أن تكتمل. فقد سبق الجميعَ أحدُ أولئك الذين كانوا سوف يتسلمون السلاح، وهو عامل بني ملال، البشير بن التهامي. كان الرجل قد التحق بالجبال في مارس من سنة 1960 صحبة زهاء المائة رجل، وذلك بعد أن اغتال عميدا للشرطة وهاجم ثلاثة مواقع، وأعلن ولاءه لحزب المهدي بنٍ بركة. فأمضت القوات المسلحة الملكية شهرا كاملا من أجل دفعه إلى مغادرة مكانه [16]. لقد كان عملا لم يبلغ هدفه، ألزم آخرَ قادة جيش التحرير الوطني السريين، ومنهم على وجه الخصوص الجبلي وابن سعيد والنمري، على الفرار دون أن يتركوا وراءهم أثرا.

وخلال مواجهة قاتلة لتبادل النار مع الشرطة بالدار البيضاء ، جُرح الفرشي في ساقه. فانتقل من مخبأٍ إلى آخر حتى وصل إلى شمال البلاد، ومن ثمة إلى إسبانيا، ففرنسا، فلبنان، ليصل في آخر المطاف، يوم 14 غشت من سنة 1961، إلى دمشق، التي غدت المرتع الجديد للناجين من بين أفراد جيش التحرير الوطني. التقى الفرشي هناك بالنمري أولا، والتقى كذلك بآخرين ممن لا تنكسر شوكتهم [17]. ومن منفى هؤلاء الرجال في سوريا، كانوا يتأملون من بعيد واقع الملكية المطلقة التي رُمت من جديد في مغربٍ انعتق جزئيا من وصاية المستعمر. أكيد أن المظاهر كانت خادعة بما فيه الكفاية على أي حال لتمنع عَمن تبقى من جيش التحرير الوطني مساندةً لامشروطة من قِبَل ساكنة كان بإمكانه، قبل أربع سنوات مضت، أن يفتخر بها.

وابتداءً من سنة 1962 ، أحيت الجزائرُ المستقلةُ الأملَ من جديد في أن تتناغم كلمة استقلال مع كلمة حرية. لقد أصبح بالإمكان الحلم ثانيةً. فرحل المنفيون في دمشق إلى الجزائر العاصمة زرافات زرافات. ألم يقسم هؤلاء على أن يكافحوا أجمعين حتى تتحرر البلاد المغاربية بأكملها؟

لقد استقبلت الجزائر في الستينيات العديد من الحركات الثورية الأفريقية والآسيوية والأمريكية اللاتينية، فأصبحت بذلك وفي الوقت نفسه مرتع الطموحات التحررية التي كانت تزعزع العالم الثالث ونموذجها. فقد مر بها أهم رموز الشعوب

---

16 اعتُقِل في 15 ابريل من سنة 1960، وحوكِم في ماي مع 81 متهماً آخرَ، وحُكِم عليه بالإعدام. وسوف يُعفى عنه ويُطلَقُ سراحه سنة 1981. وقد حدا حدوَه قُياد (من رجال المخزن) آخرون كما هو شأن ابن موسى سنة 1962 (أنظر الجرد التاريخي).

17 عمرو العطاوي (الذي وصل في الوقت نفسه الذي وصل فيه الفرشي)، وحسين خضار، وبوراس، وسعيد بونعيلات (واسمه الحقيقي محمد أجار)، وعباس سباطة (الذي سيصبح فيما بعد رئيس المجلس البلدي لمدينة الرباط). وقد كان هؤلاء الثلاثة الأخيرين قد حُكِم عليهم غيابيا بالإعدام لتورطهم في "المؤامرة المفترضة ضد ولي العهد".

التواقة إلى الحرية: الغاني أميلكار كبرال، والأرجنتيني تشي غيفارا، وآخرون كثيرون أقل شهرة.

ورحب قادة الجزائر التي استقلت حديثا بإخوة السلاح السابقين الذين جاؤوها يبحثون عما يبعث فيهم الأمل من جديد. كانت هذه هي طريقتهم في التعبير عن وفائهم للقناعات ذات النزعة "المغاربية"، تلك القناعات التي تولدت عن روابط التحمت أشد ما يكون الالتحام في أوج أيام المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي.

ولكن تعقّد العلاقات الجزائرية-المغربية كان يتجاوز التضامن الثوري وحده. وبالفعل فإن الحسن الثاني، الذي كان حينها ولي العهد ورئيس القيادة العليا للقوات المسلحة الملكية، أبان منذ سنة 1958 عن أنه يناصر القضية الجزائرية.

وعندما تقلد أحمد بنبلا زمام البلاد، وجد في الحسن الثاني حليفا موضوعيا منذ الساعة الأولى يَسْنِده في بحثه عن المشروعية والاستقرار. وبعد ثلاثة أسابيع من الإعلان عن الاستقلال، زار الحسن الثاني، الذي كان قد اعتلى العرش منذ زمن قليل، في أول زيارة رسمية له بصفته رئيس دولة، زار الجزائر المستقلة، وذلك دون أن تُوجه له الدعوة بذلك. لقد مكنه هذا التحول الدبلوماسي المفاجئ من استباق جمال عبد الناصر الذي كان رمز النداء إلى تنحية الاستعمار. ففرض الحسن الثاني نفسه على الجزائريين على أنه حليف الأمر الواقع. وحتى يزيد من أثر زيارته، أحضر معه ضمن أمتعته هديةً كان الغرض منها إثارة إعجاب مضيفيه: عشر مدرعات خفيفة. سوف يوظف هذا السلاح في تجهيز النواة الأولى من الجيش الوطني الجزائري، الذي كان حينها منقسما إلى عدة أحلاف متنافسة. ولأن الحسن الثاني كان على دراية جيدة بالأمور فإنه قد أصاب الهدف وبلغ المراد، لم يكن من بد لبنبلا إلا أن يصبح ممنونا شاكرا للملك. ذلك أن السلطة الجديدة بالجزائر العاصمة، كان عليها، وحتى تعزز نفوذها، أن تضع حدا لعمل المجموعات المسلحة المنافسة، كما فعلت الملكية المغربية عندما قضت على جيش التحرير الوطني. كانت الصفقة ميثاقا ضمنيا بين النظامين الجارَين فيما يخص أهدافهما الحالية الفورية. فابنبلا، من جهته، سوف يعزز ويحمي ركائز سلطته، والحسن الثاني سيضمن استمرار ودوام مكتسباته ما دام قد فاز بحِيَادِ جارِه.

محمود، المثقف المناضل

انتبه المهدي بن بركة باكرا إلى الشلل الذي يأتي من الصراعات الشخصية والعلاقات الجهوية النزعة التي تنسف صفوف المقاومة وكذا التشكيلات السياسية. فدفعته هذه الملاحظة إلى تبني خيار إنشاء حركة جماهيرية موحدة. استفاد من الأعمال الضرورية لإعادة بناء الوطن، فنظم خلال صيف سنة 1957 ورشةَ طريقٍ

– طريق الوحدة – تربط الحسيمة بفاس. لقد كان هذا المسار غنيا بدلالته الرمزية: فهو يوحد مناطق كانت بالأمس تخضع للإدارة الأسبانية بمناطق كانت تحت الحماية الفرنسية. دامت الورشةُ ثلاثة شهورٍ عمل بالتناوب خلالها 12 000 شاب متطوع جاءوا من كل جهات البلد، طيلة شهرٍ، على بناء مختلف أجزاء الطريق. ولكن الهدفَ الحقيقي لابن بركة كان هدفاً آخر. فقد كانت تحدوه التجربة الصينية. ومن ثمة وزع فرق العمل إلى مجموعات خلط فيها عن قصد بين العمال الذين ينحدرون من أصول مختلفة. وبعد أن يقضي الشبابُ المتطوعون ساعات من العمل اليومي المضني، كانوا يتلقون تكوينا سياسيا و ... عسكريا. إنه برنامجٌ لا يخفي طموحاتِه: تشكيل جيلٍ جديدٍ من المواطنين الواعين سياسيا والمستعدين للدفاع عن القيمِ التي تَلَقنُوها: الوطنِ والشعب والتقدم. وهكذا شهد هؤلاء الشباب المتطوعون، وهم يشعرون بمزيج من الفخر والاندهاش القوي، وصول محمد الخامس إلى فاس. إذ تَم تنبيهه إلى التوجه الذي أخذته ورشة طريق الوحدة هاته، فجاء إلى عين المكان ووزع وبسخاء شهادات الاستحقاق. لقد كانت طريقةً لبقةً لتسريح الجميع [وإيقاف مشروع الطريق] : التنمية نعم، ولكن ليس لخدمة الشعب...

ورغم أن هذه التجربة كانت تجربة عابرة، فإنها كانت كافيةً لتؤثر في العقول إلى درجة أنها شكلت مرتع جيلٍ جديدٍ تواق إلى التقدم والحرية. من بين هؤلاء كان محمود، واسمه الحقيقي محمد بنونة، والذي سيشكل مصيره المأساوي نهايةَ العديد من الآمال. أبوه هو المعطي بنونة، مهنته بقال، وأمه الباتول بنت محمد ملين. وُلد بالرباط سنة 1938. نشأ متأثرا بالنضال الوطني لأخيه الأكبر الذي عمل في ورشة طريق الوحدة. كان تعطش الشاب محمود واضحا وهو يتغذى بحكايات أخيه الأكبر عند عودته من الورشة. لقد اختلط شبابُه وامتزج بظهور المقاومة المسلحة في أهم المدن بالبلد وبإنجازات المقاومين في الجبال. لم يكن عمره سوى تسع سنوات عندما كان أخوه الأكبر، وهو يتحدى في ذلك قوات الاحتلال زمنَ الحماية، يأوي ببيت العائلة الاجتماعات السرية لخليةٍ من خلايا حزب الاستقلال ويأوي الفارين المبحوث عنهم بسبب قيامهم بأعمال وطنيةٍ.

أمضى محمود إذن السنوات الأولى من حياته وسط علاقات صداقات وطنية أُبرمت منذ الطفولة. فانجرف محمود مع التيار التحريري وأخذ يتغيب عن المدرسة، كما هو شأن آخرين غيره، ليلعب اللعبة المحرمة، لعبة الثورة: الجرائد السرية مخبأة تحت الأسِرة، والمنشورات تُلقى ليلا في الأزقة، والملصقات على الحيطان، وإهانات المتعاونين المفترضين مع المستعمر. لقد تسلق مع رفاقه الحائط مرارا ليساهم في مظاهرات ممنوعة، وفي اجتماعات سرية أو للتشويش على خطبة صلاة الجمعة التي كانت تُلقى باسم "السلطان الدمية " (وهو شيخٌ مهادنٌ نصبه الفرنسيون بعد أن نفَوا السلطان

ـذي سيصبح فيما بعد محمد الخامس). لم يكن محمود يعي تمام الوعي عواقب هذه الأعمال الثورية. وعند فجر مراهقته، اجتذبته لعبةُ الكبار. فانجرف الشاب محمود مع الحماس العارم.

ولما بلغ السابعة عشر من عمره، شهِد رجوع محمد الخامس منتصرا إلى الرباط، وهو الرجوع الذي يدل على انتصار ذويه ممن كافحوا ضد الاستعمار الفرنسي وانتصروا عليه. ولكن وفي تلك الأيام التي تلت الاستقلال، كانت الأوضاع غير مستقرة. أخذ محمود يفضح مخلفات الاستعمار والاحتلال الأجنبي. فقد كان تعلّم الحياة يختلط مرارا بتعلم البقاء والبحث عن لقمة العيش. وهو لن يشذ عن القاعدة : فقد أصبح حارسا ليليا في ثانوية ليساعد عائلته، ثم مستخدما في مصلحة التواصل بوزارة الخارجية.

ولما انتهى الكفاح من أجل الاستقلال، بدأ الكفاح من أجل بناء دولةٍ عصريةٍ ذاتَ سيادة. لقد كان الجيل الجديد من الحاصلين على الشواهد يفيض أملاً، فعزم علَى أن يتداركَ قرونا من التأخر في بضع سنوات على أقصى تقدير. وهي المهمة التي تعبأ لها في ذلك الحين وتحمس عددٌ من الشباب الموهوبين. وهكذا ليس من قبيل الصدفة أن يتخصص محمود في العلوم، وهو التخصص الذي أملته أولوية وضرورة تجاوز العوائق التقنية التي تقف في طريق بلوغ التنمية في أقرب الآجال. إنها وطنية صادقة إذن، ولكنها وطنية تزعج أولئك الذين يفضلون أن تبقى الأمور كما هي عليه دون تغيير.

انضم محمود إلى هذه النخبة الجديدة الصاعدة التي ستصطدم مع الإقطاعيين المتشبثين بامتيازاتهم. فقد كانت كلمات تمدرس وتحديث ودَمَقرطة كلها نداءاتٌ تنسف الأساس الاجتماعي للإقطاعية. ذلك أن تناقضاتهم وأميتهم وظلاميتهم ومحسوبيتهم كانت أفضل مرتع ليظل النظام الملكي مقدسا. إنه تعبير يعني ضمنيا المَلَكية المطلقة التي تزعم بأنها تحكم بأمر من الله. كل هذا أدى إلى ميلاد شباب محروم من حقه في الحلم بتحقيق الانتصارات.

لمّ يكن محمود ورفاقه إذن يحتاجون إلى وقت طويل ليعرفوا أن معوقات التنمية هي كذلك، وعلى وجه الخصوص، معوقات سياسية. وهاهو أحد رفاقه بالمدرسة الثانوية، والذي يصغره بثلاث سنوات، والذي ذاق طعم سجون الحماية وعمره لم يتجاوز الرابعة عشرة هاهو يُذَكر بالجو العام الذي كان يسود حينها مدينةَ الرباط: "أكيد أن الوصاية الاستعمارية كانت قد انسحبت، ولكن بورجوازية الكومبرادور، بعد أن عرفت كيف تستفيد من هذه الوصاية، سرعان ما دخلت تحت حماية الملك[18]".

اجتاز محمود الباكالوريا في ثانوية مولاي يوسف بالرباط، وهي المكان السامي الرفيع الذي شهد احتجاج تلاميذ المدارس الثانوية على الاستعمار. دفعت قضية قناة السويس، وتحويل طائرة قادة جبهة التحرير الوطني والتجربة الذرية الفرنسية

18 حوار للمؤلف مع عبد الرحمن صباد.

بالصحراء. كل هذا دفع بتلاميذ المدارس الثانوية إلى الشارع ليعلنوا تضامنهم فيما يخص النزاعات التي تجري وراء الحدود. وهكذا كان محمود من بين أولئك الذين يقدمون في السر مساعدات لوجيستيكية لجبهة التحرير الوطني الجزائرية. فبالنسبة إليه، كانت الروح الوطنية والمواطنة جزءً لا يتجزأ من روح المقاومة.

ولكن بدأت تظهر تدريجيا بوادر نزاعٍ داخلَ البلد.

ففي هذا السياق المشحون والقابلٍ لكل الانزلاقات، حدث انشقاقُ حزبِ الاستقلال وظهر الاتحاد الوطني للقوات الشعبية سنة 1959. فوجدت النقابات والمنظمات نفسها مجبرةً على الخيار: مع المهدي بن بركة أو ضده. فأخذ المهدي بن بركة وأنصارُه يجوبون البلاد ليعبئوا وليكسبوا مناضلين يناصرونهم. وأما فيما يخص محمود فإن الطريق كانت واضحة جلية. إذ عمل على تنظيم إضراب في أهم ثانويات البلاد. وكان الشعار دون أهميةِ الهدف التكتيكي: وضع عراقيل أمام هيمنة حزب الاستقلال على المنظومة المدرسية. ففي عهد الحماية، كان حزب الاستقلال قد فتح مدارس سُميَت بالمدارس "الوطنية" في رد فعلٍ على مدارس الأعيان التي أنشأتها الإدارة الاستعمارية.

وتزامنا مع هذا، وجد محمود نفسَه مسؤولا عن إدارة الطفولة الشعبية بمدينة الرباط، وهي منظمة كشفية مناضلة ومتأثرة بالغ التأثر بالاتحاد الوطني للقوات الشعبية. وكان الهدف السياسي هو تكوين وتأطير جيلٍ من المواطنين قادرين على بناء دولةٍ مستقلة يكونون فيها هُم مَن يصنعون مصيرَهم. وفي ذلك العهد، كان على المرءِ أن يتحلّى، وفي آن واحد، بالإيثار والبسالة حتى يعانق هذا السبيل، ذلك أن مؤسسات هذا الوطن الشاب كانت بالغة الهشاشة، هذا الوطن الذي ما كاد ينعتق من وصاية المستعمر حتى أذكى الأطماع وأحياها. ولكن محمود، وكما هو شأن رفاقه في الطفولة الشعبية الذين كان أغلبهم ينتمون للاتحاد الوطني للقوات الشعبية، لم يكن ينقصهم لا الإيثار ولا البسالة. فحتى في الوقت الذي كان فيه التفكير الناقد لا يخلو من مخاطر، كان الاتحاد الوطني للقوات الشعبية قد طبع منذ إنشائه بهذا التوجه التربوي الذي سوف يجعل منه مدرسة تكوين الأطر قبل أن يكون حزبا. ويلخص محمود هذا التوجه في كلمات قليلة بسيطة: "إن مستقبل بلادنا وتحريره من نيرِ الإقطاع ونَير القامعين يكمنان في وعي هذه الشبيبة، وفي تربيتها السياسية[19]".

إن محمود لا يرتبط بهذا الحزب ارتباطا إيديولوجيا فحسب: فالمهدي بن بركة زوج ابنة خالته، غيثة بناني. فهو يزورهم، كما هو شأن العديد من الشباب الآخرين، في بيت العائلة بشارع تمارة. فتحولت القرابة العائلية إذن إلى ترابط فكري.

كان طموح محمود يوحي مسبقا بطبيعة الكفاح الذي سوف يخوضه. وكيف يكون الأمر غيرَ ذلك والنظامُ الملكي المُرَم يقوم على تفاني الرعايا في خدمته؟ فالقصر،

19 أفريقيا-آسيا، عدد 27، 1973/4/2، سيمون مالي: "المغرب: حرب العصابات؟..."

وهو يجازي الخاضعين المستسلمين. لم يكن يخفي الدورَ الذي خَصَّ به المواطنين في إطار مشروعه الوطني: دور التفاني اللامشروط في خدمة الملكية المطلقة. وفي نظر شبيبة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، لم يكن هذا الاستبداد الأبوي الذي ما زال يقيس عظمته بمدى استعباد الرعايا إلا البقية المتقادمة التي تثقل المسير.

فتحولت هذه الشبيبة، وقلبها كله أملٌ، بأنظارها إلى أبطالٍ معاصرين هم جمال عبد الناصر وتشي غيفارا وباتريس لومومبا، رجالٌ أصبحوا الصوتَ الناطق باسم الكرامة المسترجعة بعد أن أعتقوا شعوبَهم من قرون عديدةٍ من الهيمنة ونفخوا فيهم روح الكفاح والاعتداد بالنفس وعدم الاستسلام.

بالنسبة إلى محمود، لم تكن حينها أصوات المَدافع والإعدامات التعسفية في واحات الجنوب وجبال الشمال سوى أصداءً بعيدةً يذهب بها الحماس العام الذي نشأ عن هذا الاستقلال الذي طالما كان مُنتظرا. ولكن هذه الأصوات كانت تقترب كلما زاد الظلم وكلما تقلص هامش الحرية. وما كاد محمود ينهي دراستَه حتى كان عليه أن يعمل، فاشتغل موظفا مكلفاً بجمع الضرائب من المناطق القروية. فكتب بعد ذلك: "لم يُثرني شيءٌ مثلما أثارني منظر فلاحينا وهم يخضعون لتعسفات الملاكين العقاريين من أبناء البلد والأجانب واستغلالهم... إنني، ومن خلال لقاءاتي اليومية مع هذه الطبقة المحرومة، أحسستُ أكثر بضرورة ثورةٍ تعيد الأرض إلى ملاكيها الحقيقيين، الفلاحون..."[20].

ولكن سرعان ما سافر محمود، بفضل منحةٍ من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، إلى ألمانيا الشرقية ليتلقى تكوين مهندسٍ في الإلكترونيك. ولما عاد إلى المغرب، رفض العديد من الاقتراحات لشغل وظيفةٍ حكومية وفضل التفرغ للعمل السياسي والنضال وسط العمال والفلاحين. إذ إنه انتبَّه إلى أن العمل الملموس على أرض الواقع يجعله يحس بأنه يساهم في تنمية بلاده مساهمة فعلية.

دهكون، المناضل النشيط

"كان عمر دهكون رجلا قليل الكلام، لا يثير الانتباه، ولطيفا بشوشا. كان يُلَمح إلى الأمور أكثر مما يتحدث عنها. ولكن كانت له قدرة كبيرة على الإقناع، ويفرض رأيه ويُدهش مَن حَولَه بفصاحته"[21]. هذه الصورة وضعتها له سيرة ذاتية لهذا الرجل ذي الماضي المدوي الرنان، نُشِرت في شهر غشت من سنة 2001. وُلد دهكون في فاتح ماي من سنة 1936 في منطقة تارودانت، يكاد يكون في سن محمود، ويفور منه الحماس

---

20 أفريقيا-آسيا، عدد 27، 1973/4/2، سيمون مالي: "المغرب: حرب العصابات؟..."

21 أنظر يومية الاتحاد الاشتراكي، 12 غشت 2001، الحلقة الخامسة من سيرة دهكون، غير تامة لأن الرقابة أوقفتها. نشرها عبد الحميد الجماهري، الاتحاد الاشتراكي (من 8 إلى 26 غشت 2001).

نفسُه: تَوقٌ إلى الحرية لا يجد له مخرجا ولا متنفسا إلا في العصيان. ولكن، ورغم أنهما من جيل واحد، فإن طفولة دهكون كانت أشقى وأصعب من طفولة محمود الذي لم يكن مع ذلك ميسورا. فدهكون ابنُ كادحٍ، إنه الطفلُ الثالث في أسرةٍ فقيرةٍ رَمَت بها الأقدارُ داخل أكواخ عين السبع على هامِّش مدينة الدار البيضاء، حيث رست الأمواج الأولى من المهاجرين القرويين.

وبعد أن تمدرس بدهكون في غير انتظام بمدينة الدار البيضاء، تابع تكوينه الثانوي بمدينة الرباط، قبل أن يلتحق بثانوية النهضة بسلا. ولما كانت تغيب عنه ضيافة بعض المحسنين، كان غالبا ما يمضي لياليه في ضريح بمقبرة سلا.

وما كاد دهكون يدخل سن المراهقة حتىً اكتشف البؤس والفقر. ووسط ظروف العيش هذه، سرعان ما تَبَخرت الفرحة بالاستقلال: فحتى تلك الآمال البالغة التواضعِ كان يعاكسها الواقع. فعلمَت المحنةُ دهكون فضائلَ التضامن. إذ وظف دهكون القليلَ الذي كان بحوزته، ومسكنَه المتواضع، وكوخَ العائلة بعين السبع لإيواء عدد من رفاقه الطلبة الذين يعانون مثله الحرمانَ.

وبمدينة الرباط، ثم بمدينة سلا، احتك دهكون بالحياة بعيدا عن أسرته، وخاصة بالحياة السياسية. كان يحضر بانتظام اجتماعات خليةٍ للاتحاد الوطني للقوات الشعبية. كان المتدخلون في هذه الاجتماعات يتحدثون عنِ الحُقوق، وعن التحرر والتفتح، وعن الحرية وعن التقدم. وهي كلمات كانت تُدَوي في أذنيه وكأنها وحي من السماء. فقد كان يسمع أن البؤس ليس بتاتاً لعنة، إنه نتاج نظام منحرفٍ يجب تغييره. وسنة 1962، وهو يتابع دراسته بمدينة سلا، أصبح صديقَ رفَيقين يصغرانه بثلاث سنوات، ادريس الملياني ومصطفى الجدايني. الأول أصله من مدينة سلا، والثاني من مدينة وجدة. وتزامنت صداقتهم الناشئة مع وعيهم بالكفاح السياسي وميلٍ سريع إلى راديكالية هذا الكفاح. لقد أصبحت المدارس الثانوية، بفعل الإضرابات والمظّاهرات، حلبةً تشهد المجابهات السياسية. ويحكي حميد برادة، رئيس الاتحاد الوطني لطلبة المغرب في ذلك الحين، أنه نظم خلايا في الثانويات مستوحيا ذلك من نموذج جنوب-أمريكا: "في هذه المدارس تبدأ الثورات في التفتق[22]". كان دهكون ورفيقَاهُ يكونون إحدى هذه الخلايا. وسرعان ما تفتقت الثورة. ففي سنة 1963، وقف دهكون ومجموعتُه في وجه مدير الثانوية، أبو بكر القادري، مرشح حزب الاستقلال في الانتخابات التشريعية، وهذا في حين كان المهدي العلوي، مرشح الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، هو رمزهم وقدوتهم. فقد كانِ هذا الأخير، بضعة أشهر قبل ذلك، ورفقة المهدي بن بركة، ضحيتين لمحاولة اغتيال قُنعت على أنها "حادثة سير". تنبه دهكون ورفيقاه بفضل هذا الحدث إلى الوجه الآخر الذي يتخفى وراء مسرحية ما فتئت تعمل على تغليط العديد من رفاقهم الذين كانوا يساندون شرعوية ظاهرية.

22 حوارٌ مع المؤلف.

ولكن دهكون كان مناضلا نشيطا أكثر مما كان متفننا في أمور الجدال والحوار. فقد اكتشف بحدسه الرهانات السياسية التي تكشف عن تسلسلٍ للأمور يقود لا محالة إلى مجابهة مباشرة لا رحمة فيها. فقد كان يرى في الخمول المغلف بالبلاغة الذي كان يُرضي بعضَ رفاقه تعبيرا عن استسلام يفضل أن ينتظر ما سوف تأتي به الأقدار. إنها وجهٌ من الاستسلام لنظام يرفضه. ومجمل القول إنها كلمات جميلة. كان المترددون فيما يخص تأويل نوايا النظام يجدون فيها بعض الأمل يدغدغ أوهامهم. لقد أذكت في دهكون هذه الانتظارية الخطيرةُ حماسا نضاليا لن ينطفئ إلا مع أفول نجمه هو نفسه.

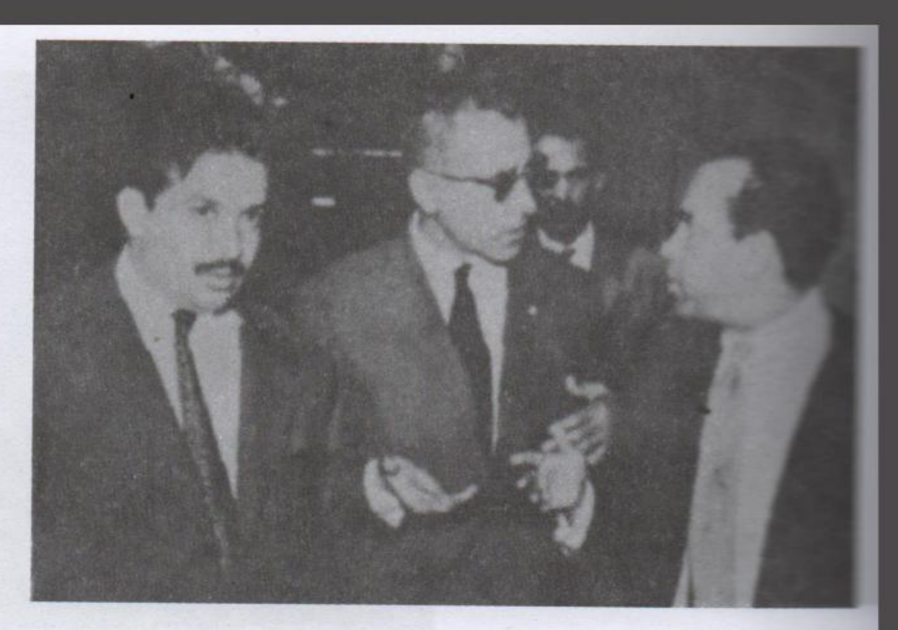
حصل تلاميذ الثانوي الثلاثة هؤلاء على البكالوريا سنة 1964. اختار الملياني والجدايني ميدانَ التعليم، يحدوهم في ذلك ولا شك برنامجٌ دراسي لم يكن يرضيهما؛ فأصبحا أستاذين بالثانوي [23]. أما دهكون فقد تردد. فبعد أن أمضى بضعة أشهر في مصلحة جوازات السفر بمدينة الدار البيضاء، جرب حظه في فرنسا ثم في ألمانيا. ولكنه كان يمضي من الوقت في مناقشة الوضع بالمغرب مع رفاقه في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب أكثر مما يمضيه داخل الجامعة أو داخل مكتبٍ يسلم فيه الوثائق. لقد كان يبحث لنفسه عن موهبة مهنية، فإذا به يكتشف موهبة سياسية.

وفي شهر مارس من سنة 1965، وبعد أن لم يعد بوسعه كبحُ جماحه، رحل إلى الجزائر. ثم وبعد سنة من ذلك، غادر العاصمة الجزائرية ورجع إلى الرباط حاملا في جيبه رسالة من بنسعيد إلى الفقيه البصري.

إن حياة النمري المتمرد، وسيدي حمو الثائر في جبال الأطلس، ومحمود المناضل ودهكون المناضل النشيط، كل هذا يرسم أربعة مسارات تختلف في ظاهرها ولكنها تكشف عن طموحات واحدة متشابهة وعن تخوفات مماثلة، كلها وليدة الغموض واللبس اللذان تعرفهما الأزمنة الجديدة التي تبعث الإيمان والإعتقاد بأن كل شيء ممكن. سرعان ما تلاقت تلك المسارات الأربعة. إنه قدر حقبة كان لا بد أن يتضامن فيها ويتحد استمرارُ الكفاح من أجل الاستقلال مع إرادة النخبة المثقفة التقدمية العازمة على الدفع بالمغرب إلى الحداثة. ووَحدَ التسلسلُ المأساوي لأحداث التاريخ فيما بعد مصيرَهم، بعد خمس عشرة سنةً، في كفاحٍ لا يخرج منه المرء سالما.

---

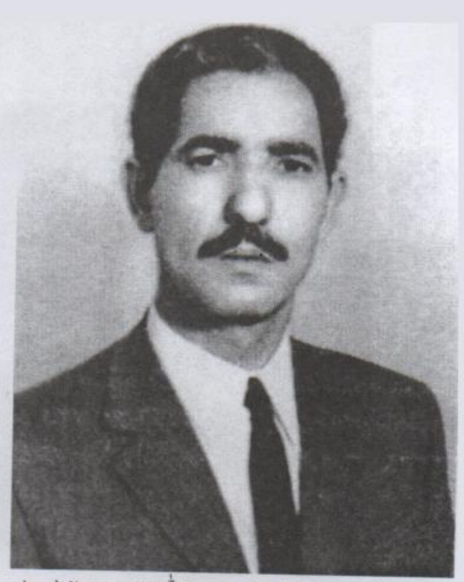
[23] سيعدم الجدايني بالقنيطرة يوم فاتح نونبر من سنة 1973، والملياني بالقنيطرة يوم 27 غشت من سنة 1974.



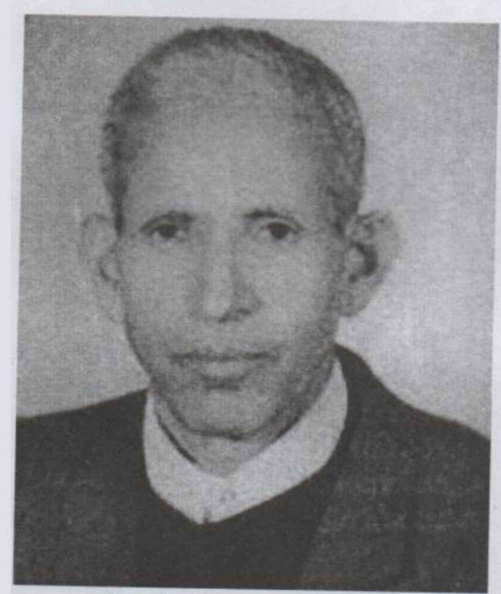
من اليمين إلى اليسار: المهدي بنبركة وعبد الرحيم بوعبيد والفقيه البصري.



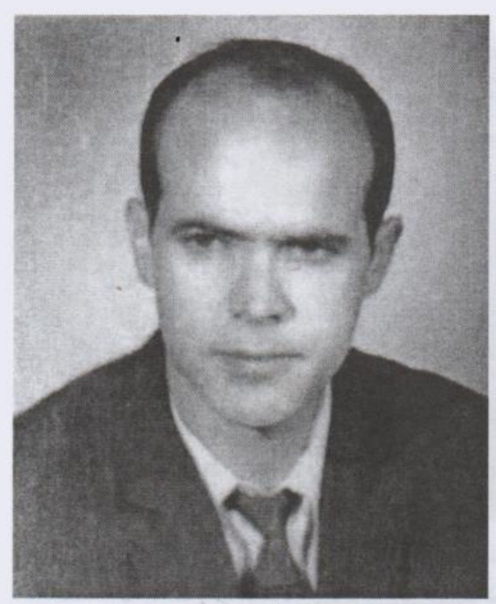
المهدي بنبركة مع الفقيه البصري.



إبراهيم التيزنيتي، المعروف بعبد الله النمري، والشيباني، والشيخ.
توفي في ساحة المعركة بميسور يوم 8 ماي 1973.



سيدي حمو عبد العليم، المعروف بالطاهر، توفي
بتنغبر سنة 1996.



محمد بنونة، المعروف بمحمود. وُلد سنة 1938 بالرباط. توفي في ساحة المعركة بأملاغو (بمنطقة كوليمة) يوم 5 مارس 1973.

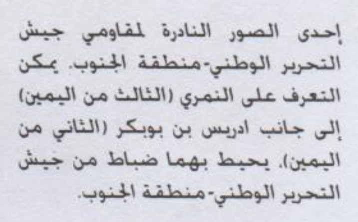


عمر دهكون، المعروف بزهير. وُلد سنة 1942. نُفذ فيه حكم الإعدام بالقنيطرة يوم فاتح نونبر 1973.



اجتماع بمدينة إفني سنة 1958 بين القيادة العليا لجيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب وقادة المقاومة. من اليمين إلى اليسار: عمر الفرشي، ادريس بن بوبكر (واقفا)، بنحمو، سعيد بونعيلات، محمد بنسعيد، محمد بن علي المعروف ببولحية، عمرو لحريزي المعروف ب«الفيلسوف»، الكبير بوزكري.





إحدى الصور النادرة لمقاومي جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. يمكن التعرف على النمري (الثالث من اليمين) إلى جانب ادريس بن بوبكر (الثاني من اليمين)، يحيط بهما ضباط من جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب.



النمري (الرابع من اليمين) إلى جانب ادريس بن بوبكر (الثالث من اليمين).



صورة للجنة المؤسسة للطفولة الشعبية. يمكن التعرف على محمود في الصف الثاني (الرابع من اليسار) والمهدي بنبركة في الصف الأول (الثاني من اليمين).



محمود (على اليسار) خلال تجمع الطفولة الشعبية.
من بينهم، بنكيران (في الوسط، يضع نظارات)،
سيصبح فيما بعد عاملا إقليميا.



محمود وهو يُسَيِّر اجتماعا لخلية الاتحاد الوطني لطلبة المغرب بجمهورية ألمانيا الديمقراطية.

الاختيار الثوري
(1963 – 1968)

"سوف تُطوى الصفحة"

بعد اعتلاء الحسن الثاني العرش، يوم ثالث مارس 1961، كان عليه أن يواجه مشاكل عويصة داخلية وخارجية. فأخذ يتأكد الصراع بين الاتحاد الوطني للقوات الشعبية والقصر، ذلك الصراع الذي بدأ منذ تسريح حكومة عبد الله إبراهيم في ماي 1960، وقبل وفاة محمد الخامس. وقد زاد من خطر هذا الصراع تنحيةُ جيش التحرير الوطني وخنق الحريات.

أكيد أن الحسن الثاني استطاع التحكمَ في الإدارة تحكما كاملا وخنق كل إمكانية للاحتجاج. ولكن، وفي هذه الفترة الموسومة بنزعة القومية العربية، والتي وصل فيها حزب البعث، ومنذ زمن قصير إلى السلطة في بغداد ودمشق، كان اليسار العربي يشكل نموذجا في كامل قوته. وكانت هذه الفترة كذلك فترة ظهور حركات التحرير في أفريقيا وأمريكا اللاتينية، حركات "الفوكوس"، وهي البؤر الثورية العزيزة على تشي غيفارا. وبما أن المعارضة لجأت إلى أقصى الحدود، فقد استفادت من مساندة الدول الرائدة في الشرق الأوسط من مصر وسوريا والعراق. كان عزم هذه المعارضة أشد ما يكون العزم: فقد تمكن المهدي بن بركة، بفضل منفاه الأول ابتداءً من سنة 1960 ، من أن يكسب مساندة دولية تبتدئ من بيكين ثم هافانا مروراً بالقاهرة وموسكو. لقد كان الصراع الذي بدأ بين الملكية والتشكيلة السياسية الجديدة، وهما الطرفان اللذان ينفرد كل منهما برؤية خاصة عن بلاد المغرب، يبدو صراعا لا رجعة فيه.

وقبل مؤتمر الاتحاد الوطني للقوات الشعبية سنة 1962، كان المهدي بن بركة قد استفاد من أخطاء الماضي ووضع النص المؤسس لما أصبح يُعرف فيما بعد ب"الإختيار

الثوري". ذلك النص التنبؤي الذي يعكس تحولا إيديولوجيا عميقا[1]. فضمن تحليل المهدي بن بركة لعلاقات القوة، قدم الإختيار الثوري على أنه الخيار الوحيد الذي له مصداقية لرفع التحديات التي لوح بها النظام. فأصبح السياق ملائما لظهور صراع جديد.

وفي نهاية السنة نفسها، أخذ الحزب موقفا واضحا يدعو فيه إلى مقاطعة الاستفتاء الدستوري لسنة 1962. وذلك باعتبار أن النص المقترح يزكي الطابع المطلق للسلطة الملكية على حساب ملكية برلمانية ديمقراطية. وفي هذا الكفاح ضد ما كان الاتحاد الوطني للقوات الشعبية يسميه "تقنين سلطة شخصية ورجعية". كان الحزب وحيدا معزولا وسط باقي القوى السياسية. كان الكفاح السياسي صعبا وشاقا. فالاتحاد الوطني للقوات الشعبية يتهمُ في تجمعاته مباشرةً الملَكيةَ وبتعابير راديكالية، لم تكن لتخطر بالبال بضع سنوات بعد ذلك. فقد كان الاتحاد يصرح بأنه "لا علاج لهذا النظام سوى أن يختفي وينمحي".

وبالنسبة إلى الذين يعرفون كيف تجرَى الانتخابات في عهد الحسن الثاني، فقد كانت نتيجة الاستفتاء الدستوري إنذارا واضحا أفصح عن نواياه: فالنص صودق عليه بنسبة 80,10 بالمائة من المصوتين وبلغت نسبة المشاركة 85 بالمائة. إنها أرقام لا يمكن أن تصرح بها سوى إدارة تخضع للأوامر أكثر مما تلتزم الحياد. وهذا ناهيك عن الامتناع عن التصويت الذي كان واسعا في بعض المراكز الحضرية.

زد على ذلك أن القصر لم يكن ينتظر قرار الشعب ليعبر عن رد فعله. وكأن الحسن الثاني كان يريد تفادي المفاجآت السيئة، ففضل أن يستبق الأحداث. فكانت المحاولة الفاشلة لاغتيال المهدي بن بركة في نونبر 1962، عند عودته إلى المغرب في شهر ماي، وهي المحاولة التي غلفت في لباس حادثة سير، كانت هذه المحاولة أول مؤشرٍ يدل على أن النظام قد اختار التصعيد وأن اختبار القوةً قد بات وشيكا.

في هذا السياق جاء إعفاء حكومة عبد الله إبراهيم وتم تنظيم الانتخابات الأولى في ماي 1963. وقبل الاقتراع بشهر أطلقَ المهدي بن بركة وعبد الرحيم بوعبيد إنذارا كاد أنْ يكون واضحا مكشوفا إبان استجوابٍ مع مجلة جون أفريك. إنذارا حذرا فيه من مغبة تزوير الانتخابات من جديد: "إن عدونا الحقيقي هو ذاك الذي يرفض أن يتحمل المهمة التي هي مهمته، مهمة الحَكَم... نريد أن نتكلم عن المَلك... نريد إنشاء ملكية دستورية يكون فيها المَلكُ رمزَ استمرار المؤسسات وتُمارس فيها حكومةٌ مسؤولية السلطةَ... إن أصبحت الإدارةَ أداةً في خدمة حزب سياسي فَلن تكون هناك مرحلةٌ ثانية، وسوف يكون الاصطدام المباشر أمرا حتميا يجرٍ إليه منطق الأحداث. وعندها، لا أحد يمكنه أن يقول إلى

---

[1] ... التوصلة الأولى. وهو يقدم التقرير السياسي للمؤتمر: مَن نحن؟ ومن هو خصمنا؟ ما هي ... يُقرأ نص المهدي بن بركة أمام العموم ولكن كل القرارات التنظيمية للمؤتمر أخذت ... بن بركة، حياة وموت، لزكية داوود والمعطي منجب، منشورات مبشالون.

أي حد يمكن أن تذهب الأمور. فعند محاولةِ هيمنة الإدارة على الشعب والسيطرة عليه، سوف نكون مضطرين للرد ولن يكون بوسعنا عندها أن نستمر بصفتنا حزبا يعمل في إطار قانوني". ثم أضافا: "إن الصفحةَ سوف تُطوى فيما يخص الحركة الوطنية التي ستدخلُ حينها مرحلة جديدة من مراحل كفاحها[2]". لقد اعتقد الكثيرون أن هذه الراديكالية الكلامية لم تكن سوى محاولة للضغط، وأن الهدف منها هو أن تكون ورقة ضغط عند التفاوض السياسي المحتمل. ومع ذلك فإن الإنذار كان يندرج في إطار لعبةٍ، مهما بدت خفية ولبقة، فقد كان بمقدورها في أي لحظة أن تنقلبِ إلى ما لا رجعةَ فيه. وعند هذه اللحظة، يختلط الهدف بالوسيلة فيصبحان شيئاً واحدا.

وبعد مرور بضع أيام، يوم 5 ماي 1963، قُبَيل الانتخابات، نشر الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بيانا يُعلن فيه أنه أصبح "خصم النظام الإقطاعي والشخصي. ومن بين أهدافنا هناك هدفٌ فوري آني، ألا وهو إنهاء هذا النظام. وإنه لمن مفاخر الاتحاد الوطني للقوات الشعبية أن يكون قد أرغم هذا النظام على الكشف عن حقيقته. ليس الغرض من هذا هو تحسين النظام أو تعديله أو ضمان بقائه. بل إن الغرض هو القضاء عليه. لا تَوَافُقَ مع هذا النظام، لا إجماع ولا اتحاداً وطنياً من حوله[3]".

في مرحلة أولى، خرج الاتحاد الوطني للقوات الشعبية قوياً من المعركة. فقد أكدت الانتخابات تفَوّقَه. إذ رغم العراقيل والقمع، ورغم تنحية الموظفين المتهمين بالتعاطف (وهي التنحية التي بدأت في الحقيقة منذ سنة 1958)، فاز الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بـ28 مقعدا و22,3 بالمائة من الأصوات بل وصل إلى 90 بالمائة من الأصوات المعبر عنها في مقاطعات حضرية كما كان شأن مدينة الرباط، حيث ترشح أهم قادة الحزب وخطبائه، المهدي بن بركة وعبد الرحيم بوعبيد.

وفي هذا السياق، كانت مساندة الشعب للحزب الجديد، رغم ما طال الانتخابات من تزوير، مساندةً واضحةً معبرةً. وسرعان ما جاء رد فعل النظام. فقد نُقل عمالٌ إقليميون أو موظفون سامون أو طُردوا لتعاطفهم مع المعارضة، وأُغلقَت بعض مقرات الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، واعتُقل مناضلون من أعضاء الحزب.

مؤامرة يوليوز سنةَ 1963

ينسب عدةُ كتابٍ مطلعين[4] نهايةَ المؤامرة والدسيسة الناشئة إلى شخص واحد: [...]ـه العقيد (الكولونيل) المذبوح. فقد رُقي الرجلُ الذي عمل على تهدئة الريف قائدا [...]ـحرس المقرب من الملك. واسمه يعني "ذاك الذي نُحِرَ أو ذُبِحَ". وهي إحالة للثمن

---

2 [...]ـظر أسبوعية جون أفريك، 8-14 ابريل 1963.
3 [...]ـر بركة، حياة وموت، سبق ذكره.
4 ولاسيما منهم المعطي منجب، الملكية المغربية والصراع من أجل السلطة، منشورات لارماتان، 1992؛ وجيل بيرو، صديقنا [...] منشورات غاليمار، 1990.

الذي دفعه أبوه، الذي كان معروفاً بكونه حارب عبد الكريم الخطابي وساعد الجيش الفرنسي-الإسباني ضد بطل حرب الريف سنة 1926. ولكن، وفي تلك الفترة، كان أغلب الملتحقين بصفوف ضباط القوات المسلحة الملكية من أفراد الجيش الاستعماري سابقا، فلم يكن هذا الانتماء بالأمر المشين. فالمذبوح تكَون في إعدادية آزرو، وهو من قدماء الحرب الهندية-الصينية، وتسلق الدرجات تحت ظل نظيره المماثل له محمد أوفقير.

ودون أن يبين الرجل عن أي تعاطف سياسي، وبصفته وزيرا للبريد والمواصلات في حكومة عبد الله إبراهيم، ثم بصفته عاملا على مدينة الدار البيضاء، أبان عن ترحاب يشوبه الحذر بالاتحاد الوطني للقوات الشعبية. وهكذا تضاعفت لقاءاته مع الفقيه البصري. ويبدو عندها أن هذا الأخير، وخلف مظاهر عادية تبدو على أنها تبادلات سياسية محضة، استطاع الحصول على معلومات استراتيجية عديدة. ولكن العقيد المذبوح تراجع[5] حين طُلبت منه معلومات مفصلة تهم تصاميم القصر وعددَ أفراد الحرس الملكي. من البديهي أن الرجل كان مرتاحا في دور الملاحظ المتساهل أكثر مما كان مرتاحا في دور المتآمر. بعد ذلك، عرفت الأيام الموالية تفكيك عدة شبكات واعتقال العديد من المناضلين.

ولما أصبح المذبوح جنرالا، تميز بعد مرور عقد بكونه الرجل الثاني في تدبير أول انقلاب عسكري. إن تاريخ المغرب يشبه من وجوهٍ عديدةٍ سلسلةً متتاليةً من المواهب لا تُكتَشف إلا بعد فوات الأوان.

وحتى يومنا هذا ما زالت الروايات تختلف. هل كانت هناك فعلا مؤامرة؟ ألم تكن سِوى نوايا مترددة وغير واضحة؟ ألا يتعلق الأمر سوى بمؤامرةٍ دبرها القصر نفسُه؟ ومهما كان الأمر، فإن القمع الوقائي الذي قام به القصر[6] استطَاع أن يقتل في مهدها منظمةً كان من شأنها أن تقلب النظام الملَكي. وحسب شهادة حميد برادة[7]، الذي كان حينها رئيس الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، والذي اعتُقِل خلال حملات الاعتقال،

---

5 [illegible] على ذلك أنه سوف يشهد بذلك خلال المحاكمة. فكل الأشخاص الذين اتصل بهم الفقيه البصري صرحوا بأنهم [illegible] "السلطات العليا" التي قد تكون طلبت منهم "الحفاظ على العلاقة". المغرب الوثائق، رقم 10، الرباط، وزارة الإعلام، [illegible] 1964. أنظر أيضا ابن بركة، حياة وموت، لزكية داوود والمعطي منجب، منشورات ميشالون، باريس، 1996، و16 يوليوز [illegible] لعبد اللطيف جبرو، منشورات المعارف الجديدة، الرباط، 2000.

6 [illegible] 1964، كتب رضى اكديرة، صديق الملك، والذي كان حسب الطرح الرسمي مستهدفا كذلك من المؤامرة، [illegible] "[illegible]" (الفنارات) بأن "الاتحاد الوطني للقوات الشعبية لا دخل له في المؤامرة المزعومة التي لم تكن [illegible] مشاغبين محترفين لم يتحركوا سوى بمحض إرادتهم". بعد ذلك، سوف يصرح الحسن الثاني [illegible] مؤامرة يمكن أن تُناقش، إلا أنها كانت مؤامرة في ذهن أولئك الذين دبروها. وبما أن الأمر كان يهم [illegible] نُطَبق عادة على المحترفين، فإن الناس اعتقدوا بأن الأمور لربما ضُخمت بعض الشيء". ذاكرة ملك،

7 [illegible] الذي تزعم هيأة الدفاع خلال المحاكمة، لجريدة لوموند يوم 22 نونبر 1963: "أنه [illegible] وأناس متفاوتين من حيث سذاجتهم، وضعت الشرطةُ ارتباطا بأعضاء قدماء [illegible] للقوات الشعبية. إنها مؤامرة ضد الاتحاد الوطني للقوات الشعبية".

فإن ما يشكل "مؤامرة" في نظر القصر ليس سوى بداية منظمة تتمفصل أساسا حول محورين اثنين يتحركان دون تنسيق ظاهر بينهما. المحور الأول يحركه عمر بنجلون والفقيه البصري. والمحور الثاني، وهو أكثر افتراضية من الأول، نتج عن لقاء بين المهدي بن بركة وشيخ العرب.

شيخُ العرب اسمُه الحقيقي أحمد أكوليز وهو طباخ سابق وفي الوقت نفسه أحد أول المقاومين في الوسط الحضري وأحد مؤسسي جيش التحرير. بعد أن نجا من النصفيات التي تلت تفكيك جيش التحرير الوطني، عاش منذ سنة 1956 في السرية. إنه رجل عنيد وصارم، ولا يمكن ارشاؤه في إطار صفقات التوظيفات المتواطئة. ويتذكر أحد رفاقه بأن "في هذه الفترة، كان شيخ العرب يأتي مرارا لزيارتنا بالقنيطرة. ورغم أنه كان هاربا من العدالة بتهمة قتل أحد عناصر الأمن الوطني في الجنوب، فإنه كان يتنقل كما يطيب له ويملك عدة متاجرَ متخفيا وراء هويات مزورة. بل إنه كان يزور رفاقَه المعتقلين بالسجن المركزي بالقنيطرةَ. وسنة 1962، استطاع بعضٌ من رفاقه، كما هو شأن بوشعيب الدكالي، الفرارَ من السجن [بمساعدة خارجية][8]".

ولكن أصبح الشعور بالانفلات من العقاب مصدرَ نشوة. فأخذ مومن الديوري، أحد المقربين من شيخ العرب، يتردد عَلَناً بمدينة القنيطرة على ضباط المخابرات والدرك. بل وأفشى لهم ببعض الأسرار. ولأن هؤلاء الضباط لم يصدقوه، فإنهم لم يكترثوا بالأمر إلا قليلا. ولكنهم، وفي اليوم الذي أثبتت فيه الأحداث حقيقةَ تلك الأقوال، لم يجدوا عناء كبيرا في الوصول إلى منفذي العمليات.

اعتُقِل مومن الديوري، الذي كان وسيطا بين المهدي بن بركة وشيخ العرب، يوم 11 يونيو 1963. وقبل ذلك بأسبوعين اثنين، كان قد تسلم حمولة من السلاح من القاعدة العسكرية الأمريكية بالقنيطرة، وكما كان يفعل الأمر نفسه من قبل لحساب جيش التحرير الوطني، إذ كان يتاجر بهذا العمل. في هذه المرة، كان السلاح موجها إلى شيخ العرب، الذي أصبح هكذا العدو العمومي الأول لأنه أراد تشكيل مخازنَ سلاحٍ وخلايا ثورية. وفي الوقت نفسه، استُدعِيَ إلى القصر عدةُ ضباط متهمين بالتواطؤ مع الفقيه البصري، بعضهم لن يعود منه أبدا. وإبان الحملة، شنت الشرطة حملة اعتقالات. فاعتُقِل عبد الرحمن اليوسفي وعمر بنجلون وحوالي 130 مسؤولا ومناضلا يوم 16 يوليوز خلال انعقاد اجتماع الحزب بالدار البيضاء. وكذلك اعتُقِل الفقيه البصري وبعضُ رفاقه في اليوم الموالي، بعد مطاردة حقيقية. كل القيادة العليا للحزب ومسؤوليه الوطنيين، و21 برلمانيا من بين 28 من برلمانيي الحزب، أي إن أزيد من مائة شخص اعتُقلوا. ومع ذلك لم يكن هذا سوى الظاهر، أما الخفي فكان أعظم ما دام أزيد من 1700 مناضلٍ قد اعتُقلوا، و5000 مناضل ومتعاطف ومسؤول ومرشح للانتخابات المقبلة قد وُضعوا رهن الاعتقال الاحتياطي في مخافر الشرطة.

---

[8] أنظر في هذا الصدد شهادة محمد بن سعيد المنشورة بجريدة أنوال، أنوال نونبر 91 - أبريل 92 .

وعاد بعض قدماء المقاومين إلى الزنازن التي عرفوها خلال الاحتلال الفرنسي. واشتكى أغلبهم من التعذيب الذي تعرضوا له. إذ إن ممارسات التعذيب كانت قد تطورت مما جعل البعض ممن كان حظهم عاثرا يلاقون حتفهم. أخذت حملة الاعتقالات تنتشر انتشارا لا يمكن تصوره. فقد كان المناضلون يُعتَقَلون ثم يُنقَلون داخل شاحنات مملوءة عن آخرها، وقُطعت الطرق وسُبُل التواصل مع الجزائر.

وشملت المحاكمة، التي بدأت يوم 22 نونبر 1963 لتنتهي يوم 14 مارس 1964، 200 مدان، منهم 85 في حالة حضور. كان نجوم المحاكمة هم الفقيه البصري ومومن الديوري وعمر بنجلون وعبدالرحمن اليوسفي، الذين قُدموا بصفتهم العقل المدبر للمؤامرة.

وحُكِم على المهدي بن بركة وشيخ العرب غيابيا. كان الأول قد غادر المغرب في اليوم نفسه الذي انطلقت فيه حملة الاعتقالات، والثاني كان لاجئا في الجزائر، كما هو شأن عدة أطر من جيش التحرير الذين استأنفوا العمل ثانية. كانت المحاكمة غنية بالمفاجآت: كل المتهمين تراجعوا عن تصريحاتهم التي انتُزِعت منهم تحت التعذيب، وهو الأمر الذي أثار موجةً من التضامن الدولي معهم.

ونزل الحكم يوم 7 مارس 1964 على الساعة العاشرة ليلا، بعد عدة شهور من الجلسات العاصفة: حُكِم على الفقيه البصري وعمر بنجلون ومومن الديوري بالإعدام. وحُكِم بالإعدام كذلك على ثمانية مُسَيرين آخرين لجأوا إلى الخارج[9]. وحُكِم بالسجن المؤبد على ثلاثة، وبالسجن من 5 إلى 20 سنة على عشرين معتقلا، ومن سنة واحدةٍ إلى أربع سنوات على عشرين معتقلا، وبُرِئَ 35 معتقلا وتم "العفو" عن معتقل واحد.

وأخيرا كانت هذه المؤامرة فرصةً سنحت للسلطة لكي تستولي على كل مقاعد البرلمان المقبل، فقد تخلى لأسباب تهم القمع، المشاركون التابعون لحزبي الاتحاد الوطني للقوات الشعبية والاستقلال. ذلك أن حزب الاستقلال نفسه لم يعد يسلم من صواعق السلطة[10].

لقد كانت القطيعة قوية عميقة. إذ اختل ميزان القوى: فقد هُمش الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، الذي اتهم ثم أوقف وهو في مرحلة صعوده وتقويته. وهكذا يبدو أن الحلقة قد أغلِقت بإحكام.

---

[9] [illegible] الأمر المهدي بن بركة وشيخ العرب وسعيد بونعيلات (م. أجار) وعباس سباطة وعبد السلام الجبلي ومحمد بنسعيد [illegible] وحسين خضار.

[10] في [illegible] عنوانها القمع في المغرب خلال الانتخابات التشريعية، اشتكى الحزب، الذي صوت بنعم على الدستور، على [illegible] صفحة من سلسلة من الأعمال المشينة منها ست موتى و1600 اعتقال. وقد دخل مسيروه في صراع مع [illegible] كان في ذلك الحين الساعد الأيمن القوي للحسن الثاني، والذي نعتوه ب"الحاجب". مادام الحسن الثاني لم يعد [illegible] في حكمه سوى [illegible] المقربين منه. وفي يوم 5 يناير من سنة 1961، طرد الوزراء الاستقلاليون الثلاثة الذين بقوا في [illegible] حزب الاستقلال مشروعَ دستور سنة 1962.

تشتت المعارضة

يعيش الإنسان المنفِي على ما هو مؤقت. والانتظار بالنسبة إليه هو البديل الذي يحل محل الحياة المنتظِمة. ولأن المنفي يرفض مسبقا كل فكرة لها علاقة بالدوام، فإنه يتوجس ويترقب علامات التغيير التي سوف تمكنه ثانيةً من العودة إلى وطنه مرفوعَ الرأس. ولكن ومع مرور الوقت وامتداده، يزداد المؤَقت ضغطا وحضورا، ويتشابه البعد والمنفى مع الموت البطيء. ويصبح من اللازم على المناضل الثوري أن يعمل بنشاط من أجل تحقيق الشروط الضرورية لعودته، بل وإن دعا الأمر ذلك، إلى استباق هذه الشروط.

إنها حالة النمري، المتمرد منذ حَل جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب، والذي كان يفضل عدم دخول هذه التجربة. ليس لأنه كان يعتقد ساذجا أنه محمي من مثل هذا الاحتمال، ولكن لأن هذا الاحتمال يتسبب في أمور تعاكس السير المنطقي للأحداث التي وجد نفسَه وذاته فيها.

مباشرة بعد استقلال الجزائر، غادر النمري منفاه في دمشق ودخل الجزائر العاصمة، وهو الأمر الذي كان بالنسبة إليه يشكل مرحلةً قبل عودته إلى بلاده. إنها المرة الأولى، منذ أن أطلق أول رصاصة ضد الفرنسيين، التي يضطر فيها النمري إلى مغادرة وطنه الأم. هذا هو ثمن الحرية. إنه عزاء قليل ضعيف لمناضل ثوري أرغِم على التراجع أمام خصم كان هذا المناضلُ نفسُه قد أقسم على تصفيته.

ما كاد الرجل يصل إلى العاصمة الجزائرية، مكان المنفى ومكان اللقاءات، حتى شهد مندهشا وصولَ موجة جديدة من المناضلين الهاربين من حملة القمع التي اجتاحت البلاد سنة 1963. إنها هجرة ثانية تنضاف إلى ما يكتنف المنفى من غموض، وتشحذ الضمائر، هجرةٌ ترتبت عنها اجتماعات عديدة وانتقادات ذاتية كثيرة. نوقشَت بضراوة أسبابُ الفشل والمسؤوليات. إنها بداية منافسات سوف تتأكد فيما بعد. إنها مناسبةٌ كذلك بالنسبة إلى هؤلاء الذين تربطهم قواسم مشتركة أو عداءات أن يشكلوا فرقا صغيرة فيما بينهم.

ولما كانت الجزائر تحتفل بمرور أول سنة على استقلالها، وصل ما تبقى من قادة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية إلى الجزائر العاصمة لحضور الحفل: المهدي بن بركة وعبد الرحمن اليوسفي والمهدي العلوي. وقفوا على عدد الأعضاء وبدءوا يجددون تنظيم الرجال. بقي المهدي بن بركة وفيا لما عُرف عنه من قدرة على جمع الشمل، فأنشأ فرعا في حي القبة، وهو حي إقامة [عصري] يوجد فوق مرتفعات الجزائر العاصمة، به مصلحة صحافية ومركز للتوثيق لخدمة المنفيين. ومع مرور الوقت، سوف يتوسع مركز التوثيق هذا ليصبح مدرسة ثورية حقيقية. ويتذكر أحمد بنجلون الذي

أمضي في هذا المركز الساعات الطوال بتصفح الكتب الخاصة بحرب العصابات عند نهاية الستينيات بأن: "خزانة القبة كانت مُوَثقة توثيقا يُضَاهي جودة توثيق الأكاديمية العسكرية بسان سير"؛ ويضيف "لقد كان يوجد فيها كتاب كلوزفيتز إلى جانب نظرية البؤر الثورية لتشي غيفارا[11]".

لم يتأخر المهدي بن بركة طويلا في الجزائر العاصمة. فهو قد تفرغ لعلاقاته الديبلوماسية مع الحركات التحريرية والحكومات الصديقة. وبدأ يتأمل في بوادر مشروع تنسيق كفاح الشعوب التواقة إلى الانعتاق من الهيمنة الاستعمارية والاستعمارية-الجديدة. فتحول محامي اليسار المغربي صاحب الهبة الجماهيرية إلى زعيم لعالم ثالثٍ يريد الانعتاق من الوصاية الاستعمارية القديمة دون أن يسقط ثانيةً في أيدي الهيمنة السوفيتية أو الصينية. كان المهدي بن بركة يجوب القارات ويعبئ الموارد والإرادات السياسية. وكان محاوروه هم جمال عبد الناصر وفيديل كاسترو وهو شي مين.

وخلال هذا الوقت، كان المنفيون ينظمون أنفسهم في الجزائر العاصمة.

حرب الرمال

يتذكر أحد المنفيين، مصطفى العماري، الذي كان يعمل صحافيا نهارا وناقلا للسلاح ليلا، يتذكر وصوله إلى الجزائر العاصمة سنة 1963: "سجلني أحد قادة جيش التحرير، الذي كانت له علاقة جيدة مع الجزائريين، في الأكاديمية العسكرية الجديدة ببَني مسوس، والتي كان يديرها القائد (الكومندان) سليمان هوفمان". ومن سخرية الأقدار أنه عند وصوله إلى الأكاديمية، وجد بها المدرعات الخفيفة التي أهداها الحسن الثاني إلى الجمهورية الجزائرية الشابة. ويواصل المنفيُ الحديثُ الالتحاقِ بالصفوف: "ولأنني من مواليد فيكيك، لم أجد صعوبةً في جعل الآخرين يعتقدون بأنني جزائري. لقد كان اسمي المستعار هو رحمان. وحده هوفمان كان يعرف هويتي الحقيقية والهدف من تكويني بالأكاديمية. وخلال الزيارة الرسمية التي قام بها جمال عبد الناصر يوم 4 ماي من سنة 1963، تَم اختياري لحماية الرئيس من المطار إلى القصر الرئاسي[12]".

ووُقع اتفاق للتعاون بين الجمهوريتين العربيتين الشابتين. وسرعان ما خرج الاتفاق إلى حيز الوجود. فبعد عبارات تهدف إلى إيهام الجميع أن السبل الدبلوماسية لم تجد نفعاً، انفجرت بين المغرب والجزائر الحربُ التي تُدعى "حربَ الرمال". لقد كانت عمليات مناوشة متتالية امتدت من 13 شتنبر إلى 2 نونبر 1963[13].

فرأى الشاب المغربي زملاءَه الجزائريين بالأكاديمية يذهبون إلى الجبهة انطلاقا من الأكاديمية العسكرية التي يتواجد بها. فغدا في وضعٍ لا يُحسد عليه. ساعده مواطِنُه،

---

11 حوار للمؤلف مع أحمد بنجلون.

12 حوارٌ للمؤلف مع مصطفى العماري.

13 أنظر الجرد التاريخي في نهاية الكتاب.

حميد برادة، رئيس الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، والذي هرب من المغرب إبان عمليات القمع المرتبطة بالمؤامرة والذي كان قد حُكم عليه غيابيا بالإعدام لأنه انتقد "اعتداء بلاده على الجزائر[14]"، ساعده على مغادرة الأكاديمية العسكرية وأسكنه في الجزائر العاصمة. كان المنفيون المغاربة يشهدون الاصطدامات بين قادة جيش التحرير الوطني التي لم يكونوا يعرفون أسبابها ونتائجها إلا جزئيا، وكانوا يحاولون قياس رهاناتها. ويتذكر أحدهم، عبد الرحمن صياد، قائلا: "بينما كان بعضٌ من الأطر المنفيين يتحدثون عن إعادة بناء الحزب، كان البعض الآخر يرى في النقاشات والحوارات داخل الفيلات بالجزائر العاصمة مضيعةً للوقت، ويُبدون رغبتَهم في المرور إلى العمل[15]".

فبدأ الحديث عن فكرة إعادة تنشيط جيش التحرير الوطني بمساعدة جبهة التحرير الوطني.

يقول أحد المنفيين، وهو مصطفى العماري: "رافقتُ شيخ العرب وسعيد بونعيلات إلى بشار (واسمها السابق كولومب بشار)، واتفقنا مع الرائد (كومندان) ب.. رئيس الجهة العسكرية الثالثة، على إقامة معسكر للتدريب على بُعد 400 كلم من بشار، في قرية تُدعى أوواطا[16]".

وخلال أسابيعَ قليلة، استقبل معسكرُ أوواطا زهاء المائة مناضل. لقد استهوت هذه المبادرةُ المناضلين الأكثر شجاعة: إذ ظهر النمري ضمن أول الوافدين. إذ لم يكن بمقدور قوة شكيمته وعزيمته أن تقنع أكثر مما مضى بذلك الإحساس بالعجز الناتج عن غياب الحركة الذي يفرضه المنفى. التحق بالقيادة العليا النواة التي استقرت في وهران، والتي يتواجد بها شيخُ العرب وسعيد بونعيلات وحسين خضار وحمدون.

كلف بارو بإدارة المعسكر، وبارو قائد سابق (من رجال السلطة) لمدينة سلا، ورفيق قديم لأوفقير أيامَ الدراسة بمدرسة الضباط بأزرو قبل أن يلتحق بجيش التحرير الوطني. وكان ثلاثة ضباط جزائريين مكلفين بتكوين وتعليم المناضلين، كل واحدٍ في مجال تخصصه: حرب العصابات والسلاح الثقيل وصنع القنابل. "كان هناك ضباط فروا من القوات المسلحة الملكية، ومقاومون وشباب، الكثير من الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين 20 و25 سنةً[17]".

وسرعان ما رأت النور معسكرات أخرى، في تلمسان وسيدي خالد على وجه الخصوص.

---

14 في يوم 25 أكتوبر، والنزاع في أشده، فُتحت مسطرة ضد المهدي بن بركة وحميد برادة بتهمة المس بأمن الدولة أمام المحكمة العسكرية للقوات المسلحة الملكية بالرباط. حُكِم فيها على المهدي بن بركة بثالث حُكم بالإعدام لأنه قال كلاما يماثل كلامَ برادة على أمواج إذاعة لبنانية.

15 حوار للمؤلف مع عبد الرحمن صياد.

16 حوار للمؤلف مع مصطفى العماري.

17 حوار للمؤلف مع عمر الناصر، المعروف بالفرشي.

الطمع في الفوز بزعامة الثورة

لم يكن التعايش داخل القيادة العليا لجيش التحرير الوطني المغربي يعرف التفاهم الأخوي الذي لا يتزعزع. فالأهداف المطلوبة لم تكن دائما تتطابق مع النوايا المعلن عنها. وكان الرجال الذين يشكلون هذه القيادة العليا فخورين بكونهم مقاومين وفي الآن نفسه غيورين على سلطتهم. وكان العقيد (الكولونيل) بنحمو أول من أفصح عما يخالجه. إذ كان الرجل بطلا في الحرب العالمية الثانية وقد بقي إلى جانب النمري في آخر معاقل جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب قبل أن يلتحق بالقوات المسلحة الملكية، ليعود أخيرا إلى حُبه الأول. وقد دفعه قمع "مؤامرة 1963" و"حرب الرمال" إلى الفرار صُحبَةَ عدد من رجاله إلى الجزائر. وحتى يبين اختلافه وتميزه عن الآخرين، فتح الرجل معسكره الخاص به بسيدي بالعباس، في المكان نفسه الذي كانت توجد به معسكرات الجنود الأجانب العاملين تحت الراية الفرنسية.

كان حجر الزاوية الثاني هو مسألة جمع المتدربين في المعسكرات. إذ لم يكن بعض نزلاء المعسكر، النازحين من الهجرة، والذين يُجمَّعون أحيانا دون أن يعلموا بالأمر، لم يكونوا مناضلين حقيقـيين. بل على العكس من ذلك، كانوا فقـراء تحدوهم وعودٌ غير أكيدة بتحقيق بعض الربح، فيتم اقتيادهم دون هوادة ولا عناية إلى معسكر يتحول بالنسبة إليهم إلى مركزِ اعتقال. لقد كان هؤلاء المجندون يقاتلون لأنهم لم يجدوا ما هو أحسن، هذا إن لم يكونوا يقاتلون رغما عنهم، فكانوا في حد ذاتهم عنصرا أكيدا لعدم الانضباط وخطرا لا يخلو من عواقب وخيمة. وزادت الوضعيةُ حدة عندما اقترح الجزائريون على شيخ العرب أن يستقـدم مناضلين إلى تندوف. فاقتيدت عائلات بكاملها إلى بشار. انتبه شيخ العرب إلى خـدعة الجزائـريين، ولكن بعد أن وقع ما وقع. ذلك أن هدف الجزائريين كان هو أن تفقد هذه المدينة كل ما من شأنه أن يوحي بانتمائها إلى المغرب، وهي مدينةٌ توجد على مر خط الحدود ويعتبرها الجزائريون جزءً لا يتجزأ من التراب الجزائري. ولأن القيـادة العليا فوجئت، فإنها ترددت حول المـوقف الذي يجب تبنيه. وتدل كل الأمـور على أن القيادة العليا هاته لا تولي سوى أهمية ثانـوية إلى مسألة وضع استراتيجية سياسية مشتركة وذلك لأن الهدف الذي يُجمع عليه الكل، وهو الإطاحة بالحسن الثاني، كان هدفا كافيا في حد ذاته بالنسبة إليها.

وسوف يعمل الصراع حول صلاحيات القيادة على تقسيم القيادة العليا. فعندما اتصـل شيخ العـرب سرا بالجنود المصريين ببشار، ثارت ثائرة النمري. فزاد هذا الخرق من حدة النزاع الكامـن بين الطامعـين في الفوز بالقيادة. راجَعَ النمري الجزائريين [illegible] يستحسنوا هذه الخيانة. فقام الرائد (الكوماندان) ب.. رئيس الجهة

العسكرية الثالثة، باعتقال شيخ العرب وسجنه، ولم يُطلق سراحه إلا بعد أن تدخل حمدون وسعيد بونعيلات.

وعند خروج شيخ العرب من السجن، كان همه هو الانتقام من "الخائن" الذي وَشى به. ولما علم بارو أنه أصبح مُهَددا، هرب من المعسكر. فبات الجو العام قابلا للانفجار. وبعد أن مل أعضاءُ المعسكرات من الانتظار والوعود الكاذبة، أبانوا عن استيائهم. أخذ عندها النزاعُ يهدد بالاتساع والانتشار. فأحس حينها شيخُ العرب بأن اللحظة باتت مواتية. فجمع رجالَه. وكانت القطيعة. انفجرت القيادة العليا إلى قسمين متنافسين. شيخ العرب وسعيد بونعيلات وحمدون من جهة، والنمري وبارو وحسين خضار من جهة أخرى. حاول البعض إصلاح ذات البين. ولكن تصدير الثورة الجزائرية لم يكن بالتصدير الموفق. ففشل مشروع إقامة معسكر أوواطا لأنه بات لا يملك قيادة منسجمة.

شيخ العرب، الرجل الذي لا يمكن القبض عليه

أذكت ذكرى شيخ العرب ألما كان دفينا عند الفرشي. وانطلاقا من الجزائر التي اختبأ فيها شيخ العرب خوفا من تعرضه إلى عملية تحاك ضده، كان يقول للمقربين منه: "ما دام الأمر يعني الموت، فليكن هذا الموت برصاص مغربي". ومن ثمة قرر الرجوع إلى المغرب. كان الفرشي الوحيد الذي رافق شيخ العرب في رحلته اليائسة: "عبرنا سرا الحدود يوم 7 أبريل 1964. في البداية، أقمنا في الدار البيضاء عند مناضل سري[18]". وبعد مرور بضعة أسابيع، استطاع شيخ العرب والفرشي تكوين شبكة من خمس خلايا سرية تتكون من حوالي ثلاثين رجلا، واسترجعا بعضَ الأسلحة. وهذا إنجاز يعود الفضل الكبير في تحقيقه إلى مساندة بعض الرفاق السابقين الذين بقوا أوفياء للمثل الأعلى الذي دفعهم في القديم إلى حمل السلاح ضد الاستعمار.

تعتمد منظمتهم على شبكة من محلات البقالة يسيرها سوسيون[19]. وكما كان شأن زمن المقاومة، فإن هذه المحلات سوف تصبح، وفي الآن نفسه، مخابئ للمناضلين ومخازن أسلحة ومخازن التزويد ومراكز لإرسال الرسائل وتسلمها. ولأن شيخ العرب كانت تطارده قوات الأمن فإنه سرعان ما اكتسب سمعة شخصية روبنسون الغابة، يتحدى الشرطة ويفلت منها عدة مرات، وذلك في الوقت الذي تكون فيه على وشك القبض عليه. وداخل مدن القصدير بالدار البيضاء، كبرت حكاية "الرجل الذي لا يمكن القبض عليه". لقد كان شيخ العرب دائمَ الحركة، يوجد في كل مكان وفي الآن

---

18 حوار للمؤلف مع عمر الناصر، المعروف بالفرشي.

19 سكان سوس، منطقة تمتد جنوب مدينة أكادير.

نفسه. لا يوجد في أي مكان. ومما كان يزيد من مدى قدرته على الحركة أنه كان يستفيد من تواطؤات تمتد حتى داخل القوات النظامية. وهاهو أحد رفاقه يبتهج للأمر بعد أن مرت أزيد من ثلاثين سنة على ذلك: "كنت مع شيخ العرب في سيارة دجيب لأحد ضباط الصف من القوات المساعدة عندما أذاع مذياعه خبرا مفاده أننا نتواجد بمكان آخر من الدار البيضاء ويطلب من كل الوحدات أن تطوق المكان المُشار إليه[20]".

وكان شيخ العرب، على سبيل الاحتياط، لا ينام أبدا ليلتين متتابعتين في البيت نفسه. ولكن، وحتى لا يُكَذب الأساطير، أمضى بضع ليالٍ داخل القصر بالرباط، عند طباخ الملك، الذي كان من أبناء قريته. وأقسم الجينرال أوفقير، الرئيس المرعب للأمن الوطني، على أن يقبض على شيخ العرب حيا حتى يهدم تلك الأسطورة التي تلقي بظلها على هيبته. ذلك أن الاستبداد يخشى أن يكون موضع سخرية وتهكم. فلجأ إذن إلى الوسائل الكبرى، وعبأ فرق التدخل الخفيفة. كان أول من وقع هو الدكالي، وهو الحركي الذي اعتُقِل في بيت مناضل سري. ولما تَم استنطاقُه، باح بأحد مخابئ شيخ العرب: بيت مدير شركة الصيدلة أسبرو، بحي ليرميتاج (المنسك). ويوضح الفرشي أن "الدكالي كان يجهل وجودي بعين الشق (حي شعبي يوجد على هامش مدينة الدار البيضاء)".

بات أوفقير يملك خيطا. فقرر على الفور مفاجأة ساكني الفيلا بالهجوم عليها. لقد تسرع في القرار، إذ إن الرجل الذي لا يمكن القبض عليه كان قد أخذ احتياطاته. ذلك أن الزقاق المجاور للفيلا كان موضع مراقبة مستمرة. وعندما تقدم رجال الفرقة الخفيفة نحو سياج البيت، استقبلتهم طلقات أسلحة رشاشة. كان رد ساكني بيت ليرميتاج مميتا. قُتل ثلاثة ضباط من المخابرات العامة. ولما استعادت قوات النظام قوتها وهاجمت ثانية، ألقت القبض على ... لا شيء. إذ كان شيخ العرب ورجاله قد فروا من خلف البيت. أثار هذا الفشلُ الذريعُ غيظَ أوفقير. وفي اليوم الموالي، أخرج من السجن أربعة رفاقٍ من رفاق شيخ العرب، كانوا قد اعتُقلوا سنة 1960، أيامَ نجا الفرشي بأعجوبة مِن مطارديه. فقتَلَ الرجالَ الأربعةَ دون محاكمة ودون شهود: هكذا مات عبد الله بوزاليم وعبد الله كرجاج والسويسي المزالي المسمى بلحسن ومحمد أوشواط.

أخذ الخناق يشتد حول شيخ العرب. فقد ألقي القبض على 26 مقاتلا وهم يحملون السلاح، تسربوا من الجزائر، في شهر يونيو[21]، لمساعدته. وبعد مرور شهرين، يوم 7 غشت، قدم مُخبرٌ لأوفقير الخيط. فلربما كان شيخ العرب عند أحد المتواطئين معه، وهو ضابط صف في القوات المساعدة. هذه المرة طوق أوفقير حي سيدي عثمان بفرقة التدخل الخفيفة. بعد ذلك وقع اشتباكٌ تُوُفي فيه شيخ العرب ورفاقه وكذا

20 شهادة الحلوي، يحكيها أحمد أويحمان.

21 اعتُقل ستة رجال يوم 3 يونيو بمدينة وجدة، وثمانية عشر يوم 10 يونيو بمدينة مكناس، ورجلان اثنان يوم 3 يوليوز بمدينة مكناس. أُعدِمَ 14 منهم يوم 27 مارس 1965.

ثلاثة من رجال الشرطة. ونشب اشتباك ثانٍ في اليوم نفسه بحي آخر من أحياء الدار البيضاء، انتهى باعتقال ثلاثة رجالٍ[22]. في المجموع، تم اعتقال حوالي الأربعين رجلا من رجال شبكة شيخ العرب.

إن مسار شيخ العرب، ذي الصيت الشعبي الواسع، يخفي وراءه غيابا تاما للتنظيم والتخطيط: يوضح هذا المسار توضيحا مأساويا عدم تلاؤم مناهج المقاومة مع واقع المغرب المستقل.

إنه قدر مأساوي لثائرٍ فَقَدَ الأملَ في حل سياسي، رجلٌ كان لا يتحمل أن يرى "سياسيين" يطفئون نارَ الثورة بتنازلاتهم وتراجعهم وتواطئهم. عندما يتحدث الفرشي عن ذاك الذي كان معلمَه ومرشدَه، تكسو وجهَه كآبةٌ خفية. ويَخلُص الرجلُ بصوت تعمد أن يبقيه صوتا هادئا غير مبالٍ، وكأنه يريد أن يخفي ألما عميقا لم يخمد أبدا: "طريقةُ شيخ العرب؟ طريقته هي أنْ لا تكون له خطة مضبوطة سلفاً" وللمرة الثانية، هرب الفرشي من المغرب.

اعتقالات

صوتُ خُطُواتٍ يقترب من مكان ظليل. كان الجو ثقيلا. الجو حار ورطب. آيت قدور[23]، جامدٌ لا يتحركٍ، بعد أن أمضى دقائق طويلة يستجمع أحاسيسه المشتتة، انتبه إلى حركات ذهاب وإياب غير واضحة في رواق السجن، خلف باب الزنزانة. عند الليل، انتزعه نهائيا من خموله صياحٌ. إنه يوجد بدار المقري التي تبدو من الخارج مسكنا باذخا وسط حديقة من أشجار الليمون في حي إقامة بالرباط. ويوجد بداخل هذه الدار مركزٌ للتعذيب. اطمأن بعد أن مرت أولى لحظات الخوف. لقد انتهت حصة التعذيب وخرج منها بدون خسائر كبيرة. عادت إلى ذهنه فجأة لحظةٌ غريبة مرت عليها بضعة أسابيع. عاود اكتشافَها في أعماق عزلته: سألَهُ الدكتور بنهيمة، وزيرُ الأشغال والنقل وهُوَ يسقيه كأس ويسكي، وكأنه يريد أن يقول له بعد الإنذار الذي وجهه له بأن الساعة هي ساعة راحةٍ يحلو فيها تبادل الأسرار:

— هل أنت متزوج؟

ثم أضاف الوزير دون أن يترك لمخاطبه الوقت الكافي ليجيب عن السؤال:

— ابحث لك عن زوجةٍ وابعث لي بفاتورة حفل الزفاف.

---

22 ابراهيم مسليل المدعو الحلاوي، الذي جُرح في ساقه، وبوشوا وجوهر.

23 محمد آيت قدور كان، سنة 2002، رئيس ديوان وزارة السكنى داخل "حكومة التناوب" التي شكلها عبد الرحمن اليوسفي سنة 1998 في عهد الحسن الثاني.

ذلك أن الرجل الأعزب يكون مصدر عدم استقرار. والدكتور بنهيمة، الوزير بالوصاية على القسم الذي يشتغل فيه آيت قدور، يريد أن يحل المشكلَ دون ضوضاء. فقد كان هو نفسُه في الماضي متعاونا مقربا من المهدي بن بركة في ورشة طريق الوحدة. وهو الأمر الذي له ولا شك علاقة بكونه أصبح وزيرا. ذلك أن القصر كان يولي عنايةً خاصةً لوفاء الأطر من ذوي الكفاءات. ومن ثمة فهو قد اختص في جلب الأفراد المقربين من المهدي بن بركة مستعينا في ذلك بالمكافآت الهامة: إذ إن ثمن المُرتد من أعضاء الاتحاد الوطني للقوات الشعبية يزيد كثيرا عن ثمن عضو من الحاشية خنوعٍ مجاملٍ.

منذ سنتين وآيت قدور يشتغل مهندسا في السكك الحديدية، وهي المهنَة التي أتاحت له إمكانية التحرك والترحال، فكان يستغلها في أنشطته السرية. إلا أنه لم يكن يشك أدنى شك أن أهداف تنقلاته قد انتبه إليها أفرادُ المخابرات العامة المتمرسون.

كانت كل الأمور قد انقلبت رأسا على عقب منذ يومين. ففي ربيع سنة 1964، أخذ آيت قدور عطلةً ليزور أباه بمدينة ميدلت. وقبل أن يتمكن من رؤية أبيه، أوقفه شخصان وألقَيا به في وضع غير مُريح تحت المقعد الخلفي لسيارة، ورُبطت يداه ووُضعت قطعةٌ من القماش على عينيه. ثم نزلوا به إلى سرداب حار خانق، سيعرف فيما بعد بأنه سرداب مخفر شرطة مكناس. تم الاستنطاق على سطح المبنى، تحت شمس حارة. كانت الأسئلة عادية ولا علاقة بينها، لا يمكن للمرء أن يقرأ ما وراءها، كانت التمهيد الذي سبق نقلَه إلى مدينة الرباط في اليوم نفسه.

وفجأة توقفت أفكاره التائهة إذ دخل الضوءُ بغتةً. انفتح بابُ زنزانته وظهر ثلاثة شبان بأقمصة زرقاء، يمشون بصعوبة. كانت سنهم تتراوح ما بين 16 و21 سنةً. ولكن سنهم الحقيقي لم يكن واضحا إذ إن الألم الشديد قد غير من ملامح وجوههم. هُم الذين كانوا مصدر الخطوات التي سمعها من قبل من وراء الباب. ما كادوا يدخلون حتى سقطوا أرضا. كانت أرجلهم دامية مندملة. لقد تعرض هؤلاء البقالة السوسيون [illegible]شباب من مدينة الدار البيضاء إلى عملية سلخ أخمص أقدامهم. فالشرطة تعرف [illegible] شيخ العرب يلجأ أحيانا إلى بعض حوانيتهم، فأرادت بذلك أن تنتزع منهم اعترافات [illegible] كانت الوسيلة. بعد دخول الشباب الثلاثة، اعتادت عينا آيت قدور على الظلام [illegible] في الوقت نفسه جماعةً من الأفراد مكدسين داخل قاعة الزنزانة، كانوا على [illegible] شخصا. إنه عالم مختلط يُذَكر بردهةِ محطة القطار أكثر مما يشبه [illegible] نعرف أولا على صديق يجثم على بُعد أمتار، يكاد يكون فاقد الوعي. [illegible] تعويمية ببركان، أصله هو كذلك من ميدلت، كان مثلَه لاهيا غيرَ [illegible] باريس. وقد عاشوا رِحلَتَهم إلى تلمسان بالجزائر قبل ثلاثة [illegible] رؤساء جيش التحرير الوطني في المنفى، عاشوها وكأنها

رحلة جديدة يقوم بها طلبة مشاغبون. وهاهو آيت قدور يتذكر: "لقد كنا على درجة كبيرة من السذاجة جعلتنا نسافر بجوازي سفرنا الخاصين ومررنا من الحدود مرورا رسمياً. والأدهى من ذلك، أننا رجعنا إلى هناك مرةً ثانيةً[24]". في المغرب، ثمن أخطاء الشباب يُدفَعُ غاليا. وخلال تلك الفترة دخل شيخ العرب مع الفرشي من الجزائر متحدياً الشرطة والجيش. ولأن الأحداث تزامنت صدفةً، أصبح انتقال آيت قدور إلى تلمسان أمرا يشكل مساً بأمن الدولة.

إلى جانبه كان يوجد ضابطان، خمن أنهما فاران من الجيش. وتكدس هناك كذلك بعض الصحراويين، من المحتمل أنهم من رجال جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. وبعيدا عنهم، تُصغي مجموعةٌ من الفلاحين إلى شيخ قوي البنية من مدينة صفرو وهو يرتل القرآن. بعض الكتابات على الجدران تشهد علىً أن جنودا جزائريين نزلوا حديثاً بالزنزانة، لا شك أنهم اعتُقلوا خلال حرب الرمال. هناك كذلك بعض أفراد عائلة شيخ العرب، اعتقلوا كرهائن. وإلى جانبهم، رئيسٌ سابقٌ لديوانٍ كان يغدق عليهم بالسجائر، ومقاولٌ من مكناس، وصحافي مزعج ما انفك يثير الشكوك من حوله.

بعد مرور سنوات، احتفظ آيت قدور بمشهد معين ظل منقوشا في ذاكرته من ضمن تلك المشاهد التي عاشها في دار المقري. فعندما بدأت حصته من التعذيب، وصله صوت مندهش وسط آلامه: "أنت هنا ؟؟" ورغم أن قماش الثوب يغطي عينيه، تعرف آيت قدور على صاحب الصوت وسط الأصوات الأخرى. إنه صوت الدليمي، الذي كان في الفوج الذي سبقه إلى الأكاديمية العسكرية بمكناس. منذ ذلك الحين تسلق الدليمي السلالم. ولما أصبح قبطانا أقام لمدة قصيرة في الاستخبارات العسكرية قبل أن يصبح الساعد الأيمن لأوفقير في الأمن الوطني.

وبعد أن أمضى آيت قدور ثمانين يوما تحت ذلك السقف الخانق بدار المقري، يترقب حركات الذهاب والإياب ويستخرج الدود الذي كان يأكل أرجل الشباب السوسيين المتحللة، اقتيد الرجل أمام قاض للتحقيق أخبره باعتقاله وبحبسه بالسجن المركزي بمكناس. وبعد أسابيع مَثُل آيت قدور أمام محكمة عسكرية، وتمت تبرئته. لقد كان التسامح معه تسامحا غريبا وغير منتظر في الآن نفسه وذلك باعتبار العدد الهائل من أحكام الإعدام التي انهالت خلال الجلسة نفسها على المقاتلين المتسربين من الجزائر لمساعدة شيخ العرب. نُفذ حُكمُ الإعدام في 14 منهم يوم 27 مارس 1965. فأوضح آيت قدور قائلا: "إن القاضي فسر ذلك بقوله إن البلد ما زال يحتاج إلى مهندسين[25]".

24 حوار للمؤلف مع آيت قدور.
25 في حوار مع المؤلف.

من الراعي الشاب إلى المهندس المناضل

لما التقيت آيت قدور سنة 1996، استقبلتني صورة رجل قلبه قد أضحى قاسيا، قلبٌ لم يعد يدق إلا عندما يشعر بالحنين. رجلٌ يسارع إلى البوح بأسرارِ حياةٍ قبل أن يمحيها الزمن. عندما يبلغ المرء سنا كسنه، تصبح المواهب قليلة ولكنها ثابتةً لا تتزعزع. باح لي آيت قدور بقصته وكأنها اعترافٌ لطالما حاول كبحه.

وُلِد في بوعياش بمنطقة ميدلت، حيث نزلت قبيلةٌ أجبرتها الحمايةُ الفرنسيةُ على أن تتحول إلى قبيلةٍ غير مترحلة. تميز الرجل منذ نعومة أظافره بحدة ذكائه الذي كان يثير إعجاب مدرسيه. وقد شاءت الأقدار أن يكون المهدي بن بركة وراء دخوله إلى المدرسة. ففي سنة 1946، اعتُقلَت قبيلَتُه لأنها رفضت العمل المضني لفائدة القائد (رجل سلطة)، واتهِمت حينها بأنها ما زالت تحتفظ بميزات وطنية.

وعند خروج أهل القبيلة من السجن، أرسلوا بعثةً منهم إلى مدينة الرباط ليطالبوا بتعويضٍ في إطار استئناف الحكم. ربحت القبيلةُ القضيةَ بفضل مساعدة محامين متحمسين من حزب الاستقلال.

كان آيت قدور في ذلك الحين راعيا صغير السن، نزح من أعالي الهضاب لينصت وكله إعجابٌ إلى حكايةِ أبيه وهو يقص عليهم الأحداث الكبرى التي عرفها سفرهم إلى الرباط من أجل التقاضي. كانت الحكـاية تتحدث باستمـرار عن "رجلٍ قصيرِ القامة لا يكف عن الحركة"، وهو الرجل نفسه الذي صاح في أفراد القبيلة: "أدخلوا أولادكم المدرسة". كان المهدي بن بركة يعرف عما يتحدث. إذ لم يكن التعليمُ أولويةً فحسب في بلد شاب ما فتئ يعرف التحولات، بل إن التعليم كذلك أرضٌ خصبةٌ للدعاية الوطنية.

وفي سنة 1953، كان العقيد (الكولونيل) دوليمو مكلفا بالبحث عن أحسن العناصر من "الأهالي" بغرض تكوين قوات مساعدة تتقبلها الساكنة أحسن مما تتقبل القناصين السينغاليين. كانت العادة حينئذ هي إعطاء الأسبقية في العمل أولا إلى أبناء الباشوات. ولكن وبغرض الرفع من مستوى قيمة المستقدَمين أضيفت حصةٌ من "الذين تلقوا تربية جيدة" إلى حصة "أبناء الأعيان". وهكذا تم التعرف على الشاب آيت قدور، الذي كان قد تخرج للتو من إعدادية ميدلت. ولكن كان لابد مع ذلك من إلحاح السيد فولون، مدير مدرسة ميدلت، ليؤكد على أبيه، وهو الرجل المعجب ب"الرجل القصير القامة الذي لا يكف عن الحركة"، بأن يسمح لابنه بالذهاب إلى الإعدادية الأمازيغية بآزرو، وهي مرتع أطر الجيش العليا في المستقبل. تميز فيها آيت قدور، بعد ابن المدير، كما تدعو إلى ذلك الأصول. ولأن هذه النتائج الجيدة زادت من ثقل كفته، فإنه تابع عمله بالمدرسة العسكرية بمكناس.

وفي سنة 1956، كان التحضير للاستقلال. وبعد أن زار المدرسةَ الحسنُ الثاني، أُفرِغَت الأقسام من كان فيها حتى تستقبل أفواجاً جديدةً تم انتقاؤها بعناية. أُرسِلَ أغلبُ التلاميذ السابقين إلى ثانويات مجاورة لإتمام تكوينهم قبل أن يلتحقوا بالجيش. عَلِمَ آيت قدور بالأمر عند عودته من تداريبه الصباحية. أخبره صديقه الذي يسبقه بفوجٍ أنه (أي آيت قدور) سوف يصبح شرطيا. أخبره بذلك وهو يقلد، في شيءٍ من الاعتزاز و المرح، حركات شرطي المرور. كان اسم صديقه هذا … الدليمي. وأما جل باقي الرفاق فقد تم توجيههم إلى الجندية. وهذا حال الأخوين عبابو اللذَين سوف يدبران في المستقبل انقلاب الصخيرات، واللذَين كانا يوجَدان كذلك في الفوج الأول.

في هذا الجو المفعم بالتردد، التحق آيت قدور بثانوية مكناس. وتكلفت تقلبات التاريخ وغليانه بأن تجد له موهبة. فقد دفعته قضية قناة السويس وتحويل طائرة قادة جبهة التحرير الوطني إلى الخروج في أول مظاهرة قمعتها القوات النظامية بعد الاستقلال. فتساءل آيت قدور كيف يمكن لمظاهرة للتضامن مع البلدان العربية الشقيقة أن تُقمَع في المغرب المستقل؟

ولربما لأنه لم يجد جوابا عن سؤاله، فقد تخلى عن الجيش ليلتحق بمدرسة مسيري الأوراش بالرباط. تخرج منها على رأس دفعته وتطوع للعمل في ورشةِ طريق الوحدة، وهناك التقى لأول مرة بالمهدي بن بركة، الرجل الذي يدين له آيت قدور دينا غير مباشر بتألقه ونجاحه. بعد الورشة، تابع آيت قدور تكوينه بالمدرسة الصناعية بالدار البيضاء، وتخرج منها من جديد على رأس دفعته وحصل على منحة لتحضير دبلوم مدرسة المهندسين بباريس. وفي ختام المباراة، اقتُرِحت عليه مدرسة الطرق والجسور. إنه أكبر امتياز لشاب مغربي في فرنسا خلال سنة 1961 في الوقت الذي كانت فيه الجزائر لا تزال دائما تتخبط في الحرب. ولكن آيت قدور كان يتميز بالحيطة والحذر اللذين ورثهما عن أصوله البدوية. فهو لا يغامر في الأمور التي يرى بأنها تتجاوز مقدراته. فرفض الاقتراح.

داعي المصلحة العليا للدولة

أنهى إيقاف إطلاق النار في نونبر من سنة 1963 "حربَ الرمال"، وأفضى إلى تمهيد دبلوماسي وضع أسس التفاوض على حل الخلاف حول الحدود بين المغرب والجزائر. أرسل الرئيسُ الجزائري أحمد بنبلا وزيرَه في الاقتصاد البشير بومعزة إلى الرباط. وزاد من غرابة اختيار وزير الاقتصاد للقيام بهذه المهمة أن الوزير الجزائري في الخارجية أرسله بنبلا، وفي الوقت نفسه، إلى باريس ليفاوض في ملف اقتصادي. لقد كان قلب الأدوار

هذا مقصودا، وهو يدل، إن هو تُرجِم إلى اللغة الدبلوماسية، على أن بنبلا لم يكن راضيا البتة.

وصل بومعزة إلى الرباط يوم 25 أكتوبر 1964. وخلال المفاوضات قال له الحسن الثاني:

— إني أتحداكم أن تجدوا أثرا لمساندتنا لحركة آيت احمد الانفصالية[26].

وبالفعل فإن الحسين آيت احمد، وهو عضو تاريخي في جبهة التحرير الوطني، كان قد لجأ إلى الجبال في منطقة القبايل. لقد كان في السجن عندما بدأت الشكوك في ذهن مسيري الجزائر، تحوم حول اتفاقٍ بين مقاتلي الجبال التابعين لآيت احمد[27] وهجوم القوات المسلحة الملكية إبان "حربٍ الرمال". وواصل الحسن الثاني قائلا:

— وفي المقابل عندي تقرير مفصل عن الأنشطة التي دبرها معارضون مغاربة في الجزائر.

وأشار إلى أحد مستشاريه الذي سلم البشير بومعزة تقريرا ضخما به أسماء وعناوين وتفاصيل تهم أطر جيش التحرير الوطني اللاجئين في الجزائر. فقال الحسن الثاني موضحا الأمور:

— لا أرى مانعا في أن تُمَولوهم. اعْطُوهُم حتى فيلات على شاطئ آزير، ولكن، وعلى وجه الخصوص، لا تعطوهم أسلحة !

كان البشير بومعزة يجهل الأمور الأساسية في القضية، فهو وزير الاقتصاد، وكانت علاقته الوحيدة بالمعارضة المغربية تقتصر على التوقيع على رخص التمويل التي كانت تستفيد منها. وعند عودته إلى الجزائر العاصمة، قدم البشير بومعزة الملف إلى بنبلا. فكانت الهدنة قصيرة، ذلك أن بومدين، الذي كان حينها وزير الدفاع الجزائري، لم يكن يرى في تلك الفترة أي مصلحة في تهدئة العلاقات المغربية-الجزائرية. لقد ترك في نفسه فشلُ "حرب الرمال" رغبةً في الانتقام. وبعد يومين من عودة البشير بومعزة، استغل مناسبة الاحتفال بالاستقلال واستعرض في الجزائر العاصمة فرقةً من المدرعات تحمل اسم المدن التي كانت موضوعَ النزاع والواقعة على خط الرسم الحدودي. غادر الوفد المغربي المنصة تعبيرا عن احتجاجه. ومع ذلك فإن هذا الحادث لن تكون له عواقب: فبنبلا سوف يُهدي إلى الحسن الثاني عربونَ حُسنِ نية. إذ أمر رئيسُ الجزائر الثوارَ المغاربة بإغلاق معسكر التدريب بأوواطا. وخلال ذلك، فوجئ بكون بعض أعضاء القيادة العليا في المنفى قد انصاعوا للأوامر دون مجادلة وبتفان. وأما آخرون، ومنهم سعيد بونعيلات، فقد عارضوا ذلك معارضة شديدة.

26 الفقرة الموالية مأخوذة من حوار للمؤلف مع البشير بومعزة.

27 أرسل الاتحاد الوطني للقوات الشعبية خمسة محامين من المغرب للدفاع عن آيت احمد خلال محاكمته.

ساهمت مبادرة شيخ العرب، الميؤوس منها، في تفجير الخلافات في واضحة النهار. ويتذكر سعيد بونعيلات عندها الصغيرَ بوخروبة الذي كان يحملُه من قَبلُ على كتفيه في جبال الريف والذي أصبح العقيد بومدين، وزير الجيش. لم يدع بومدين أي فرصةٍ تمر دون إظهار عدائه للنظام الملكي العلوي. ولكن مبادرة سعيد بونعيلات كانت فاشلةً. لم يكن بومدين يستطيع التوسط. إذ إن قرار بنبلا لا رجعة فيه. فقد كان حل مشكل الحدود مرهونا في ذهن الرئيس الجزائري بسحب المساعدة العسكرية المُقَدمة إلى المعارضة المغربية. فاستُؤنفت ثانية العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر والرباط في فبراير من سنة 1964. وتحت إشراف منظمة الأمم المتحدة، نُزع السلاح عن المناطق التي عرفت الحرب وغادرها الجنود وبدأ تبادل الأسرى. عاد البلدان إلى المسار المغاربي في شهر نونبر ووقعا معا 14 اتفاقيةً وبروتوكولا.

وخلال هذه الفترة، أصبح 250 مناضلا مغربيا بلا عون ولا سند في الجزائر العاصمة. عاد العديد منهم إلى المغرب، وباحوا لبوليس الحسن الثاني بمعلومات قيمة. بل إن بعض المناضلين الذين تكونوا في أوواطا التحقوا بقوات الشرطة وجُمعوا داخل فرقة خاصة من فرق مصالح الأمن التي يراقبها وزير الداخلية. وهكذا أصبح العديد من العناصر التي كونها الثوار المغاربة هم أنفسهم جلادي هؤلاء الثوار فيما بعد.

الحزب الثوري

عندما علِم آيت قدور سنة 1965 بالعفو عن المدانين في محاكمة مارس من سنة 1964، رحلَ توا إلى مدينة الرباط. التقى ثانيةً بالفقيه البصري وعمر بنجلون ومومن الديوري خلال عشاء أقامه عبد الرحيم بوعبيد، يوم 15 أبريل من سنة 1965، احتفالا بإطلاق سراحهم. كان المُرادُ من العفو الملَكي وإطلاقِ سراح "منظمي مؤامرة 1963" هو أن يكونوا مبادرة للتصالح مع الاتحاد الوطني للقوات الشعبية غداةَ انتفاضات الدار البيضاء التي كادت تقلب مجرى التاريخ.

ففي يوم 23 مارس من سنة 1965، وعند صدور مذكرة دوريةٍ لوزير التربية الوطنية توجه التلاميذ المتقدمين في السن إلى تعليم تقني غيرٍ موجود، خرج تلاميذ الثانوي، يؤطرهم الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، ثمَّ خرج أولياؤهم كذلك، في مظاهرة دفعت ساكنة الدار البيضاء إلى النزول إلى الشارع. إذ إن كثافة السكان الكبيرة داخل المدينة والبطالة والبؤس المتزايد من جهة، والاغتناء اللامشروع والفساد المتفشي والقمع من جهة أخرى، شكلت جميعها وضعا قابلا للانفجار. فقد ألقت مدنُ الصفيح بالدار البيضاء، وهي الميدان الحقيقي لإنجاز المعجزات، تحت وطأة البؤس والمهانة، ألقت بإحباطها في وجه المحظوظين الميسورين.

أعاد أوفقير، وهو وزير الداخلية منذ غشت 1964 في حين أصبح الدليمي وفي اللحظة نفسها المدير العام للأمن الوطني، أعاد الهدوءَ بطريقته الخاصة. إذ وضع رهن إشارته مجموعات من المدرعات على المحاور الاستراتيجية بالمدينة. فكان المتظاهرون، وهم في أغلبهم من تلاميذ المدارس الثانوية ومن العمال، يحصدهم رصاص الرشاشات التي وُضِعت في الأزقة. ويحصدهم كذلك رصاص طائرة مروحية كانت تحلق فوق رؤوس المتظاهرين. وبما أن الثقة لا توضع إلا في أهلها، فإن الإشاعات تقول بأن القناص الماهر الذي كان في طائرة الهيليكوبتر لم يكن سوى أوفقير نفسه. غدت الدار البيضاء مدينةً مُحاصَرةً، وامتلأت المقابر الجماعية وبلغ إحباط الشعب أقصى مداه. ووصلت حصيلة المذبحة، وهي الحصيلة التي تختلف حسب المصادر، إلى مئات القتلى.

ومن هنا نفهم مبادرة الصلح التي قام بها القصر الذي كان في نيته أن يدفع الاتحاد الوطني للقوات الشعبية إلى مواقف أكثر اعتدالا. فمبادرات التقرب من المعارضة[28] كانت قد بدأت منذ سنة 1964. وهذه المرة تسارعت المبادرات وبما أن الحزب كان قد طلب عفوا شاملا، فقد أُطلِق سراح قادته المسجونين. وربط الحسن الثاني العلاقات مجددا مع قادَة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية على أعلى مستوى.

وكان تنظيم الحزب، تحت القيادة المترددة لثُلة من القادة الذين نجوا من المنفى ومن السجن، قد تجاوزته الأحداث. كان القادة الذين غادروا السجن واعينَ بالأمر، فوضعوا نصب أعينهم أولوية إعادة تنظيم الحزب. كان غرضهم هو أن يجعلوا منه، وفي الآن نفسه، أداةً لتعبئة الجماهير وجهازا للأعمال الثورية[29].

جعل ثلاثة رجال من هذه المهمة قضيتهم المشتركة: إنهم عمر بنجلون وعبد الرحيم بوعبيد والفقيه البصري. كان اختلاف طبعهم أمرا ملحوظا، ولكنهم كانوا مع ذلك متكاملين.

كان عمر بنجلون جامعيا ونقابيا. كان رجلا من الشعب ذا ثقافة موسوعية، يرتاح على حد سواء في الخطب الشعبية وفي التحاليل السياسية. لقد كان محاميا متحمسا في كلامه ومناضلا حركيا لا يعرف التعب. لقد كان فريدا متميزا في عملية تعبئة الحركات العمالية. فتكلف بدور تسييس البروليتاريا وتأطيرها من أجل اقتلاعها من التوجه النقابي الحِرفي الذي لا يمتلك آفاقا سياسية.

---

28 حُولت أحكام إعدام المدانين في مارس 1964 إلى الاعتقال مدى الحياة في غشت 1964. كان عبد الرحيم بوعبيد قد عاد إلى المغرب. كما سُمِح للمعارضة أن تقدم ملتمس رقابة ضد الحكومة في يونيو من سنة 1964. بل إن جلسات النقاش بثتها التلفزة، وهو الأمر الذي نزع الثقة عن البرلمانيين المقربين من السلطة. فبدأ الحديث ثانيةً حينها عن حكومة اتحادٍ وطني كان من المتوقع أن تؤول إلى الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

29 وكمؤشر على هذا، في الفترة نفسها، نُشِر النص الذي قدمه ابن بركة لمؤتمر سنة 1962 في صيغته غير الملطفة بعنوان "الاختيار الثوري".

أما عبد الرحيم بوعبيد فقد كان ذا ثقافة كونية. محام من حيث التكوين. وسبق له أن كان عضوا. إلى جانب المهدي بن بركة. في الطّليعة الّشابة لحزب الاستقلال. ثم التحق به في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. كان الرجل منظما لا مثيل له. وكان كذلك دبلوماسيا بارعا. فقد أصبحت له. ابتداءً من مفاوضات إكس ليبان مرورا بوزارة المالية. ثم بمنصب أول سفير مغربي بباريس. أصبحت له سمعةَ المفاوض العارف اللبق. لقد كان محاور القصر والممثلين الأجانب. يتظاهر باحترام القانون وذلك بغرض خدمة الإختيار الثوري وكذا إعطاء طابع تنظيمي لثورة ما فتئت تنذر بالاندلاع.

وأما الفقيه البصري. ولقب الفقيه يعني قارئ القرآن. فقد كان مقاوما كله إصرار. وهي السمعةُ التي زكت صورته على أنه رجلٌ يعمل في الظل. كان طالباً بجامعة ابن يوسف بمراكش يتردد على الحلقة الصغيرة التي ينظمها أولئك الذين سيصبحون قادة جيش التحرير الوطني. وأصبح الرجل هو نفسه رمزا للمقاومة المسلحة ضد الاستعمار. فظهر بمظهر المعارض المتشدد للملكية. رافعا بهذه الصفة شعارَ "البديل بالسلاح". إنه الرجلُ الذي بإمكانه أن يُحدِث تغييرا في حالة حدوث أزمة سياسية.

هذه الأوجه الثلاثة اجتمعت في شخص المهدي بن بركة: كلامٌ متحمس لتعبئة القواعد المناضلة. ويدٌ ممدودةٌ للتفاوض وإيجاد حل وسط. ويد تحمل السلاح في حالة ضربة قاسية.

ولكن الاتفاق كان يبدو صعبا. فقد كان الحسن الثاني يتظاهر بالبحث عن حل سياسي للأزمة. فقال للمهدي بن بركة الذي كان من قبل أستاذَه في مادة الرياضيات بالمدرسة المولوية: "لدَي معادلة يجب حلها". فبُعِث قريبٌ للملك. مولاي علي. وهو سفير المغرب بفرنسا. إلى المهدي بن بركة ليتفاوض معه في شأن تشكيل حكومة اتحاد وطني. ولكن المهدي بن بركة وضع شروطا. كان لحيطته وحذره ما يبررهما. ففي ذلك التوازن الهش بين الحل الوسط والمجابهة. كانت الكلمة الأخيرة للمجابهة.

ففي 7 يونيو من سنة 1965. أعلن الحسن الثاني حالة الاستثناء وأوقف العمل بالدستور الذي كان قد منحه قبل ذلك بسنتين. وفي يوم 29 أكتوبر. اختُطِف المهدي بن بركةِ واغتالته مجموعةٌ من اللصوص الأشرار ورجال المخابرات الفرنسيةِ العاملين لحساب أوفقير. واعتُقِل عمر بنجلون في مارس من سنة 1966. وغادر الفقيه البصري المغربَ في ماي من سنة 1966.

من تازة إلى معسكرات دمشق

في سنة 1963. كان ضمن طلبة كلية العلوم الاجتماعية ببغداد طالبٌ مغربي ممنوح. إنه محمد التوزاني. لقد كان الأمر بالنسبة إلى الطالب الشاب استمرارَ مشوار

دراسي بدأه في جامعة القرويين الشهيرة بفاس، وهي إحدى معالم الإسلام الفكرية، قبل أن يتخصص في التعليم الثانوي بمدينة الدار البيضاء. بدأ مشواره الدراسي عصاميا، وهي التجربة التي يتقاسمها مع عدد كبير من الشباب الذين كانوا في مستوى من الفقر لا يسمح لهم بتمويل تمدرسهم.

وُلد التوزاني بتازة، في شمال البلاد، من والدِين فلاحَين. وكان الابنَ البكر لعائلة من ستةِ أطفالٍ. تربى على احترام الواجب، فانتبه وهو لا يزال صغيرا إلى وجود عالَمين منفصلين، عالمِ المالكين وعالم المملوكين. وهكذا تعلم أن يلزم حدوده، تلك الحدود التي ترتهن بمدى تسامح الملاكين. ولكنه لما بلغ سن الثانية والعشرين، التحق بصفوف الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، حزب المتواضعين البسطاء، فتسبب له انضمامه هذا في الاعتقال صحبة مجموعة من رفاقه. علمته هذه التجربة البليغة أن الطموحات عند الفقراء يُعاقَب عليها بالسجن.

وهكذا توجه بنظره توجها طبيعيا نحو العراق الثورية التي كانت في ذلك الحين تجلب العديد من الشباب العرب الطامح إلى التحرر. أكيد أن الواقع اليومي في عراق الستينيات كان أقل رخاءً مما كان يتصوره طلبة جامعة الدار البيضاء. ولكن السلطة الملَكية كانت قد خُلِعت، وهو في حد ذاته الأمر الذي زرع الحماس ثانية في القلوب. ولهذا فإن السلطة لم تعد موضع امتيازات: فقد كان بوسع الطالب المغربي الشاب الحاصل على منحة أن يتحاور بسهولة مدهشة مع وزراء تخلصوا من هالتهم. وهي أمور كانت مع ذلك تثير الإعجاب أكثر من ذلك البذخ المنحط الذي يعرفه النظام الرجعي. لم تعد السلطة مسألة امتيازات، بل أداةً يمكن الوصول إليها لتسريع مجرى التاريخ: فخلال سنة واحدة، شهد هذا الطالب محاولتين متتاليتين لقلب النظام. وزادت الأخبارُ التي كانت تصل من المغرب والتي كانت تهم الإشاعات البعيدة عن "حرب الرمال" والحكم بالإعدام غيابيا على المهدي بن بركة، زادت من رغبته المبهمة في تقديم حل جذري لمشكل بلده، حل جاء ليبحث عنه، في حيرة وغموض، في بغداد.

وخلال السنة الأولى من الدراسة، توصل التوزاني برسالة من حميد برادة، الذي كان حينها رئيس الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، يدعوه فيها إلى موعد في دمشق عند أحد المناضلين ليتابع تكوينا عسكريا في سوريا. كان التوزاني قد رأى من الأمور وبحث [في الأسباب والحلول] ما يكفي ليفعل فيه هذا الاقتراح فعله.

بات اسمُه خالد. إنها هوية جديدة وقدر جديد. ولكن في دمشق كان الوقت يمر دون أن يأتي بالوسائل الموعودة. فاستبق خالد الأمور بفعل الحماس الكبير الذي انتابه إبان لقاء قصير مع المهدي بن بركة خلال جولة قام بها هذا الأخير إلى العاصمة السورية. وقضى على آخرِ توجساته عرضٌ قدمه الأستاذ حول الحاجات الضرورية للحزب فيما

بخص الأطر الكفأة. وفي اليوم الموالي، ذهب عند وزير الشؤون الخارجية السوري والمكلف كذلك بالعلاقات مع الحركات التحريرية. فحتى ذلك الوقت لم تكن حياته تعرف سوى الرفض تلو الرفض. وها هو يرى أن كل شيء سوف يتغير. أحس خالد لأول مرة أن طموحاته لم يعد يعترضها أي شيءٍ. ولهذا، وهو يتحدث وكأن الأمر طبيعي عادي، طلب السماح له بمتابعة تكوين خاص بربابنة طائرات المطاردة في الجيش الجوي السوري. ودفع الوزير المعني، حسن مريود، المحاباة إلى حد الشروع في القيام بالإجراءات الضرورية تماما كما يفعل الكبار عندما يرضخون لنزوات الصغار. وعلى أي حالٍ ألا يتعلق الأمر بحلم من أحلام الطفولة؟ كان الوزير يعرف معرفةً جيدة أن الاتحاد الوطني للقوات الشعبيةً سيعارض هذه النزوة. وبالفعل ما الذي سوف يصنعه حزبٌ بربانٍ طائرةٍ مطاردةٍ لا يملك طائرة؟ وجاء أمرٌ مقتضبٌ من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية نبث في المسألة: على خالد أن يتدرب في صفوف فرق المشاة.

وبعد مرور سنتين، يوم 8 مارس من سنة 1966، تلقى خالد الذي أصبح ضابط مشاة في الجيش السوري زيارةً: إنه وفد من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية يضم على وجه الخصوص الفقيه البصري وعبد الرحمن اليوسفي وبنسعيد الذين كانوا في زيارة عابرة إلى دمشق لحضور الاحتفالات بالذكرى الثالثة لوصول حزب البعث إلى السلطة. بدأ قادة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية زيارةً بالمناسبة للمناضلين المتواجدين هناك. كان خالد ضمن المدعوين. كان اللقاء مهذبا لا جديد فيه على ما يبدو، ولكن خالد أحس فيه ببوادر مصير جديد.

منذ اغتيال المهدي بن بركة ، قطعت سوريا علاقاتها الدبلوماسية مع المغرب. ولذا لم يعد بمقدور خالد أن يجدد جواز سفره. ولكن ذلك لم يكن مهما في نظر خالد ما دام أنه كان من أولائك الذين لا يعترفون بأي حدود. وفي يوم 17 يونيو 1967، وصل خالد إلى الجزائر العاصمة، حاملا جواز سفر دبلوماسيا سوريا. ومباشرة بعد وصوله، غاص في الشبكة السرية المغلقة. تعلم وتدرب في هذه المناطق المتسترة وتأقلم مع أسرار هذا الوسط الذي أفصح له عن المتخفي وراء خطاب المناضلين. فقد أصبحت المنظمة في الجزائر العاصمة تحت سيطرة الفقيه البصري الذي بدأ إعادة تنظيم شبكاتها.

ولئن كان انقلاب بومدين يوم 19 يونيو 1965، لم يأت بتغيير سريع وفوري، فإن وصول الفقيه البصري، بعد أقل من سنة عن ذلك، قد ترك بصماته. ولأن الجبلي وبنسعيد وحميد برادة لم يكونوا متفقين معه، فإنهم غادروا العاصمة الجزائر ليعيشوا في منفى جديد بباريس. ويفسر حميد برادة الأمر قائلا: "قبل وصول الفقيه البصري، كنا عازمين على قطع كل علاقة مع عهد الارتزاق ومد يد المساعدة. وهي الأسباب التي دفعتنا إلى تبني مقياس الكَيف في مناهج الاستقطاب والتنظيم"." والحال أنه منذ

وصول الفقيه البصري، ورغم أنه كان يوافق شكلا على تحليلنا، فإنه كان قد عاد إلى المناهج التي كنا نريد التخلي عنها[30]".

ويوضح الجبلي أن: " بنسعيد وأنا كنا قد التقينا سرا بالفقيه البصري بستوكهولم قبل أن يغادر رسميا المغرب. اتفقنا عندها على أن ندفع بالكفاح المسلح إلى الطريق السياسي الذي حدده الحزب، تحت قيادة مشتركة وبدون تنازلات للجزائريين. ولكن بينت باقي الأحداث أنه لم يكن يعير إلا أهمية قليلة لمثل هذه الالتزامات[31]".

زادت هذه القطيعة من شساعة الهوة التي أخذت تفصل بين "البلنكيين[32]"، وهو المصطلح الذي يَنعت به خصومُ الفقيه البصري مناصريه و"الثوار في الغُرَف"، هي الجاملة التي يرد بها عليهم هؤلاء.

لم يكن الفقيه البصري يقيم في الجزائر العاصمة إلا إقامة متقطعة. فقد كان يمضي جل وقته، يجوب العواصم العربية والأوروبية ليجمع المناضلين تحت إمرته. ولأنه كان خطيبا بارعا ورحالةً لا يعرف التعب، فإنه حاك شبكة من العلاقات مع مسؤولين عرب كان يطلب منهم المساندة المالية واللوجستيكية. وقد استطاع الفقيه البصري، بقدر غير قليل من العناء، إقناع بوراس، رفيقه في جامعة ابن يوسف، بأن يسانده في عمله. ولكن وفي سنة 1967 ، أصيبَ القائد السابق لجيش التحرير الوطني بعمى متزايد فأصبح أقرب إلى الوصي الأبوي الذي كان مقاوما سابقا ، منه إلى الثوري المتأهب للرحيل إلى الجبهة. ومع ذلك فإن سمعته كقائد تاريخي جعلت منه حليفا ممتازا للفقيه البصري الذي كان يبحث عن مصداقية في نظر المناضلين. ولأن بوراس كان شخصا غير مرغوب فيه في الجزائر لكونه ولا شك طالب وبشدة بمغربية منطقة بشار، فإنه استقر في باريس في رقم 20، بشارع سيربونت بالدائرة الخامسة، حيث كان يلتقي أعضاءُ الاتحاد الوطني للقوات الشعبية واللاجئون المارون من العاصمة الفرنسية.

يحتفظ خالد بذكرى دقيقة عن لحظات الوحدة والانعزال هاته في إطار العمل السري بالجزائر: "طيلة شهور عديدة، كان الشخص الوحيد الذي بقيت على اتصال به هو الفقيه البصري، وأحيانا، سعيد بونعيلات". وقد تسببت له هذه الوحدة والعزلة في مفاجآت أليمة.: "اعتقلتني الشرطة الجزائرية بعين الطورق عندما كنت ذاهبا إلى وهران صحبةَ مناضل سري. ولأنني كنت أحمل جواز سفر سوري فقد اعتبروني جاسوسا. أمضيت ثلاثة أيام في مخفر الشرطة بوهران قبل أن يُفرِّج عني[33]". كان بإمكان خالد أن يجنب نفسه متاعب هذه الزيارة إلى السجون الجزائرية لو صرح بهويته لرجال الشرطة. ولكن لم يكن ذلك بالإمكان أمام رفيقه في السفر الذي كان من المفروض

---

30 حوار للمؤلف مع حميد برادة.

31 حوار للمؤلف مع عبد السلام الجبلي.

32 تعبير مأخوذ من اسم لويس أوغيست بلانكي، وهو رمزٌ من رموز ثورة 1848 بفرنسا، ويرمز في تعبير السياسيين إلى موقف لا يهتم إلا بالنتيجة، حيث النتيجةُ تبرر الوسيلة.

33 حوارٌ للمؤلف محمد النوزاني، المعروف بخالد.

فيه أن لا يعرف لا هويته الحقيقية ولا دوره داخل المنظمة. فقد كان على المناضل السري أن يكون جاهلا لهويات رفاقه وذلك حتى لا يبوح إلى جلاديه في حالة اعتقاله سوى بأقل ما يمكن من المعلومات.

ومع ذلك فخالد لا يأسف لمغادرته دمشق. بل على العكس من ذلك، إذ إن نداء الفقيه البصري قد انتزعه من مهمة لا اعتبار لها. سوف يتحدث عنها باقتضاب شديد بعد مرور سنوات. كانت حرب الستة أيام بين إسرائيل وجيرانها قد اندلعت، ولكن الإعداد لها كان قد بدأ منذ شهور عديدة. كان خالد، الضابط المدرس، قد تكلف بتدريب الطلبة تدريبا عسكريا، وهي الوظيفة التي كانت تجبره أحيانا على مطاردة العصاة منهم.

وفي الجزائر العاصمة، وبعد أن أصبح خالد معزولا عن العالم، وُضع في فيلا. سُلمت له نُسَخٌ من خرائط القيادة العليا المغربية ودراسة عن الجيش المغربي وطُلب منه أن يشتغل عليها لإعداد استراتيجية لحرب العصابات في المدن والبوادي. استعرض الرسوم الطوبوغرافية ومواقع الثكنات العسكرية وأعدادَ الفرق العسكرية حسب العمالات والترتيب الهيكلي للقيادات العليا ونوع الأسلحة وذلك ليحدد أفضل المناطق لخلق بؤر ثورية.

ولمساعدته في عمله هذا، قُدم له طالبٌ يبلغ من العمر خمسا وعشرين سنة، اسمه عبد المومن، وهذا هو لقب أحمد بنجلون، أخ عمر، القائد النقابي الذي اعتُقِل بالمغرب في مارس من سنة 1966.

من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب إلى الكفاح المسلح

كما هو شأن خالد، وُلد أحمد بنجلون في الشمال الشرقي للمغرب. أمضى جل طفولته بقرية في منطقة وجدة، تبعد بثلاثين كيلومترا عن الحدود الجزائرية، وتعبرها تجارة الحدود. ورغم أن جد أحمد بنجلون كان ينحدر من عائلة بورجوازية، فإنه أصبح فقيرا عند مغادرته مدينة فاس. ذلك أن الحرب ضربت ضربةً قاتلةً أولئك الذين لم يعرفوا كيف يتكيفون مع اقتصادها. وما دام ضياع الممتلكات المادية يشحذ أكثر الإحساس بالكرامة، فقد أصبحت عائلة بنجلون مرتعا للاحتجاج بالمنطقة. وقد شحذ موهبَتَه أخواه اللذان يكبرانه سنا، وهما عمر النقابي والزبير الأستاذ بالثانوي، وكلاهما من أشد المتشبثين بالاتحاد الوطني للقوات الشعبية. وفي صيف سنة 1963، اعتُقل أخواه. أطلق سراح الزبير بعد شهر ونصف. ولكن عمر، الذي اعتُبِر مفقودا في البداية، قُدم للمحاكمة بتهمة "التآمر ضدَّ الملَكية"، وبات يتهدده الحكم بالإعدام. عندما زاره أحمد بسجن القنيطرة، طلب منه عمر وألح في الطلب بأن يواصل تعليمه في الجزائر. في الواقع، كان غرضه هو أن ينجو أخوه من انتقامات البوليس المحتملة.

وافق أحمد وذهب إلى الجزائر العاصمة سنة 1964. لم يتم الأمر دون عناء، إذ كاد يُعتقل لأنه يشبه أحد رفاق شيخ العرب. ولكن لم تدم تجربته في الجزائر طويلا. فبعد أن مرت سنتان، غادر أحمد بنجلون الجزائر العاصمة ليحل بباريس. ولكن التاريخ لاحقه. فلما تم الاتصال به بالحي الجامعي، قبِلَ موعدا سريا في شقةٍ بشارع سان-دومينيك. ولما وصل إلى المكان المحدد، استقبله الفقيه البصري. كانت امتناعات احمد بنجلون قوية. فقد كانت ذكرى الانشقاقات الداخلية في الحركة الطلابية والمنافسات التي تقسم صفوف المقاومين المستقرين في الجزائر العاصمة ما زالت قوية حاضرة في ذهنه.

ولكن وسط خضم اختلاط الأمور هذا، كان الفقيه البصري يقترح مسارا واضحا: الثورة المسلحة. وقد وجد الرجل الكلمات المناسبة التي جعلت خيبة أمل أحمد بنجلون تتحول إلى رغبة في الانتقام. وعند بداية صيف سنة 1967، عاد احمد بنجلون إلى الجزائر العاصمة التي كان قد غادرها قبل سنة من ذلك، عندما كان لا يزال طالبا ومناضلا في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. والآن، هاهو يعود إليها سرا ليصبح ثوريا محترفا. وأصبح اسمه السري عبد المومن.

سوف يدفع كذلك الفقيهُ البصري بعسكري قديم ليساعد خالد واحمد بنجلون في مهمتهما. كان رجلا متفردا ومساره بدوره مسار متفرد لا نظير له. اسمه محمد بن عمر لحرش[34]. وبمجرد وصوله إلى الجزائر العاصمة، أصبح يحمل اسم أبي فاضل. عمره 53 سنة، ولهذا فهو من قدماء المقاتلين. كان من بين الأوائل الذين ساهموا في حملة إيطاليا خلال الحرب العالمية الثانية إلى جانب أوفقير، وهو عضو في الحزب الشيوعي المغربي، ولهذا أرسله الحزب إلى الفيتنام سنة 1954 بطلبٍ من هو شي مينه. كان الغرض حينها هو تأطير المسجونين والفارين من الجيش المغاربيين المكدسين في معسكر فييت مينه. تفانى الرجلُ الذي يعرفه الفيتناميون باسم آن ماه، وهو المناهض للاستعمار والشيوعي المقتنع. تفانى الرجل في عمله ولم يدخر جهدا. بل إنه وسع نشاطاته إلى حد التشويش على صفوف العدو بعد أن استقطب العديد من الفارين المغاربيين من الجيش ودفعهم لمعانقة قضية فييت مينه. فساهم على رأس فرقته المكونة من "المتطوعين" المغاربيين، في الهجوم الناجح على ديان بيان فو. وهو الإنجاز الذي سوف يدفع الجنرال جياب، وهو مهندس انتصار فييت مينه على ديان بيان فو، إلى ترقيته.

وخلال هذه الفترة، وفي المعسكر الخصم، كان مغاربة آخرون يكافحون من أجل إنقاذ ما تبقى من إمبراطورية استعمارية متهاوية. كان أشدهم تفانيا في عمله هو أوفقير، أخوه في السلاح إبان الحملة الإيطالية.

عاد أبو فاضل إلى المغرب في الستينيات. ولكن رجل العمل والفعل هذا سرعان ما أحس بالضيق في حزب شيوعي مغربي يتعثر داخل إصلاحوية لا منفذ لها. لم

34 عبد الله ساعف، قصة أن مح، منشورات لارماتان، 1996.

وفي صيف سنة 1967، كان اليزيد يبلغ من العمر ثلاثا وعشرين سنة عندما دخل معسكرا بآرزيو قرب وهران ليتلقى تدريبا دام ثلاثة أشهر: "كان المسؤول عن المعسكر هو النمري والمدرب الرئيسي هو الفرشي. في تلك الفترة، كنت أتابع تكوينا يخص مهنة الصحافة بجامعة الجزائر العاصمة بفضل منحة من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية[35]". كان الحزب يقصد بهذه المنحة أن يحفظ سلامة أحد زعماء مظاهرات الدار البيضاء في مارس من سنة 1965. إنه عمل ثوري يستمد جذوره من حياة ملؤها خيبات الأمل: "كنت عندها ما أزال مراهقا عندما أغلق المعمل الذي يُشَغل أبي أبوابه. عادت أسرتي إلى قريتها الأصلية". بات اليزيد إذن يعتمد على نفسه، يشتغل في ظروف متقلبة في أعمال بسيطة حتى يستطيع مواصلة دراسته بالثانوي. إنه مصيرٌ يشترك فيه عددٌ من الشباب القرويين الذين ألقت بهم ظروفهم في مدينة الدار البيضاء لينضافوا لا محالة إلى تلك الأعداد الكبيرة من المحرومين ضعفاء بروليتارية المناطق الحضرية. كانت مدن القصدير بابن امسيك عالَمه، وشبيبة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية أملَه. كان يناضل في إطارها منذ ثلاث سنوات. وفي الجزائر العاصمة، كان المناضلون الشباب في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية تحدوهم أحلام تحقيق الفتوحات. فقد أصبح للمثال الجزائري منافسون. ويتذكر اليزيد أنه: "في معسكر أرزيو كان يوجد طلبة مثلي أساسا".

من بينهم طالبٌ اسمه "بودراع". وكما هو شأن اليزيد، فقد كان شبابه هو كذلك كفاحا ضد التهميش. وحتى يتخلص من حياة بئيسة ناجمة عن انتمائه إلى طبقة المحرومين، كان يملك فائضا من الطاقة وقناعة بأن انعتاقه لم يكن إلا بدايةً لتحرير شعبه. اسمه الحقيقي: دهكون. كان قد التقى بالمغرب، قبل سنة من ذلك، الفقيه البصري ليسلمه رسالةً من بنسعيد. وهو الأمر الذي غير مجرى حياته. فقد تلت ذلك اجتماعات سرية ومواعيد خاطفة مع وسطاء أدخلوه في شبكة خليتين سريتين لشيخ العرب بقيتا فاعلتين رغم ذهاب المحارب الذي لا يمكن القبض عليه. أذكى هذا اللقاء فيه موهبةً جديدة.

كان دهكون يرفض أن يستسلم قبل أن يحارب، ولذلك فإنه أعاد جمع الجنود واسترجع الأسلحة التي كانت لا تزال صالحة بتواطؤ مع اثنين من رجال شيخ العرب المقربين، محمد عواد، المعروف بكندا، وحسين أمرير. منذ ذلك الحين، انصب كل اهتمامه على إعادة تنظيم الشبكة. وبما أن هَم دهكون الأول كان هو تعزيز الروابط بين الصفوف فإنه بعث بالعديد من رجاله ليتكونوا في الجزائر. وأما الآخرون، وعددهم زهاء العشرين، فقد أطرهم مدرب جلبه هو شخصيا، بالدار البيضاء. ولما وصل دهكون إلى أرزيو لمتابعة التكوين السياسي العسكري الذي يسهر عليه النمري، كان الرجل قد تغير ولم يعد ذلك المبتدئ في الكفاح السري.

35 الفقرات التالية مأخوذة من حوار بين المؤلف والبركة اليزيد.

ولكن دهكون لم يكن وحده مناضل الاتحاد الوطني لطلبة المغرب الذي يتردد على معسكر أرزيو.

فمن بينهم كان كذلك المدعو بنيحيى[36]. وهو طالبٌ مسجل بكلية الآداب بالجزائر العاصمة، وخَلَف أحمد بنجلون على رأس كتابة الفرع المحلي للإتحاد الوطني لطلبة المغرب. أصله من سوس كما هو شأن دهكون واليزيد، وكانت له سمعة العنيد اللجوج. وفي سنة 1958، طُرد من ثانوية محمد الخامس بالرباط لأنه نظم إضرابات داخل الثانويات.

ويتابع اليزيد: "أنهيت دراساتي الصحافية في الجزائر العاصمة سنة *1968*. وكلفني حينها الحزب بتأطير العمال المهاجرين بفرنسا وبلجيكا وهولندا. ومن الجانب شبه الرسمي، كان الأمر لا يعدو أن يكون تعزيز الروابط مع منظمات العمال المغاربة في الخارج بغرض استقطاب عناصر تلتحق بالكفاح المسلح[37]".

بدأ اليزيد حينها جولةً في أهم المدن الأوروبية، انتهت به في شتنبر 1968 في باريس. دعاه الفقيه البصري إلى اجتماع سري في شقة في الدائرة السابعة، والتقى فيها اليزيد ثانيةً ببنيحيى، رفيقه في السلاح بمعسكر أرزيو وكذا رَجُلَين آخرين يحملان اسم محمود وعجول[38].

كانت بنية عَجول النَحيلة لا تصنفه من بين المؤهلين لتحقيق الإنجازات في حرب العصابات. ولكنه كان يُعوض هذا النقص بنشاط متحمس مندفع، كان يُوظف فيه كل ذكائه. تم تعيين بنيحيى وعجول، وهما على التوالي مسؤولَين عن الاتحاد الوطني لطلبة المغرب في الجزائر العاصمة وفي باريس، لاستقطاب الطلبة. أما محمود، الكتوم اللطيف، الذي كاد يغطيه حماسُ بنيحيى الجارف، فإنه كان يتكلم عن قناعة ودون تكلف. إنه مسؤول عن الاتحاد الوطني لطلبة المغرب في ألمانيا الشرقية. نخمن أن تلك الأطر من الطلبة، الذين يكتشفون في أنفسهم موهبةً مشتركةً، يمثلون في ذهن الفقيه البصري قوةً ناشئةً قادرة على تحقيق الاختيار الثوري على أرض الواقع.

ومنذ قضية المؤامرات، سُحِق ما تبقى من جيش التحرير الوطني ونضب احتياطي المناضلين. ولكن الراديكالية المتزايدة لحركة الطلبة، التي تتسم بانتظار الثورة القادمة، والتي تمتح نموذجها من الثورة الكوبية وحرب الفيتنام، قد فتحت لها آفاقاً جديدة. وهكذا لما وجد اليزيد وعجول وبنيحيى ومحمود أنفسهم أمام الفقيه البصري، التحمت طموحاتهم التحاما كاد يكون فوريا. لقد كانت لحظة قوية زاد منها حماسٌ جعلهم يقفون على كل خصائص وميزات هذا الاجتماع. أوَ كانت تلك الأطر الشابة

---

36 الملحق الصحافي للوزير الأول في "حكومة التناوب" التي شكلها عبد الرحمن اليوسفي سنة 1998 ، في عهد الحسن الثاني.

37 حوار للمؤلف مع البركة اليزيد.

38 العربي عجول كان كاتب الدولة في أول "حكومة تناوب" شكلها عبد الرحمن اليوسفي سنة 1998 في عهد الحسن الثاني.

من الطلبة الذين رُقوا إلى مستقبل مضيء يعرفون أنهم يلِجون، في تلك اللحظة، الميدان المغلق لكفاحٍ لا رحمةَ فيه؟

يندرج هذا اللقاءُ في إطار لقاءات عديدة تكاثرت في أوساط المعارضة المغربية في المنفى. ويؤكد أحد المنفيين السابقين: "كنت قد انسحبت منذ إغلاق معسكر أوواطا. وبما أنني لجأت إلى بلغراد، فإنني لم أكن أتلاقى مع بوراس والفقيه البصري إلا في مناسبات نادرة في باريس والجزائر العاصمة[39]". ومع ذلك فإن الفقيه البصري، بعد أن غادر السجون المغربية، وهو القائد المعروف وصاحب الصيت الواسع عند باقي الحكام العرب، كان يتمتع بكل الميزات التي جعلته قادرا على أن يبعث الثقة ثانية في مناضل متمرس فقد هذه الثقة. وهكذا وعندما ضرب له الفقيه البصري موعدا في باريس بواسطة من بوراس، لبى الرجل الدعوة. جرى اللقاء في مارس من سنة 1968في بيت المهدي العلوي[40]. وجد في بيته الفقيهَ البصري وبوراس وأبو فاضل. وسرعان ما دار النقاش حول إعادة تنظيم الحركة المسلحة. فمنذ إغلاق المعسكرات، لم تعد الجزائر قاعدة آمنة يمكن أن يلجأ إليها الثوار المغاربة آمنين. فالحكومة الجزائرية غدت تفضل خطتها في التنمية الصناعية، ومن ثمة فهي تريد تطبيع العلاقات مع الجيران فزادت من ضغطها على المعارضة المغربية، وأظهرت بذلك نيتها في أنها لا تطيق أي بؤرٍ مسلحة تنطلق من ترابها.

وعند نهاية هذا اللقاء الثاني في باريس، اتفق الحاضرون على احتمال الانطلاق في اتجاهين اثنين ممكنَين: الفيتنام أو بلغاريا. وتظهر هاهنا بصمات أبو الفاضل. وتابع المنفي السابق قائلا: "عند عودتي إلى زغرب، زارني أنا ورفاقاً آخرين بوراس ورجلٌ آخر قدمه لي على أنه محمود. أخبراني بأن قاعدتهم لم تعد لا في الفيتنام ولا في بلغاريا كما تم الاتفاق عليه في البداية بباريس، بل أصبحت في سوريا[41]". وسوف يجد إلحاح حزب البعث السوري الذي كان يعتبر نفسه مقدم الدروس والعِبر إلى من تبقوا من أفراد جيش التحرير الوطني، سوف يجد مجالا يتحقق فيه.

وفي الحين نفسه الذي ضاعت فيه [الأحلام بغَدٍ أفضل] وتواضعت فيه القناعات وتعقلت، أصبح جيلٌ جديد، قلبه مُفعمٌ بالأمل، مستعدا ليحل محل الجيل السابق ليكتب بقية القصة التي بدأت بدايةً غير موفقة. لم يكن هذا الجيل الجديد أكثر طوباوية، ولا أكثر تطوعا من الجيل السابق، بل إن شباب هذا الجيل الجديد وبكل بساطة قرروا أن يوحدوا مصيرهم، عن قناعة، وبدافع الضرورة، أن يواصلوا هذا الكفاح الذي غدا ضروريا لتغيير الأقدار.

---

39 حوار للمؤلف مع مصطفى العماري.

40 كان حينها مسؤولا عن الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بفرنسا، وسوف يصبح سفيرا، ثم مستشارا للوزير الأول عبد الرحمن اليوسفي.

41 حوارٌ للمؤلف مع مصطفى العماري.

يبذل الفقيه البصري مجهودا كبيرا لإقناعه بالانخراط في مشروعه الثوري. ذلك أن ما كان يحس به هذا المناضل الشيوعي الصادق من الكآبة ذات النزعة الدولية قد فعلت الباقي.

سوف يجد أحمد بنجلون عند أبي الفضل تكوينا سياسيا كبيرا وقدرةً متمرسة على التنظيم. ولكن سوف تبدو له مفاهيمه العسكرية فيما يخص حرب العصابات ناقصة ومبتدئة. كان أبو الفضل يبعث فيه إحساسا بأنه مقاتل محارب أكثر مما هو خبير باستراتيجية الكفاح المسلح.

الذين حملوا المشعل ثانية

وبينما خالد وأحمد بنجلون، بمساعدة أبي الفاضل، يضعون اللمسات الأخيرة على دراسة جهاز القوات المسلحة الملكية ويناقشون تقنيات حرب العصابات التي تلائم أكثر الوضع في الميدان، ألح النمري على مواصلة التدريب العسكري. فكان له ذلك. إذ إن القائد السابق في جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب قد التحق بمعسكر الفقيه البصري.

منذ إغلاق المعسكرات بأمرٍ من الجزائريين، والنمري، وهو في ذلك وَفِي لنفسه، يواصل في سرية، متفانيا في أدقّ التفاصيل، الاستعدادات العسكرية التي تحضر لليوم الموعود. ولهذا استقر في عين الطورق، قريبا من وهران، مع مجموعة من المقاتلين من أوواطا من الذين لم يتخلوا عن وفائهم. كان كل واحد منهم قد تلقى الأمر الحازم بأن لا يغادر الثكنة-السجن أياً كان السبب. بل إن إصراره دفع قوات الأمن الجزائرية إلى اعتقاله إبان انقلاب بومدين، وتعذيبه ليعترف بمواقع مخابئ السلاح.

وكما هو شأن النمري، استجابت أطرٌ أخرى من أطر الكفاح المسلح لنداء الفقيه البصري، من بينهم عباس سباطة وحسين الخضار وسعيد بونعيلات. يوجد بينهم كذلك الفرشي الذي استطاع النجاة. لا يبدو أن موت رفيقه شيخ العرب، ولا فراره الثاني الذي لم يخل من مخاطرة من المغرب، لا يبدو أنهما قد زعزعا حماسه. وكأن الفرشي كان يجد في قدرته الخارقة على الاستمرار في العيش المواردَ الضرورية لمواصلة الكفاح. هل هي جرأة من نجا بمعجزة؟ إلا إن كان هذا الثبات والاستمرار ناجّين عن استحالة أن يتخلص الفرشي من ذكرى رفاقه الذين سقطوا بجانبه. ألم يتم التسامح معه بغرض أن يرفع ثانيةً مشعل الكفاح الذي من أجله ضحوا بأنفسهم؟

كان هذا الإصرار وقوة الشكيمة التي لا مثيل لها، هما ما يميز هؤلاء الرجال الذين قرروا أن يجعلوا مصيرهم مصيرا واحدا مشتركا.

التنظيم
(1970-1969)

طائرة شارتر المحملة بالمناضلين

زار النمري خالد يوم 21 فبراير من سنة 1969 بفيلا على شاطئ الجزائر العاصمة. كان الرجلان مرتاحين مطمئنين وشربا القهوة معا. وبعد أن تبادلا بعض المزح، أخرج النمري من جيبه وثيقةً، جوازَ سفرٍ سوري كُتِب عليه اسم حسن إبراهيم. وعندما فتحه خالد، وجد عليه صورته. قال النّمري دون مقدمات:

— سوف تسافر غدا إلى دمشق[1].

كان خالد مناضلا متواضعا مخلصا منضبطا، وكان في الآن نفسه، رجلا عادلا. وإنجازاته وتعلقه الذي لا تشوبه شائبة بالقضية الثورية، كلها أمور تؤهله ليركب مصيرا هاهو النمري يعلن انطلاقة بدايته بجملةٍ واحدة.

سوف يكون ضمن المسافرين زهاء الثلاثين ًمناضلا اختيروا بعنايةٍ، من بينهم الفرشي، الرجل الذي استطاع النجاة.

كان المالكي يبلغ من العمر ثماني عشرة سنة عندما غادر، يوم 22 فبراير من سنة 1969، مطار الجزائر العاصمة مع جماعة خالد. كانوا جميعهم يحملون جوازات سفر سورية. أصبح المالكي واحدا من المسافرين بفضل جذوره وأصله. فهو من عائلة من المحاربين من الأطلس، وحفيد للبطل سيدي حمو، إذن فهو يملك أصولا يستمد منها زاده ومئونته. منذ نعومة أظافره وهو يسمع مرارا الذين يكبرونه سنا يتحدثون عن أن المستقبل الأفضل يجب كسبه وانتزاعه ب"القدرة على الصبر والتحمل" وبـ"الكفاح". ولما بلغ سن الثانية عشرة، وفي أوج عملية القمع سنة 1963، أصبح بدوره مهددا. اعتُقل العديد من أفراد قبيلته. فبات عندها وحيدا، ثم وجد النجاة في الهروب. اجتاز مشيا على الأقدام الجبال ليلتحق بأهله الذين احتموا بالجزائر. اكتشف إذن المالكي، وعودُه لم يشتد بعد، الواقع المر الذي يختفي وراء كلمة

---

1 حوار للمؤلف مع محمد التوزاني، المعروف بخالد.

"الصبر والتحمل". وفي المنفى، برع الطفل المراهق في عملية تسليم الرسائل، إذ أبان عن مواهب مبكرة. كان يلتحق ليلا بالحدود تحدوه في ذلك نزعة قتالية مدهشة، وينسل من تحت الأسلاك الشائكة، ثم، وهو يتلاعب بانتباه حراس الحدود، فيصل إلى المراكز الحضرية ليسلم الرسائل. لقد كان عاملَ تواصلٍ وربطٍ ممتاز، يتجاوز الصعوبات بإحساس طفولي بعدم الاكتراث. فأصبحت القدرة علًى الصَّبر والتحمل عنده لعِباً من لعب الأطفال.

عاش عامل التواصل والربط الممتاز سفَره إلى دمشق على أنه مرحلة جديدة من مراحل مسار تعلمه وتدريبه. فقد بات المالكي الطفلَ الذي تبنته الثورة، فتعلم الكفاح والقتال. ذلك أن بعد مرحلة الصبر والتحمل تأتي مرحلة الكفاح.

بعد وقفة قصيرة في روما، أنزلت الطائرةُ المالكي ورفاقَه بمطار بيروت. والمالكي ما زال يندهش، بعد مرور ثلاثين عاما، من كل هذه الحرية في التنقل: "بجوازات سفرنا السورية، لم يكن عبور الحدود سوى مراسيم شكلية لا غير[2]".

كان محمود يدخن سجارته الرابعة. وكما هو شأن الثوريين في زمنه، كان يستهلك من التبغ الكثير. كان التبغ وسيلة تلهي عن الجوع وعن الملل في الآن نفسه، وهما عدوا حرب العصابات. وقف ينتظر وصول خالد بمطار بيروت وبجانبه أحد الرفاق، ذلك أن خالد يرافق المجموعة الأولى من المناضلين القادمين من الجزائر[3].

لقد تغير محمود كثيرا منذ أيام الدراسة. فقد أصبح شجاعا وعازما وقليل الكلام، تعلو محياه دائما ابتسامة مفعمة بالثقة وقسمات هادئة. تحركه قوةُ قناعاته: فهو يعطي الانطباع بأنه من هؤلاء الرجال القلائل الذين يعرفون من الأمور ما هو خفي. فهو إن كان يثور عما يبدو له ظلما وجورا، فإنه لا يستسلم للقناعات غير المتبصرة.

كان اختطاف المهدي بن بركة واغتياله الصدمة التي أذكت نار حماسه الثوري. وكان كُتَيب عناوين المهدي بن بركة يضم في مكان بارز عنوانَ محمود بمدينة ليبزيغ. فالروابط التي كانت تجمع الرجلين كانت أكثر من روابط عائلية، كان توافقا فكريا. فمحمود لم يكن يهتم بالماديات وكان يميل إلى التقشف، فاكتشف في نفسه تشبتا عاطفيا بالقضية الثورية وتعلقا بها. وهاهو يحمل في قلبه مشروعه السري الرامي إلى إعادة الأمور إلى نصابها. إنه كرَم وسخاء الروح اللذين لا يمنعان صاحبهما من أن يمتلك طبعا فوارا. فهو يشعر، وبالقدر نفسه، بكراهية قوية نحو الاستبداد وبتعاطف أخوي مع المقموعين المقهورين.

---

2 حوار للمؤلف مع عبد الله المالكي.

3 هذا المشهد هو الوحيد في هذه القصة الذي لا يعتمد على شهادة. لقد تم تخيله لحاجة السرد.

كان عمره إحدى وثلاثين سنة وكان عازما أكثر من أي وقت مضى على قلب مجرى التاريخ. قرأ كثيرا منذ أيام الدراسة. ازدادت تحاليله دقة وصرامة. كان صارما في تنظيم الأشياء. ومن ثمة فإن المقربين منه كانوا يحترمونه ويعزونه نظرا لرغبته الدائمة في أن يكون فعالا دون أن يتخلى أبدا عن هدوئه المطمئن وعن عزمه. فالأمران لا يمكن الفصل بينهما في ذهنه. والفعالية لا حاجة لها بالتصنع. لقد كان هذا المهندس في الالكترونيك مضبوطَ الحركة بَاسِمَ الوجه. مطمئنا وهو يعمل منذ شهور على وضع بنية مسلحة ثورية.

كان الرفيقُ الذي ينظر إليه بهدوء تام وهو يجوب ردهة مطار بيروت ذهابا وإيابا. صديقَه منذ أيام الطفولة. إذ لهَوَا من قبل معاً في أزقة مدينة الرباط. وتقاسما الرغبات نفسها داخل منظمة الطفولة الشعبية. قبل أن يتابعا معا دراساتهما في ألمانيا الشرقية. وقادهما معا هذا التواطؤ إلى سوريا. وبعد بضعة أيام. التحق بهما اليزيد وأحمد بنجلون. قَدِم الأول من باريس. والثاني من الجزائر العاصمةً.

وصية المهدي

مع وصول خالد اكتملت المجموعة. فخالد يتقاسم مع أحمد بنجلون. زميله في الجزائر العاصمة. القدرةَ على الانتظار التي تعلماها من تقلبات الدهر. مع فارق بسيط هو أن أحمد بنجلون كان يعيش على أمل تلك التغيرات الكبيرة التي يرضى بها أولئك الذين يعيشون سجناء داخل حياة يومية يتحملونها دون أن يكونوا فاعلين فيها: مرت سنوات وهو يعدد أحلاما مقموعة وجدت أخيرا متنفسا لها.

أما اليزيد. الذي سبق خالد إلى دمشق. فإنه لم يكن من أولئك الذين يحلمون بالجراح والأورام. فهو كان يعيشها. ذلك أنه نجا بأعجوبة من الرصاص الذي حصد رفاقه خلال مظاهرات 1965. ولم يتوقف منذ ذلك الحين عن العمل حتى يحُل اليوم الموعود.

كلهم يتقاسمون أمل تحرير قريب قد ينبثق عن حركة أعادت قيادةٌ جديدة تحريكها من جديد. تلاقت أقدار هؤلاء الرجال في دمشق حول مشروع مشترك: أن يُصبِح الاختيارُ الثوري الذي نادى به المهدي بن بركة وتمناه. في النص الذي غدا فيما بعد وصيته السياسية. أمرا ملموسا. وأما طموحُهم فهو أن ينشئوا قوةً مسلحة ثورية منضبطة ومنظمة.

كانوا يتميزون بصغر سنهم. إذ كانوا على عتبة الثلاثينات. يجسدون جيلا جديدا. ذلك أن الجيل القديم شحذه الكفاح ضد الاستعمار. وأما الجيل الثاني فإنه يتعلم في إطار الكفاح من أجل تحرير فلسطين. برز هذا الجيل وسط خيبة أملٍ أثارها استقلالٌ مغتصب. ذلك أنه شهِد. وهو مسلوب القوى. انشقاقاتٍ تنسفً عمل الكبار في

السن من المناضلين. وبعد تفكيك جيش التحرير الوطني، قاد وهمُ الحزب الثوري العديدَ من الرفاق الذين كانت تعرفهم الشرطة ووضعت لهم بطاقات، قادهم إلى مخالب البوليس.

ومن هنا، فرضت ملاحظةٌ نفسها: إن بنية الحزب الحالي، الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، ليست من الثورية في شيء. فالحزب يتخبط في انتظارية سياسية، وزُج به في مجابهة مع النظام أبانت غيابَ فعاليته. ولأن الحزب لا يتوفر على بنية سرية منظمة، فإنه اكتفى بالرد أكثر مما كان فاعلا مؤثرا.

كان يفتقر إلى طليعة، أي قوة ضاربة مستقلة لا تَستعمل بنيةَ الحزب كقاعدة تستند إليها ولكن كأداة لتعبئة الجماهير بغرض الانتقال إلى مرحلة الكفاح المسلح. ومن هنا بات على النخبة الثورية أن تفتح المسيرةَ لانطلاق حركة مسلحة أوسع وأكبر وأن تسيرها. تستمد هذه الاستراتيجية مفهومها من تشي غيفارا وكان طموحها في مستوى الآمال المجروحة.

وفي ذهن هؤلاء المناضلين الجدد، يجب الانتقال من الهواية إلى نوع من الكفاح المنظم. وحتى الخلفية الإيديولوجية فإنها قد تطورت. فرغم أن هذا المشّروع يستمد جذوره من المقاومة ضد الاستعمار ومن التضامن المبني على القومية العربية، فإن الثقافة الماركسية، التي كانت لا تزال مبتدئة غير مكتملة عند القيادة العليا، كانت باديةً واضحة. وهكذا فإن التكوين السياسي سوف ينفع في وضع اللمسات الأخيرة على الهوية الإيديولوجية للحركة بإعطاء إطارٍ معقلن لثورة كثيرا ما عاشها المناضلون عيشة متشنجة وعفوية. وسوف يتبين فيماً بعد أن الصرامة المعنوية عند بعض الأطر، كما هو شأن محمود، سوف تشكل لِحاما جمع الصفوفَ ووحدها أقوى وأطول مما فعلت بنودُ الإيمان بالثورة.

هُيكِل تنظيمُ الحركة هيكلةً هرمية، تستند على خلايا محلية تنتشر حتى في أكثر مناطق المغرب بُعدا وعزلة. وسُميَت هذه البنية بتواضع "التنظيم". وكان الهدف الأوَلوِي، الذي سطرته القيادة العليا، هو الإبقاء على السر بِضرب عزلةٍ صارمةٍ. ولهذا الغرض، طوقت هذه القيادةُ نفسها بالعديد من الاحتياطات: عزل العلاقات بواسطة قَطع سبل الاتصال المباشر، وإعطاء المناضلين أسماءً مستعارة، بل وعدة أسماء يمكن أن تتغير بتغير المهام، وعدم ترك أي آثار مكتوبة أو عَقد اجتماعات في المكان الواحد وفي التوقيت نفسه ... ومع الممارسة، تربى الكل على هذه العادات. فأصبحت عملية [illegible] بين تحركات المناضلين تسري تلقائياً. وهكذا اكتشف المناضلون السريون في هذا [illegible] التنظيمي نمطا جديدا للحياة.

كان محمود وأحمد بنجلون يتقاسمان التسيير السياسي. وتكلف خالد منطقيا [illegible] العسكري. وفي الصفوف الخلفية، تكلف الفقيه البصري وبوراس والنمري

تكثيف الاستقطاب وتنظيم الخلايا السرية بالمغرب. وقد نفعهم نفعا كبيرا تعاطفهم الملحوظ مع حزب البعث إذ غدا هذا التعاطف ضمانةً معنوية وسياسية عند السلطات السورية.

بات الفقيه البصري رجلا يعمل في الظل. دائم الترحل من مكان إلى آخر، إذ لم يكن يمضي أكثر من أسبوعٍ في المدينة الواحدة، حاملا العديد من الأسماء المستعارة. كان يعرف بأنه كان مطارداً وكان يخشى أن يلقى المصير نفسَه الذي عرفه رفيقه المهدي بن بركة.

معسكر الزبداني

ويتذكر الفرشي، الذي كان كذلك ضمن المسافرين مع الفرقة التي توجه بها خالد إلى سوريا: "بعد أن أمضينا أسبوعا في دمشق، تَم اقتيادنا إلى معسكر الزبداني يوم 15 مارس[4]". كان يوجد في هذه القرية معسكرٌ عسكري خصصه السوريون للفلسطينيين من منظمة الصاعقة. فقد كانت سوريا، كما هو شأن العديد من الدول العربية التي كانت في ذلك العهد توظف القضية الفلسطينية وتستعملها كوسيلة، قد صنعت مَنتوجَها المحلي الخاص بها من قضية "تحرير فلسطين". كانت الصاعقة هي جوهر هذا المنتوج. فالمعسكر الذي يأوي المنظمة الفلسطينية يوجد على بعد حوالي 60 كيلومترا في الشمال-الغربي لدمشق، على طريق بيروت، قرب الحدود مع لبنان. كان يتواجد بها باستمرار أزيد من ثماني مائة جندي. وفي الوقت نفسه الذي وصل فيه الفرشي، وصل خمسون مناضلا مغربيا إلى المعسكر. رسميا، هم تونسيون جاءوا للالتحاق بصفوف الفدائيين الفلسطينيين. إنه القناع الذي تتخفى وراءه القضية نظرا لضرورة العمل السري.

كان عُمُر هؤلاء الرجال يتراوح ما بين العشرين والثلاثين سنة. إنهم مقاتلون نزحوا على وجه العموم من جيش التحرير الوطني أوجنودٌ أقيلوا من مهنتهم. ورغم ظروف العيش الهشة والمتواضعة في معسكر أوواطا أو سيدي بالعباس بالجزائر، بقوا أوفياء للنمري. أحس تجاههم خالد الذي كان يحترم فضائل التربية الصارمة بالتقدير والثقة. كانوا جميعهم يحركهم إحساسٌ بالثورة، وكانوا يثقون في عدالة قضيتهم. فهم يقدمون المثال بطريقتهم وذلك بوهبهم أغلى ما يملكون [فداءً لقضيتهم]، ذلك أن العديدين منهم سوف يدفعهم وفاؤهم للقضية إلى التضحية بأغلى ما لديهم.

ويتذكر النجار الذي كان واحدا منهم: "بعد تفكيك جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب، التحقت بمدرسة ضباط الصف بأهرمومو [رباط الخير اليوم]، وهي المدرسة التي ستكونُ أولَ قوةٍ ضاربة في أول انقلاب عسكري سنة 1971. تخرجتُ منها برتبة رقيب

---

[4] حوار للمؤلف مع عمر الناصر، المعروف بالفرشي.

أول. وفي سنة 1963 . قام العقيد بنحمو. الذي كان رئيسي في جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. بجولةِ تفتيش. كان يريد أن يتعرف على أحوالنا وعلى إحساسنا بصفتنا مناضلين سابقين في جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. وبهذه المناسبة أَسَر لنا بأن عملية سرية كانت قيد التحضير منْ أجل التحكم من جديد في القوات المسلحة الملكية. لم أكن أعلم أكثر مما قال سوى أن الأوامر. وفي حالة فشل العملية. هي اللجوء إلى الجزائر. وهكذا. وعندما بدأت الاعتقالات الأولى. رحلت إلى الجزائر صحبة ضابط صف آخر يُدعى لحسن الإدريسي. المعروف بالناصري[5]". وكما سنرى. فإن الرجلين معا سوف يَصحبَان محمود. بعد مرور بضعِ سنوات من ذلك. في آخر معاركه.

عاش البعض وصولَ المجموعة التي ترافق خالد إلى دمشق على أنه عودة الحظوة إلى ما لا يمكن قبوله: كانت القيادة الجديدة توحدها الرغبة في التجدد. والحال أن المناضلين الأولين القادمين للتدرب في سوريا جاءوا من المعسكرات الجزائرية! وهاهو أحد المنفيين السابقين في الجزائر يصيح قائلا:

— إننا في حاجة إلى عناصر جديدة. هؤلاء الرجال أعرفهم ![6]

هذه الصرخة النابعة من القلب تعبيرٌ عن رفض ممارسات تركت في الأذهان ذكرى ملؤها الاضطراب وكأن الأمور لم تحدث سوى بالأمس القريب. هذه الصرخة تعبيرٌ إذن عن الرغبة في عدم إدخال عنصر الصدأ والتآكل الذي تسبب في فشلٍ وسحق عَقدٍ من الكفاح. إلى معسكر الزبداني. فقد كان خطرُ تواجد مخبرٍ بين صفُوف المناضلين خطرا كبيرا. هذا دون احتساب أن بعض المناضلين كانوا معروفينَ عند المخابرات الجزائرية التي كان بوسعها وإمكانها أن تبعث بمعلومات عنهم إلى المخابرات المغربية. ذلك أن الجانب السلبي في التجربة الجزائرية لم ينمح بسرعة. فهو يغطي عند الكثيرين مأساةً وجودية. لأنها لم تعالَج إلا من الجانب الجدلي وحدَه. هذه المأساة التي لم تجد دائما طريقها إلى التهدئة. ويشهد النجار قائلا: "كنا نجر معنا أمارات فشل تجربتنا الجزائرية. إذ ما انفك اليأس والحذر يتزايدان ويكبران".

عند وصول هؤلاء الرجال. وجدوا في محمود رجلا يعرف كيف يعلو بهم فوق الظروف والملابسات العابرة وكيف يحميهم من هشاشة الأوضاع. ويواصل النجار قائلا: "عرف محمود كيف يعيد إلينا الإحساس بالكمال الذي كان قد ضاع. كان يتقاسم معنا ظروف عيشنا ويشتغل دون هوادة. ولا ينام إلا أربع ساعات في الليلة الواحدة. كان يبدي قوة جسمية لم تكن بنيته المتواضعة توحي بها. كان متنبها لطلباتنا ويشرح لنا هدف التزامنا وكان يقدم معنىً لتضحياتنا[7]".

---

5 الناصري. ضابط صف قديم في القوات المسلحة الملكية. سوف يُعدم بالقنيطرة يوم فاتح نونبر من سنة 1973. حوار للمؤلف مع البشير الزين. المعروف بالنجار.

6 حوار للمؤلف مع مصطفى العماري.

7 حوار للمؤلف مع البشير الزين. المعروف بالنجار.

ومنذ اليوم الأول، اجتاز هؤلاء الذين لم تكتمل شوكتهم بعْد مراسيمَ النار والرصاص التي ستجعلهم يلتحقون بصفوف الكبار. مازال المالكي، عامل التواصل الشاب وصغير مجموعته، يتذكر. كان يتقاسم خيمةً مع سبعة من رفاقه عندما، وعند الفجر، أخرجته قبضةٌ حديديةٌ من نومه. وبصوت قوي أمره محمود، هو وأصدقاءَه، باللجوء إلى الخنادق المحفورة على جنبات المعسكر. وبعد تشابك قصير، وجد المالكي نفسَه مَرمِيًا على بطنه وأنفه في التراب المبتل في قعر خندق مليء بمياه الأمطار الغزيرة التي تهاطلت في اليوم السابق. ولما استعاد رُشده، وصله من بعيد دوي أسلحة وصوت مطاردة جوية: كان الإسرائيليون يهاجمون معسكر الفدائيين الفلسطينيين المجاور.

كان هذا التمهيدُ مقدمةَ تدريب يليق بالقوات التي تشكلها النخبة، يُسَيره ضابط مُدَرس سوري يركز على وجه الخصوص على التمارين التي تجري في أقسى الظروف. فبقيت ذكراه محفورة في ذهن المتدربين الثوريين الصغار وتعني عندهم العذاب والحرمان. فحتى أقوى الأقوياء من الضباط السابقين في القوات المسلحة الملكية السابقين، كما هو شأن النجار، ما زالوا يؤكدون على خشونة التدريب الذي تلقوه: صبر وتحمل جسمانيان، واستعمالٌ لأنواع مختلفة من السلاح، وصنع المتفجرات واستعمالها، والعيش في أوساط معادية، وتجربة تقنيات متنوعة من القتال. وإضافةً إلى التكوين العملي، كان هناك تكوين نظري لتحسين معارف أطر المستقبل الشابة ومعلوماتهم. يُعَدد هذا التكوين أدوات الكفاح السري من الكتابة بالحبر السري إلى الاتصالات السلكية واللاسلكية، مرورا بالترميز والخرائط.

وأخيرا كان التكوين الايديولوجي يحتل المكانة البارزة في البرنامج. وهاهو خالد يتذكر الأمر قائلا: "خلال المناقشات السياسية، كان النمري يتحدث إلى السوسيين، وآخر إلى الفيكيكيين. وأما محمود وأحمد بنجلون وأنا فلم نكن نعرف إلى أي معسكر ننحاز، وكنا نعتبر أنفسَنا، في شيء من السخرية، في معسكر المغرب[8]" فخلف الإجماع الظاهر، كانت النزعة الجهوية تضع خطا يفصل بين الجهات. وهو الأمر الذي يدل على أن الطريق المؤدي إلى ميلاد المواطن-المناضل، وهو التصور الذي كان عزيزا على المهدي بن بركة، كانت طريقا لا تزال بعيدة. كان محمود من أنصار فضائل التربية، وسرعان ما اقتنع بأن نجاح الثورة يعود إلى الانجازات العسكرية لهذه الأطر وإلى قدراتهم الفكرية في الآن نفسه. إن التوجه نحو مذهب يلغي القدرة على التفكير وعلى الفكر لن يُنتج سوى حرية قصيرة النظر. وحدها النخبة المتعلمة، المتيقظة الوعي، يمكنها أن تنتزع الشعبَ من عبادة الدكتاتورية وتقديسها. ولأن محمود كان مقتنعا كل الاقتناع برأيه، فإنه أضاف برنامجا خاصا بالتكوين التكميلي الموجه إلى أولئك الذين توقف تمدرسهم قبل الأوان.

---

8 حوارٌ للمؤلف مع محمد التوزاني، المعروف بخالد.

كان السوريون يزودونهم بأسلحة من صنع روسي أو تشيكسلوفاكي. ولكن سرعان ما وسع التنظيم لائحةَ مزوديه وذلك كي يصبح هو كذلك يملك نوع الأسلحة نفسه الذي بحوزة القوات المسلحة الملكية، وخاصة البنادق-الرشاشة الفرنسية الصنع ماط 49.

وبعد مرور بضعة أسابيع، طلبت القيادة العليا للتنظيم الترخيصَ لها بتدريب مجنديها في معسكر خاص بهذا الغرض. كان الهدف، وفي آنٍ واحد، هو تفادي التعايش مع باقي نزلاء المعسكر لما فيه من مُخاطَرة ما دام يُتيِّحُ الفضول، وكذا الإعداد لتدريب يلائم المهام التي سطرها التنظيم لنفسه.

حرب الفرق الخاصة الفلسطينية

وبينما التداريب تجري على قدم وساق، كانت الأخبار مقلقة وغير سارة. كان النقص المتكرر يجعل الاستعدادات الضرورية لتسرب الأطر الثورية إلى المغرب استعدادات بطيئة. فاحتدت النقاشات. وفي نهاية المطاف، بدأ غياب الحركة والعمل يُهدد معنويات وانضباط الرجال الذين يأكلهم الخمول في معسكر الزبداني. اكتشف مناضلٌ اسمه آيت عمي[9] في نفسه موهبةً ذات نزعة دولية، ولأنه مَل انتظار الأمر بالسير، فإنه التحق بصفوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وبعد مرور بضع سنوات نجا من مذبحة أيلول (شتنبر) الأسوَد، فالتحق الرجل ثانية بصفوف التنظيم، ليموت إلى جانب إخوانه في السلاح ...

ولأن محمود ورفاقَه لم تكن أمامهم آفاقٌ واضحة، فإنهم قرروا الحسم في الأمر. فارتأوا أن الوقت يناسب رجالهم ليُنمّوا مقدراتهم على الجبهة.

نحن في شهر يونيو من سنة 1969. دخلت منظمة فتح في حرب عصابات لإنهاك الخصم، فكان أعضاؤها يشنون الهجوم تلو الهجوم على المواقع الإسرائيلية أساسا على الحدود الشرقية للدولة العبرية. انقسم مقاتلو التنظيم إلى فرق صغيرة داخل صفوف فرق التدخل السريع الفلسطينية التي تجوب الضفةَ الشرقية لنهر الأردن. وعلى قمة الضفة المقابلة، بنى الإسرائيليون مجموعةً متراصة من الحصون. كانت هذه المواقع المحصنة، التي تبتعد الواحدة منها عن الأخرى مسافة ثلاثة كيلومترات، تراقب كل هضبة نهر الأردن.

استقرت مجموعةٌ أولى في المنطقة السورية على الجولان، في البيار قرب القنيطرة. واستقرت المجموعة الثانية في جنوب هذا المكان، على طول نهر اليرموك بالأردن.لم يكن يفصلهم عن القوات المسلحة الإسرائيلية سوى هذا الواد، أسفل القرية. واستقرت المجموعة الثالثة بسكورة، في ضواحي الكرامة بالأردن. كان معسكرهم

9 أُعدِمَ لحسن آيت عمي بالقنيطرة يوم فاتح نونبر من سنة 1973.

يطل على ضفاف البحر الميت أمام أريحا. كانت هذه الفرق تملك سلاحا خفيفا من البنادق الرشاشة الروسية الصنع وقاذفات للقنابل ر.ب.ج. . فكانوا يتسربون ليلا. وأما في النهار، فكانوا يختبئون ولا يتحركون وكأنهم موتى. عمليات خاطفة واختباءات وانتظار. هذا هو وضع العمل الناجع الذي يرمي إلى أن يجعل من المتدرب الثوري الناشئ مقاتل عصابات فعالا. كانت كل عملية ينفذها 15 رجلا: خمسةٌ يهاجِمون وتحرس مجموعتان أخرتان متخلفتان قليلا إلى الوراء، جانبي مكان العملية. كان دور الحراسة هذا عموما من اختصاص المغاربة، في حين كان الفلسطينيون يختصون بالوسط.

لم يكن المغاربة الذين كانوا يفضلون خوض المعركة راضين تمام الرضى عن هذا الدور. ومع ذلك فإن هذه العمليات الحقيقية الأولى كان لها دورها الفعال من حيث التكوين. إذ أنجز الرجال ما مجموعه خمس أو ست عمليات. ذلك أنهم كانوا يعبرون نهر الأردن ليلا، ويتسلقون الضفة المقابلة مختبئين وسط الأشجار الصغيرة. ينسلون في صمت حتى يبلغوا مواقع العدو فيطلقون النار. كان رد الفعل الإسرائيلي دائما هو نفسه: قنابل مضيئة تضيء المنطقة التي حدث فيها إطلاق النار، فتُطلق عليها النار بدورها.

ويتذكر خالد بمرارة إنجازات بعض الرجال الذين سوف تكون نهايتهم مأساوية على ساحة المعركة: "كان الباعمراني رجلا متفننا بارعا حقيقة في إطلاق القذائف. وكان يحقق المعجزات بآلة ر.ب.ج. لإطلاق القذائف. شارك في أكثر من عشر عمليات فدائية. وأما فاريكس فكان قناصا بارعا، استطاع أن يقتل عدة جنود إسرائيليين. تحدى الأوامر وشن عمليات فردية كانت قاتلةً دموية، مما جعل الإسرائيليين يستنجدون بقناص ماهر آخر لوضع حد لعملياته. أصاب هذا الأخيرُ فاريكس في إصبعه، وهي الميزة التي جعلت منه الجريح الوحيد في صفوف المغاربة[10]".

ولأسباب سياسية داخلية، انقسم السوريون فيما يخص فائدة استمرار المغاربة في المشاركة مباشرةً في عمليات حرب العصابات على طول نهر الأردن. وكان أشد المعارضين لوجودهم في أوساط الفدائيين الفلسطينيين هو وزير الدفاع السوري، حافظ الأسد. ودون أن يعلم محمود ورجاله بالأمر، فإنهم سرعان ما أصبحوا يشكلون رهان الصراع من أجل السلطة في دمشق. وكان صلاح الجديد، وهو الرجل القوي في النظام والمدعم الرئيسي للمغاربة، يؤيد تكوين جيش من الميليشيات. فهو يعتقد بأن شعبا من المواطنين العرب المعبئين إلى جانب القوات النظامية هو أهم وسيلة للقضاء على القوات المسلحة الإسرائيلية. ولأن صلاح الجديد كان يعتقد كامل الاعتقاد في

---

10 سوف يُعدَم برو مبارك، المدعو الباعمراني، وعبد الله بن محزون، المدعو فاريكس، بالقنيطرة يوم فاتح نونبر من سنة 1973.
حوار للمؤلف مع محمد التوزاني، المدعو خالد.

الأمر، فإنه زار عدة مرات معسكرات التدريب والمواقع الأمامية على الجبهة لتحميس المقاتلين الفلسطينيين والعرب المنضوين تحت قيادة القوات المسلحة السورية. وكانت تنوب عنه بانتظام أطرٌ من حزب البعث للإبقاء على حماس الجنود. وهكذا وكل أسبوع تقريبا، كان المقاتلون المغاربة يُستَدعون إلى مناقشات سياسية لا تهمهم سوى منّ بعيد. وخلف هذه المظاهر، كان يجري أمام أعينهم صراع من أجل التأثير والنفوذ. أحس حافظ الأسد بالخطر. وحتى يحافظ على بقاء سلطته، كان يحتاج إلى أن يستند على جيش مُجند ملتحم يخضع لقيادة موحدة. والحال أن عمل صلاح الجديد يهدف بالضبط إلى حل قيادة الجيش السوري وتوزيعها على عدة قيادات عامة تخضع إلى هيأة عليا منفردة واحدة تُكون الرئاسة. كان السيناريو يتصور مسبقا كيف ستكون النهاية والخاتمة. فبعد مرور بضعة أشهر، أزاح حافظ الأسد صلاح الجديد واستولى على السلطة. مات صلاح الجديد في السجن بعد احتضار طويل.

عين البيضا، يوليوز 1969

بينما الرجال الذين تدربوا في الزبداني يطلقون النار في هضبة نهر الأردن، كانت موجة جديدة من المناضلين تصل من أوروبا. كان جل الرجال الذين يستقرون في المساكن التي غادرها من سبقهم من طلبة الجناح الراديكالي في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، استقطبهم دهكون، الذي اصبح اسمه في دمشق زهير. كان دهكون مناضلا محاربا تدرب على مناهج تنظيم الحزب، وتلقى تداريبه في الجزائر. كان محل تقدير واحترام نظرا لقوته الجسمية ولهدوئه ورزانته. كان أكثر من مناضل، كان إطارا ثوريا يصل إلى دمشق. وقبل ذلك بعامين، كان قد أثار الحديث حوله عندما استرجع بعض عناصر شبكة شيخ العرب الذين باتوا مشتتين بعد وفاة زعيمهم. وفي دمشق حدا حدوه عشراتُ الرجال الذين استقطبهم هو نفسه: كانوا يَصِلون الجماعة تلو الأخرى، بعد أن ساروا على الدرب نفسه. يُجَندون في المغرب، ويتوجهون إلى باريس يحملون في جيوبهم رقمَ هاتف. بعد أن يخضعوا للملاحظة خلال عدة أيام، يلاقيهم الفقيه البصري أو النمري الذي يقرر في شأن ترحيلهم إلى دمشق. وأما "تدريبهم" في سوريا فلم يكن سوى محطة، يدوم بضعة أسابيع على أقصى تقدير. كان معظمهم من الطلبة، ولكن كان من بينهم كذلك، العديد من المدرسين خلال العطلة الصيفية.

إنهم مناضلون صادقون، لهم نوايا حسنة، تَغَذوا بقيم السلم، موهبتهم المهنية كمدرسين وضعت على عاتقهم مهمة خاصة: ضمان مستقبل الأجيال اللاحقة. وأمام نظام لا يسمح بأي انتقاد أخضع الرجالَ إلى حد إتلافهم وسط الذل والمهانة

والفساد، كان قدرهم إذن واضحا لا غموض فيه. ولأنهم لم يعودوا يملكون سوى الثورة ليقاوموا حظهم العاثر، فإنهم اختاروا حمل السلاح.

وأمام هذا العدد المتزايد من المناضلين الوافدين، وضع السوريون تحت تصرف التنظيم معسكرَ عين البيضا، على بعد خمسة عشر كيلومترا شرق دمشق.

يحكي الكوار[11]، وهو طالب مناضل جُند ليتدرب في عين البيضا: "اتصل بي دهكون بالدار البيضاء في شهر فبراير من سنة 1969. كنت حينها أبلغ من العمر خمسا وعشرين سنة، وكنت قد أنهيت لتوي دراستي في التاريخ واللغة اليونانية بجامعة الرباط. كنت عضوا في شبيبة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، أناضل في مجموعات صغيرة تابعة لشبيبة الحزب تسمى حلقة. كان الأمر يتعلق بتيار ماوي جعلت منه مظاهراتُ شهر مارس من سنة 1965 واغتيال المهدي بن بركة وحرب السِّتة أيام تيارا راديكالياً. وفي قلب مجموعتي، كان الكفاح المسلح يبدو شكلا من العمل أكثر ملاءمة من المقاومة السلبية التي اختارتها قيادة الحزب. هذا على الأقل من الناحية النظرية. عندما اتصل بي دهكون اقترَح علي أن يساعدنا في تحقيق مشروعنا الثوري والالتقاء بالفقيه البصري. قبِلت. وصلت إلى باريس في بداية شهر يوليوز ووسيلة الاتصال الوحيدة التي لدي هي رقم هاتف. ضرب لي بعد ذلك مناضلٌ موعدا في فندق حيث حُجزَت لي غرفة. على مدى عدة أيام، عاشرت بعض المعارف في باريس. وبعد ذلك، ضرب لي الفقيه البصري موعدا في مقهى قرب مترو لاموت بيكي[12]". وبعد ذلك بتسعة أيام، يوم 22 يوليوز، ركب الكوار طائرة من مطار أورلي بفرنسا متجهة إلى دمشق، كان معه زهاء العشرة من المناضلين كلهم أعضاء في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب.

مسارٌ مواز وقدرٌ متشابه. كان توفيق الإدريسي، وهو محام شاب متدرب بالدار البيضاء، في مرحلة قطيعة مع الحزب. كانت اتصالاته السياسية تنحصر في رفيقين قديمين من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، أصبحا إطارين في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية: بالقاضي والخصاصي. بعد أن درس بالقاضي القانون، أصبح عضوا دائما في الحزب وعضوا في اللجنة الإدارية. أما الخصاصي، فإنه يُسَير الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. كانوا كلهم يعترفون بأن الطريق السياسي طريق مسدود وأن لا بد من شكل جديد من العمل. كان توفيق يجهل حينها أن بالقاضي والخصاصي هما في خدمة الفقيه البصري يستقطبان المناضلين.

كان توفيق رئيس جمعية المحامون الشباب، وكان له صيت واسع وعلاقات جيدة مع أوساط مطلعة. وهكذا وحتى سنة 1969، كان النشاط السري لتوفيق يتلخص في تقارير عن المناضلين المستقطبين. كانت رسائله تُحَرر بالحبر السري وتُرسَل مباشرة إلى

---

11 سوف يصبح فيما بعد رئيسَ تحرير جريدة أنوال. وتوفي في دجنبر من سنة 2001.
12 حوار للمؤلف مع حسين الكوار.

الفقيه البصري عبر صناديق بريد في أوروبا. ولكن دهكون، صديقه منذ الطفولة، كان يحدثه عن معسكرات التدريب في سوريا. وبعد أن اختبر وفاءه وإخلاصه، دعاه ليتلقى بها تدريبا. وصل توفيق إلى سوريا في شهر شتنبر من سنة 1969 تحت غطاء مؤتمر المحامين الشباب العرب في بيروت.

كان خالد يشرف دون محاباة على التداريب، وينظر نظرة شك إلى هؤلاء القادمين الجدد من خريجي الجامعة كما هو شأن الكوار وتوفيق الإدريسي. كان حماسهم الشاب مصدر شك في نظره. كانوا يملكون من الحماس والبلاغة الثورية أكثر مما يملكون من الانضباط العسكري. كانوا يسيرون في مسار المقاتل وكأنهم يكتشفون مخيما لقضاء العطلة. كان عليهم، هم الذين يطالبون بالعالم، أن يبدؤوا بتعلم الاكتفاء بما هو ممكن ومتاح. القليل منهم ولا شك كانوا يتصورون، عند وصولهم إلى سوريا، أن يتحول التحامهم الثوري إلى تجمع كهنوتي.

يقول الكوار: "أمضيت مع رفاقي ثلاثة أيام في دمشق عند بوراس. وجدنا عنده دهكون ومحمود. ثم ذهبنا إلى عين البيضا. هناك انتبهت إلى الهوة التي تفصل بين وعود الفقيه البصري والواقع. ولأسباب أمنية، كنت قد طالبت أن أتدرب وحدي. والحال أنني وجدت نفسي في معسكر يحيط بي مناضلون مغاربة كان العديد منهم رفاقا لي في الجامعة. بل إن الإحساس المهيمن كان في نظري هو الشعور بالوطنية أكثر منه شعورا ماركسيا[13]".

وبالفعل فإن الفقيه البصري، بصفته رجل الدعاية للثورة، كان يميل إلى ملاءمة أهدافه مع التوجهات الإيديولوجية لمحاوريه. وكان يعتمد فيما بعد على مساعديه لإزاحة الاختلافات المحتملة في وجهات النظر التي تفنن في العمل على إخفائها. كان من اللازم توظيف كل القوة الإقناعية لمحمود لثني الكوار على جمع أمتعته. ويخلص الكوار الذي أمضى ستة أسابيع في عين البيضا : "من الناحية الإيديولوجية، كان هو الأقرب مني. ولا شك أن هذا هو ما أقنعني بالبقاء".

وقد ألقى هذا الحادث نفسُه بظله على حماس توفيق الإدريسي: "عندما وصلت إلى دمشق، نزلت عند بوراس. أخذني أحمد بنجلون إلى معسكر التدريب في الزبداني. أمضيت به ثلاثة أسابيع. كنت قد طلبت أن أتدرب سرا. كم كانت دهشتي كبيرة لما علمت عند وصولي أن أحد أقاربي البعيدين يوجد في المعسكر. طلبت من أحمد بنجلون أن يُخرجَه حتى لا يتعرف علي. لم يُجدِ الطلبُ شيئاً. ذلك أنني وجدت نفسي وجها لوجه مع أحد الرفاق بالثانوي[14]".

اكتشف توفيق أن بعض المناضلين يتقاسمون معه المسار نفسَه. فكلهم أمضَوا طفولتهم أيام دهكون نفسه بمدرسة النهضة بمدينة سلا، في بداية الستينيات.

13 حوار للمؤلف مع حسين الكوار.
14 حوار للمؤلف مع توفيق الإدريسي.

فأصبح المعسكر وكأنه اجتماع تلاميذ مشاغبين قدماء، جاءوا ليعبروا عن ثورتهم في ميدان جديد للكفاح.

كان الجوار اللصيق وكذا تنوع الضيوف من الأمور التي حيرت توفيق: "في المعسكر، كان عددٌ مهم من المناضلين عمالا جاءوا من بلجيكا وفرنسا وألمانيا وهولاندا". ترك عنده التعايش بين مناضلين وافدين من آفاق متنوعة انطباعا بأن الأمر تجمعٌ من أجل أهداف إيديولوجية مختلفة ومتناقضة. ولكن الجدلية الثورية، وهو المنطق الذي لا يدخله الشك والذي تنمحي أمامه التبرمات والتضايقات، قد سَوت ومحت العديد من الأمور غير المكتملة. ورغم أن توفيق الإدريسي لم يكن من هؤلاء الذين يبحثون عن الواقع في الخطب البلاغية، فإنه وكما هو شأن آخرين عديدين، سوف يعطي الأسبقية لإيمانه بالثورة قبل توجساته الأولى. لم يعد الزمن زمنَ الخطب والشعارات، إنه زمن الثورة.

تسريبات

بعد مرور ثلاثة أشهر على التحاق أول فريق بالفدائيين الفلسطينيين، وقعت واقعةٌ ذات أهمية بالغة زادت من حماس هؤلاء الشباب الذين التحقوا حديثا بالركب. ففي يوم فاتح شتنبر، أعلن الراديو أن قبطانا شابا يحمل اسم معمر القذافي قد استولى على السلطة في ليبيا بعد أن خلع الملك إدريس السنوسي. وهذه العملية التي خلعت أحد النظم الملكية في أفريقيا الشمالية، تدل في نظرهم على صحة إستراتيجية الثورة والتدريب شبه العسكري للأطر. أظهر الرجال فرحة عارمة. واجتاح الأمل القلوب: كانوا يعتقدون أن التاريخ بين لهم بأنهم على صواب، وأنهم على وشك تحقيق الغرض من تضحياتهم.

ساهم هذا التغيير في المعطيات السياسية ولا شك في تسريع الاستعدادات. كان الفقيه البصري والنمري يشرفان على عودة تلك الأطر الثورية التي تكونت في سوريا إلى البلد. فتلقوا أمرا واحدا: "انتظار الأوامر". إنه شعار كُررَ مرارا وتكرارا وكأن القصد منه هو تذكير هؤلاء الرجال بالحيطة والحذر اللذين تراخيا بفعل الفرحة العارمة وحماس لحظات الحفل.

وفي البلد، استحوذ شعور ملحوظ بالحماس والاندفاع على مناضلي الحزب الذين علموا بالسر. لم يعد هناك ما يكبح جموحهم. لم يعد ينقصهم سوى السلاح والأطر لتشكيل بؤرة ثورية. لقد تمت مراجعة السيناريو مراراً وتكراراً: شن إضرابات تشل كل شيء ومظاهرات تعبر عن العصيان والانتفاضة. وعندها سيصبح الشارع في ملك الشعب الذي يؤطره جهاز الحزب السياسي والنقابي. آنذاك يمكن للجناح المسلح أن يباشر العمل: عمليات فدائية ضد أهداف استراتيجية ورمزية. سوف يُرغم

التضامنَ بين الشعب والفدائيين الجيش، بعد أن تكون قد زُرعت فيه بإتقان [بعضُ الخلايا]، على أن يغير معسكره: إنها لحظة حاسمة ومصيرية تنتقل فيها السلطة من أيدي المَلَكية إلى أيدي الثوار.

وفي يوم 5 أكتوبر من سنة 1969، استقبل سعيد بونعيلات محمود واحمد بنجلون في مطار مدريد. كان القائد السابق لجيش التحرير الوطني قد غادر الجزائر بعد أن علم "بأمرٍ سِري": فقد أخبره أحد الأعيان الجزائريين أن مشروعا لاختطافه يوجد قيد الإعداد، إذ أُبرم اتفاقٌ بحُسن الجوار بين الحسن الثاني وبومدين سنة 1968. ولأن سعيد بونعيلات كان قد حُكِم عليه بالاعدام غيابيا في قضية "مؤامرة 1963"، ولأنه صديقٌ لبنبلا، الرئيس المخلوع، فإنه كان يعلم المصير الذي ينتظره إن نُفذت الخطة. استقر الرجل في مدريد. ومنذ ذلك الحين وبيته في مدريد نقطة من نقط التقاء الثوار المغاربة. التقى محمود وأحمد بنجلون في هذا البيت بالفقيه البصري والنمري. تحادثوا في شأنٍ آخرِ تفاصيل مخطط العمل وتقاسموا مهام تسيير العمليات.

تكلفَ أحمد بنجلون والنمري بالمرحلة النهائية لتسريب المناضلين الذين تدربوا في سوريا وقدماء معسكر أوواطا. كانت السلطات المغربية تبحث عنهم كلهم لتواطئهم في "مؤامرة 1963". كان إذن تسريبهم يتطلب طريقا سريا ومساعدة من شُرطيين متواطئين. رافق الفقيه البصري أحمد بنجلون والنمري إلى مدينة مالاغا حيث قدم لهما رجلا اسمه الميد كانت مهمته هي تهريب الرجال. في السابق، أيامَ المقاومة، وبأوامر من بوراس، كان الرجل مكلفا بتسريب المناضلين وجزء من الأسلحة عبر مدينة مليلية، إحدى الثغور الإسبانية. وقد ذهب أحمد بتجلون ليقف شخصيا في مليلية على الوسائل التي يملكها الميد: خواتم وجوازات سفر ومهربو رجال. كل شيء كان موجودا. فالميد كان له رجاله داخل عمالة وجدة

وخلال هذا الوقت، عمل محمود على تمرير حمولة سلاح من ميناء برشلونة. ذلك أن الحكومة السورية كانت قد طلبت فعلا سلاحا من الأسبان. وكان الاتفاق هو أن يتم شحن جزء من هذا السلاح لحساب التنظيم. وبعد مراجعة حيثيات الرحلة إلى السفارة السورية في مدريد، ذهب محمود إلى برشلونة لتفتيش الحمولة صحبةَ مناضل مكلف بشحن الأسلحة.

ويتذكر أحد المشاركين في العملية، وكان عندها عاملا موسميا في فرنسا، بأنه كان متوترا بعض الشيء عندما وجد نفسه وجها لوجه مع الفقيه البصري والنمري ورجل ثالث لا يعرف هويته، داخل شقة في شارع سان دومينيك بالدائرة السابعة في باريس. كان الموعد قد ضُرب بواسطةٍ من أخيه الذي كان قد عاد من تدريب في سوريا. وقد طلب منه الفقيه البصري، الذي كان يتقن استعمال الكلمات الملائمة في مثل هذه الظروف، أن يذهب إلى الرباط من أجل تحضير مخبأ آمنٍ يستقبل قائدا

ثوريا. وكما هو شأنه هو نفسه، فإن الرجل ينحدر من الأطلس وسبق له أن قاتل الفرنسيين. إنه سيدي حمو.

عاد سيدي حمو إلى المغرب عبر الجزائر. ولأن شبكته لم يتم حلها، فقد بقيت تنتظر وهي تحمل السلاح حتى وفاة شيخ العرب سنة 1964. في ذلك الحين، كان سيدي حمو مرغما على اختيار المنفى، فنادى الذين كانوا يناصرونه. وهاهو أحد رفاقه يتذكر: "وبطلبٍ من سيدي حمو، ترك العديد منا عمله في فرنسا لنلتحق قبله بتنغير[15]".

وكما كان شأن خلية سيدي حمو، فإن الخلايا السرية كانت تشكل بالعشرات الشبكة التي كان ينسجها الفقيه البصري في المغرب. وقد تبِع الفرشي، الذي عاد عبر مليلية صحبة مجموعة تتكون من ثلاثة ثوار آخرين تدربوا في سوريا، تبِع مسارا مشابها ولكن هدفَه كان هدفا آخر: "لما أخبرنا النمري بالهدف وبرجل اتصالنا داخل المغرب، رافقنا من مدريد حتى محطة القطار بمالاغا. هناك تكلف بنا الميد الذي قادنا إلى الناضور، ومن هناك واصلنا الطريق حتى الدار البيضاء مرورا بوجدة[16]". زار فيها مُسَيرَان من الحزب، جاءا من مراكش (وهما الحبيب الفرقاني وآيت الموذن)، مجموعةَ الفرشي. ويواصل الفرشي: "وَزَّعَانا إلى عدة مجموعات. ذهب رفيق منا إلى أمزميز، ورفيقان إلى دمنات. أما أنا، فبقيت في مراكش".

وفيما يخص الخطير، وهو كذلك مناضل تكَونَ في الزيداني، فقد توجه إلى أغادير: "قادني النمري صحبة رفيق تدرب مثلي في سوريا، إلى مليلية. ومن هناك أدخلنا أحمد بنجلون والميد إلى المغرب بعد أن استبدلا جوازات سفرنا السورية ببطاقات تعريف مغربية. أمضينا ليلةً أولى في الناضور عند أحد أفراد الشرطة، ثم واصلنا الطريق طِبقاً لأوامر النمري، إلى دوار آيت عبد الله، وهو دوار يوجد قرب مدينة أغادير[17]". الشهادات هنا عديدة كثيرة ومتشابهة مفادها وصول العشرات من المناضلين إلى المغرب عبر هذه الطريق.

الهروب

حدث عندها ما لم يكن بالحسبان، حدثٌ بسيط قَلَب وجه الأحداث. أنذر محمد التانوتي، وهو ضابط مسؤول عن المواقع الحدودية في وجدة، الفقيهَ البصري بأن مخبرا قد تسرب إلى التنظيم في سوريا. وقد كتب هذا المخبر تقريرا بخط اليد أرسله إلى سفارة مغربية يصف فيها وصفا دقيقا تفاصيل مشروع الثورة. وقد وصلت نسخة منه إلى وزارة الشؤون الخارجية، التي بعثت بها إلى وزارة الداخلية. وخلال بضع ساعات،

15 حوار للمؤلف مع تركي عدي.
16 حوار للمؤلف مع عمر الناصر، المعروف بالفرشي.
17 حوار للمؤلف مع الخطير الخطير

كانت كل أقسام الشرطة في حالة طوارئ. وكان التانوتي بطبيعة الحال من بين الذين توصلوا بالدورية. فاكتشف مرعوبا لائحة الرجال الذين عليه تسهيل دخولهم إلى المغرب. وفي اللحظة التي توصل فيها بالمذكرة، كان جزء مهم من المناضلين الذين تكونوا في سوريا قد دخلوا البلد. كان من بينهم الكوار، إذ لأنه كان قد مَل الإقامةَ في سوريا، فقد عاد إلى الدار البيضاء في شهر غشت من سنة 1969: "خلال توقفي بباريس، وجهتُ تقريرا أنتقدُ فيه أمورا إلى الفقيه البصري بواسطة أحد المناضلين المقربين منه. وفي الدار البيضاء، سرعان ما تأكدت توجساتي. أخذت الألسن تبوح بالأسرار، وكان بعض المناضلين يتحدثون دون تكتم عن وجود معسكرات تدريب في سوريا[18]".

اجتاح الشك كذلك توفيق الإدريسي الذي عاد إلى الدار البيضاء يوم الخميس ثاني أكتوبر من سنة 1969. وكما هو شأن الكوار، فإنه وجه كذلك تقريرا منتقدا إلى الفقيه البصري عند مروره من باريس. وما كاد يصل إلى بيته حتى رن جرس الهاتف. على الطرف الآخر من الخط، أخبره شرطي متعاطف، ملحق بفرقة المطار، بأنه مطاردٌ وأبلغه بأرقام تسجيل السيارات التي تطارده. وفي اليوم الموالي، عندما اتصل الفقيه البصري بتوفيق، لمح له هذا الأخير بأن أمره قد بات مكشوفا. فأحرق كل الوثائق الخطيرة التي كانت بحوزته. ولكن الصداقة التي كانت تربطه بدهكون منعته من أن يقطع علاقته به نهائيا. فكان يلتقي به بانتظام في قاعة سينما بالدار البيضاء بعد أن يكون قد جال طويلا حتى ينفلت من مراقبة مطارديه. اقترح عليه دهكون أن يتم ترحيله عبر الجزائر. ولكن توفيق رفض. فبدل أن يريحه هذا الاقتراح، زاد من قلقه: عديدون أولئك الذين يتحدثون عن مخبرين تسربوا داخل أوساط المغاربة في الجزائر. دق هذا الرفض وكأنه صوت التحدي.

لم يكن توفيق الإدريسي والكوار سوى حلقتين داخل الجهاز الذي وضعه دهكون بالدار البيضاء والمناطق المجاورة. فقد كانا تائهين وسط عالم مجهول لشبكة من الخلايا السرية تتكون من عشرات الأطر من طلبة أو مدرسين أو موظفين تكونوا في سوريا خلال صيف سنة 1969. وعند عودتهم إلى المغرب، أصبحت مهمتهم هي تشكيل خلايا سرية تتكون من ثلاثة إلى ستة أعضاء. طيلة أسابيع عملوا على استقطاب مناضلين مستعدين للكفاح المسلح وتأطيرهم وتقييم سلامة سبل التزويد بالسلاح ودرسوا أعداد أفراد ثكنات الدرك والقوات المساعدة.

وعندما بلغ الفقيهَ البصري الخبرُ، ارتأى أن وقت التراجع قد فات. وأَمَرَ بمواصلة التسربات عبر سبتة بدل مليلية كما كان الأمر مقررا في البداية. أليس طموح الثورة نفسُه هو أن يخاطر المرء بكل شيء من أجل تحقيق كل شيء؟

---

18 حوار للمؤلف مع حسين الكوار.

مستقبلٌ مكتوبٌ سلفا

ينحدر الحسين المانوزي من تافراوت جنوب أغادير. يبلغ من العمر ستاً وعشرين سنة ويحمل معه إرث تقاليد عائلية ملؤها الكفاح والتضحيات. عرفت عائلته الكفاح ضد الاستعمار وتألقت فيه، قبل أن تثور على التعسف الإقطاعي. كان أبوه، الحاج علي المانوزي، وعماه، إبراهيم وسعيد المانوزي، من بين قياديي جيش التحرير الوطني الرئيسيين. وأصبح، بحكم الظروف، وارث طموحات الذين سبقوه. فبعد أن هرب الحسين المانوزي من حملة القمع سنة 1963، استقر عند أحد أفراد عائلته ببلجيكا لإتمام تكوينه الذي بدأه في الدار البيضاء ليصبح تقنيا في الطيران. كان بالإمكان أن تمر الأمور مرورا عاديا. ولكن كان وجهه الأملس لطالب مثابر وجدي وقصر قامته ونحالته، كانت هذه المظاهر تخفي روحه الثورية. وبما أنه مناضل نقابي، فإنه ما فتئ يراكم أيام التفاني والتضحية التي تشحذ العزائم والهمم. وما برح عصيانه أن أغضب الشركة التي يشتغل بها: لاسابينا. وبعد أن حدثت أمورٌ بسيطة، وجد الحسين المانوزي نفسه مرغما سنة 1967 على الرحيل على وجه السرعة إلى ليبيا. لقد كان مناضلا يبحث عن فرص للتحرك بعد أن اختمر حماسه السياسي في إطار الكفاح النقابي ببلجيكا، إلا أن طبعه المتحمس طَعَمَ ونَمى موهبة راديكالية. عندما التقى الفقيهَ البصري رأى فيه هذا الأخير رجلا متأهبا مستعدا للحرب. فالتكوين العسكري بسوريا بالنسبة إلى الحسين المانوزي سيكون فترة للمراجعة العامة قبل أن ينطلق اليوم الموعود.

ويتذكر إطارٌ تَكَون في الزبداني، تسرب صحبة حسين المانوزي: "من دمشق، التحقت بالحسين المانوزي والشافعي ملوك، المعروف بأبي علي[19] في باريس. ذهبنا جماعةً عند النمري الذي وضح لنا وجهتنا وكذا مهمتنا. وهكذا، وفي فاتح شتنبر من سنة *1969*، عدت أنا وحسين المانوزي إلى المغرب عن طريق سبتة[20]".

استقر الحسين المانوزي في الدار البيضاء ببيت العائلة بحي بورغوني. وحتى تنجح عملية اندماجه، تصرف الرجل كما يتصرف كل العمال المهاجرين عند عودتهم إلى البلد. تزوج. ثم، ودائما كما يصنع المهاجر الذي يعود إلى بلده، أبان على أنه يمتلك مالا "جمعه بفضل عمله المضني بأوروبا"، وأخذ يبحث عن تجارة تليق به. سَلم أباه 75000 درهم، وهو مبلغٌ كان يُعتَبَر ثروةً في ذلك العهد، ليشتري بها سفينة صيد، وشرع يدبر الأمر من أجل الحصول على رخصة صيد. إلى هذا الحد كانت الأمور عادية، ما عدا البيت الصغير الذي اكتراه بشارع كلميمة رقم 205، والذي أصبح مكان التقاء أعضاء خليته الذين تدربوا جميعهم في سوريا مثله.

---

19 طالبٌ في موسكو . ثم كاتب عام للاتحاد الوطني لطلبة المغرب بدمشق. وسوف يصبح مدير جريدة الاتحاد الاشتراكي.

20 حوار للمؤلف مع إبراهيم بوجمعة، المعروف بستيتو.

كان أعضاء التنظيم يحدوهم إيمان يسمو فوق كل الترددات، وكانوا يتشبثون بمهمة تتأرجح بين الخيانة والارتجال. لم يكن أحدٌ حتى ذلك الحين يعرف مداهما الحقيقي، ولهذا كان فكرهم كله مشغولا بمهامهم الفورية. وسوف يبين تشريح هذه العملية فيما بعد، والتي وُلدت ميتةً، نقطةَ بداية سلسلة سوداء سوف تقضي على الأحلام والأهداف.

بدأ كل شيء بوشاية. في يوم 16 دجنبر من سنة 1969، دخل المدعو المناضي، وهو تاجر وفلاح صغير وعضو في خلية سرية بأمزويز جنوبَ مراكش، مكتبَ عميد الشرطة الرئيسي بالرباط[21]. هذه هي على الأقل الرواية الرسمية التي أعطت قيمة كبيرة لاعتراف هذا التائب الذي أرسلته الأقدار. كان أولُ مَن سقط في الفخ هو شوجار، وهو إطار تكون في الزبداني، واستقر في أمزويز منذ أن عاد إلى البلد ثانية. كان مدرسا بآسفي وعضوا سابقا في شبكة شيخ العرب، تسرب من إسبانيا مع مجموعة الفرشي، فكون ودرب عدة مناضلين من بينهم الواشي المناضي. كانت هذه بداية موجة أولى من الاعتقالات اجتاحت مدينة مراكش. اختُطف الحبيب الفرقاني، المسؤول الجهوي عن الحزب، يوم الأربعاء 17 دجنبر. واعتُقِل في ضواحي مراكش ثمانون فردا، من بينهم 45 فلاحا اشتُبِه في انتمائهم إلى خلايا سرية. ثم وبعد انتزاع الاعترافات، دخلت القوات المساعدة مدينة دمنات. ولأن الإطارين الآخرين اللذين عادا مع الفرشي، بوزيان والعثماني[22]، كانا قد سلحا ودربا في السر أربع خلايا، علما بالخبر وهربا إلى مدينة بني ملال. نجا الفرشي ضمن آخرين، فاختفى وسط أزقة مدينة مراكش المظلمة قبل أن يلجأ سرا إلى مدينة الدار البيضاء.

ولكن الكارثة لم تنحصر فقط في عاصمة الجنوب. إذ امتدت موجة ثانية من الاعتقالات (زهاء المائة والعشرين) بعد بضعة أيام إلى الدار البيضاء. اختُطِف توفيق الإدريسي يوم الأربعاء 24 دجنبر على الساعة السابعة صباحا بشارع محمد الخامس بينما كان في طريقه إلى مكتبه. وكذلك كان شأن عدد من مساعدي دهكون الذين تكونوا في سوريا وجلهم أطر في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب[23].

---

21 سوف يكون هو الشاهد الرئيسي في تهمة محاكمة مراكش سنة 1971. قال في تصريحه بأنه حاول أولا أن يَستَمِع إليه الديوان الملكي، ثم الشرطة فالدرك. لم يصدقه أحد. فأمضى ما بين ستة وثمانية أشهر قبل أن يجد أخيرا من يستمع إليه.

22 سوف يتم إعدام محمد بوشاكوك، المعروف بالعثماني، والحسن تغجيست، المعروف ببوزيان ، وهما على التوالي رقيب أول سابق في القوات المسلحة الملكية ومُقدم بمدينة آسفي، بالقنيطرة يوم فاتح نونبر 1973.

23 لاسيما مصطفى الراشيدي، المعروف بطلال، وإبراهيم الرباطي، المعروف بالناصيحي، وعيسى انتظام، المعروف بعبد الله، والشافعي ملوك، المعروف بأبي علي.

وضربت موجةُ اعتقالات ثالثة مدينَتَي الناضور ووجدة. فسقطت في الفخ أولا شبكة مهربي الرجال التابعة للميد. ولسوء حظ سيدي حمو، ثائر الأطلس، فإنه كان يتواجد حينها بوجدة. إذ بعد أن تسرب من الجزائر، كان يستعد ليواصل الرحلة إلى الرباط، فوشى به مخبرٌ إلى الشرطة.

الأربعاء 31 دجنبر من سنة 1969، دار المقري

أُغلق بابُ الزنزانة على الكوار. ملأ المكانَ صوتُ المفاتيح وهي تغلق الباب. كان الجو باردا ورطبا في شهر دجنبر هذا. كانت تتراءى على الحائط ثلاثة ظلال. وعندما اعتاد بصر الكوار على الظلام، رأى امرأةً ورجلين، هولندي وبلجيكي. المرأة جزائرية. إنهم متهمون بتهريب السلاح. كان الكوار قد اعتُقِل يوم السبت 27 دجنبر في المحطة الطرقية بتطوان خلال عملية مراقبة للهويات على متن حافلة كانت في طريقها إلى الدار البيضاء. وهاهو الكوار يتذكر: "كنت قد جئت إلى تطوان بطلب من قائد للمنطقة كان قد أخبرني بأن الفقيه البصري يود ملاقاتي في إسبانيا. لم يتم اللقاء. وكنت أستعد للعودة إلى الدار البيضاء. وأما دهكون الذي كان قد افترق معي منذ زمن قصير فإنه شهد، لا حول له ولا قوة، اعتقالي على بعد عشرة أمتار من الحافلة[24]". وحالَ وصولِ الكوار إلى دار المقري، شرِع في استنطاقه. وتمهيدا لذلك خضع الكوار للعديد من التحرشات النفسية: تواطؤات مصطنعة، وفساد ومساومة. ثم التعذيب. إنه فيض من طرق التعذيب التي تتفنن في القذارة والخسة: خنقٌ بواسطة خرقة مبللة بمواد كيماوية توضع داخل الفم، وكَهرَبَةٌ للمواضع الحساسة من الجسم تُحَدد قوتُها بإتقان. هذا عدا "الطائرة"، وهو المصطلح الذي يدل على وضعية المُعَـــذَّب الذي يُعلق أفقيا من رجليه ويديه ووجهُه نحو الأرض، فينطوي العمود الفقري تحت ضغط وزن الجسم. كانت أعضاء الكوار تتجمع بفعل آلام مفاجئة وجارحة تشل تدريجيا حواسه، فلا تترك في قبضة الجلادين سوى جسد ضاعت تمفصلاته يتأرجح بين الحياة والموت. وبعد أسبوعين من هذا التعذيب يُغلق الملَّف. إلتقى الكوار، بعد أن أنهك جسديا رغم قوة بدنه، ثانيةً في الاعتقال رفاقا آخرين ممن كان حظهم عاثرا مثله سبق أن التقى بهم في معسكرات سوريا.

يبدو أن الشرطة ارتأت أنها تملك المعلومات الكافية. ويؤكد توفيق الطابع المتسرع للتحقيق: "عُذِّبتُ طيلة ستة أيام. كانت الأسئلة تهم دائما مخبأ دهكون والأسلحة وأسماء المناضلين الذين تدربوا في سوريا[25]". وحده الحبيب الفرقاني خُصصت له

24 حوار للمؤلف مع الحسين الكوار.
25 حوار للمؤلف مع توفيق الإدريسي.

معاملة خاصة. إذ لأنه كان مسؤولا جهويا عن الحزب. فقد كان يُعتَقد بأنه يعرف أكثر مما يعرف الآخرون. فكان جلادو أوفقير يعذبونه مرتين في اليوم الواحد دون هوادة.

ولكن القصرَ كان يطالب برؤوس القياديين الثوريين. عبئت الدبلوماسية. وفي اليوم التاسع من شهر يناير من سنة 1970. وصل عبد الهادي بوطالب. وزير الشؤون الخارجية. إلى مدريد. ووصل لوبيز برافو. نظيره في نظام فرانكو. إلى الرباط بعد بضعة أيام من ذلك ليدخل في مفاوضات تهم استخراج الفوسفات من الصحراء الخاضعة للمراقبة الإسبانية. كان الحسن الثاني يملك ورقةً يقايض بها. فمقابل أن يُلين المغرب من موقفه. طالب بالقبض على "قادة المؤامرة" الذين تعرفت شرطته على مواقعهم بمدريد وتسليمهم له.

الخميس 29 يناير من سنة 1970، اعتقالات مدريد

عندما بلغ أحمد بنجلون خبرُ اختفاء أحد مهربي الرجال. بات الشكُّ أقوى من العزيمة. إذ إن هذا الاختفاء الغريب كان يُنذر بوقوع ما هو أخطر. ذلك أن جل الرجال الذين تدربوا في سوريا كانوا قد عبروا الحدود. ولذلك فإن أحمد بنجلون كان يعرف أن عليه أن يلتحق بوجدة بعد بضعة أسابيع صحبة إطارين ثوريين آخرين. فساورته التساؤلات. وزيادة في الحيطة. قرر الذهاب إلى مدريد ليقدم تقريرا عن الوضع. ومهما بدا الأمر مستحيلا. فإنه لم يكن يشك أبدا في أن اختطاف مهربِ الرجال كان نتيجة موجة من الاعتقالات بدأت في جنوب البلاد. وكانت مسألة متابعةِ العملية. أو إيقاف كل شيء أو الإبقاء على الأمور نائمة تُطرَح بحدة تَفوقُ ما كان يتصوره. وفي مدريد. صُعِقَ محمود وسعيد بونعيلات عندما علما بالخَبر. وكان من اللازم القيام بدورات عديدة حول الهواتف العمومية قبل الاتصال بالفقيه البصري وإخباره بالوضع. ولكن. وكما هو الشأن في الغالب عندما تناكف الظروف الخططَ التي يُزعم بأنها محكمة متقنة. فإن جواب الرجل المدبر المخطط كان هو الغضب من قلق رجال يوجدون وسط المعمعة. وأمام عدم تصديق الفقيه البصري للأمر. فقدَ محمود صبرَه. فذهب إلى باريس يوم 20 يناير من سنة 1970 وترك سعيد بونعيلات وأحمد بنجلون في مدريد.

وبعد مرور تسعة أيام. يومَ الجمعة 29 يناير. داهمت الشرطة شارع سانشو دافيلا واقتحمت بيت سعيد بونعيلات ووضعت الأصفاد في يديه واحتجزت الشرطة الإسبانية كمية كبيرة من المال وعدة وثائق وجوزات سفر مزورة. ولكن ما تم احتجازه بدا ضعيفا مقارنةً مع الغنيمة التي كانت مُنتظرة. وأخضعت الشرطة. دون غاية محددة. الشقة للمراقبة. ولم يذهب صبرُها هباءً. إذ عند بداية المساء. وصل أحمد بنجلون إلى الشارع. كان يحمل في جيبه نصا انتهى منذ زمن قصير من كتابته

في مقهىً. يجيب فيه عن مقال لحميد برادة. نشره في مجلة الجبهة. وهي منشور للمناضلين لم يستمر طويلا. فيه خلط غريب من الجدل ومن السرية. فوجئ أحمد بنجلون وطوق فلم يبد أي مقاومة. وخلال الحملة. اعتقلت الشرطة الإسبانية أربعةَ أطر ثورية أخرى كانت تنتظر الأوامر في فندق في ضاحية مدريد: الشاب المالكي والنجار والصغير وسي ابراهيم. ولأن المالكي ورفاقه كانوا يملكون جوازات سفر سورية سرعان ما تحسنت ظروف اعتقالهم. إذ لما علم الرئيس السوري الأتاسي باعتقالهم. طالب بأن يُسلم "الطلبةُ السوريون الذين اعتُقِلوا خطــأ" إلى السفارة السورية. وكانت المطالبة مصحوبةً بتهديد بقطع العلاقات الدبلوماسية.

ولأن نظام فرانكو كانت له حزازات مع عدد من العواصم. فإنه لم يكن يريد أن يضيف إليها حياد بلد عربي. فكان للتهديد وقعه. وبداية من اليوم الأول من اعتقالهم. رُخص لسفير سوريا بزيارة المالكي ورفاقه في السجن. أمضَوا به عشرين يوما. أي ريثما تقتنع الشرطة الإسبانية بأن لا علاقة لهم بالشيوعيين الإسبان وبالانفصاليين الباسك.

أما سعيد بونعيلات وأحمد بنجلون. اللذان كانا يحملان جوازي سفر مغربيين. فقد كانا أقل حظاً. زد على ذلك أن أحمد بنجلون، ونظرا لحظه العاثر. كان يملك جرأة على الكلام تتناقض مع صمت رفاقه الذي له دلالات كثيرة. فمنذ التحقيق الأول معه داخل مقرات الأمن الإسباني. صرح بجنسيته المغربية دون أن يشك لحظة في عاقبة إصراره. ولأن رجال الشرطة الإسبان كانوا يعملون على أن لا يكون شيءٌ وليد الصدفة. فإنهم دفعوا بالحيطة والحذر إلى حد إحضار موظف استعماري سابق للتأكد من مغربية أحمد بنجلون. وبعد أن تم التعرف على هويته. قدم له ضابط الشرطة الذي يحقق معه صور مناضلين وطلب منه أن يوضح هويتهم. انتبه أحمد بنجلون فجأة إلى المنحى الذي أخذته الأحداث. الأمور جميعها تدفع إلى الإعتقاد بأن هذه الصور مصدرها هو المخابرات المغربية. انتابت أحمد بنجلون دهشة أخرسته. تظاهر الضابط بعدم ملاحظة دهشته. وواصل تحقيقه متظاهرا بأن الأمور عادية. ولكن جهده ذهب سدىً. فعندما شاهد أحمد بنجلون الصور. ولأنه زُعزِع فجأة. لاذ بالصمت. وأمام الدليل القاطع على تواطؤ بوليس فرانكو وبوليس الحسن الثاني. أخذ يلعن ثقته العمياء. سأله الضابط الإسباني فجأة وصوته كله سخرية بعد أن وضع أمام عينيه صورته هو نفسه:

— وهذا. هل تعرفه؟

تعرف أحمد بنجلون فعلا على صورته التي أُخذت في الجزائر العاصمة. ولما اغتاظ الضابط من الصمت العنيد لأحمد بنجلون. قال له فجأةً:

— سوف نبعث بك إلى أوفقير. فهو سوف يعرف كيف يجعلك تتكلم.[26]

---

26 كتبت ليمانيتي يوم 1971/6/3: "زود فرانكو السلطةَ المغربية بعناصر مؤامرة ضد المعارضة المغربية".

الشتات

حتى هذه المرحلة، كانت الأمور الأساسية مستهلكة. ولأن السلطة كانت تعلم أن مرحلة الانتفاضة قد تم التخلي عنها منذ اعتقال سعيد بونعيلات وأحمد بنجلون، فإنها أخذت تطارد الشبكات السرية التي انقطعت صلاتها بقيادتها العليا. فبدأ حينها القانون الثابت لتتابع الأمور والأحداث. كان المشتبه فيهم يُعتَقَلون بالمئات،ويتم التحقيق معهم بالعناية المعروفة عند المكلفين بالتحقيق. والحاصل هو أن التنظيم سوف يفقد في هذه العملية ثلاث مائة مناضل. وهي إحصائيات عادية في حوليات القمع المغربي. ومع ذلك ووراء هذا الرقم، فُككت شبكاتٌ بكاملها، من بينها شبكة الشرطة بوجدة.

أما سهيل رمسيس، مفتش شرطة بوجدة، وبعد أن تحايل على أفراد مديرية الأمن الترابي (د.س.ت.)، فقد ركب سرا على متن القطار المتوجه إلى الجزائر. ومن سخرية الأقدار أن يساهم التانوتي، رئيسه المباشر وعضو التنظيم مثله، في عملية تفتيش بيته على الساعة الرابعة صباحا. تجاوزت عملية التفتيش ما كانت تنتظره منها الشرطةُ. فقد وضعوا يدهم على أسلحة ومواد لصنع قنابل. ومع ذلك استطاع التانوتي أن ينقذ ما هو أساسي، فصدفةً وخلال التفتيش، اختلس رسالةً مكتوبةً بخط اليد موجهة إلى الفقيه البصري بها معلومات عن شبكة وجدة. لقد كان الاحتياط احتياطا مشكورا ولكنه غير مُجد، ذلك أن هروب المفتش رمسيس لم يدم طويلا. فقد اعتقلته شرطة الجزائر، ثم سُلمٍ إلى السلطات المغربية في إطار عملية تبادل السجناء. وغداة ترحيله إلى المغرب، يوم 27 مارس من سنة 1970، حضر رجال مديرية الأمن الترابي (د.س.ت.) إلى بيت التانوتي. واعتُقِل في الوقت نفسه الذي اعتُقِل فيه أستاذان بالثانوي وتاجرٌ كان يستعد للالتحاق بصفوف الثوار.

ومع ذلك، ووسط زوبعة الاعتقالات التي ذهبت بقياديي أطر الثورة، استطاع العديد منهم الهروب بأعجوبة. وهذا شأن دهكون الذي هرب من بين أيدي الشرطة بفضل مساعدة رفاق سابقين لشيخ العرب، نجوا هم كذلك بمعجزة من الاعتقالات. لجأ دهكون إلى مدينة سلا، ثم رحل إلى الدار البيضاء متخفيا في لباس امرأة. وسرعان ما وقف على حجم الخسائر التي لحقت شبكته. وحسب ما ورد في مراسلات مع محام بمدينة مراكش كان يتشاور معه في مدى شساعة الاعتقالات، فإنه بقي مؤمنا بقدرةً التنظيم على أن ينبعِث ثانية من عدم. كتب في رسالة وقعت بين أيدي الشرطة عندما اعتقل حاملها: "يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر".

نجا سيدي حمو بأعجوبة بدوره. فوسط الفوضى العارمة، أُطلق سراحه بعد أن أمضى بضع أسابيع بدار المقري. إذ صدقت الشرطة روايته الحزينة التي تتحدث عن

أب يعود إلى أرضه التي وُلد بها ليُمضيَ بها ما تبقى من عمره. ولن تنتبه الشرطة إلى غلطتها إلا بعد اعتقال سعيد بونعيلات وأحمد بنجلون، ولكن بعد فوات الأوان. فقد اختفى كل أثر لسيدي حمو. بحثت عنه الشرطة في تنغير في حين كان هو مختبئاً في مدينة الرباط.

ولكن تكثيفَ الشرطة لعمليات البحث والتفتيش جعلت من الوضع وضعا لا يطاق. ولم يجد عدد من المناضلين النجاة إلا في الهرب إلى خارج البلاد. كان يوم الأحد 15 فبراير يوم عيد الأضحى. تراخت الحراسة بعض الشيء نظرا للاحتفالات بالعيد. فاستطاع الفرشي أن يعبر الحدود ويلجأ إلى الجزائر. وحَذَت حَذوَه أطرٌ ثورية أخرى، كانت قد عادت إلى المغرب ضمن جماهير الوافدين. يعلق الفرشي على الأمر وهو يضم إبهامه إلى سبابته: "كان ما أنجزته يساوي صفرا". كانت حركته تمثل مجهوداته التي لم تُعط ثمارا بقدر ما تمثل كذلك الرحلة التي دارت في حلقة مفرغة. وبالفعل فإنه كان قد غادر وهران قبل سنة من ذلك ليرحل إلى دمشق، قبل أن يصل إلى إسبانيا ويتسرب إلى المغرب، كل هذا من أجل أن يجد نفسه من جديد، بعد ستة أشهر، في وهران.

أهي الصدفة أم دلالة الرموز المبهمة؟ إذ إن نظام فرانكو سلم، يوم عيد الأضحى كذلك، سعيد بونعيلات وأحمد بنجلون إلى الأمن المغربي[27]. وهكذا أنزلتهما طائرة شحن عسكرية، وقطعة قماش تغطي عينيهما والأصفاد في يديهما، بمطار سلا. ويوضح أحمد بنجلون قائلا: "كان البرد قارسا، ولحسن الحظ كنت قد احتفظت بمعطفي منذ اليوم الذي تم اعتقالي فيه. معطفٌ جميل كان أحد المناضلين قد أعطاني إياه وأنا أغادر الجزائر العاصمة[28]".

الاثنين 16 فبراير من سنة 1970، الكاب 1، الدار البيضاء

لم يكن أحمد بنجلون يصدق ما حدث. فقد كان مطويا على مقعده، وأبقى على رأسه منحنيا. ذلك أن الصفعة المزدوجة التي صفعه بها على أذنيه رجلٌ يقف خلفه قد أزاحت قليلا القماش الذي كان يغطي عينيه. أزاحته ما يكفي ليُبْصر عندها الضابطَ الذي يُسَيِّر التحقيق. إنه أوفقير وقد وضع على عينيه نظارته الشمسية الشهيرة، يحيط به ثلاثة رجال بلباس مدني. كان عليه أن لا يرفع رأسه ثانية. إذ لو انتبه أوفقير إلى أن أحمد بنجلون قد تعرف عليه، فإن مصيره معروف سلفا. احتفظ أحمد بنجلون بالعين المكشوفة متجهة نحو الأرض. كانت يداه مشدودتين إلى ظهره بالأصفاد الإسبانية التي لم تفارقه منذ اعتقاله بشارع سانشو دافيلا.

---

27 حسب فيليب هيرمان، جريدة لوموند (العالم)، يوم 12 يونيو 1971. فإن الإسبان لربما خضعوا لبعض الضغوط الأمريكية. ذلك أن اتفاق تبادل الأسرى لم يكن موقعا بين البلدين.

28 الفقرة الموالية هي خلاصة حوار أجراه المؤلف مع أحمد بنجلون.

كان هاجِسُ وهَوَسُ أوفقير هو معرفة الهُوية الحقيقية لأطر التنظيم التي تتخفى وراء أسماء مستعارة.

— هل لكم علاقات مع العقيد حاتيمي؟[29]

وكما هو طبع أحمد بنجلون دائماً، نفى كل شيء جملةً وتفصيلا. نظر إليه أوفقير غيرَ مبالٍ بعناده:

— يبدو أنك عنيد. لذلك فإنني سوف أسلمك إلى هؤلاء الرجال الذين سوف يخصونك بمعاملة خاصة. وختم أوفقير الكلام قائلا:

— إنك بليد. لو أنك جئتَ عندي لدربتك أحسن مما فعل السوريون.

اعتقد أحمد بنجلون أن الأمر لا يعدو أن يكون كلاما فارغا يقوله أحد ضباط الجيش الفرنسي. ولكن رجال أوفقير لم يتركوا له وقتا للتفكير والتأمل. فقد كان هذا بداية كابوس بالنسبة إليه. دفعته يدان إلى القبو. نزعتا عنه معطفه ومددتاه، بعد أن خلعتا الملابس عن جذعه، على طاولة من خشب. وقبل أن ينزعوا القناع عن عينيه، أنذره العشعاشي،[30] المسؤول عن الكاب 1[31]، بنبرة مَن لا ينتظر جوابا:

— إنِ التفتت إلى الخلف، فإنك رجلٌ ميت.

على طرف الطاولة سدد إليه خمسةُ رجال مقنعين سلاحهم (ماط 49). وإلى جانبيه كان العميد (الكوميسير) الحسوني مرتديا وزرة بيضاء دلالة على أنه طبيب. بهدوء تام استعرض العميدُ أمام عيني أحمد بنجلون ترسانةً كاملة من أدوات الجراحة الخاصة بالأطباء الجراحين. كان أحمد بنجلون يعرف أن جلادي المعتقلين السياسيين يتفننون في طرق التعذيب الفظيع. فكر لحظةً في المقدمة التي تسبق بداية حصة التعذيب الجراحية.

سخر منه العشعاشي بصوت مَن يشعر بنشوة الانتصار:

— إنك ترتعد. هل أنت خائف يا أحمد؟

تشجعَ أحمد بنجلون وأجاب:

— لا. إنني أشعر بالبرد.

في الواقع كان العشعاشي يريد جَس نبضه لتقييم مدى قدرته على الصمود خلال التعذيب. بعد انتهاء عملية جس النبض، اقتيد أحمد بنجلون إلى المكان البغيض الشهير، دار المقري، بالرباط. بعد ثلاثة أيام من العزلة داخل غرفة انتظار المصالح الخاصة، جاء دور فرق المخابرات لتنتزع منه شيئا. ويتذكر أحمد بنجلون: "كانت الأصفاد الإسبانية دائما تقيد يداي، وأما معطفي فقد اختفى". لم تكن للأصفاد الإسبانية التي تمنع يديه من الحركة سوى حلقة واحدة، ومن ثمة فهي سرعان ما كانت تتحول إلى عذاب شديد.

---

29 وهو الاسم المستعار لابن يحيى. العقيد الحاتيمي سوف يُقتل في الصخيرات.

30 قال عنه أحمد البخاري في كتابه السر، منشورات ميشيل لافو، بأنه أحد المشاركين في قضية المهدي بن بركة، وأصبح العشعاشي فيما بعد والي الشرطة.

31 تهم التسمية مختلف مراكز التحقيق التابعة لوزارة الداخلية: الكاب1، الكاب 2 ..

ولكن أحمد بنجلون استمر في عناده. لم يَستسلم.

قال له صوتٌ مستخبرٌ يريد منه صاحبُه أن يشدد على كل صرخةِ ألَمٍ تُنتزع من الرجل تحت التعذيب:

— نحن نعلم أنك تُدعَى عبد المومن، وسوف تعترف بذلك.

بعد يوم من التعذيب الشديد، وبينما الضحية تتأرجح بين الحياة والموت، استعاد الجلادون رباطة جأشهم. كان إصرار أحمد بنجلون يؤكد، إن كان الأمر يحتاج إلى تأكيد، أن الرجل يجهل أن رفاقه في الزيداني وعين البيضا قد اعتُقلوا. لم يعد هناك سوى سبيل واحد لوضع حد لإصراره وعناده: وضعُهُ وجها لوجه أمام الأمر الواقع. وما زال أحمد بنجلون يتذكر الأمر وكأنه وقع بالأمس القريب: "كنت مُمَددا فاقد الوعي تقريبا. كانوا قد أزالوا القماش عن عيني حتى أستطيع الإبصار. مر أمامي الواحد تلو الآخر. بضعة أطر كنت قد سربتهم إلى المغرب ومهربُ رجال". وكان الجلاد الرئيس يسأل كل واحد منهم: "ما هو اسمه؟" وكان السجناء يجيبون إجابة واحدة لا تتغير: "عبد المومن".

تواصل التحقيق وتجدد ثانية مع السجناء الذين اعتُقلوا منذ بضعة شهور، ومنهم توفيق والكوار. جرت اعتقالات جديدة. كانت وحشيةً جلادي أحمد بنجلون الذين يتناوبون عليه في مستوى إصراره وعناده. لقد أصيب ساعداه بجراح عميقة وتقيحت رجلاه. فأرسِل إلى المستشفى العسكري مرتين ليعاد "ترميمه وإصلاحه". وبعد أن فحصه الجنرال ماجور مولاي عرشان، قال: "إن كنتم تريدون الإبقاء عليه حيا، عليكم أن ترفقوا به بعض الرفق".

لم يكن التحذير أبدا مجرد نزوة وقول عابر. فقد كان جلادو أوفقير يُختارون حسب مواصفات خاصة توجد في سلالة معينة. لقد كانوا في الغالب من أبناء الخونة الذين عمل المقاومون على تصفيتهم. لقد كان هذا الاختيار الشيطاني يزيد عشرات المرات من تفانيهم في الانتقام من المقاومين السابقين، كما كان شأن سعيد بونعيلات، أو الذين كانوا يعلنون صراحة انتماءهم إلى المقاومة. بعد 15 يوما، بدا أن المعاملة أخذت تلين بعض الشيء. فقد أصبحت يداً أحمد بنجلون مقيدتين من أمامه وبأصفاد مغربية "عذابها أقل" من عذاب الأصفاد الإسبانية.

وقد صرح له أحد جلاديه الذي كان ولا شك يُكن بعض التقدير لأشد المعتقلين مقاومة: "إن لك سبعة أرواح، تموت ثم تُبعَث من جديد".

ولكن مساجين المؤبد هؤلاء لم يكونوا كثيرين في دار المقري. كانوا حوالي الثمانين معتقلا مكدسين في غرفٍ من 60 مترا مربعا كانت تقوم مقام الزنزانة. وعلى طرفي الحائط الذي يحيط بالبناية نافذةٌ عليها قضبان حديدية. وكان أحمد بنجلون ممددا في إحدى الزوايا، تشده سلاسل إلى قضبان إحدى النافذتين. كان شعاع الشمس الذي يتسرب عبر القضبان يرسم بقعة من الضوء على الأرض وسط القاعة. ورغم الحركة الدائرية لهذه البقعة المضيئة، وهي آخر علامات العالم الخارجي، كان النهار والليل يختلطان، فينمحي الزمان

ويستولي الخمول والفتور على العقول. كان المعتقلون، وعيونهم تغطيها قطع القماش، يُبصرون بآذانهم. كانوا يتعرفون على الحراس من خطواتهم، ومن أصواتهم. كانوا يعرفون عدد المعتقلين من تنهداتهم وأنينهم؛ ومن الأبواب التي تُفتح وتُغلق. كانوا يعرفون المسافات والدهاليز والحيطان من خلال تحسسها تحسسا محموما. وكان انعدام الحركة، وأصوات المزالج وصرير الأبواب الحاد والأنات المخنوقة، وبعيدا، صراخُ المعذبين الذي يليه صمت ثقيل، كان هذا هو ما يؤثث حظهم العاثر ويبعث فيهم إحساسا كبيرا فضفاضا بالضياع والخسارة.

أصبحت دار المقري القِبلة النهائية لحلمهم بالحرية. في هذا المكان الضيق، كان من المستحيل الانفلات من قبضة اليأس. ولكن كان بها على وجه الخصوص أفظع وأبشع ما مر بذاكرة المعتقلين، إنه رنة الجرس التي تعلن النداء من أجل التحقيق: إنه صوت حاد يصم الآذان يُدخِل الرعب في فؤاد كل سجين ويضع في أعماق أعماقه هذه الحثالة المخزية التي تحتفل بالجبن على أنه السبيل الوحيد إلى النجاة.

كان كل بئيس من هؤلاء البؤساء يتمنى في سره، وهو يعلم أن ما يتمناه يعني عذاب أحد الرفاق، كان يتمنى أن لا يكون الدور في التعذيب دوره هو.

بعد مرور ثلاثين سنة، ما زال أحمد بنجلون يتذكر بإعجاب يمتزج بالدهشة أحدَ السجناء يُدعى الخيراني. كان يعرف أنه قد أُدين، وكان يسب الحسنَ الثاني كل ليلة. كانت جرأته هاته تتسبب له في حصة جلدٍ يومية. وفي يوم من الأيام، بعد أن مل هذه اللعبة، لجأ إلى سبيل آخر. أخبر أحَد الحرّاس:

— عندي خبر مهم أريد إبلاغكم إياه، خذني إلى كبير الحراس.

ولأن الحارس لم يكن ليرضى أن يتنازل عن صلاحياته، فإنه كان ينظر إلى الأمور نظرة مغايرة.

— هيا الخيراني، قل لي ما هو الأمر المهم إلى هذا الحد وإلا قتلتك.

— انتبه! إن أرغمتنيْ على الكلام فتحمل مسئوليتك، ذلك أن الأمر الذي أعرفه بالغ الحساسية.

فيستشير الحارس الذي انتابته الحيطة والحذر رئيسَه المباشر، فيقرران معا دفع الخيراني إلى الاعتراف، ولكن الخيراني يتشبث بموقفه.

— لا، إن ما أريد قولَه مهم جدا، لا بد أن أرى المسؤول الكبير.

وبعد أن ينتاب العياء الحراس، يعودون بالخيراني إلى الزنزانة. ولكن وفي المساء نفسه، يتم اقتياده ثانية إلى المكتب.

— هيا، يمكنك أن تتحدث الآن، إن الرئيس الكبير هنا.

— أزيلوا القناع عن عيني لأرى إن كنتم صادقين".

وعندما رُفِع القناع عن عينيه، وجد الخيراني نفسه وسط غرفة كبيرة وأمامه رجل في لباس مدني تدل هيأته على أنه في مرتبة عليا.

— هل أنت فعلا الرئيس الكبير؟

— نعم. ما هو الشيء المهم جدا الذي تريد أن تقوله لي؟

فيصيح الخيراني وعيناه تفيضان فرحا:

— إنك أكبر ابن قحبة يوجد على هذه الأرض.

إنه انتقام من الفظاعة والوحشية. انتقام قصير ولكنه ممتع. احتفظ أحمد بنجلون بحنين خاص لذكرى هذه الأحداث التي كانت تمكن رفاقه الغارقين في هذه المغارة اللاإنسانية من التشبث بالحياة. ويحتفظ في ذاكرته بذكرى شاب مستخدم في شركة السكر بالدار البيضاء. لم تمض ساعة واحدة على بداية تعذيبه حتى أخذت مفاصله ترتعد وأخذ يئن أنينا متواصلا. وعندما ينظر إليه المرء وهو يرتعد، كان يخشى أن يُصاب الشاب بسكتة قلبية أو دماغية. ولأن الحراس ساورهم الشك فإنهم أعادوه إلى الزنزانة. كان الشاب غارقا في تشنجاته عندما دخل معتقلان من مدينة مراكش في مناظرة كلامية للترفيه عن باقي المعتقلين. أخذت ضحكاتٌ مكتومة تخترق الظلام. إنها اليأس وهو يتنفس. وفي بضع دقائق اجتاحت الزنزانةَ موجةٌ عارمة من الضحك.لم يستطع المستخدم الشاب أن يكتم ضحكته، فانفجر ضاحكا بدوره. لقد كان حظ المسكين عاثرا. فقد ظل أحد الحراس ممن راوده الشك فيما ظهر على الشاب متربصاً به منذ أن أرجع إلى الزنزانة. فانقض عليه وأخذه من قفاه:

— هكذا إذن، تتظاهر بالموت أولا، ثم تضحك بعد ذلك.

ولأن الشاب البئيس انجرف مع جو المرح العام، فقد أجاب الحارسَ:

— أنا أشبه رأسَ الخروف، لا تظهر ابتسامتي إلا عندما أشوى.

الكفاح الأخير

كانت الساعة في باريس ووهران ودمشق ساعةَ حساب وتعداد الحصيلة. كان الفقيه البصري يقول ويكرر لكل مَن كان يصدقه:

— إن الوضع قابل للإنفجار، أنتم عود الثقاب الذي سوف يُشعل فتيل الانتفاضة.

ولكن أخفقت النظرية، ذلك أن الحلم تَقضي عليه الوقاحة.

فعندما يستمع المرء إليه يعتقد أن ضربة صغيرة تكفي للقضاء على النظام. كان بوراس، الذي كاد يصبح أثرا بعد عين، يتواجد في دمشق. ومن هناك، أخذ يستخلص نتائج الكارثة. فقد قبل القيادي السابق لجيش التحرير الوطني بالأمر البديهي، وهو الرجل الذي التحق بالفقيه البصري قصد مواصلة كفاح لم ينته بعد. إنه رجل لا عدوانية فيه ولا حقد، ذاك الذي أسر لي أسفَه بعد مرور عقود عن تلك الأحداث: "لم نكن قد تعلمنا شيئا من أخطائنا السابقة[32]".

---

32 حوار للمؤلف مع بوراس الفيكيكي.

حاول محمود والنمري أن يفهما. ويتذكر الفرشي: "وصل محمود والنمري إلى وهران. انهال علي محمود بوابل من الأسئلة وكان النمري يشك في كوني لم أتبع أوامره. شرحت لهما أن عملية تأطير الجماهير كانت ناقصة ومغلوطة تماما. ذلك أن النقاط المعتمد عليها في الداخل هي أطر الحزب المحلية، كما هو شأن حبيب الفرقاني في مراكش، والذي لم يكن يفقه شيئا في الكفاح المسلح[33]". ولكن إن كان مسيرو الحزب قد أخلوا بمهمتهم، فإن التنظيم، وهو الطليعة الثورية، قد فشل هو كذلك في مهمته. فقد كان يحدث أن يأوي الأطرَ المتسربةَ مناضلون كانت لهم بهم معرفة شخصية ولكنهم كانوا في الآن نفسه معروفين في أوساط الشرطة. ومجمل القول إن لقبهم السري لم يكن سوى تمرين بلاغي. إنه تخالُطٌ مشؤومٌ سهل عملية القمع. إذ إن اعتقالات قليلة كانت كافية لتفكيك الشبكات. اكتشف محمود مذهولا واقع أحداث لم يكن يتصورها في وضوح. فقد كشف تعداد الخلايا التي كانت ما زالت عاملة هولَ الكارثة. إذ تم القضاء على شبكة مراكش. وفي الدار البيضاء، بقي دهكون وبعض رجاله المقربين، وكذا خلية الحسين المانوزي. وفي الرباط، بقيت مجموعة سيدي حمو إضافةً إلى بعض الأطر الثورية في وجدة وفي الأطلس المتوسط ممن نجوا بأعجوبة من الشرطة.

عدَّدَ محمود، دون جدوى، الآفاقَ التي ما زالت مفتوحة أمام التنظيم الذي أصبح مشلولَ القدرة على الحركة، إذ ليس هناك أي أفق يسمح بتلمس منفذ سياسي أو عسكري ناجع. وهكذا وأمام هول الكارثة، تحولت دهشة محمود إلى عدم التصديق بما حدث. فكر في تسريب المناضلين الذين ما زال بالإمكان تسريبهم إلى الخارج. ولكن الفقيه البصري ما زال يرفض وضع السلاح والاستسلام. فقد كانت الإشاعات تتحدث عن مؤامرة داخل الجيش زادته يقينا بالنصر في نهاية المطاف. انضم النمري إلى رأيه معتقدا أن الرجال فشلوا نتيجة إهمال. ولأن الرجلين كانا يكرهان فكرةَ الاستسلام، فإنهما واصلا دون هوادة العمل كيما ينصاع القدر ويرضخ. إذ كان يكفي في نظرهما إعادة إشعال فتيل الثورة الضعيف. وعندها، سيقوم الغليان السياسي بالباقي. ولهذا قرَّرا إعادة تنشيط البؤر الثورية في جنوب البلاد التي أطفأتها موجة الاعتقالات التي اجتاحت مراكش وضواحيها.

إنها مهمة اليزيد.

---

33 حوار للمؤلف مع عمر الناصر، المعروف بالعريشي

وصدفة وخلال اجتماع في باريس حضره الفقيه البصري والنمري، أُوكِلت لليزيد مهمةٌ: "كانت مجموعتِي تتكون من خمسة رفاق[34]؛ كلهم تكونوا في الزبداني. كان هدفنا هو تأطير الخلايا السرية وتنظيمها في منطقة سوس، أغادير أساسا وتارودانت وتيزنيت. وكان من المفروض أن يكون الوسيط في عين المكان إطارا محليا من الحزب يُدعى الحسين بوعدان[35]".

لم يكن اليزيد في مرحلة التجريب عندما عبر الجزائر إلى المغرب يوم 19 يونيو من سنة 1970. فتدريبه بسوريا لم يدم سوى شهرا. وكان قد سبق الكل قبل ذلك بسنة ليغادر المغرب ثانية في نونبر من سنة 1969: "كان عَلَي أن أنَظِّم شبكةٍ سرية في تارودانت. ولكن محاولتي بقيت عقيمة لم تثمر شيئا". وفي اليوم نفسه الذي أخبِر فيه الفقيه البصري بفشل مهمته، جرفت موجة الإعتقالات في المغرب العديد من رفاقه الذين تدربوا في الزبداني ومناضلين كل من خليته الخاصة[36].

إذن فالرجل الذي كلفه الفقيه البصري بإنقاذ القارب هو نفسُه غريق نجا من الغرق. ولكنه كان ناجيا شحذ همته يقينٌ بأن الهدوء الذي يتلو العاصفة يناسب الفتوحات الجديدة. في هذا الموقف عزم رجال التنظيم وأجمعوا على أن يواصلوا العمل حتى نفاذ آخر ما لديهم من طاقة. كانوا يعرفون، لأنهم أقسموا على ذلك، أن كفاحهم يجب أن يقذف بهم إلى ما وراء الحدود الهشة لأخف ضرر وأقله.

ورغم أن اليزيد كان قد استعد للأمر، فإنه وقف مندهشا أمام هول الكارثة التي حلت بالتنظيم. كان العزاء الوحيد هو أن المَقَر العام رقم 205 بشارع كلميمة قد تزايد عددُ أعضائه منذ تسرب الحسين المانوزي. إذ بات زهاء العشرة من الرجال يشكلون النواة الصلبة للخلية السرية. من بينهم الدهيش، وهو إطار تدرب في سوريا، وآيت الموذن، وهو مسؤول عن الحزب. وكان الرجلان قد نجوا بأعجوبة من الاعتقالات التي انهالت على مراكش. وبالنسبة إليهم، كان الانفصال والانعزال بين الخلايا قد لعبا دورهما. فقد أنذر الرجلان الهاربان من مراكش مجموعةَ الحسين المانوزي بالخطر، فغيرت المجموعة أوراق تعريفها وجمدوا علاقاتهم مع باقي الخلايا.

34 الأطر الثورية الخمسة هي: محمد بنيحيى، وعزيز بن ابراهيم المعرف بخليفة، واليزيد مرزوق المعروف بالسملالي، ومحمد أسكور المعروف بكاسترو، ومحمد بن الحسين المعروف بصبري. توفي هذان الأخيران سنة 1973، الأول في المعركة، والثاني نُفذ فيه حكم الإعدام.

35 حوار للمؤلف مع اليزيد البركة.

36 لا سيما خلية عيسى انتظام، وهو إطار تكون في سوريا في الوقت نفسه الذي تكون فيه الكوار (بوحق محمد بنموسى ومحمد بن محمد ورياض بوشعيب العربي ونونس محمد) وخلية اليزيد (بنموسى ومحمد بن عمرو والحسن الزندي وسوكا محمد). المصدر: قرار المحكمة الجهوية بمراكش رقم 71/612.

ولكن عين الشرطة لم تنم. إذ في شهر مارس، اعتُقِل وسيط شبكة مراكش البيضاوي[37]. وقد تم اعتقاله في الوقت نفسه الذي كان فيه الحسين المانوزي قادما من باريس ليسأل عن آخر المستجدات. غادرت ساكنة شارع كلميمة على وجه السرعة المكان خشية وصول الشرطة. وبعد بضعة أيام ودون سابق إنذار، عادوا إلى قواعدهم. ذلك أن المناضل السري الذي اعتُقِل لم يبح بالأمر.

ولما اتصل اليزيد بشبكة الحسين المنوزي، بدايةَ شهر يوليوز من سنة 1970، كان هذا الأخير منهمكا في التحضير للعملية: كان الحسين المنوزي يصنع قنابل مع إطار تكون في سوريا في حين أن باقي أعضاء المجموعة كانوا يحددون مواقع مقر الأمن الوطني بالمحمدية ومدرسة الشرطة في عين السبع ومقر الدرك في عين حرودة. وكان شرطي معين في مقر الأمن الوطني بالمحمدية، وعضو في الخلية السرية، قد أعطى مسبقا تصاميم بنايات ومعلومات تخص عدد العناصر وإحصائيات تهم الأسلحة. بل وتم كذلك إعداد لائحة تخص متعاونين مستعدين لحمل السلاح (من بينهم عدة عناصر من رجال الشرطة). وخلال هذا الوقت، وبالرقم 269 من شارع الزراوي، وهو الشقة الثانية لشبكة المانوزي، كانت تُطبع مناشيرٌ وتُرسَل عبر البريد.

توصل الحسين المانوزي من الفقيه البصري بأمر بالهجوم.

وتوصل دهكون بالأمر نفسه، وكذا اليزيد يوم 15 يوليوز من سنة 1970. وكانت مجموعتا الحسين المانوزي ودهكون قد توصلتا من قبل بحمولتين من الأسلحة قادمتين من أوروبا. وكانت الأهداف المحددة فيما يخص مجموعة اليزيد هي عمارة بناية مجموعة ماس، وهي من بقايا الحملة الدعائية الاستعمارية التي أصبحت تتملق للنظام الملكي، وكذا المركز الثقافي الأمريكي الذي يثير الشكوك في كونه يأوي مصالح مخابرات.

تحولت الثورة إلى إرهاب داخل المدن. بأي هدف؟ إسباغ المصداقية على اتحاد المعارضة الحديث العهد. هذا الاتحاد الذي تجَمع حول مطلب الديمقراطية المشترك (الكتلة، التي أنشئت بين الاتحاد الوطني للقوات الشعبية وحزب الاستقلال يوم 22 يوليوز من سنة 1970)؟ إظهار عدم الاتفاق مع الاستعدادات للاستفتاء الدستوري الذي كانت نتائجه معروفة سلفا (كانت بعض المنشورات التي طبعتها مجموعة الحسين المانوزي تتحدث عن الأمر بوضوح)؟ رجلٌ واحدٌ يمكنه أن يجيب: إنه الفقيه البصري.

ولكن النتيجة كانت معروفة: إمكانيات بالغة البساطة وارتجال وتأجيل. هذه الأمور التي ذهبت بحياة عدة أطر كانت قد نجت حتى ذلك الحين من الاعتقالات. إذ إنها عجلت بدفعهم في عمليات محكوم عليها بالفشل مسبقا.

37 يتعلق الأمر بالمنصور، طالب سابق في بلغراد، تكون عسكريا في الجزائر، نزلت في بيته مجموعة الفرشي قبل مواصلة سيرها نحو مراكش.

وفي يوم 16 يوليوز، جُرح اليزيد جُرحاً خطيرا عند اختباره جهازا لإشعال القنابل. وبعد محاولات عدة، دخل المستشفى بعد مرور عشرة أيام، متسترا وراء هوية مزورة. وخرج من العملية وقد بتر أصبعاه (الوسطى والإبهام). وفي الليلة ما بين 17 يوليوز و18 منه، أطلَق رجلان من رجاله النار على رجال شرطة كانوا يريدون مراقبة هوياتهما.

زد على ذلك أن خلية الحسين المانوزي كانت تعرف انشقاقات داخلية. ووسط هذا التضارب بين العواطف المتناقضة تبين أن آيت الموذن يعارض العمليات المسلحة وأن الدهيش يرفض الانصياع للأوامر. ولما اغتاظ الحسين المانوزي من الأمر، ذهب إلى باريس للإخبار بالوضع، ولكنه طلب قبل ذلك من أحد رجاله أن ينزع السلاح من الدهيش وأن يضعه تحت المراقبة.

فاجتمعت بذلك الشروط التي تؤدي إلى ارتكاب الخطأ.

وفي يوم الأربعاء فاتح شتنبر من سنة 1970، كان على عضوين من خلية الحسين المانوزي أن يلتقيا أمام مقهى الشمس بشارع بوردو، على مفترق شارع الزيراوي. كان الأول، الذي استُقطِب في البدء من أجل نقل السلاح والمتفجرات من أوروبا والذي وصل إلى المكان قبل الموعد بقليل، ينتظر على متنِ سيارة بوجو 204 التي استعملها في آخر حمولةٍ نقَلَها. إلى جانبه وُضعت حقيبةٌ بها مسدس كان قد أخذه من الدهيش وبذلةُ شرطيٍّ. ولما ظهر المناضل الثاني في أقصى الشارع، وهو إطار تكون في سوريا، انتبه شرطي إلى العملية. إذ إن الشرطي لَمَا لاحظ أن السيارة واقفة غير بعيد عن محلٍ لبيع الكحول، ومرقمة في بلجيكا، شك في أن الأمر يتعلق بعملية غير قانونية لتهريب الكحول. لف الشرطي حول السيارة وتوجه نحو السائق طمعا في بعض المال مقابل تسامحه. ولما تفحص، مُبدياً تفهمَه، أوراقَ السيارة، وصل المناضل الثاني إلى مكان الموعد. ولأنه خشي الوقوعَ في كمين، سدد مسدسه نحو الشرطي. ولما اختلطت الأمور، ولأن السائق الأول انتابه الرعب، فإنه فر على متن سيارة 204 تاركا أوراقه بين يدي الشرطي. وأما مسدس المناضل الثاني فقد كان به عطل ولذا فإن الشرطي، الذي انضم إليه شرطيون آخرون، لم يجد صعوبة في انتزاع السلاح من يده.

وفي اليوم الموالي، توصل حسين المانوزي ببرقية في باريس تخبره بالكارثة: "لقد وقع حادث: الأول جريح والآخر دخل المستشفى[38]".

لم تكن هذه سوى البداية. وبعد يومين من ذلك، داهم الدركُ شقة شارع كلميمة حيث كانت توجد ترسانة كاملة من الأسلحة: مسدسات مجهزة بكاتم الصوت وقنابل ولوازم لإشعال القنابل وألبسة عسكرية ووثائق شرطة مزورة وبطاقات ومختبر حقيقي من المواد الكيميائية والحامض المستعمل في صنع القنابل. وخلال الحملة نفسها، تمت مداهمة شقتين تستعملهما الشبكة: رقم 269 بشارع الزيراوي، على

---

38 حوار للمؤلف مع رشيد المانوزي، أخ الحسين المانوزي.

بعد خطوتين من هناك. ورقم 405 بشارع ماء العينين. وضع الدرك يده على أسلحة أخرى. وعلى عتاد ولوازم للطباعة وعلى لائحة بأسماء رجال الشرطة. وخلال حملات الشرطة هاته. اعتُقِل آيت الموذن والدهيش وجل رفاق الحسين المانوزي.

قتال المواقع الخلفية

أذهل الخبر الفقيه البصري. كان يحس بالخناق يشتد من حوله. فآخر خلايا التنظيم أصبحت مهددة. بل إن اليأس دفعه إلى أن يأمر اليزيد بالالتحاق بدهكون والتراجع نحو الجنوب. دامت مطاردة دهكون أكثر من أسبوع. غدا الوسطاء حذرين. وبعد محاولات وترددات كثيرة. ضُرِب موعدٌ. كان اليزيد ومن معه متوترين. فبعد حملة الاعتقالات. زادوا من تنبههم ويقظتهم. ذهب اليزيد إلى المكان المحدد. ومعه رجلٌ آخر بقي بعيدا شيئا ما عن مكان الموعد. وعيناه متربصتان ويده على المسدس. لم يظهر دهكون. ضُرِب موعد ثانٍ. لم يحضر دهكون هذه المرة كذلك. ولم يحضر حتى في الموعد الثالث. في الواقع. كان دهكون يحضر في كل مرة إلى مكان الموعد. ولكنه بات حذرا مرتابا. فكان يراقب اليزيد ورفيقَه من بعيد. لقد أصبح من الصعب في هذه اللحظات البالغة التوتر والتي تكثر فيها الشكوك. أن يعتبر المرء أبسط علامات الترحاب على أنها مضمونةٌ لا خوف منها.

لم يرحل اليزيد. الذي كان في فترة نقاهة. ورجالُه الخمسة إلى منطقة أغادير إلا نهاية شهر أكتوبر. فباتت آخر مجموعة من الثوار معزولةً لا مورد لها. ومع ذلك. لم يكن شيء في موقف اليزيد أو موقف دهكون يدل على القلق المعتاد عند الهاربين المذعورين. ولئن كان بالإمكان قياس قوة عمل الثائر من منظور إصراره وعزمه. فإن اليزيد ودهكون هما وبكل تأكيد ثوارٌ كبار. كان ذهن اليزيد مسكونا بالمهمة التي أناطه بها الفقيه البصري في باريس: تثبيت بؤرة للانتفاضة في منطقة سوس. وسوف تقود هذه المجابهة الأخيرة مع الواقع المنذر بالخطر والمخيف لمنظمة التنظيم داخلَ البلد. سوف تقود اليزيد ودهكون إلى الوقوف على هول الكارثة. فسرعان ما ظهر أن خلايا الحسين بوعدان السرية أشباحٌ ليس إلا. وكانت الإدارة متلعثمة متعثرة. لم تصل الأسلحة. والإمكانيات اللوجستيكية منعدمة.

أحس الثوريون بأن عزمهم أخذ يتراجع إلى حد أنهم ندموا على كونهم ركبوا المغامرة. هناك نوع من الفشل لا يخدع أحدا. خدَعَهُم واقعٌ مزور. فحاولوا أن ينتزعوا من هذا القدر الصدفوي شيئا من الأمل. حاولوا جاهدين ربط علاقات مع خلايا سياسية للحزب من أجل التعرف على الموارد البشرية والمادية المتوفرة. بل وتم اللجوء حتى إلى أطر من السلطة الجهوية عُرِفت بتعاطفها معهم. إنها آخر المحاولات التي

لا تفيد في شيء. ليس لأن أبطال جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب هؤلاء كان من الصعب جدا جعلهم يَتَبَنون المثال الثوري. ولكن ووسط صمت هذه المساحات الصحراوية الشاسعة وسكونها، لم يعد بمقدور شيوخ الدواوير المنعزلين وسط الحرمان سوى أدب الضيافة الخفية يوفرونه للثوار. وبعد أن استنزف دهكون واليزيد ورفاقهما كل النيات الحسنة، وبعد أن انتابهم الإحساس باليأس، أخذوا ينظرون إلى الأمر الواقع: إن الإمكانيات الحقيقية والواقعية لإعداد عمل مسلح غير متوفرة. فلم يبق أمامهم سوى الرجوع إلى الدار البيضاء، إذ هناك على الأقل، سوف يحتمون وسط ساكنة حضرية كثيرة العدد يجهل بعضها بعضا.

ولما لم يعد بمقدور المساعدين الخمسة الذين رافقوا اليزيد منذ دخوله المغرب اجترارَ حقدهم، قرروا العودة إلى الجزائر عبر بركان. وفضل اليزيد ودهكون البقاء. إنها كذلك اللحظة التي اختار فيها الحسين بوعدان، قائد الجيش الشبح، الهجومَ من جديد. أكد لليزيد بأن له رجلَ اتصال بالدار البيضاء بإمكانه أن يزودهم بالسلاح وبالمناضلين المستعدين للقتال. كان الوسيط مساعدا سابقا لشيخ العرب. كان الرجل "واشيا" مخبرا. ولأن اليزيد ساوره الشك في تحركات الحسين بوعدان الغريبة، فإنه شك فيه وفضل أن يختبر الوسيط الجديد قبل أن يضمه إلى الشبكة. ولأن الشرطة أعيَتها اللعبة، فقد اكتفت باعتقاله وحده.

اعتُقل اليزيد في مقبرة ابن امسيك بالدار البيضاء يوم الجمعة 27 نونبر من سنة 1970. ونُقل توا إلى مخفر درب مولاي الشريف بالدار البيضاء. عُذب هناك عذابا شديدا وحشيا مدة شهر حتى يعترف بتفاصيل قصة كان قد تخيلها ليوقع الوسيط الذي اقترحه الحسين بوعدان ويمتحنه: "كان من المنتظر وصول شاحنة تحمل مناضلين مسلحين قادمين من الجزائر[39]".

وقد تلقى البازغي[40]، وهو عضو في اللجنة المركزية للحزب، اعتُقل في الفترة نفسها لتواطئه المفترض مع التنظيم، المعاملةَ نفسَها. وكان استيتو، الساعد الأيمن للحسين المانوزي، يقبع كذلك في قبو درب مولاي الشريف. وسوف يبقى خائر القوى لكثرة ما عُذب، لا يمكنه أن يتحرك إلا مشيا على رجليه ويديه. وهو الأمر الذي جعل الآخرين ينعتونه ب"البرويطة" (المنقَلَة).

---

39 حوار للمؤلف مع اليزيد البركة. إنه الأمر كذلك الذي سوف يقوله المناضي في محاكمة مراكش: "000 150 رجل لربما تجمعوا على الحدود الجزائرية – المغربية لقلب النظام".

40 اعتُقِل يوم 16 نونبر من سنة 1970. واعتُبِر في البداية مفقودا حسب بلاغ للاتحاد الوطني للقوات الشعبية في ذلك الوقت. كان حينها عضوا في اللجنة المركزية، ومسؤولا عن فيدرالية الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بالرباط، ومساعدا في ديوان عبد الرحيم بوعبيد. وسوف يصبح وزيرا للسكنى في حكومة "التناوب" التي شكلها عبد الرحمن اليوسفي سنة 1998 في عهد الحسن الثاني.

وسوف يشهد أفراد عائلة المانوزي على وحشية التعذيب الذي تعرض له. عُلق الحاج علي ثلاث عشرة مرة من رجليه. إذ أقسمت الشرطة على أن تجعله يعترف بأن سفينة الصيد التي حازها بطلب من الحسين المانوزي كان الغرض منها هو نقل الأسلحة. وفي حالات كثيرة، وصل إصرار الشرطة الأعمى حدودا لا يمكن تصورها. فقد كان أفرادها يقتلون أشخاصا أبرياء. كان الجاهيد القاسم متعاطفا مع القضية الثورية. أخبره الحسين المانوزي أن مجموعة اليزيد هي التي قتلت شرطيا بمدينة الدار البيضاء. فارتكب خطأ إشاعة الخبر بين مناضلين آخرين. فاعترف هؤلاء تحت التعذيب بكلام الجاهيد. فكان هذا كافيا لتحوم الشكوك حول الشاب ذي الحظ العاثر. فعُذب حتى اعترف بذنب لم يرتكبه. وبعد أن اعترف بالجريمة المزعومة، قرر افرادُ الشرطة الانتقام لزميلهم بتصفية قاتله المزعوم: الجاهيد القاسم.[41]

مُعطىً سياسي جدي

كان لفشل عملية سنة 1969 آثارٌ سياسية كارثية على التنظيم. فمنذ أول الاعتقالات، أرسل الحسن الثاني أوفقير إلى الجزائر العاصمة وإلى تونس العاصمة من أجل إقناع الرئيس بومدين والرئيس بورقيبة بأن المغرب ضحية "مؤامرة بعثية" مقرها في دمشق.

وزار الملكُ نفسُه فرنسا في الأسبوع الأول من شهر فبراير من سنة 1970 لربط العلاقات ثانية مع الحكومة الفرنسية بعد أن كانت قد غدت متوترة منذ قضية ابن بركة. ومكنه رحيل الجنرال دوغول، قبل بضعة أيام من ذلك، من دخول التراب الفرنسي ثانية. وبالفعل فدوغول كان قد قطع العلاقات الدبلوماسية مع المغرب منذ اغتيال زعيم الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في فرنسا.

حاول الحسن الثاني أن يُقنع خلفَ دوغول، الرئيس بومبيدو، بحقيقة "المؤامرة البعثية" وطلب، بالمناسبة نفسها، مساندةً سياسية وعسكرية. لقد أثمرت المحاولة. وجون لاكوتير، ملاحظ نبيه للحياة السياسية الفرنسية وعارف ماهر بالمغرب، لا تنطلي عليه الخدعة. فكتب في أسبوعية لونوفيل أوبسيرفاتور (الملاحظ الجديد): "موريس شومان بالتأكيد وفيٌّ أمين للخط السياسي الذي وضعه الجنرال دوغول، ولكن ما أقصر ذاكرة هذا الوفاء والأمانة". ليخلص بعد ذلك: "(...) إن نظام الرباط هو اليومَ أكثر من أي وقت مضى، النظامُ الذي كان دوغول قد قطع معه كل العلاقات". ولكن الساعة لم تعد ساعة التأملات التاريخية. فخلال زيارة الحسن الثاني،

---

41 مات تحت التعذيب. وسوف تصرح الشرطة أنه "مات من فرط التعب والإعياء" في تقرير يزعم أنه حاول الفرار.
42 جون لاكوتير. "قضية جديدة [سببها] ابن بركة". لونوفيل أوبسيرفاتور (الملاحظ الجديد). 7 دجنبر 1970.

اعتُقِل النمري بباريس في شقة شارع سان دومينيك بعد أن شَددت الشرطةُ المراقبة لتفادي عملية مسلحة محتملة ضد الملك. ووجدت الشرطةُ كميةً كبيرة من الأموال بعملات متنوعة وأسلحة وجوازات سفر. فالنمري كان قد اختبأ في باريس منذ اعتقال سعيد بونعيلات وأحمد بنجلون في مدريد. ومن هناك أخذ يعدد المؤشرات القليلة التي يبعث بها المراسلون القلائل الذين ما زالوا نشيطين في المغرب. والذين ما فتؤوا يؤكدون يوما بعد يوم وقوع الكارثة التي لا رجعة فيها. كانت سابقةُ المهدي بن بركة تحرج حكومة بومبيدو إلى درجة أنه فضل التخلص من النمري، وهو السجين الذي أصبح عبءًا، وذلك بتسليمه فورا إلى السلطات السورية.

وهكذا نجا النمري من براثن أوفقير. فقد كان ينتظره مصيرٌ آخر.

فبينما كان النظام الملكي المغربي يربح مساندة حكومة بومبيدو، كان التنظيم، الذي أصبح معزولا سياسيا، يخسر حلفاءَه العرب. فقد كان قياديو التنظيم، الذين احتموا بالعزلة التي فرضها عليهم فشلهم، يشهدون مسانديهم بالأمس يتحولون في أحسن الأحوال إلى أوصياء عليهم رغما عنهم، وفي أسوء الحالات، إلى معلمين عنيفين. ردت السلطات الجزائرية بعنف على التسريبات التي تمت انطلاقا من أراضيها إذ اعتقلت بعضَ مَن ساهموا فيها، في وهران. وفي سوريا، انزعج شخصيا صلاح جديد، الذي ساند المشروع الثوري للتنظيم، واعتبر مَحمييه المغاربة جزئيا مسئولين عن إخفاقاته.

وأتم انقلاب حافظ الأسد، نهاية شهر شتنبر من سنة 1970 ، عزلةَ التنظيم. ولئن كان حافظ الأسد قد واصل مساندته السياسية للتنظيم، فإنه قد سحب عنه المساندة العسكرية والمالية التي بقي يستفيد منها حتى ذلك الحين.

زد على ذلك أن شهر شتنبر من سنة 1970 يمثل منعطفاً تاريخيا حقيقيا دق نهاية الثوار العرب. فقد انضاف إلى انقلاب حافظ الأسد، اختفاء الرئيس جمال عبد الناصر، السند الرئيسي للحركات التحريرية في العالم الثالث. وأخيرا، وبعد الأحداث الدموية لأيلول (شتنبر) الأسود، ضُحي بالأمل الثوري لصالح المصلحة العليا. فقد قضت القوات الأردنية على الفدائيين الفلسطينيين المرابطين على التراب الأردني، هؤلاء الفدائيين أنفسهم الذين تدرب إلى جانبهم الثوارُ المغاربة على الكفاح المسلح. لم يعد هناك سوى قتالٌ يائس لإنقاذ ما تبقى من حلم أصبح وهما. فقد أصبح التنظيم مشلولا بفعل الجزرة التي طالت مناضليه ووسائله اللوجستيكية التي أبيدَت، والعزلة السياسية التي ضُربت عليه، فأخذ يستعد لإنجاز رحلة طويلة لعبور الصحراء. هذا هو السياق، غير المواتي للثوار، الذي اختاره الجيش للدخول إلى الساحة سنتي 1971 و1972.

وبالنسبة إلى قياديي التنظيم الذين نجوا من الكارثة، محمود والنمري ودهكون وسيدي حمو، فقد بدأ اختبار السخط والاستنكار. سوف يؤدي هذا السخط لا محالة إلى إعادة النظر التي كان من شأنها أن تصنع، لو كانت الظروف عادية، بقية الأحداث. ولكن وعند فجر السبعينيات، انجرف التاريخ حاملا معه أقدارا عديدة. أقدارَ أربعة أشخاص، فضلوا ركوب الخطر بُغيةَ التعايش مع الشك. أقدارٌ سوف تتشابك مع رُؤىً وشجاعةٍ وقِوىً.

صدى الأيام الموالية التي خيبت الآمال (1971 _ 1972)

مجندون جدد

لقد كان مسار إبراهيم أوشلح النضالي مسارا تقليديا، إنه مسار ثورة صريحة. كان أبوه تاجرا من منطقة سوس، استقر بمدينة سلا، فنشأ الابن منذ نعومة أظافره في وسط وطني، وكَبُر في خضم إرهاصات استقلال المغرب. كان إبراهيم تلميذا بالثانوي ثم أصبح طالبا، فالتحق بصفوف الاتحاد الوطني لطلبة المغرب وشارك في إضرابات وتظاهرات عديدة.

عندما وصل إلى مدينة غرونوبل سنة 1967 لمتابعة دراسته والحصول على الإجازة في الجيولوجيا، كان الهدف كذلك هو أن يلتحق برفاقه في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، الذين جاءوا إلى فرنسا لمتابعة دراستهم. كانت فرنسا في هذه الفترة تعرف هدوءاً نسبيا. فقد كان الشباب تحْدُوهُم رغبةٌ قوية في التحرر تغذيها بلاغة ثورية تكاد تكون رومانسية. كان هؤلاء الشباب يحلمون بالتخلص من برجوازية لا إلهام لها، استوت على هناء ورخاء ما بعد الحرب العالمية الثانية دون عناء ودون تعب. أصبح الجنس والعنف هما أولى الحقائق للإطاحة بالبهارج البغيضة لهذه البرجوازية.

تعلم هذا الشبابُ من حرب الفييتنام ومن تشي غيفارا ومن خُطَب جمال عبد الناصر الملتهبة النزوعَ إلى النضال بعد أن زودته بالمضامين الإيديولوجية التي كانت تنقص ثورته. ولأن هؤلاء الشباب زادهم هذا اليقين قوة، فإنهم أخذوا يحلمون بالحرية، وهي الأحلام التي سوف تذهب بالعديدين وسط الخضم المأساوي للتاريخ.

مارَس إبراهيم صحبة رفاقه في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب طقوسَ المناضلين القاعديين. فقد كان يشارك في اجتماعات لا نهاية لها تستمر حتى آخر الليل، وكان يوزع المناشير وينظم حفلات راقصة طلابية من أجل جمع التبرعات وبالمناسبة مخالطة الفتيات اللواتي يساهم تحررهن في دعم القضية الثورية. في هذا المرتع الطلابي بمدينة غرونوبل، استقطب الاتحاد الوطني لطلبة المغرب بعضاً ممن سيصبحون

أطره السياسية[1]. كان جلهم من أبناء الأعيان انجرفوا بعيدا عن الأعراف التي تفرضها القيم البرجوازية.

بالنسبة إلى إبراهيم، فإن الحرية التي يطالب بها هي بمثابة الجنة على هذه البسيطة. والطريق الذي يفضي إلى الجنة لا يمكنه أن يكون إلا طويلا شاقا. بدأت الثورة تتحول شيئاً فشيئاً إلى أكثر من تمرين بلاغي. فقد أصبحت ضرورة عملية. لم يكن وحده الذي يطمح سرا إلى حل سريع. ومن بين رفاقه، ظهر تقارب بينه وبين العربي عجول الذي كان يتقاسم معه الطروحات نفسها. تحولت علاقتهما من مجرد مُسارّات إلى لقاءات، فتقوت روابطهما في إطار تواطؤ سري له هدف مشترك.

لم يعد الفقيه البصري بعيدا جدا. إذ بدأت الاتصالات الأولى بين الفقيه البصري وإبراهيم في الوقت نفسه الذي كان فيه عدد من أطر الاتحاد الوطني لطلبة المغرب يناضلون داخل صفوف التنظيم، كما كان حال عجول. إذ كان عجول مسؤولا عن الاتحاد الوطني لطلبة المغرب في فرنسا، وكان في ذلك الحين أحد الأطر الطلابية التي زودت معسكرات الزبداني وعين البيضا بمجندين جدد. ويتذكر إبراهيم قائلا: "كانت اتصالاتي بالفقيه البصري تتم بواسطة سعيد الأشكر، وهو طالب يقطن في الحي الجامعي وسوف يُختَطف فيما بعد من طرابلس، وكان الغزواني الراشيدي، عضو اللجنة التنفيذية للاتحاد الوطني لطلبة المغرب، والذي سوف يصبح وزيرا، يربط بين الخلايا السرية لنقابة الطلبة المستقرة في المغرب والتي كان مسيرها الثاني في ذلك الحين هو الخصاصي[2]".

وفي صيف سنة 1970، كان سن إبراهيم 25 سنة وأخذ مسارُ حياته منعطفا حاسما.فمن مدينة نانسي، حيث كان يتابع تخصصه في الجيولوجيا، دُعي إلى اجتماع سري في باريس، التقى فيه بعجول والفقيه البصري. فمنذ زمن الحفلات الطلابية بمدينة غرونوبل، كان عجول قد سلك طريقه. ولأنه فعال ورزين، أصبحت له اليد العليا على حركة الطلاب المغاربة بفرنسا. حضر الاجتماعَ أربعةُ طلاب، جميعهم أطر في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. من بينهم بنيحيى، وهو مسؤول سابق في النقابة الطلابية بالجزائر العاصمة، كان قد بدأ مسار المقاتل في معسكر أرزيوو بمدينة وهران إلى جانب دهكون واليزيد، قبل أن يلتحق بالزبداني في سوريا. وكان ضمن الحضور كذلك طالبان جاءا من ألمانيا وآخرٌ جاء من الشرق الأوسط. عرف إبراهيم فيما بعد أنه اليزيد.

كان اليومُ عشيةَ دخول اليزيد إلى المغرب ليلتحق بتارودانت. وكان هذا كذلك شأن بنيحيى، أحد رجاله الخمسة الذين يرافقونه في محاولته اليائسة.

---

1 من بينهم: العربي عجول، كاتب الدولة لاحقا، والطيب بناني، رئيس الاتحاد الوطني لطلبة المغرب لاحقا، ثم مدير المدرسة المحمدية للمهندسين بالرباط، وعبد الغني بوستة، مهندس ومدير لاحق للسدود بجنوب المغرب. سوف يصبحون جميعهم أعضاء نشيطين في التنظيم.

2 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشلح. كان الخصاصي حينها رئيسا للاتحاد الوطني لطلبة المغرب.

كان بنيحيى بارعا في البلاغة الخطابية الثورية التي تُلهب حماس الرفاق، وذلك بالإشادة بالأبطال الذين دخلوا التاريخ. إنه "شاعر من شعراء الثورة"، قالها إبراهيم في سره وهو الذي شهد الكثير من هؤلاء الشعراء في الجامعات حيث أصبحت "الثورة" موضوعا يتداوله الكثيرون. فالكوارث التي تضرب التاريخ لها خصوصية الإيحاء بأوهام شعرية.

استقبل الطلبةَ شخصان في سن الكهولة، يبدو أنهما قاطنان في الشقة، وقدما لهم الشاي. ولأن إبراهيم اعتقد أنهما عاملان مهاجران فإنه خاطبهما في أدب ودون اكتراث.وعلِم فيما بعد أن الرجلين هما النمري وبوراس. مع تقدم النقاش، فهِمَ إبراهيم أن موضوع الاجتماع هو المؤتمر المقبل للاتحاد الوطني لطلبة المغرب الذي سوف ينعقد صيفَ سنة 1970[4]؛ وحيث تتزود الحركة الطلابية في هذا المؤتمر بقاعدة للعمل وبرئاسة جديدة. كان التوجه الذي أخذه المؤتمر أساسيا. فالمشهد السياسي في المغرب أصبح راديكاليا. وأهم أحزاب المعارضة تستعد لإلغاء الإصلاح الدستوري للمرة الثانية ولمقاطعة الانتخابات التشريعية. في هذا الجو المتوتر سياسيا، كان التحكم في الحركة الطلابية رهانا أساسيا. فعدا النقابة العمالية للاتحاد المغربي للشغل، كان الاتحاد الوطني لطلبة المغرب حينها أهم قوى التعبئة الشعبية في البلد. وهاهو إبراهيم يقول: "بعد المداولات، اتفقنا على مساندة الطيب بناني لخلافة الخصاصي".

بالنسبة إليه، كان هذا الاجتماع أحد اللقاءات التي حسمت أكثر مجرى حياته. وعند خروجه من الشقة، كان مجال عمله قد حُدد تحديدا واضحا. لقد كان الأمر يتطلب نمطا ونهجا جديدين في العمل، إنه العمل السري.

الاثنين 14 يونيو 1971، المحكمة الجهوية بمراكش

تزاحَم المتهمون على الكراسي الخشبية، يحيط بهم رجال الشرطة بعضهم بلباس مدني وبعضهم بالبذلة الرسمية. كانوا هم وحدهم يمثلون الأغلبية الساحقة بين الحاضرين داخل قاعة المحاكمة بالمحكمة الجهوية بمراكش. عجز جناحُ المتهمين عن احتوائهم جميعا، فأجلِسوا أرضاً في قاعة المحاكمة. كان هناك حوالي الخمسة عشر إطارا تكونوا في سوريا، من بينهم اليزيد والكوار وتوفيق الإدريسي[5]. وكان هناك أحد قيادييهم الرئيسيين، أحمد بنجلون.

---

4 تأجل هذا المؤتمر، وهو المؤتمر رقم 13، ولن ينعقد إلا في شهر دجنبر من السنة نفسها.

5 وكذلك مصطفى الراشدي (طلال) وإبراهيم الرباطي (الناصحي) وعبْسى انتظام (عبد الله) والشافعي ملوك (أبو علي) وعبد الرحمن شوجار (وليد) والخطير الخطير وإبراهيم بوجمعة (ستينو) وعبد السلام صدقاوي ومحمد الحفيان (شاهين) ومحمد دريوش.

وإلى جانبهم، كان مقاومون سابقون، كما هو شأن سعيد بونعيلات وآيت المودن والحاج علي المانوزي وكذا إطارين من الحزب، الحبيب الفرقاني والبازغي. وأخيرا، كان عدد كبير من المناضلين الطلبة والعمال والفلاحين والتجار الصغار، وذلك لإتمام طبخة 161 مداناً حضروا الجلسة[6].

على اليسار، يوجد جمهور الحاضرين الذي يتكون من حوالي عشرين صحافيا وملاحظا. وفي الصف الأول من جناح المتهمين، يوجد صف من المحامين. ولأن الحزب كان يعرف رهان المحاكمة فإنه قد عبأ محاميه المرموقين وعلى رأسهم عبد الرحيم بوعبيد. وأمامهم هيأةُ المحكمة، وأسفلها صفوف من دلائل الإثبات : حوالي عشر مسدسات، ورشاشتان، وآلة كاتبة وآلة نسخ قديمة. كانت هذه الأدوات القليلة التي تتناقض مع الهيأة القضائية الضخمة التي عبأتها السلطة تنالُ منذ البدء من مصداقية المحاكمة. إنها أولى أخطاء نظام سياسي يرتاح في القمع أكثر مما يرتاح في التفنن في جلسات المحاكمة.

كانت معنويات المتهمين حسنة. فقد كان في مثولهم أمام المحكمة راحة لهم ولذويهم. فهو يقطع مع عزلهم ومع الدورة الجهنمية للتعذيب وظروف الاعتقال الرهيبة. كان جلهم، حتى ذلك اليوم، في عِداد "المفقودين". لم تكن هناك أية وثيقة رسمية تشهد على اعتقالهم منذ تاريخ وقوعه. هؤلاء الذين يَمثلون في جناح المتهمين هم إذن عائدون بُعِثوا من جديد. كان الوقت اللازم للنظام قبل أن يحيل القضية على العدالة هو أزيد من ستة أشهر داخل مراكز التعذيب السرية وسنة من التحقيق. أعلنت المحكمة العسكرية بالرباط، محكمة القضايا الاستثنائية، عدم الاختصاص في القضية. فأُحيلت القضية على المحكمة الجهوية بمراكش.

أن يعمل المرء من أجل الثورة شيء، وأن يُلقي المرء خِطابا داخل المحكمة شيءٌ آخر. أعطى المناضلون المثال بطريقتهم حيث اظهروا تضامنا لا غبار عليه واحتقارا للإتهام. وأما فيما يخص الباقي، فقد فوضوا الأمر للمحامين. تحدى أحمد بنجلون وسعيد بونعيلات متهميهم. وعند المناداة التقليدية على المتهمين، وردًا على سؤال "مكان إقامتك؟"، أجاب الأول "زنزانة سجن مراكش"؛ وسخر الثاني مجيبا "الجزائر العاصمة". اتسمت مرافعة الحبيب الفرقاني بطابع أكثر أكاديمية. فقد استعرض

---

6 كان 193 مدانا (منهم 32 غيابيا من بينهم الفقيه البصري وعبد الرحمن اليوسفي والمهدي العلوي، الذي كان حينها ممثلا للاتحاد الوطني للقوات الشعبية في فرنسا. تتراوح أعمارهم ما بين 30 و40 سنة. أكثر من نصفهم عمالٌ ومستخدمون، و13 معلما وأستاذا، و7 طلبة، و24 تاجرا وصانعا، و6 محامين. 45 من مراكش ونواحيها، والباقي من الدار البيضاء ووجدة والناضور والجديدة. هم متهمون بمحاولة قلب النظام لاستبداله ب"جمهورية اشتراكية". لهم علاقة بعناصر "تلقت تدريبا عسكريا خارج المغرب ودخلت سرا إلى البلد". هم متابعون بتهمة المس بأمن الدولة ومحاولة القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد. متابعون بالتزوير واستعمال وثائق مزورة.

عيوب المسطرة وظروف الاعتقال والتعذيب وانتزاع الاعترافات والمحاضر الملفقة والموقعة تحت الضغط[7].

ومع ذلك فإن المتهمين لا تساورهم الأوهام فيما يخص مصير المحاكمة. كان العديد منهم يعرف مسبقا أنه محكوم عليه بالإعدام. بدايةً من أحمد بنجلون واليزيد اللذين لم يفترقا منذ إطلاق الرصاصة الأولى في ميادين التدرب على إطلاق النار في وهران، وحتى هذه النهاية المأساوية لاعتقالهم. ولربما كانت اللائحة ستطول وتطول لو أن الشرطة ألقت القبض على القياديين الآخرين الذين كان يتهددهم بدورهم الحكم بالإعدام: الفقيه البصري وبوراس ومحمود والنمري ودهكون.

حُكم غيابيا على 32 متهما، مما جعل عدد المدانين يصبح 193. ومنذ الاعتقالات الأولى، كان للقصر الملكي ما يكفي من الوقت للنفخ في روايته للأحداث وتضخيمها، وهي الرواية التي تتحدث عن المؤامرة، وأضاف أسماء أخرى إلى لائحة المتهمين: عبد الرحمن اليوسفي والمهدي العلوي ومحمد اليازغي، وكلهم أعضاء في اللجنة المركزية للاتحاد الوطني للقوات الشعبية، أدينوا بتهمة التواطؤ مع الفقيه البصري. واختُطِف اليازغي، وهو محام ملحق بديوان عبد الرحيم بوعبيد، يوم الثلاثاء 16 نونبر من سنة 1970 ليمثُل، في حالة لا يحسد عليها، بعد مرور تسعة أيام على اختطافه، أمام المحكمة العسكرية بالرباط. وبتقديم الفرقاني، كان النظام يقدم للمحاكمة عضوين من قيادة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. كانت المعلومات التي بحوزة النظام والتي تخص مدى المشروع الثوري معلومات واسعة كثيرة، ولكنها كانت معلومات غير تامة. بل إنها كانت مدعاة للخلط والالتباس إن تذكرنا أن لائحة الأشخاص الذين يُحاكمون غيابيا تضم مناضلين قطعوا مع الفقيه البصري، كما هو شأن بنحمو أو بنسعيد، قائدَي جيش التحرير الوطني – منطقة الجنوب.

تقدم المناضي، البالغ من العمر أربعا وأربعين عاما، مهنته تاجر بأمزويز، بصفته شاهدا. تحدث مدة ساعتين دون توقف، لم يبخل بأي جزء من التفاصيل. تحدث طويلا عن اتصالاته بالقيادة المحلية للحزب. كان من الواضح أن شهادته تخضع لتمثيلية متفق عليها سلفا. ولكن المناضي كان يهتم بإلقائه وعرضه هو. فهو شاهد الإثبات الرئيسي وهو يريد أن ينفخ في دوره ليجعل من نفسه ثائرا تائبا. وخلاصة القول فقد بالغ الرجل. ودخل في أمور غير معقولة ومتناقضة جعلت شهادتَه تثير الشكوك حولها[8]. كانت ضربة قويةً للنائب العام الذي كان يتوقع أن يعتمد في مرافعته عما سيكشف عنه المناضي.

---

7 صرح الفرقاني: "إن الإكراه البدني والمعنوي الذي تعرضنا له يبرر لوحده الطابع غير المبرر للتهمة". كل المتهمين أدانوا التعذيب الذي تعرضوا له، وأدلِي بالدليل على الأضرار رغم رفض الخبرة الطبية. ويمكن أن نقرأ في بلاغ للكتلة: "كل الضحايا، باستثناءات نادرة، تعرضوا للتعذيب والإهانات ـ وهذا طيلة فترة احتجازهم ـ في هذه الظروف تَم الحصول على "اعترافات عفوية متطابقة" تَكَونَ منها ملفُ الاتهام".

8 تشدد جريدة لوموند (العالم)، 1971/7/19، على تناقضات شهادته. انتبه جل الملاحظين إلى خداعه. يوجد في حالة سراح مؤقت وتصفه الصحافة بالشخص الحرِض.

ذلك أنه، ورغم المعلومات المجمعة، سوف تتخلى المحكمة عن الجانب المتعلق بسوريا. فقد افرغ انقلابُ حافظ الأسد صك الاتهام من أهميته السياسية. ولم يعد أمام الاتهام سوى التدليل على "محاولة قلب النظام داخليا". فأخذ الإتهام يجمع الأشلاء التي بعثرها تيه المناضي. لقد كان التمرين صعبا، بل وزاد من صعوبته أنه خارجَ المحكمة كان على السلطة السياسية أن تواجه التعبئة الدولية. لم يحدث أبدا أن عرفت محاكمة سياسية في المغرب موجة تضامنية مماثلة خارج البلاد.

وكان اعتقال سعيد بونعيلات وأحمد بنجلون، ثم تسليمهما مكبلَي اليدين والرجلين إلى جلاديهما في المغرب، قد أسبغ منذ الوهلة الأولى طابعاً دولياً على المحاكمة. وقد شددت صحافة تلك الفترة على المقارنة مع قضية ابن بركة ، خمس سنوات قبل ذلك. لم يكن هناك أي اتفاق على تسليم المعتقلين بين المغرب وإسبانيا. ولكن وهنا كذلك، انتصر داعي المصلحة العليا للدولة على القانون.

ورغم أن الحكم كان معروفا مُسبقاً، فإن الحسن الثاني كان يريد أن تُمَثِّل المحاكمة، أن يكون اتهام عمومي للمعارضة، واستعراض قضائي يسبغ المشروعية على جهازه القمعي. والحال أن عبد الرحيم بوعبيد، وهو يترافع أمام المحكمة، وعبد الرحمن اليوسفي في باريس سوف يهزمان السلطة على أرضية ملعبها، إذ وظفوا كل خبرتهم القضائية والتنظيمية.

منذ انطلاق المحاكمة، عَكَسَ الأستاذ عبد الرحيم بوعبيد الأدوارَ. في الصف الأول من المتهمين يوجد رجالٌ ساهموا في عودة السيادة الوطنية. في حين قُدم رئيس المحكمة على أنه خائنٌ معروف لأنه كان الكاتب الخاص ل"السلطان الدمية"، ابن عرفة. كان هذا الخائن المعروف، والذي يوجد اسمه ضمن لائحة الخونة المنشورة في الجريدة الرسمية غداة الاستقلال، كان يترأس جلسات المناقشة في القاعة نفسها التي حَكَمت فيها العدالة الفرنسية على آيت المودن بالإعدام لأنه حاول قتل ابن عرفة، سنة 1954[9].

كان الأستاذ عبد الرحيم بوعبيد قد وضع يده على الفكرة الجوهرية: إن مغرباً معيناً يحاكِم مغرباً آخر. كانت الإقطاعية الفاسدة والخائنة تنوي التزين ببهارج العدل لتخنق قدرة المواطنين، التواقين إلى العدل، على المقاومة. عمل الأستاذ عبد الرحيم بوعبيد على تفكيك صك الاتهام ببراعة صانع الجوهرات مستعينا في ذلك بضعف الدلائل المعروضة، والمثيرة للسخرية، و تقلبِ شهود الإثبات.

---

9 حُكم على آيت المودن 13 مرة بالإعدام إبان الحماية، ومرتين بعد الاستقلال. وسوف تسخر الصحافة من كونه حوكِم بمراكش من قِبَل محمد العربي، وهو الشخص الذي حرر عقد البيعة ل"السلطان الدمية" ابن عرفة والذي كان يتواجد إلى جانبه عند وقوع العملية ضده بمسجد مراكش والتي ساهم فيها آيت المودن. كان محمد العربي قد عقد جلسات في المحكمة التي كانت قد حكمت على آيت المودن في ذلك العهد بالإعدام. يوجد اسم محمد العربي ضمنَ لائحة الخونة الواردة في الجريدة الرسمية ليوم 1957/9/6. وقد طعن، ولكن دون جدوى، فيه المحامون الخمسون الذين جاء جلهم من الرباط والدار البيضاء، ومن بينهم الكاتب العام لحزب الاستقلال مستقبلا،محمد بوسنة. وطعِنوا كذلك في بعض قضاة التحقيق الذين كانوا هم كذلك متعاونين سابقين [مع المستعمِر]. ولكن محمد العربي أعفِي عنه وأعيدت له ممتلكاته التي كانت قد انتُزِعت منه.

ومن باريس، قاد عبد الرحمن اليوسفي، الذي كان هو نفسه مدانا، حملة مساندة عبأ لها الآلة الجمعوية. حينها كان عبد الرحمن اليوسفي يفيض نشاطا، فبعد أن فُكك جيش التحرير الوطني، ساهم في إنشاء الاتحاد الوطني للقوات الشعبية وتسييره إلى جانب عبد الرحيم بوعبيد والمهدي بن بركة، قبل أن يلجأ إلى فرنسا حيث أصبح ثانيةً ذلك الطالب كما كان من قبل أن يلتحق بحرب الجبال. كان عضوا نشيطا في إتحاد المحامين العرب، واكتسب سمعة المدافع عن القضية العربية. وفي سنة 1958، شارك في الدفاع عن القياديين الخمسة لجبهة التحرير الوطني الجزائريين الذين اختُطِفوا في عملية تحويل طائرة نفذتها المخابرات الفرنسية. وهو كذلك مَن دافع عن فدائيي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التابعة لجورج حبش الذين اختطفوا يوم 18 فبراير من سنة 1969 طائرة بوينغ في ملك شركة العال بمطار زوريخ.

وعشية افتتاح محاكمة مراكش، أعطى عبد الرحمن اليوسفي ومعه روبيرت بيرون، وهو وزير فرنسي سابق، ندوةً صحافية في باريس، أعلن فيها عن تشكيل لجنة دولية للدفاع عن المدانين بمراكش. كان أعضاء اللجنة في مستوى الحدث، كان من بينهم محامون مرموقون ومستشرقون معروفون (جاك بيرك وشارل أندري جوليان وفانسون مونتي وجون لاكوتير وماكسيم رودنسون)، والكثير من رجال السياسية اليساريين (بيير كوت وبيير جوكس وفرانسوا ميتران وآلان سافاري وميشيل روكار)[10]. وجه عبد الرحمن اليوسفي الدعوة كذلك إلى جمعيات دولية أخرى للمحامين: جمعية المحامين الأسبان والجمعية الدولية لرجال القضاء الديمقراطيين وإتحاد المحامين العرب التي كان حينها نائب كاتبها العام. كل هذه المنظمات أرسلت ملاحظين إلى المحاكمة للوقوف على "خروقات المسطرة"، وهو التعبير المحتشم الذي يُقصد به في ذلك العهد الخروقات التي تطال حقوق الإنسان. وفي المغرب، قامت تعبئة أخرى مماثلة من خلال نقابات العمال والطلبة، بل وحصل الاتحاد الوطني للقوات الشعبية على تضامن حزب الاستقلال، شريكه في المرحلة، الذي أرسل محاميا للدفاع ووقع باسم الكتلة (وهي تجمع قِوى المعارضة المطالبة بالديمقراطية) على إدانةٍ للمحاكمة.

الثورة الليبية

قد يحدث أن تؤثر الإعاقة الجسدية لرجل السلطة، ولو كانت هذه الإعاقة بسيطة، على مجرى التاريخ. وهذا ولا شك هو شأن ألم الأسنان الذي أصاب الرائد (الكومندان)

10 أدانت الصحافة الأجنبية بالإجماع ضعف التهمة وظروف المحاكمة. كتب ميشيل لوكري في جريدة لوموند (العالم)، يوم 1971/7/19: "إن كانت هناك مؤامرة وأيا كانت طموحات أصحابها، فإن جزءً من المتآمرين كانت تنقصه الجدية، ولأنهم كانوا يمرطون في الثرثرة فإنهم كانوا يورطون منظمتهم باستخفاف". وفيما يخص جريدة ليمانيتي (الإنسانية) ليوم 1971/6/24، فإن "هذه المؤامرة هي محاولة جديدة لتصفية المقاومة".

الهوني، وهو الرجل الثاني في مجلس الثورة ووزير الشؤون الخارجية ورئيس المخابرات الليبية. فقد كان على الهوني أن يرحل إلى إسبانيا بدايةَ سنة 1971 ليخضع لعملية جراحية على أسنانه، فقرر عند مروره من المغرب أن يمضي به بضعة أيام. كان يرافقه ساعده الأيمن، القبطان محمود الزاكي. وعند مرور الرجلين من فاس استضافهما عاملٌ في محطة البنزين، كان هذا الأخير فرحا، رغم أنه كان يجهل هوية الرجلين بأن يستقبل ليبيين غداة الإطاحة بالملكية الإدريسية. كان الهدوء يسود وجبة العشاء التي أقيمت تكريما لليبيّين. ففي جو الشك الذي كان يَعمُّ حينها المغربَ، كانت معاشرة الأجانب تشجع المُسارات أكثر مما لو كان الحاضرون من أهل البلد.

وبما أن عامل محطة البنزين شجعه حضور الرجلين الليبيين فإنه صرح لضيفَيه: "الرجل الوحيد الذي لا زال صالحا في المغرب هو الفقيه البصري". إنها المرة الأولى التي سمع فيها الرائد (الكومندان) الهوني بهذا الاسم. ولكن الأقدار المتضامنة لا يمكن أن يتجاهل بعضها بعضا لمدة طويلة.

وبعد مضي بضع أسابيع، وعند عودته إلى طرابلس، دخل وزير الإعلام البوصيري[11] مكتبَه. فقد كان أحدُ معارفه القدماء بالمغرب يود ملاقاته، إنه شخصٌ يدعى البصري: كان اللقاءُ رأساً لرأس، وكان بدايةَ سلسلةٍ من اللقاءات كان الفقيه البصري قد دشنها من قبل مع محمود في دجنبر من سنةٍ 1970. في ذلك الحين، كان يرافقهما عثمان بناني، ابن خالة محمود وصهر المهدي بن بركة. كان عثمان بناني مكلفا باتصالات المهدي بن بركة الدبلوماسية في افريقيا وكانت له علاقات داخل أوساط بعض الحكومات.

وما دام الهوني هو وزيرُ الشؤون الخارجية ورئيس المخابرات، فقد كان المحاور الذي تفضله مختلف حركات التحرر التي تبحث عن المساندة. كانت المهمة تستحوذ على مجمل وقته، إذ منذ إعلان الجمهورية الليبية سنة 1969، كان المجلس الحاكم يساند عدة قضايا، حسب المزاج المتقلب لزعيمه، معمر القذافي، الذي كان يرى في نفسه الوصي على مهمة ثورية هو زعيمها. فكان الفلسطينيون والوطنيون العرب والثوار الأفارقة والجمهوريون الإرلنديون والإسلاميون يجدون بالتناوب الدعم والمأوى في ليبيا.

لم تكن زيارة الفقيه البصري ضرباً من الصدفة، إذ إن قاعدته الخلفية في سوريا أصبحت مهددة بوصول حافظ الأسد إلى السلطة، وكانت الجزائر في عهد بومدين تُبقيه بعيدا، والاتصالات الطيبة مع المصريين قد تأخرت في أن تتجسد على مستوى التمويل.

---

11 سوف يختفي فوق البحر الأبيض المتوسط على متن طائرة مدنية ليبية أسقطتها طائرة مطاردة جوية إسرائيلية.

وهكذا كانت الجمهورية الليبية تبدو الوجه الجديد لأمة قلبت علاقات القوة باسم مذهب سخي تجاه حركات التحرير، وفي الوقت نفسه يتحدى القوى الغربية التي تدافع عن مصالحها ومكتسباتها الجهوية. أعطت الجمهورية الليبية العبرة بخلع نظام ملكي في أفريقيا الشمالية، وهو الأمر الذي ليس بأقل خصالها شأناً في نظر الثوار المغاربة. الهوني والفقيه البصري خُلِقا إذن لكي يتفاهما؛ ولما غادر الفقيه البصري مكتبَ الهوني، كان التنظيم قد أصبح ضيف ليبيا.

السبت 10 يوليوز من سنة 1971، الصخيرات

احتفل الحسن الثاني احتفالا باذخا بعيد ميلاده الثاني والأربعين في قصره بالصخيرات. وبينما ألف ومائتا مدعو ، بلباسهم العادي غير الرسمي، منشغلون داخل حدائق الملك الموجودة بإقامته الصيفية، دخل فجأةً العقيد (الكولونيل) امحمد اعبابو على رأس صفين من الشاحنات تحمل ألفا وأربع مائة من الجنود التلاميذ بالمدرسة العسكرية بأهرمومو (رباط الخير حاليا). الساعة الواحدة زوالا وخمس وأربعون دقيقة، كان الحفل في أوجه داخل الحديقة، إذ بدأ الضيوف في تناول الأطعمة.

أدى ولوج تلاميذ المدرسة العسكرية داخل أسوار القصر إلى تبادل إطلاق النار ذهب بأرواح زهاء المائة[12]. فعم الذعر والهلع. ولكن وقع خلاف ما بين العقيد اعبابو والجنرال المذبوح اللذين كانا يُسَيران معا العملية، الأمر الذي أجهض الإنقلاب. فقتل الأولُ الثاني، وحَول بذلك الأنظار وهو الأمر الذي كان هديةً غيرَ منتظرة استغلها الملك ففوض الأمور إلى أوفقير. استطاع هذا الأخير أن يقلب الوضع في بضع ساعات. كان المشاركون في المؤامرة قد وضعوا لائحة بأسماءٍ وهياكلِ الحكومة، فباتت الاعتقالات سهلة. أصبح عندها بإمكان الحسن الثاني أنْ ينتقم. وبعد مرور يومين اثنين، يوم الأربعاء 13 يوليوز، أُعدم عشرةُ ضباطٍ من بينهم أربعة جنرالات. وحضر مراسيم الإعدام ممثلو الجيش، علىَ رأسهم أوفقيرٍ. كان الرجال الذين يُديرون ظهرهم تجاه حائطِ الإعدام رفاقَه في السلاح. فقد كان الجنرال بوكرين رفيقه في الفوج إبان الدراسة بإعدادية آزرو، وكذا شأن الجنرال حمو، أخيه في السلاح خلال تعيينه الأول بفيلق الجيش الرابع للقناصين في ثكنة تازة. وكان الجنرال مصطفى والجنرال حبيبي إلى جانبه خلال حملة إيطاليا. وأما العقيد (الكولونيل) الشلواطي فقد نجا معه من

---

12 من بين المائة ميت الذين تم إحصاؤهم، 67 معروفون، و33 لم يتم التعرف عليهم أو بدون وثائق من بينهم جنود. تم إحصاء 158 ميتا ضمن الهاجمين. من بين الموتى المعروفين: طبيبان اثنان للملك، والمدير العام لوكالة المغرب العربي للأنباء، وسفيران اثنان ووزير السياحة ومدير التخطيط ورئيس المحكمة العليا وأربعة جنرالات (الغرباوي والنميشي والبوهالي وعبد الحي) وثلاث كولونيلات من بينهم بولحيمص وقائد (كومندان) ساحة الدار البيضاء (المكي) وحفيد بوكرين وموظفون سامون. ومن بين الجرحى المائة والثلاثين، كان حسن الوزاني، الكاتب العام لحزب الديمقراطية الدستورية والذي بُترت يده، ومولاي عبد الله، أخ الملك، وثلاث وزراء.

مزارع الأرز بالهند الصينية. وقبل أن يطلق الجنود وابل رصاصهم، صاح أحد المنكل بهم[13] في أوفقير: "انتبه يا أوفقير، فإن الدور المقبل سيكون دورك، لأنني أعرف انك تفكر كما نفكر نحن".

جاءت من بعيد موجة القهر فدفعت الجيشَ إلى العصيان. فأجمعت أشد القوات تنوعا على نقطة واحدة: تنحية الحسن الثاني. كان يوجد ضمن المنكل بهم الرائد (الكومندان) ابراهيم المانوزي، عم الحسين المانوزي. ذلك أنه بعد أن كان طالبا في فرنسا خلال الخمسينيات، أصبح رفيق النمري في الكفاح داخل جيش التحرير الوطني. وبهذا فهو قد عبر طريقا طويلا. ومع ذلك فإن مشاركته في الانقلاب ليست بالأمر الواضح تمام الوضوح. فوجئ عند اعتقاله، فوُجِد نائماً في بيته العائلي، وهو تصرفٌ غريبٌ لا يصدر عن شخص يُفترض فيه أنه ساهم في انقلاب فاشل. ولكن يبدو أن سبب تصفيته سببٌ آخر.

وعند الإعلان عن إعدامه، سوف يكون لأحمد بنجلون، من داخل السجن، رد فعل له دلالته: "عندما سمعت اسم الرائد (الكومندان) المانوزي، مرت بذهني فكرة وكأنها وحي من السماء. في سوريا، عندما كنت أعلم الرمي بقذائف الهاون، كان الحسين المانوزي يقول لي في اندفاع : لنتحدث عن موضوع آخر، إنني أعرف شخصا آخر سوف يعلمني هذا!"[14]. ويقدم إبراهيم توضيحا آخر للدور المفترض للرائد (الكومندان) المانوزي: "في يوم من الأيام، سلمني الفقيه البصري وسلم كذلك عجول قارورات من سم الزرنيخ. وطلب منا إدخال السم داخل أواني لا تثير الانتباه"[15]. وسوف يتم إدخال المشروب القاتل إلى المغرب داخل قارورات عادية من العطر. وفيما يخص الشخص الذي تسلم القارورات، فإن إبراهيم يقول إنه الرائد (الكومندان) المانوزي: "علمت أنه كان يخطط لاستعماله خلال وليمة تجمع الضباطَ السامين في الجيش، وهم الضباط المعادون للقضية الثورية". هل كان التواطؤ حقيقيا؟ لا شك في ذلك. فمثال انقلاب ليبيا كان قد أصبح له معجبون به داخل صفوف الجيش المغربي. وسوف يؤدي انقلاب الصخيرات إلى موجة من التنقيلات والإعفاءات من الجيش. وموازاة مع ذلك، زيد في أجور الجنود. ولكن وعلى وجه الخصوص، وهو المؤشر على حيطة وحذرٍ مطلقين، وُضِعت مخازن ذخيرة سلاح القوات المسلحة الملكية، والتي باتت متهمةً بإيواء انقلابيين محتملين، وُضِعت تحت المراقبة المباشرة للدرك الملكي.

---

13 هو الجنرال بوكرين حسب جيل بيرو، صديقنا الملك، منشورات غاليمار، 1985. وهو الكولونيل الشلواطي حسب ستيفن سميث، أوفقير، مصيرٌ مغربي، منشورات كالمان ليفي، 1999. انتُزعت من المنكلِ بهم نياشينُهم من قِبَل نظرائهم قبل إعدامهم. بُث الإعدام على شاشات التلفزة.

14 حوار للمؤلف مع أحمد بنجلون.

15 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشلح.

الأحد 11 يوليوز من سنة 1971، باريس

كان إبراهيم يجلس إلى طاولة في مقهىً بالدائرة 15 بباريس، على قرب ميترو ديروك. كان ينتظر الفقيه البصري وإلى جانبه حقيبةٌ جَمَع فيها لوازمه الخاصة. إذ قبل ذلك بشهرين، كان الفقيه البصري قد جس نبضه ليتحسس مدى التزامه بالقضية الثورية. فهِمَ إبراهيم حينها أن الأمر لم يعد يتعلق بمضاعفة الاجتماعات وتوزيع المناشير أو تنظيم حفلات صغيرة. كان عليه أن يُعلن إن كان مستعدا ليصبح عضوا ثوريا نشيطا، وإن تطلب الأمر ذلك، أن يضحي بحياته. وفي فصل الشتاء، وخلال المؤتمر 13 للاتحاد الوطني لطلبة المغرب الذي انعقد بالمغرب، لامس عن قرب العواقب الممكنة لالتزامه السياسي. فمنذ تجنيد الأطر الشابة داخل صفوف الثوار، كانت الشرطة تولي عناية خاصة لأنشطة الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، متخذةً من أجل ذلك العديد من الإجراءات : اعتقال الأطر والتجنيد للدفاع عن راية البلاد وإقفال دار المغرب بالحي الجامعي بباريس، وهي الدار التي أصبحت تساند نقابة الطلبة .. وبما أن إبراهيم جاء إلى المغرب من أجل المشاركة في مؤتمر النقابة الطلابية، فإنه كاد يُعتَقَل وشهد العديد من رفاقه "يختفون" داخل مراكز الاعتقال السرية.

فعشية ذلك اليوم عندما وصل من مدينة نانسي، نزل في فندق صغير بمحطة القطار الشمالية. أمضى جزءً من الليل يستعرض تدفقات أفكاره وهو ينظر إلى سقف الغرفة. وحتى يتيقن بأنه قد اختار الاختيار الصحيح، عاود، من أجله هو، استعراض الأسباب العميقة التي دفعته إلى مغادرة رفيقته وابنته. استطاع أن يُقنِع رفيقته بسهولة، فهي مناضلة ماوية، ومن ثمة تفهم دوافعه. ومع ذلك فهو لم يتجرأ على مواجهة فراقٍ رسمي. فقد سلم مفاتيح شقته لصديقه، وطلب منه أن يسلمها إلى رفيقته. والآنٍ، لم يعد هناك شيءٌ يمنعه. وكأن الأقدار أرادت أن تسرع قراره، سمع، عشية ذلك اليوم و على أمواج الإذاعة، أصداء المحاولة الانقلابية في المغرب.

قطع وصولُ الفقيه البصري حبلَ أفكاره، لاحظ إبراهيم عينيه المنتفختين، وأحاسيسه القاتمة: إنه لم ينم الليلة بأكملها، لا شك أنه أمضى الليلة بين المذياع والهاتف. انتاب إبراهيم شعورٌ بالفضول والحيرة، فانهال على الرجل بالأسئلة حول الانقلاب الفاشل. كان الفقيه البصري يعرف معرفة جيدة المذبوح، وهو الرجل الذي تسبب في موجة من القمع كان الغرض منها خنق "مؤامرة سنة 1963". ولكن يبدو أن الأحداث تتجاوزه. فإن كان قصد الانقلابيين واضحا شفافا، فإن حيثيات انقلاب الصخيرات كانت لا تزال غامضة.

ودون شكليات أخرى، وضح الفقيه البصري لإبراهيم قِبلته: طرابلس. كانت مهمته هي وضع قاعدة لوجستيكية للتنظيم في ليبيا. فقد أطلقت الجمهورية الليبية

الجديدة إعلانا بعرض أثمان يخص استغلال حقولها النفطية. وكانت كفاءات إبراهيم في مجال الجيولوجيا غطاءً يمكنه أن يتخفى وراءه.

بعد ذلك بأربع وعشرين ساعة، دخل إبراهيم فندقَ قصر ليبيا الذي كان عندها من أفخر فنادق طرابلس. وفي غرفته، كانت تنتظره عينةٌ من الجرائد والصحف الدولية. زاره في بداية المساء، الضابط الذي استقبله في المطار، بلباس مدني، الرائد (الكومندان) منصور، صحبةَ زميلٍ له. قادتهم سيارة فولزفاغن، وهي السيارة الرسمية لأعضاء مجلس الثورة، إلى ثكنة سوف يعرف إبراهيم فيما بعد أنها ثكنة باب العزيزية، مقر مجلس الثورة. قدم إبراهيم إلى رجلين آخرين كان مرافقاه يعاملانهما باحترام كبير. ولكنهما لم يقدما له الرجُلَين ولم يُعَرِّفاه باسميهما.

ورغم صغر سنهما، خمن إبراهيم أنهما عضوان في مجلس الثورة، وسيعرف فيما بعد أنهما المختار الكروي وعبد السلام جلود. وبما أن إبراهيم كان طالبا حركيا شابا، فإنه لم يشعر إلا قليلا بأنه قريب من هؤلاء الضباط المتدربين على الصرامة العسكرية، والبعيدين كل البعد عن رغباته النضالية الشغوفة. سرعان ما دار النقاش حول المحاولة الانقلابية في المغرب. اندهش إبراهيم عندما عَلِم أن الليبيين كانوا قد أرسلوا طائرات محاربة على وجه السرعة لمساعدة أولئك الذين يسمونهم "الثوار المغاربة". ولكن، اضطرت الطائرات إلى الرجوع لأن بومدين منعها من الإقلاع عندما حطت فوق التراب الجزائري للتزود بالوقود. أوَ كان الأمر مجرد دُعابةٍ من حكومةٍ شابة تجهل التقاليد الدبلوماسية؟ أم جرأةً ثورية حقيقية؟ في تلك اللحظة بالذات، لم يحاول إبراهيم أن يفهم لكثرة ما كانت تبدو له الفكرة سخيفة. ولأن الظرف كان يتجاوزه فإنه لم يكن يعرف ما الذي يجيب به. ولهذا وحتى يخلق انطباعا مشرفا، اكتفى بإظهار تحفظ يناسب المقام. طلب منه الليبيون حينها أن يترجم بعض المقاطع من ندوة صحافية أدلى بها الحسن الثاني. طلب منه الليبيون أن يترجم إلى العربية: "*Je me fous royalement de Khaddafi, aujourd'hui encore plus royalement qu'hier*"[16]. بالنسبة إلى إبراهيم، فإن مشاكل التواصل مع الليبيين كانت في بدايتها.

رأى إبراهيم أن فندق قصر ليبيا باذخٌ أكثر من اللازم بالنسبة إلى من يقوم بمهمة سرية، فقرر أن يرحل إلى فندق كليوباترا، وهو الفندق الذي نزل به الفقيه البصري ومحمود قبل بضعة أشهر. استمر يتوصل فيه بانتظام بالصحف الدولية وكذا ببعض المال لقضاء حوائجه اليومية. وعلى العكس من ذلك، لم يعد يصله أي خبر عن المسيرَين الليبيَين. ولم يعد له أي اتصال بالرائد (الكومندان) موسى. ولم يَظهرِ كذلك الرجلان اللذان استقبلاه في اليوم الأول : "هل طالني النسيان؟ هل ارتكبت خطأً خلال اللقاءات السابقة؟"

16 "إنني لا أبه بتاتا وكما هو شأن الملوك بالقذافي، اليوم أكثر من الأمس"

في الحقيقة، لم يطله النسيان . وأما الخطأ فإن الليبيين ما زالوا ينتظرون من إبراهيم أن يرتكبه. إنه في فترة ملاحظة. وسوف تدوم هذه الفترة شهرين. شهران فرض إبراهيم خلالهما على نفسه سريةً وتكتما مطلقين. فكان يتفادى كل اتصال ليتجنب بذلك الأسئلة التي لا مفر منها والتي تخص هويته وسبب زيارته إلى طرابلس. قلل من تنقلاته إلى أقصى حد ممكن. فكان يُمضي مجمل وقته في غرفته بالفندق يقرأ الروايات ويستمع إلى بوريس فيان. فهو ما كاد يخرج من هرج ومرج الشباب حتى وجد نفسه مجبرا على لزوم عدم الحركة لزوماً لا يطاق. تُفاقِم منه ضرورة عدم مغادرة محل إقامته. وبما أنه سجين داخل قيود العمل السري، معزولٌ عن العالم الخارجي، فإنه كان يعدد أياما لا تنتهي في انتظار أن يحدث شيء. وخففت من وطأة هذه الوحدة صداقةٌ عابرة مع الدكتور أبي صادق، الكاتب العام لجبهة التحرير الوطني للتشاد، وهو رجلٌ لطيف بشوش، تعرف عليه بواسطة زوجته، وهي شابة بشوشة مرحة. قال إبراهيم في داخله، وكأنه يريد أن يبرر لنفسه هو هذا الإخلال بواجب التكتم بأن الدكتور أبو صادق ليس عربيا، على أية حال. وليس هناك من خطر للتسرب. أصبح رفيقُ ظروفٍ مُعينةٍ هذا فيما بعد وزيرا في بلده.

وفي شهر شتنبر، وصلَ الفقيه البصري إلى طرابلس. ولأن إبراهيم مل الانتظار الذي امتد وطال إلى ما لا نهاية له، فإنه استقبل قدوم الفقيه البصري وكأنه تحريرٌ وتخليص له. قدمه الفقيه البصري توا إلى وزير الإعلام البوصيري ورئيس ديوانه جامع الفزاني والرائد (الكومندان) الهوني.

ولأن إبراهيم شجعته عودة الاتصالات، فإنه وظف كل طاقته لإنجاز مهمته. لدرجة أن الليبيين سرعان ما أطلقوا عليه اسما مستعارا: واحدٌ اثنان ثلاثة. وبالفعل فإن إبراهيم، الذي كان همه هو تلخيص طلباته وتحديدها تحديدا دقيقا، كان قد اعتاد على ترقيم كلامه بتعداد مختصر: أولا وثانيا وثالثا. ومن ثمة جاء لقبه. في ذهن إبراهيم، لم يكن الغرض هو الزيادة في فعالية طلباته بقدر ما كان هو الاقتصاد في وقت محاوريه، من وزراء وموظفين سامين، الوقت الذي كان يظنه ثمينا جدا. والحال أن الليبيين كانوا يجدون لذةً خاصة في الحشو والإطناب في موضوع الثورة كمقدمة للنقاشات العملية. كان الوزراء وكتاب الدولة يتركون أبواب مكاتبهم مفتوحة، وكأنهم بذلك يدعون المارة إلى الحديث إليهم. وهكذا ودون أن يعلم إبراهيم بالأمر، فإنه كان يحرمهم من وسيلتهم المفضلة في قضاء الوقت.

كان شخص واحدٌ يتميز داخل مجلس الثورة : الرائد (الكومندان) الهوني[17]. كان في الثلاثينات من عمره، وكان شخصية لا نظير لها في صفوف الثوار الليبيين. كان

---

17 سنة 1975، أبدى تحفظا في علاقته مع القذافي وفضل المنفى إلى مصر. ويوم 5 شتنبر من سنة 2000، عاد وربط تعلاقات ثانية مع طرابلس. فكان له أن أصبح ممثل ليبيا في الجامعة العربية.

يفضل اللباس المدني على اللباس العسكري، ويعتني عناية خاصة بمظهره. كان مكتبه مغلقا دائما لدرجة أن الحوارات كانت تجري بداخله على انفراد. زد على ذلك أنه كان لا يشتغل إلا ليلا.

سرعان ما أصبح الهوني وإبراهيم صديقين. فقد اعتاد الهوني، على الساعة السادسة مساء وقبل أن يذهب إلى مكتبه، أن يزور الشاب المغربي الذي بات يسكن في الطابق السفلي من فيلا في شارع ابن عاشور بحي إقامة بطرابلس. أصبحت العادة طقسا من الطقوس، كان خلاله الضابط الليبي يُحضِر عَينةً من الصحف الفرنسية ليترجمَ له إبراهيم افتتاحياتها. وكان التمرين يوحي له كل مرة بتعلم لغة موليير. كان اجتهاده ومثابرته على تعلم اللغة الفرنسية ، رغم أنه لم يكن مواظبا عليها بانتظام، قد جعل البعض يطلق عليه لقب "التلميذ" في لغة الثوار المغاربة المشفرة.

الجمعة 17 شتنبر من سنة 1971، محاكمة مراكش

نطق قاضي المحكمة بخمسة أحكام إعدام منها أربعة غيابيا، وستة أحكام بالسجن المؤبد وأزيد من مائة حكم تتراوح ما بين الحبس سنتين اثنتين وثلاثين سنة. في المغرب، هذه الأحكام تُعتبر ضربا من العفو. أنقذت المحاولة الانقلابية للصخيرات ماء وجه العديد من المناضلين مما جعل المحكمة أكثر حِلما. ففي تلك الفترة المضطربة، كان القصر الملكي ينوي تخفيف الخناق على الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. وفعلت براءةُ عبد الرحيم بوعبيد الباقي. كان سعيد بونعيلات الوحيدَ في قفص الاتهام الذي حُكِم عليه بالإعدام. وحُكِم على الفقيه البصري وبوراس وعباس سباطة والحسين المانوزي بالإعدام غيابيا. وبالنسبة إلى اليزيد وأحمد بنجلون، طالبت النيابة العامة بالإعدام، ولكن حُكِم عليهما بعشر سنوات سجنا. وحُكِم على الكوار بالحبس خمس سنوات، وعلى توفيق الإدريسي بأربع سنوات غير نافدة. وبُرِّء زهاء الخمسين متهما، من بينهم عبد الرحمن اليوسفي ومحمد اليازغي والمهدي العلوي.

انتهى الفصل القضائي-السياسي الذي يعلن [رسميا] فشل التنظيم. وأما خاتمته فستقوم على تصفية الحسابات.

إذ سرعان ما تم التعرف على المخبر الواشي في سوريا، إنه مناضل تدرب في عين البيضا واسمه الورادي. وصل مع مجموعة دهكون، وكان يتظاهر بأنه مثقف ماركسي. ويتظاهر بضعف بنيته ليستغل فترات نقاهته المصطنعة لتحرير تقاريره المفصلة وملاحظاته اليومية، تقارير كان يبعث بها إلى المخابرات المغربية. ولا شك أنه وجد في نفسه موهبة ناشئة ليصبح كاتبا فأصدر كتاباً عنونَه بالأغلبية الصامتة

يسرد فيه إنجازاته. وقد انتاب دهكون، إذ كان هو الذي جنده، استياءٌ وغيظ عميقان. ولأن عليه ضمان أمان الشبكة، فقد حاول تصفيته بسلا في دجنبر من سنة 1972. ولكن الورادي لم تقتله جراحُه. أما المناضي، "مخبر" مراكش، فلن يكون له الحظ نفسه. وهكذا فإن "الزائر"[18] الذي بعث به دهكون أصاب الهدف منذ الضربة الأولى، يوم 7 يوليوز من سنة 1972.وهكذا لحق المناضي ما لحق، سنةً من قبل، عميلا آخر للمخابرات. كان الغربي الميلودي يَعبُر كل أسبوع الحدود ليتاجر مع الجزائر. ولكن أمرا بسيطا أثار انتباه المفتش رمسيس: كان جواز سفره لا يحمل أي خاتم، وهو الأمر الذي كان نادرا قليلا. فحير المفتشَ الذي أخبر رئيسَه المباشر، العميد التانوتي. كان المفتش رمسيس والعميد التانوتي مراسلين للتنظيم، فاستَدعَيا "المشكوك فيه" لإتمام التحقيق. ولأن الغربي الميلودي لم يشك في أن الأمر لا يعدو أن يكون عملية روتينية، فإنه، وهو يقصد ولا شك بذلك أن يختصر التحقيق، كَشَف عن مهمته كعميل للمخابرات المغربية. اندهش التانوتي لهذه السذاجة كلها فابتسم ابتسامةَ إعجاب، وشجعه، وهو يتظاهر بالتواطؤ معه، على أن يواصل البوح بأسراره:

— جواز السفر؟ أعطاه له العقيد (الكولونيل) الشلواطي (عامل "رجل سلطة يوجد على رأس عمالة" ومتآمر مستقبلا في انقلاب الصخيرات).

— اعتقال سيدي حمو وشبكة مهربي الرجال بوجدة؟ بالطبع كان الرجل يعلم، إذ صرح متعجرفا بأنه هو نفسه الذي أرشد الدرك.

هل هناك عمليات أخرى جارية؟ بكل تأكيد. فهو الآن يحاول أن يتسرب داخل محيط الحسين الخضار بوهران قصد اختطافه.

لم يكن للميلودي الغربي الوقت الكافي لتنفيذ خطته. فقد قُتِل بعد بضعة أيام في زقاق بوجدة، في ليلة غير مقمرة.

النقد الذاتي

بعد فشل التنظيم، بدأت أُولى عمليات مغادرته. وهكذا تلقن بوراس درسا كان يريده أن يكون الدرس الأخير: ففي رسالة مطولة بعث بها إلى الفقيه البصري، عرض أسباب تخليه عن التنظيم: هناك هواية مفرطة وتسرع مفرط وارتجال مفرط. وأما محمود، وهو العارف بالأمر أكثر من أي شخص آخر، فقد كان يعرف مدى الخراب الذي طال التنظيم. كم من الشبان الذين لا تجربة لهم جُندوا لتنفيذ مهام لم يتم إعدادهم لها أحسن إعداد؟ وكم من الأعضاء ألقوا بأنفسهم في فم الذئب لأنهم لم يحتاطوا الاحتياط الكافي؟ كانت التساؤلات كثيرة نظرا لاستحالة القبول باستشهاد هؤلاء الشباب. لقد بات التساؤل يهم سوء استعمال التضحية البشرية.

18 اعتُقِل هذا الزائر، المدعو الخياري، وحُكِم عليه بالإعدام في مارس من سنة 1973. ولم يُطبق فيه الحكم بالإعدام.

كان الفقيه البصري يجهل الوسائل التقنية لحرب العصابات. ومحمود كان يعلم ذلك. فكان يصحح الهفوات. ولأنه شفاف لا يتسامح، فإنه استعرض الخيارات والامكانات الاستراتيجية وخلصها الواحدة تلو الأخرى من أغلالها وقيودها البالية.

تمخض عن تحليله النقدي رسالة من زهاء العشر صفحات موجهة إلى الفقيه البصري بتاريخ 7 غشت 1971[19]. كتابتُها الرقيقة ترسم فكرا كريما سخيا لا مجاملة فيه. شرح فيها الثقل التنظيمي للتنظيم وغياب الشفافية وهما الأمران اللذان يميزان قرارات البصري: " (..) طالما حافظنا على شكل تنظيمنا الحالي فلن يكون بمقدورنا تتبع إيقاع الأحداث .. إن فكرة" الضغط على البوطونات" وهمٌ في هذه الحالة كحالات عديدة أخرى. لأن ما لدينا من إمكانيات، وليس هنا فقط، هو دون تحقيق هذا الشعار". أدى التنظيمُ ثمنَ نقص الفعالية هذا غاليا عندما ضيع الفرص: " (..) عدم تحركنا في هذا الوقت بالذات غلطة لا تغفر بل نحاسب عليها. (..) إن أحداث 10 /7 وما نتج عنها من وضع ناضج لخوض معركة الانتفاضة المسلحة، وعجز عن أخذ زمام المبادرة والإستفادة من عجز الحكم ليست هي أول مرة نقف فيها متفرجين على الأحداث التي تهز المغرب ..". قادت هذه الملاحظة محمود إلى وضع حصيلة صارمة للمنظمة التي كان عيبها كذلك، في نظره، أنها لا تملك رؤية سياسية: "أما ما نقوم به اليوم نظرا لواقعنا وأساليبنا فليس من الممكن أن نعتبره بداية العمل الثوري ولا حرب التحرير الشعبية (..) وإلا فلن يكون سوى شعل نار الفتنة وتمكين إحدى الطبقات المستغلة من السيطرة على السلطة". أما العاقبة المحتملة لاستراتيجية الزعزعة هذه، والتي تفتقد إلى رؤية سياسية، فيمكن توقعها وهي "تمكين إحدى الطبقات المستغلة من السيطرة على السلطة. (..) فإننا [لا] نعمل سوى على تعويض حكم فاسد بما قد يكون أفسد منه". ويتخلل هذا التحليلَ الاستراتيجي الوقوفُ على عدم احتراز التنظيم وافتقاده لنظرة بعيدة المدى. ومن هنا ذلك النقد الذاتي الطويل، والذي يريد أن يكون وفي الآن نفسه، وقوفا على الحصيلة وتحليلا للوضع السياسي. تحليلٌ يحدد في نهايته محمود المهام التي يجب القيام بها فورا : "ومن المؤكد أن المطلوب ليس هو عدم ضياع الوقت فقط ولكن إعادة تقييم الوضع من جديد وبسرعة (..) إن الذي يحول بيننا وبين العمل حاليا هو السلاح والعلاقة مع الداخل. لهذا يجب التعجيل بمهمة ليبيا لتزودنا بالسلاح، واستقدام الرفاق من الشرق وإعطائنا موعدا جديدا مع عبد السلام" (وهو الاسم المستعار لحسين آيت الزايد، إطار تكون في الزبداني سُرب إلى الأطلس[20]).

إنه خط العمل الذي تتجلى منه عقيدة محمود، الإيمان بثورة شعبية من أسفل، تعتمد على المناطق المحرومة النائية: "أما الجناح العسكري فإن الاعتقالات تبين أن أغلبية المعتقلين من الفلاحين وهذه نسبة تعكس الوضع الاقتصادي والاجتماعي الصحيح للبلاد

19 توجد في ملحق الكتاب.

20 الحسين أيت الزايد، المعروف بعبد السلام، سوف يُعدم في القنيطرة يوم فاتح نونبر من سنة 1973.

وجعل من اختيار الحرب الشعبية الطويلة النفَس اختيارا صحيحا، مع أن الشكل الذي نظم عليه الإخوان في البادية ظهر (..)أنه فيه انحراف، وأن المسؤولين كانوا لا يدركون شكل العمل المطلوب منهم تحقيقه".

كان لمدرسة المادية التاريخية في ألمانيا الشرقية وقعُها. ولكن إن كانت الأخطاء الإستراتيجية والتنظيمية قد تم التعرف عليها وتحليلها، فإن ضعف الشبكة داخل المغرب سوف يحتاج إلى بعض الوقت للوقوف عليه. إذ إن التنظيم بالَغ في تقييم قدرة تأطير الحزب. وبسبب الزيغ وعدم التبصر أو بسبب تقديس إيديولوجي أعمى، زُين الواقع إلى درجة أن المجاملة السلبية من قِبَلِ بعض المسؤولِين الاداريين كانت تفهم على أنها التزام نشيط بقضية التنظيم. وكان غليان الإنتفاضة الذي يصفه الفاعلون بالداخل، والذين ولا محالة أفرحتهم نشوة الحمى النضالية، يبدو أنه كان من وحي الجدلية أكثر مما كان من وحي واقع الأحداث.

وأمام بقايا أشلاء الحلم الثوري، اكتشف محمود شعبا، بعد عقد من الاستقلال، عاد إلى قرون الاستعباد الإقطاعي. قال الفرشي بعد أن نجا من براثن الشرطة والقوات المساعدة: "إن الشعب قد غاص في جمود وشلل يتناقضان تناقضا مع الجهود الثورية".

هل استسلم الشعب؟ لا شك في أن قبوله المستسلم يشهد على قوة نظام أصبح خبيرا في فن اللعب بالقمع والمحسوبية، بمباركة من إدارة انتخبها هو نفسهً وأفسدها هو نفسه. كان هذا النظام، وهو بكل تأكيد أحد النماذج الكاملة والمكتملة للاستبداد، يحمل اسما، إنه المخزن. ولأن الشعب قد غرق غرقا في منعرجات الفكر الوحيد، ولأنه رُوض على الخوف والنفاق، فإنه دُعيَ إلى مباركة استلابه وكأنه الحاجز الذي يمنع زلزال الحرية. إن هذا الجمود والخمول، اللذين أغرق فيهما المخزنُ الشعبَ، والذي بدا وكأنه لا يطمح إلا إلى الراحة النسبية والهشة التي يسمح بها استعباده. قد أربكا إذن نوايا المناضلين، وهي النوايا المليئة بالمحبة والإيثار بكل تأكيد ولكنها نوايا لا حول لها ولا قوة أمام هاته المتاهة الإيديولوجية. ولكن ما هو الشعب إن لم يكن هو الفاعل الأساس، والخفي، لمجرى التاريخ؟ وبما أن غياب روح المواطنة اصبح سبيلا للعيش، ألم يكن بالضبط واجبُ الحزب هو أن يُعلم الشعب ويقوده؟

تفسر هذه الحصيلة الملطفة بلا شك سبب تحمس محمود تحمسا متواضعا للإستراتيجية التي كانت تهدف إلى إعطاء الأولوية للعمل السياسي. فهو كان يعرف أن النخب السياسية والاقتصادية التي أصبحت ترتاح في عبودية مُذَهبة ترى في الثورة حماقةً قاتلة.

ولأن محمود كان يحب المطالعة والتاريخ حبا جما، فإنه سطر من جديد مسار الفرصة الضائعة. فبعد أن فقد المخزن مصداقيته بعد أن ابتز [خيرات] البلد، أنقذته الحماية الفرنسية التي زودته ببنيات عصرية. كان هدفها من ذلك صريحا وهو إسباغ

المشروعية على تواجدها بالمغرب. وبعد ذلك، ألم تعمل الحركة الوطنية نفسها، نظرا لغياب رؤية سياسية عندها، على إعادة الشباب إلى المخزن غداة الاستقلال؟ كم تبقى من الوقت قبل أن تنمحي نهائيا كل قدرة على المقاومة المعنوية والمادية؟ انتابت محمود القناعة بأن الثورة وحدها يمكنها القضاء على المخزن والسماح بميلاد المغرب العصري، الذي تخلص من طقوسه المتقادمة التي تعود إلى العصور الوسطى . وأمام الطريق المسدود، اختار العملَ الثوري، ذلك العمل الذي سوف يدفع بالظروف المواتية إلى الظهور. كان هذا طموحا عاليا ساميا في نظره، فلا يقبل أن يقلل من شأنه فشلٌ عزم على أن يستخرج منه الدروس والعبر.

كان محمود يعرف أن الظروف ملائمة لقلب الوضع، رغم كارثة عملية 1969. فقد كانت التقارير القادمة من الداخل، وخاصة بعد انقلاب الصخيرات، تعزز هذا الإحساس. قرر محمود، بعد أن تشاور مع المقربين منه، أن يعود لتسيير التنظيم. وهكذا، فقد اشتبك مصير التنظيم بمصيره.

المواقع المتقدمة، وهران

كان الإحساس الذي يبعثه الماضي في ساهر ما زال حيا. في بيت الفرشي بالدار البيضاء، حيث التقيته سنة 1996، كان يستعرض مدققا مشاهد من الماضي. لم يكن في ساهر، الذي يُطلق عليه بحنان لقب "الجمل" نظرا لقامته الطويلة المديدة، شيء من المناضل الملتوي. إنه شخص يتعلق به كل مَن يعاشره، تعلو وجهَه ابتسامةٌ مرحة ولا مبالاة ساخرة بالظروف المناكفة. كان هذا المرح الذي يدعو إلى الاستسلام يخفي حينها الشر الذي سوف يذهب به بعد بضعة شهور. وُلد ساهر بفاس، وأصله من فيكيك. كان تاجرا صغيرا، التحق بالاتحاد الوطني للقوات الشعبية خلال المقاومة. وهاهو يكتفي بأن يذكر حتى يعطي الدليل على التزامه النضالي: "رافقت المهدي بن بركة خلال جولةٍ قام بها بين وجدة وقصر السوق (الراشيدية اليوم)". جرفته اعتقالات سنة 1963، وأطلق سراحه بعد شهر من الاعتقال. فقد اكتفى وبكل بساطة بعدم الجواب عندما نُطق اسمه واكتفى بالتوقيع على المحاضر باسم مستعار. ولما استعاد ساهر حريته الهشة المرهونة بهوية من صنع خياله، قرر مغادرةً البلد ليَسلَم نهائيا من قبضة البوليس. وانطلاقاً من باريس، قادته طريق المنفى إلى وهران بالجزائر، فاستقر بها. وهاهو ساهر يتذكر: "استقر محمود بوهران بدايةَ صيف سنة *1971*، هناك التقيته أول مرة"[21]. في ذلك الحين، كان أعضاء التنظيم الناجون قد لجؤوا إلى باريس والجزائر العاصمة ودمشق، أو غاصوا في السِرية في المغرب. في حين كان الفقيه البصري يجول من عاصمة إلى أخرى ويعدد جنوده. كان التوتر قد

---

21 حوار للمؤلف مع العربي الفيكيكي، المعروف بساهر.

بلغ أوجه في كل مكان. فأينما حل القياديون الثوريون، كانوا يعرفون بأنهم مطاردون. فقد باتت مطلوبةً رؤوسُ الفقيه البصري ومحمود[22] ودهكون وسيدي حمو والنمري. وهاهو التانوتي، أحد أهم مزودي التنظيم بالأخبار من داخل مصالح أوفقير يشهد على كثرة ووفرة الوسائل الموظفة: "كان عددٌ كبير من الطلبة المغاربة في الخارج مخبرين. فمقابل أن يتسلموا جوازَ سفر كان يَفتح لهم أبوابَ الخارج، كان عليهم أن يقدموا تقارير منتظمة عمن يعاشرون. وكانت هذه التقارير تصل بعد ذلك إلى مكتبي في شكل إخطارٍ بالبحث. وقبل اعتقالي بقليل، كانت الأنظار قد تركزت على وهران. فسربت مصالحي مختصا بالراديو إلى وهران[23]".

كان أوفقير صائباً. ففي وهران، ارتحل التنظيم قاعدته الرئيسية في حالة التراجع. ولكن وهران أصبحت أكثر من نقطة للتراجع. باتت ورشة واسعة لتعداد الخلايا السرية وإعادة تنظيمها. وجد فيها محمود العديد من الأطر الثورية التي سُربت خارج المغرب. من بينهم دهكون الذي وصل يوم 24 أبريل من سنة 1971. وكما هي عادته، أعاد محمود هيكلة شبكته انطلاقا من نواة الأطر الموثوق فيها والمتمرسة. وفيما يخص تجنيد المناضلين الجدد. فقد كان له رأيه الذي نجده في رسالته التي بعث بها إلى الفقيه البصري: "أما بالنسبة للإخوان المراسلين وأصحاب العبور (..) فإن الأمر مختلط عندهم ما بين "عمل وطني" و"تهريب". ما بين طموح في الوصول ورغبة في الاستفادة. (..) ليس هؤلاء الناس مناضلين ما دام البقشيش هو الرابط. وأسلوب الترضية سائدا وعقلية الولاء كامنة في نخاعهم وما إلى ذلك من رواسب مجتمع الإقطاع .. إن كانت الضرورة تقتضي التعامل مع هؤلاء الإخوان فلذلك حدوده ولم يخدم نوعُهم المنظمة بأمانة واستماتة ما دام لم يصبح أحد مناضليها. إنهم في الحقيقة تربة خصبة لتكوين مناضلين أشداء في الميدان المسلح على أساس أن تنقلب العلاقة معهم رأسا على عقب وأن تخضع للمقاييس النضالية الحقة .."

وعند عودة الفرشي إلى وهران، احتفظ بذكرى دقيقة عن لقائه بمحمود. فقد علمته التجارب الحيطة والحذر، وهي الصفة التي باتت مزروعة في أعماق روحه الأليمة وفي ذكريات فترة كانت الصداقات تُقاسُ فيها بمحن الاضطرابات والعواصف: "عرفت الفقيه البصري سنة *1953* خلال الكفاح السري بالدار البيضاء. كان قد جاء من الجنوب كما هو شأني أنا كذلك"[24]. ما زال الفرشي يحتفظ في ذاكرته بصورة خيالِ رجل يرتدي جلبابا، رأسه يغطيه طربوش. يتنقل به رجال الشرطة الفرنسية من مقهى إلى آخر. فقد كان رفيقه عبد الرحمن الصحراوي قد اعتُقِل في اليوم الموالي. ولما جوبه بالرجل

---

22 في المغرب، اختُطف الأخ الأكبر لمحمود، عبد الواحد بنونة، موظف بمصلحة الموظفين بوزارة الشؤون الخارجية، في مارس من سنة 1971. ورغم أنه كان يجهل تفاصيل أنشطة أخيه، فإنه عُذب طيلة ستة أشهر بدار المقري بالرباط. عرف المصيرَ نفسَه غالبُ القياديين الثوريين الآخرين، كما هو شأن دهكون.

23 حوار للمؤلف مع محمد التانوتي.

24 حوار للمؤلف مع عمر الناصر، المعروف بالفرشي.

الذي يختبئ تحت الجلباب، عرف بأنه الفقيه البصري. علم ذلك الفرشي مباشرة بعد الهروب الخارق ولكن العابر لرفيقه. ولما اعتُقل ثانيةً في فاس وهو هارب نحو الشمال، شرب الصحراوي السم فمات. "الحرية أو الموت". كان هذا هو شعار المقاومين الذي لم يكن مجرد كلام عابر، بل كان الشعار الذي يشهد على روح التضحية التي زادتها رفعةً وسمواً رغبةٌ مطلقةٌ في الحرية.

ما يبقى في الذاكرة لا ينمحي. وسوف يوظف محمود كل فكره المنهجي والعقلاني ليُقنع الساعد الأيمن لشيخ العرب بأن يساعده. هو الذي لم يكن له نظيره في حل خيوط الفتنة والذي كان صوته الهادئ وغير المندفع كافيا لإرجاع الثقة إلى النفوس. كان عليه أن يمضي عدة أيام ليبدد الشك الذي استحوذ على الفرشي. فبالنسبة إلى الرجل الذي نجا والذي ما فتئ يعاود النضال، فإن المسيرة التاريخية التي لا رجعة فيها، والتي سطرها منطق الثورة، المنطق الواضح السلس الذي لا يمكن دحضه، قد تسرب إليها شيء من الخداع والغدر. ولكن استقامة محمود الصارمة سوف تُقنع في نهاية المطاف الفرشي. فبالنسبة إليه، كان هذا العربون أمرا أساسيا، ذلك أن الدسائس قد جعلت من النضال الصادق لعبةً سياسية ليس إلا.

وأما ساعة، الذي كان من رجال المقاومة الأوائل والمساعد السابق لقائد (رجل سلطة) كلميمة، فلم يكن أقل تخوفا. فهو قد غادر السجن يوم فاتح أكتوبر من سنة 1965، بعد أن قضى عقوبة الحبس أربع سنوات، فأصبح بذلك، وسنه خمس وأربعون سنة، يبدو من الأعيان الهانئين. وتعددت الاتصالات. فرحل مرتين إلى وهران، انتصرت حيطته وحذره. وعند زيارته الثالثة إلى وهران، نهاية سنة 1971، التقى بمحمود. فقد أحضره محمود ليستفسره عن استعداداته الفكرية. وبعد أن وضح الرجلان طويلا الأمور، توصلا إلى اتفاق:: اتفقا على تنظيم خلايا فيكيك والدواوير الحدودية ونقط العبور ومخابئ الأسلحة. وسرعان ما بدأ السلاح يتسرب: حمولة واحدة في البداية، ثم حمولتان، ثم ثلاثة. كان الفرشي وساهر ينسقان شبكات رجال العبور. وعلى العكس من ذلك، عارض ساعة أن يسافر مناضلو فيكيك للتدرب بالخارج. فقد عارض قائلا: "سوف تعلم كل المنطقة بالخبر". وكما هي عادةُ ساعة بصفته رجل الظل، فإنه لم يكن يستحسن إلا نسبيا الهيجان الآتي من الخارج. استبق محمود الأحداث: مناضلو فيكيك سوف يدربهم في عين المكان مدربون يتم تسريبهم إلى داخل البلاد.

ومن لقاءات ملؤها الانتقاد إلى أحاديث تتبادل فيها الأسرار، ومن محاولات تحقيق أمور إلى تحقيقها فعلا، تم وضعُ بوادر تنظيم جديد. إنه تقدم متواضع بكل تأكيد، ولكنه تقدم مكن من انبعاث أمل المناضلين الذي قضى عليه الفشل، فأخذ يرى ثانية المستقبل أكثر إشراقا.

تلاقٍ وتلاحم في الأطلس

وعند نهاية صيف سنة 1971، أرسل محمود رسولا إلى الرباط. إنه الحسين آيت الزايد، المعروف بعبد السلام. إنه رجل الاتصال الذي تحدث عنه في رسالته إلى الفقيه البصري. تكَون الحسين آيت زايد في سوريا والتحق سرا بالمغرب ليحط الرحال في الأطلس. ولما وصل حيث كان عليه الوصول أخذ ينتظر طبقاً للأوامر التي تلقاها، الأوامرَ الأخرى التي سوف تصل. ولكن الانهزام والتشتت خلخلاً مهمته، التي باتت حينها "نائمة". وعند وصوله إلى الرباط، كان رجل الاتصال "النائم" الذي أيقظه محمود، يحمل رسالةً إلى سيدي حمو. وأما مضمون الرسالة فكان أمرا بالتراجع.

وحسب مناضل من خنيفرة، فإن: " سيدي حمو واثنين من رجاله نزلا عندي بخنيفرة، بعد أن غادرا الرباطً. أخبرني الحسين آيت زايد بوصولهما. استقر واحدٌ في خنيفرة لتنظيم شبكة سرية في المنطقة، في حين أن سيدي حمو والرجل الثاني واصلا طريقهما إلى تنغير"[25]. ولما علمت الشرطة بحضورهما، سرعان ما أخذت تطارد سيدي حمو. ولكن الأسطورة لم تكن إلا في بدايتها. فقد كان شيخ تنغير، الذي وصل عنده ضباط الشرطة الذين بعثت بهم الرباط ليستقصوا الأخبار عن وجود سيدي حمو، كان صديقا من الأصدقاء. فبينما هو يستقبل البوليس ويقدم لهم الشاي كما جرت العادة، انسل رسول من الباب الخلفي وأخطر سيدي حمو الذي فر لتوه.

وقد كان محمود يقصد بالأمر الذي أعطاه لسيدي حمو أن يلجأ إلى الأطلس هدفا مزدوجا. إذ كان القصد هو حماية مجموعة الرباط وفي الوقت نفسه خلق ترابط مع النمري.

فقد دخل هذا الأخير، مستوحيا ذلك من أصله الذي يعود إلى البدو الرحل، إلى التراب المغربي، يوم الاثنين 17 من شهر أكتوبر من سنة 1971، عبر النيف، وهي قرية صغيرة في الصحراء على الحدود، على ظهر جمل. وكما كان الشأن يوم إنجازاته الكبيرة مع جيش التحرير الوطني – منطقة الجنوب، فإن المطيتين اللتين تتبعانه كانتا محملتين بصناديق السلاح والذخيرة. وأما الجمل الرابع، فكان يمتطيه إطارٌ تكون في سوريا كان عضوا في المجموعة التي أرسلها اليزيد، قبل سنة من ذلك، لملء الفراغ الذي كان يعرفه جنوب المغرب.

قادت خطوات الجِمال المتوازنة وغير المبالية النمري ورفيقه إلى قصر إيزوريز على طريق زاكورة. كان ينتظرهما رجل الاتصال الحسين آيت زايد. وكان يرافقه مناضلٌ آخر، ناقل أسلحة التنظيم في المنطقة[26]. قاد الرجلان النمري ورفيقَه عبر التلال التي

---

25 حوار للمؤلف مع أحمد بويقبا.

26 يهم الأمر سالم أومسعود الذي مات تحت التعذيب سنة 1973.

ينيرها بريق النجوم، متفادين بدقة الطرق المطروقة. وعند الفجر، وصلوا إلى مربطٍ يشرف عليه متعاطفون، فأمضَوا به اليوم. وبعد سبع ليالٍ، وصلت القافلة الصغيرةُ إلى آيت شعيب قرب تنغير، حيث كان ينتظرها سيدي حمو. ولكن فصل الشتاء حل مبكرا سنة 1971. فقد أخذت الثلوج الأولى تتساقط، وأغلقت منفذ العبور إلى خنيفرة عبر الممر الجبلي المجاور لإملشيل. وكان الانتقال عبر السهل فيه مخاطرة كبيرة. كان على النمري إذن أن ينتظر عدة أسابيع قبل بلوغ قِبلته.

ومباشرة بعد بداية ذوبان الثلوج الأولى، وعلى ظهر بغل، وسيلةُ تنَقل أهل الجبال، وبتواطؤ مع الخلايا السرية في الأطلس الكبير، وصل النمري إلى خنيفرة، يقوده دائما الحسين آيت زايد. التحق به بعد شهر من ذلك سيدي حمو ورجاله. إذ تكلف بالعمل على أن يعبر الأطلسَ الكبير زايد أوميدو، قائد خلية سرية بإملشيل.

ومع ذلك، وفيما يخص النمري، فإن خنيفرة لم تكن سوى محطة عبور. إذ كانت قِبلته الأخيرة هي سوس حيث ينتظره مناصروه، وجلهم رفاق سلاح سابقون في جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. كان هدفه هو النجاح حيث فشل اليزيد سنة قبل ذلك.

أمدة، الجَسور

أُعدِمَ الجنرالُ حمو يومان بعد انقلاب الصخيرات. وكان لهذا الحدث بالغ الأثر في منطقة خنيفرة. فقد كان الجنرال من بين أعيان المنطقة المقدرين والمحترمين. كانت الساكنة بالغة الانفعال، وكانت الأحقاد والتظلمات تروج بأصوات منخفضة داخل بيوت "أولئك الذين يُضرب لهم الحساب". وقبل شهور من ذلك، في دجنبر من سنة 1970، ثار الفلاحون في أولاد خليفة في الغرب. وسرعان ما قمعت ثورتَهم قواتُ التدخل المتحركة التي خلفت على الأقل ستة موتى وراءها. كان حقد الفلاحين الصغار على الفيوداليين ومنتزعي الأراضي من أصحابها، إضافةً إلى الإهانات التي طالت الجيشَ الذي بات متهما بالنزوع إلى الانقلاب، كان كل هذا يشكل أولى بوادر الإضطرابات.

كانت خنيفرة في ذلك العهد تضم 10 000 نسمة، فأصبحت بؤرة ثورية كامنة على الخريطة الإستراتيجية للتنظيم. ولربما هذا ما أقنع محمود بأن يرسل إليها النمري وسيدي حمو. كانت مهمتهما هي إعادة تنظيم الشبكات السرية وإعدادها لاستقبال الأوامر بشن القتال. وأما أمدة الذي جاء مع سيدي حمو فإنه خنيفري الأصل، وهو بالتأكيد المؤهل أكثر للاتصال بالسكان. فقد سُرب هذا العضو السابق في القوات المساعدة والذي تكون في الزبداني، انطلاقا من إسبانيا، ليظهر في الرباط

سالما معافى. ثم التحق به بعد وقت قصير سيدي حمو. الذي نجا في الظروف التي سبق ذكرها.

كان أمدة يملك بنية المقاتل الذي لا يُقهَر. وكان يبدو قادرا على اجتياز كل التجارب. وهاهو صهره يصفه بأنه رجل هادئ ولكنه جسور مجازف. ففي سنة 1954. كانوا يقومون بعمليات تخريبية ضد المصالح الفرنسية: "في إحدى الأمسيات. قادني خارج بيتي بعد وليمة عشاء. كنا نمشي تحت سماء تضيؤها آلاف النجوم. اعتقدت أن الأمر لا يعدو أن يكون جولةً للهضم. عندما سألني بعد أن مشينا حوالي المائة متر:

— هل تعرف ما الذي سنفعله الآن؟

— ..

— سوف نذهب لإشعال النار في المحطة الطرقية لخنيفرة[27].

كانت هذه هي طريقته العفوية وغير المبالية للقيام بعمليات الهدم والتخريب. "قادني إلى المكان الذي وضع فيه المتفجرات والبنزين. ولما اشتعلت النيران في المحطة الطرقية. كنا قد ابتعدنا عن عين المكان بأزيد من كيلومتر. كنا نجري منذ بضع دقائق عندما أوقفني أمدة:

— إن الجو بارد. أليس كذلك؟

قال قوله هذا وارتد راجعا إلى النيران المشتعلة التي تُنير الأفق ومد يديه وطلب من رفيقه المندهش المبهور أن يفعل مثله:

— لندفئ أجسامنا لحظةً.

إن هذه الحكاية تترجم ذلك التجرد الظاهر والغريزي الذي يتسم به رجال الأعمال السرية. مع هذا الفارق البسيط وهو أن هذه الخاصية. عند أمدة. هي علامة تدل على أن الشخص عرف الكثير من خيبات الأمل. فبات لا يمكنه أن يتخيل احتفالا يختلف عن طريقته في الاحتفال بالظلم. إذ إن السخرية والهزل هما في الغالب آخر ملجئٍ يحتمي بهما اليأس.

كان أمدة يفرض نفسه ببنية جسمه بالقدر الذي كانت لامبالاته المصطنعة تقلق. فقد كان بمقدوره أن يبقي المتطفلين بعيدا. إذ إن سنواتٍ من اجترار آمال مخدوعة جعلت منه أحد أهم النشطاء المسلحين في الأطلس المتوسط عشية الاستقلال. فبالنسبة إلى شخص كانت ثقافته السياسية تنحصر في أبسط مظاهرها. أي المفهوم القرآني عن الشر والخير وقبولٍ قَبَلي بالشجاعة والولاء. لا يمكن إلا أن نلاحظ أن عمله كان له وقع يضاهي بل يفوق العديد من المسارات السياسية المتمرسة على دسائس القصر الملكي. ولكن وبما أن التاريخ. بمعناه الواسع. لا يهتم بهؤلاء الأفراد المغمورين الذين لهم دوافع مبهمة. فإن أمدة يجسد ولا شك أحسن تجسيد المصير

---

27 حوار للمؤلف مع أحمد بويقبا.

الضائع للبطل المجهول. فقد كانت أعماله خلال عهد الحماية تصنفه بكل تأكيد داخل فئة "الإرهابيين". وهي الميزة التي وضعتها السلطات الفرنسية. والتي سوف تأخذ أهمية خاصة بعد الاستقلال.

موحى أُو الحاج، الفيودالي صاحب النفوذ

المحتضن الرئيسي للتنظيم في خنيفرة هو موحى أُو الحاج أمحزون. وُلد في خنيفرة سنة 1927 . إنه شخص غير عادي. فهو صهر الملك[28]. وبهذه الصفة. كان من الملاكين الكبار ذوي النفوذ والهيبة في المنطقة. وبما أن الثروة تصاحبها القوة والنفوذ. فإنه كان يملك العديد من قطعان الماشية وأراض وحظيرة شاحنات. في هذه المنطقة النائية. كان التقليد هو أن السلطة تولد من السلاح. ولهذا فإن موحى أوالحاج كان يفتخر بكون لاَ أحد من أجداده مات ميتة طبيعية[29]. وإعدام ابن عمه. الجنرال حمو. بعد انقلاب الصخيرات. ليس بالغريب عن التزامه بقضية الثوار.

ولأن الجنرال حمو كان عاملا على عمالة قصر السوق (الراشيدية حاليا). فإنه كان يغض الطرف عن الصفقات التجارية التي كانت وراء ثروة موحى أوالحاج. ومنذ موت الجنرال. قيل بأن موحى أوالحاج ربط اتصالات منتظمة مع أطر عليا في الجيش. كانت هوايتهم المشتركة هي الصيد. وقد كشفت مصادر قضائية فيما بعد أن ثلاثة على الأقل من الضباط الذين كانوا يرافقون بانتظام موحى أوالحاج لممارسة رياضتهم المفضلة. كانوا من قياديي خلايا من خلايا التنظيم[30]. أهي صدفة أم تواطؤ؟ إذ إن الدليمي. الذي لم يكن حينها سوى عقيد (كولونيل). كان ومنذ سنة 1972 من بين المعتادين المترددين على حفلات موحى أوالحاج[31].

مكنت مساعدة موحى أوالحاج أمدة ووالنمري وسيدي حمو. الذين لم يكونوا يجهلون مع ذلك أن الدوافع وراءها رائحة الرغبة في الانتقام والمحسوبية. مكنتهم من العمل والحركة بكل حرية. وسوف يعلم بذلك أمدة والنمري فيما بعد. ولكن على حسابهما. فقد قسما الأطر وضباط السلطة الجهوية إلى ثلاث فئات: المتعاطفون والمحايدون والمعادون. ووُضعت أسماء الأعداء على لائحة سوداء كان يجب الحسم في مصيرها يوم اندلاع الانتفاضة. وحسب النمري وأمدة. كان عليها اسم مولاي أحمد.

---

28 زوجته أختُ زوجةِ الملك.

29 جده. موحى أوحمو الزياني. مات في معركة الهري التي تقاتلت حينها القبائل المسماة "ثائرة" مع جيوش الاستعمار الفرنسي. وأبوه. موحى نعقة. مات ضحية تصفية حسابات.

30 علا أوفكوه والحسين أمهراش وحديدو. المصدر: قرار محكمة مكناس. رقم 70/130.

31 شهادة مساعد-أول في القوات المسلحة الملكية. الحسين أمهراش. صديق موحى أوالحاج وأمدة. في جلسة محكمة القنيطرة. هو إبن قائد ومساعد-أول في القوات المسلحة الملكية بالحاجب. كان قد أدين بخمسة سنوات حبسا في قضية عدي أُبيهي سنة 1957. وأعفي عنه بعد أن قضى سنتين في السجن. جريدة العلم. 19 يوليوز 1973.

صهرٌ آخر للملك. ومن الملاكين الكبار في الأطلس المتوسط وعامل (رجل سلطة). وكان يعني الأمر على وجه الخصوص تناسي أنه كذلك أحد أقرباء موحى أوالحاج. وقد ذكر هذا الأخير بالأمر ولكن بطريقته:

— إن كنتم تنوون تصفية مولاي أحمد. فإنني سوف أُبلغ عنكم السلطات.

وعلى العكس من ذلك. كان موحى أوالحاج يوبخ بعنف أطر الحزب التي لم تكن تتساهل مع صفقاته. وهاهو مسئول سري مكلف بالتجنيد يتذكر بأنه دُعي إلى اجتماع سري : "ضرب لي أحد المناضلين موعدا بتيرسالي. وهي قرية صغيرة على بعد 10 كيلمترات من مدينة خنيفرة. وفي المكان المحدد. وجدته رفقة أمدة والنمري ورجل آخر لم أكن أعرفه. وبعد أن سألني أمدة عن عدة أنشطة بالمنطقة. صرح لي بأن الموجي. رفيقي في الحزب. يجب أن يُعدَم. فهو متهم بالوشاية بمناضلي التنظيم سنة 1969 . ورغم أنني كنت أعتبر موحى أوالحاج صديقا حميما. فإنني لم أكن لأجهل بأن هناك خلافا بينه وبين الموجي. لا شك إذن أن موحى أوالحاج قد اتهم الموجي بما لم يفعله وذلك بهدف واحد وهو أن يتخلص منه. فاعترضت على الأمر[32]".

كان على النمري وأمدة إذن أن يوظفا الكثير من الدبلوماسية وأن يوليا العناية الكافية للحساسيات القبلية والتحالفات القائمة على المصالح من أجل تنظيم شبكاتهما. فقد كان الرجال يُختارون ويُجمعون في خلايا مختلفة. تبقى درجة انخراطها في المشروع رهينةَ الثقة التي توضع في أعضائها. وهاهو أحد الرجال المجندين يحكي: "في البداية. كنت رسولا بين خنيفرة ووهران. وبعد ذلك طُلب مني أن أنظم خلية سرية من خمسة رجال. كان النمري يحضر ليدربنا على حمل السلاح وصنع القنابل[33]". وكما هو شأن خلية هذا المناضل. كانت العديد من مجموعات الرجال تُجَمع في خلايا سرية داخل بنية مغلقة. ثم يُكوَّنون ويُدرَّبون منفصلين.

ولكن إجراءات الأمن الأكثر تشددا لا تساوي شيئا بدون استباق أعمال وأفعال المعسكر الخصم. ولهذا فإن أمدة والنمري قد أنشآ شبكة للمخابرات بتواطؤ مع بعض الشيوخ الذين اعتنقوا القضية الثورية. كانت تلك الآذان وتلك الأعين تخبر النمري وأمدة بانتظام بأنشطة عامل المنطقة وأعوانه. وهو الاحتياط الذي لم يكن بالمجاني نظرا للمراقبة التي كان يضربها النظام على أنشطة الحزب.

وحسب مناضل سري فإن: "أول مرحلة من التجنيد كانت تتكلف بها أطر مطلعة من الحزب. وكانت حريتنا في الحركة والتنقل ودورنا النشيط داخل جمعيات جهوية يضمنان لنا مجالا مهما للعمل[34]". ومع ذلك فهاهو هذا الأخير يتذكر بأنه لاحظ وجود شخص

---

32 حوار للمؤلف مع محمد القاسمي.
33 حوار للمؤلف مع عبد الرحمن ماسين.
34 حوار للمؤلف مع محمد القاسمي.

مشبوه، وهو سائح كندي، خلال اتصالاته بمنظمة للشبيبة البربرية بآزرو. كان السائح نفسه يتجول حاملا آلة تصويره بكلميمة وخنيفرة. وأحيانا كان التحدي ينضاف إلى المراقبة. فقد زار الرجلَ الموالي للتنظيم مناضلٌ يصحبه صديق من قصر السوق. وبعد أن انفرد المناضل بالرجل، حذره من "صديقه" وذلك بغرض زرع تواطؤ يشجع على تبادل الأسرار، وسأله:

— أين نحن من الأمور، هل كل شيء جاهز؟

ولكن رسول النمري وأمدة كان جنديا من جنود المقاومة مجرَّباً لا يمكن خداعه. ودون أن يتخلى الرجل عن مظهره البريء، سأل مندهشا:

— عما تتحدث، إن الانتخابات لن تجري إلا بعد سنتين.

راديو ليبيا

وفي بداية شهر أكتوبر من سنة 1971، عاد الفقيه البصري إلى طرابلس. كان يرافقه رجلان : عثمان بناني، ابن خالة محمود، ومراسل من التنظيم في سوريا. أخبرهما إبراهيم بافتخار، بأن اتصالاته مع الليبيين قد باتت الآن متواصلة وعادية. وبما أن إبراهيم قد تعزز بضيافة الليبيين وترحابهم، فإنه اقترح تنظيم شيء بخصوص 29 أكتوبر، وهو يوم ذكرى اختطاف المهدي بن بركة. إذ كان الاحتفال بهذه الذكرى يشكل طقسا تمارسه بانتظام وثبات أوساط الطلبة. فحبذا لو كان هناك برنامج إذاعي. فإن الأمور ستكون حينها كاملة مكتملة. أعجب الفقيه البصري بالفكرة، وتكلف بإقناع الليبيين بأن يخصصوا بعض الوقت لإبراهيم على أمواج إذاعتهم للاحتفاء بذكرى اختطاف القائد التقدمي. وعاد الفقيه البصري إلى باريس تاركا إبراهيم ومرافقيه يشتغلون على إخراج ذلك البرنامج. ولكن سرعان ما وجد إبراهيم نفسه لوحده. فقد عاد عثمان في اليوم الموالي إلى القاهرة، والمسؤول عن التنظيم في سوريا عاد إلى دمشق بعد اليوم الموالي.

وقد عَوضهما وصول مناضلين آخرين. الأول، أدهش إبراهيم بلكنته السورية، كانت هيأته قوية وقدم نفسه على أنه حسن إبراهيم: إنه خالد، قَدِم من دمشق. وأما الثاني فقد جاء من بلجيكا. كان إبراهيم قد راسله من نانسي خلال حملة لفائدة إطلاق سراح بونعيلات وأحمد بنجلون. إنه حسين المانوزي. حدث تفاهم فوري بين الرجال الثلاثة الذين حرروا نصا للاحتفاء بذكرى 29 أكتوبر وسلموه للإذاعة الليبية.

وقد جند الليبيون أجود مذيع كان بحوزتهم، إنه جلال معوض، الذي كان حينها زوج الممثلة المصرية مريم فخر الدين. لقد كان نجم الأمواج الوطنية، وتخصص في سرد

ملاحم جمال عبد الناصر المجيدة، وهو الرمز الذي كان مثار إعجاب الثوار الليبيين. ولم يدخر المذيع نعتا ولا لقبا للاحتفاء بذكرى الشهيد الراحل. حققت الفكرة من النجاح ما جعل إبراهيم ورفيقيه يفوزون منذ تلك اللحظة بخمس وأربعين دقيقة أسبوعيا من أجل بث برنامج تجاه المغرب.

وسرعان ما تحولت الثلاثة أرباع الساعة إلى ساعتين، إذ إن محمد الزواي، مدير الإذاعة الليبية[35]، والذي كان ودودا لطيفا في تعامله معهم، لا يدخر جهدا لتلبية حاجاتهم. لقد كانت كثيرةً الساعاتُ التي خُصصت للحديث حديثا طويلا مطولا عن الثورة في العالم العربي ..

ويشهد وصول إطارين تكونا في الزبداني، في شهر نونبر من سنة 1971، على تكثيف أنشطة التنظيم في طرابلس. كان الأول مقاوما سابقا عمرُه 45 سنة، حُكِم عليه بالإعدام غيابيا سنة 1963. وكان قد شارك إلى جانب آيت المودن، السيئ الحظ، في عدد من العمليات ضد الحماية بدايةَ الخمسينيات.وأخوه، وهو عضو في مجموعة شيخ العرب، يوجد ضمن الرهائن الذين سقطوا برصاص أوفقير الذي كان ينتقم بهذه الطريقة من عجزه عن القبض على الرجل الذي "يستحيل القبض عليه". وأما الثاني، والذي كان يصغر الأول بعشرين سنة، فقد كان شابا عنيدا. إنه شخص قوي البنية، كان يفرض وجودَه بجرأته وأحاديث في غير محلها. وقد وقعت حادثة بسيطة بقيت محفورة في ذاكرة إبراهيم وهي تلخص الأمر أحسن تلخيص: "عندما كان مكلفا بنقل السلاح، حمل في يوم من الأيام سلاحَ كالاشنيكوف في سيارة فولسفاغن. فأوقفه شرطي ليبي حيرته لهجته. كان صندوق السيارة مملوءً بالسلاح. وكان الشرطي، ودون أن يفتش السيارة، قد شك في أن السائق جاسوس. ومعنى ذلك أنه لو فتح صندوق السيارة لحُسِمت القضيةُ. وعادةً وفي مثل هذه الحالة، كان على المناضلين الاتصال برقم هاتف في وزارة الداخلية الليبية دون أن يُدلوا بهويتهم. ولكن الشرطي الذي انتابه الشك في أمر الرجل، أخرج سلاحه ووضعه على صُدغ المناضل السري الشاب، وأمره بأن يدلي بهويته. وبكل هدوء أجابه هذا الأخير بأنه لو أطلق النار فإنه لن يعرف أبدا الجواب عن سؤاله[36]".

عزز وصولُ الرجلين الفريقَ المكلف بهيكلة الإدارة العسكرية المسؤولة على الحسابات. فقد كان الأول ميكانيكي التكوين، فأخذ يَعُد العربات التي سوف تخصص لحمل السلاح، وكان الثاني ينقل الحمولة إلى الجزائر. كان كل شيء يسير وفق مَسَارٍ وضعه حسين المانوزي. واكتملت حلقة الأربعة من قدماء الزبداني بوصول رئيسهم، بعد أسبوعين من ذلك : إنه محمود. اكتشف فيه إبراهيم رجلا هادئ الطبع، ابتسامته خاطفة عابرة. لا شيء يدل على نزعته الثورية العميقة، باستثناء القناعة التي تتجلى

35 أصبح فيما بعد، ولسخرية التاريخ، دبلوماسيا يعمل في المغرب قبل أن يُعَين في منظمة الأمم المتحدة، ثم وزيرا.
36 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشلح.

من كلامه. فور وصول محمود، جَمع أطر الزيداني واستعرض اللوجستيك العسكري، إذ إن التنظيم في طرابلس قد اتخذ بعدا أشد صرامة وأكثر تحديدا وضبطا ومهنيةً. كان كل شيء يقول بأن دَرسَي دمشق والجزائر العاصمة قد تمت الاستفادة منهما.

لم يكن محمود رجلا يتمادى في مُساراته. وهذا الأمر اكتشفه إبراهيم صدفةً خلال تعاونهما : "كان يكتب كثيرا، يبدو متعطشا كثيرا للمعرفة، كان يستفسر بانتظام عن آخر الإصدارات السياسية. وكان يحمل معه دائما دفترا يكتب عليه ملاحظاته". وكما هو شأن آخرين قبل إبراهيم، لاحظ هذا الأخير ترفعه عن الماديات: "كان محمود الرجل الذي يكلف التنظيم أقل تكلفة. في يوم من الأيام، بطرابلس، كان عليه أن يأخذ صورا توضع على جواز سفره. لم يكن يملك حتى قميصا لائقا. فكان علي أن أعيره بعض ملابسي"[37].

الدبلوماسية الموازية

كان البشير بومعزة، وهو وزير مالية جزائري سابق، سنة 1971، حليفاً في تلك الظروف. فقد غادر الرجل الجزائر سنة 1966 بعد أن ساند انقلاب بومدين لمنع "الانحرافات المشخصنة لابن بلا".ولكن عهد بومدين لم يرضه. وسرعان ما كسب الفقيه البصري ترحاب هذا المعارض الحديث العهد بالمعارضة. فقد كان يعرف أن المسيرين العرب يعشقون المُسارات والأخبار الجديدة: فكان البشير بومعزة ميزةً واستثمارا خاصين عليه أن يجول به داخل القنصليات والسفارات العربية. وأما البشير بومعزة، فقد كان ممنونا للفقيه البصري لأنه جعل قادة "الدول الشقيقة" يستقبلونه على أنه رجلٌ ذو مقام رفيع. ومع ذلك، فإن التقارب بينهما كان أكثر من اهتمام بأدب البروتوكول. ففي الجزائر، كان بومدين يقبض بقوة على زمام السلطة، وكان الشعب الجزائري، بعد كل سنوات الحرب التي عاشها، يطمح إلى السلام الذي يناله الشجعان. فلم يكن بإمكان التغيير إذن أن يأتي إلا من الخارج. وهكذا بدأ بومعزة يتقرب من العنصرين اللذَين كان لهما في ذلك العهد أكبر الصدى لدى الشبيبة الجزائرية: الثوار المغاربة والمقاومة الفلسطينية.

كان مرد ذلك الصدى الذي يتمتع به الثوار المغاربة يعود أساسا إلى الجوار الجغرافي وإلى الخلاف المغربي-الجزائري. وأما الكفاح الفلسطيني فقد كان يعرف تعاطفا شاسعا.

وقد قادت بومعزة علاقاتُه مع هذين الفاعلَين اللذَين يحركان العالم العربي، من طرابلس إلى بيروت، ثم من دمشق إلى بغداد، مع تفادي عمان، التي كانت تشهد في

---

37 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشلح.

ذلك العهد أوجَ مرحلة تصفية الحسابات مع المقاومة الفلسطينية. إذ إن المقاومة الفلسطينية قد تراجعت إلى بيروت بعد مجازر أيلول (شتنبر) الأسود. وبدأت تركز عملياتها في ميدان تهتم به أكثر وسائلُ الإعلام. إنه عالم الإرهاب[38].

زادت اتصالاتهم بفضل التزام بومعزة والفقيه البصري بقضيتهم. وسرعان ما مد الجناح العسكري في المقاومة الفلسطينية عملَه إلى خارج الشرق الأوسط. كانت هذه العمليات يُنظمها ويُنسقها بوضياء، وهو جزائري. وأما الرجل الذي سوف يصبح فيما بعد كارلوس الشهير عند وسائل الإعلام، فقد كان أحدَ الرجال الذين جندهم بوضياء. سوف يدفع بوضياء حياتَه ثمنا لالتزامه. فقد مات في عملية بالقنابل يوم 28 يونيو من سنة 1973 دبرها الموساد في باريس، أمام جامعة سانسيي.

وهاهو بنيحيى يتذكر زيارةً في خريف سنة 1972، إلى شقةٍ قرب شارع شان إليزي كانت تُستخدم محطةً لمهربي السلاح: "كان الفقيه البصريّ قد طلب مني أن أوفر بعض السلاح لبوضياء"[39]. ولكن العملية الوحيدة التي شارك التنظيم فيها هي إحراق محطةٍ لتكرير البترول في هولندا سنة 1972، وهي المحطة التي كانت المزود الرئيس لإسرائيل بالمحروقات.

وسوف يحكي أبو إياد، مؤسس منظمة "أيلول الأسود" الساعد العسكري لمنظمة ياسر عرفات "فتح" والذي رتب لعملية ميونيخ سنة 1972، حكايةً أخرى في مذكراته: عملية متصلة [بالأولى] خلال القمة العربية بالدار البيضاء لم يُكتب لها أن تنفذ حتى آخر مراحلها.

فحسب إبراهيم، كان محمود يُبدي اهتماما بتحديد حقل تدويل القضية وتقليصه حتى لا تتشتت الإمكانيات. وكان الفقيه البصري كذلك يفضل عدم الاستفادة من مساندة بعض الحكومات العربية التي كانت حتى ذلك الحين محايدة فيما يخص المسألة المغربية. ولكن بومعزة لم يكن يفكر في أن يتوقف عند هذا الحد. وفي دمشق أخذ كل منهما طريقه. وهاهو بومعزة يتذكر: "ما كدت أنا والفقيه البصري نصل إلى دمشق حتى أخبِرنا أن الشريف بالقاسم، وهو صاحب مَقامٍ في الجزائر، قد اتصل من باريس

---

38 لقد أثار استعمال كلمة "إرهابي" في الطبعة الفرنسية من هذا الكتاب انتقادات كثيرة. وأود أن أفسر سبب استعمالي لهذه الكلمة وذلك بالتذكير بادئ ذي بدء بمعنى الكلمة الأول. ف"الإرهاب" ينعت نوعا من الكفاح يلجأ إلى التخريب والقتل المحددَي الهدف. وغالبا ما تتبنى هذا النوع من الكفاح حركات مسلحة لا تملك الوسائل اللازمة لتدخل إما في "حرب تحرير" وإما في "حرب عصابات". وبالفعل، فإن "حرب التحرير" تستلزم موارد بشرية ووسائل مادية هامة. وأما "حرب العصابات"، فإنها تعتمد وسائل لوجيستيكية أخف ولكنها تتطلب استقلالية أكبر في العمل. ومن ثمة لا يمكنها أن تتحرك إلا على أرض تصعب على العدو مراقبتها. ونظرا لهذه الاكراهات، فإن المقاومة الفرنسية لجأت إلى الإرهاب ضد الغزاة الألمان خلال الحرب العالمية الثانية. ولجأ جيش التحرير الوطني إلى الإرهاب لمقاومة وجود الاستعمار الفرنسي في أفريقيا الشمالية. ويفسر نيلسون مانديلا، الذي حصل على جائزة نوبل للسلام، في مذكراته كيف تبنى هو ورفاقه، ابتداء من سنة 1954، هذا النوع من الكفاح لمواجهة النظام العنصري (أنظر كتاب مسير طويل نحو الحرية، مطبوعات أبانوس، 1994). وأنا أذْكُر هذه الأمثلة حتى أذَكِّر بأن هذا النوع من الكفاح "غير الشعبي"، بالمعنى التنظيمي والرمزي للكلمة، كان ميزةَ قضايا يعتبرها التاريخ قضايا "عادلة". إنها مفارقة لا يمكن أن نتجاهلها قراءة موضوعية للتاريخ. (المؤلف)

39 حوار للمؤلف مع محمد بنيحيى.

ويود ملاقاة الفقيه البصري. ومن البدهي أن بومدين قد سمع عن هذه الاتصالات التي تمت معي، وأنه قد بات مستعدا ليقدم له اقتراحا مضادا. شاوَرَني الفقيه البصري، فأجبته: " في هذه المرحلة، فهو أنفع لك مني[40]".

ويؤكد جواب بومعزة إحساسَ الفقيه البصري: فقد كان دائما يرى في الجزائر موقعا متقدما للثورة في المغرب.

فحَجَز تذكرة في أول طائرة متجهة إلى باريس.

الإذاعة الليبية

عند عودة إبراهيم من باريس في يناير من سنة 1972، كانت له أسباب ليكون راضيا عن نفسه. فقد كانت الفرقة الصغيرة التي استقرت في فيلا بشارع عاشور فرقةً فاعلة وعملية. وكان حسين المانوزي يشغل وظيفة مراقِب بالمطار في طرابلس، وهو نفسه مستخدم في المصلحة التقنية (بل إنه مكتب للإعلام) التابعة لوزارة البترول. ولئن كانت ليبيا قد تعرفت على مواقع آبار البترول، فإن وسائل استغلالها كانت لا تزال غير متطورة. كان إبراهيم يعمل مع فريق من الروس يتقنون الحديث باللغة الإنجليزية كما يتقن هو اللغة الروسية. وأما خالد فكان يعمل جاهدا على إنشاء معسكر للتدريب.

وعلى أمواج الإذاعة، بات إيقاع البرامج المبثوثة تجاه المغرب منتظما. أصبح اسمها الجديد هو صوت التحرير، وبفضلها بات التنظيم غير ملموس ولكنه أصبح حاضرا في كل مكان. كانت شعاراته تنتقل وكأنها أسلحة لا يمكن حجزها. الهدف منها هو إيقاظ الضمائر وتوجيه النداء إلى المنسيين والمغمورين بأن يأخذوا زمام الأمور.

كل يوم أربعاء وسبت على الساعة السابعة مساءً، كانت الأزقة والمقاهي في المدن المغربية الكبيرة تبدو فارغة مهجورة. إذ إن آذان المغاربة كانت تلتصق بأجهزة الراديو فلا تضيع شيئا من نشرات الأخبار التي تنفلت من قبضة الرقيب. فوسط مشهد إعلامي تحاصره رقابة شديدة، كان راديو ليبيا يبدو راديو حرا قبل الأوان. وللحد من تأثيره، حاولت وزارة الداخلية المغربية التشويش على أمواج بثه. بل إن فريقا أرسله أوفقير حاول وضع قنابل على برج الأسلاك الرئيسي للاتصالات في غرغاريش، وهو حي إقامة غربَ طرابلس، بهدف إيقاف البث. "وحدهم المغاربة أو الإسرائيليون كان بإمكانهم القيام بمثل هذه العملية التي كانت تحتاج إنزالا من البحر"، هذا ما يوضحه الهوني قبل أن يضيف ساخرا، و"إن الإنجاز غير المتقن للعملية يدل على أن الذين قاموا بتنفيذها هم مغاربة[41]". وبالفعل، فقد أصيب أسفلُ برج الأسلاك، ولكن الأسلاك التي تدعمه بقيت سالمة، فكان بالإمكان إصلاح الأعطاب بسرعة.

---

40 حوار للمؤلف مع البشير بومعزة.

41 حوار للمؤلف مع عبد المؤمن الهوني.

كانت محاولات أوفقير لإسكات صوت التحرير إذن محاولة غير موفقة وغير مجدية. فقد كانت تصل إلى طرابلس رسائل المستمعين بالمئات. ويتذكر إبراهيم ما كان يوظفه بعض المواطنين من ذكاء وبراعة من أجل ربط الاتصال بالراديو: فقد وُجهت رسالةٌ من المغرب إلى رقم 1270 بشارع سان جيرمان بباريس. اندهش مستخدم البريد من غرابة العنوان، ولاحظ تذكيرا صغيرا كُتِب على الظرف: راديو ليبيا. فوجه الرسالة إلى سفارة ليبيا التي سلمت الرسالة. وكانت رسائل أخرى تصل عبر إذاعة الب.ب.س. بلندن، إذ إن الزملاء يتعاونون فيما بينهم. وعلى العكس من ذلك، كان بعض المراسلين أسوء حظا. كما هو شأن هؤلاء الفلاحين الأربعة الأميين من بني ملال الذين حُكِم عليهم بالسجن ستة أشهر نافذة لأنهم لجؤوا إلى إمام مسجدهم ليكتب لهم رسالة يريدون توجيهها إلى راديو ليبيا.

وقد برأت محكمةُ مراكش، في شتنبر من سنة 1971، الأخَ الأصغر لحسين المانوزي، وهاهو يتذكر الساعات التي أمضاها في هيأة تحرير راديو-ليبيا: "كنت أتعاون مع خالد وإبراهيم، وأساهم على وجه الخصوص في وضع الافتتاحيات باللغة الأمازيغية. وغالبا ما كنت أقيم في فيلا ابن عاشور. وفي منزل آخر، كانت تتواجد أساسا الأطر العسكرية. رأيت محمود أول مرة في يونيو من سنة *1972*، بينما ذهب خالد إلى مصر وإبراهيم إلى أوروبا[42]".

وكما كان شأن آخرين قبله، فإنه اكتشف رجلا قليلَ الكلام كثيرَ الكتابة. وفي صيف سنة 1972، كان محمود قد أنهى تحليله وأتمه. فقد وقف على الشطط والترددات السالفة التي بددت الطاقات أكثر مما عبأتها وجمعتها. وسُلمت ثمرةُ هذا التفكير إلى راديو-ليبيا.: "حتى تصبح حركتنا قوية، من الأساسي أن تتلاقى دوافعنا وأفكارنا. يجب أن يفهم شعبُنا أن الطريق إلى الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد الذي بقي له لينعتق من الاستبداد والبؤس، في هذه اللحظة التي استُنفِذت فيها كل أشكال الكفاح الأخرى[43]".

اعتقال فاضل الناصري

مكن اعتقالُ مناضلٍ تكون في الزبداني، بمطار الدار البيضاء، يوم 14 يوليوز من سنة 1972، الشرطةَ من معرفة الطريق المؤدي إلى فاضل الناصري، وهو رجل اتصال بمحمود في وهران وفي الآن نفسه، بقياديي خلية في المغرب، النمري وأمدة من جهة، ودهكون من جهة أخرى. كان للخبر وقع الصاعقة وفاجأ الكل. إنه حدث عواقبُه مخيفة، إذ يصعب التكهن بها: فبإمكانها أن تقضي على العمل الصبور الدؤوب

42 حوار للمؤلف مع رشيد المانوزي.
43 افريقيا-آسيا، عدد 27، 1973/4/2، سيمون مالي، المغرب، حرب العصابات؟ ..

الذي شَرِع فيه منذ شهور. وبدأ شبح سلسلة الاعتقالات التي قضت على صفوف التنظيم سنتين قبل ذلك يحوم ثانية حول التنظيم. كان فاضل الناصري طالبا سابقا في الاقتصاد. تدرب في بغداد في الوقت نفسه الذي كان يتواجد بها خالد. فكانت الزيداني بالنسبة إليه الطريق الذي يجب المرور منه قبل عودته إلى المغرب: "لما عدت إلى الدار البيضاء في أكتوبر من سنة 1969، فتحتُ مدرسة حرة، مدرسة عبد الكريم الخطابي". كان بارعاً في فن الإخفاء والتخفي، فنجا من الاعتقالات حتى ذلك اليوم المشؤوم: "اعتُقلت بوجدة غداة افتراقي مع دهكون. كان علي أن أراه ثانية يوم 15 يوليوز[44]". وفي حملة الاعتقالات، اعتُقِل كذلك المناضل الذي خبأ مجموعة سيدي حمو بالرباط[45].

وهاهو مناضل سري كان يأوي النمري في ضواحي خنيفرة يجمع أشلاء ذكرياته: "أنذر حسين آيت زايد النمري باعتقال فاضل الناصري. وبما أنه كان الوسيط بيننا، فإن حسين آيت زايد أمرنا بالانتقال إلى الجبل. فلجأنا صحبة النمري وأمدة وعدة أفراد من قبيلة آيت خويا إلى أكلموس نعامي[46]".

وقد اقتيد فاضل الناصري، والأصفاد في يديه يُغطيه جلباب، يرافقه الحرس إلى خنيفرة ليتعرف على مخابئ التنظيم. وقد كان المُعتَقَل يتظاهر بالتعاون مع رجال الشرطة، فكان يتجول بالمحققين في جميع جهات المنطقة ويعمل بعناية على اجتناب الأماكن الحساسة. وسرعانٍ ما تحقق الهدف. فقد شاع عبر الجبال خبرٌ أن أمدة والنمري تبحث عنهما الشرطة، فأتيحت للرجلين الفرصة ليستبقا مطارِديهما. مكن حضور بديهة فاضل الناصري التنظيمَ من تفادي خسائر هذه الضربة.

التقت سُبُل النمري وسيدي حمو ودهكون، فارتبطت مصائرهم بكفاح لم يكشف حتى الآن عن كل أسراره. كان إيمانهم القوي الثابت بعدالة القضيةٍ هو مَعينهم الأساسي الذي يمدهم بالصبر والثبات، فتدربوا ، وهم يفيضون طاقةً، على فترة استشفاء ونقاهة تنظيم كان يجد صعوبةً في الخروج من فشله. ذلك أنه بالنسبة إلى أولئك الرجال، الذين لم يكونوا مبتدئين في الميدان، لم تكن التضحيات السالفة سوى مقدمةِ النصر الذي ينتظر القضية العادلة.

---

44 حوار للمؤلف مع فاضل الناصري.

45 اعتُبِر مُختفيا، وظهر ثانيةً سنة 1978، ليموت في بيته بسبب آثار التعذيب الذي عانى منه.

46 حوار للمؤلف مع أحمد بوبقبا.

الفيضان 1972

قدماء إعدادية النهضة

بعد يوم شاق، عاد عباس، واسمه الحقيقي مبارك بودرقة، إلى بيته في الرباط، بدايةَ شهر دجنبر من سنة 1971. إنه محام شاب متدرب عند الأستاذ عبد الرحيم بوعبيد. وهو ما يعني أن ملفات المحاكمات السياسية كانت تتهاطل على مكتبه ولا تترك له وقتا للراحة. ولما ظهر في زقاق منزله، وجد قرب باب العمارة التي يسكنها، رجلا قوي البنية، ينظر إليه مبتسما. كان هذا الرجل هو دهكون.

لقاؤهما الأخير يعود إلى نهاية سنة 1969. فقد كان عباس قد آواه مع بنيحيى، وهو يجهل حينها كل شيء عن أنشطتهما السرية. إذ لم يكن يرى فيهما في تلك الفترة سوى رفيقَي الدراسة السابقَين بمدرسة النهضة بسلا. وبعد وقت قليل، حُكم على دهكون غيابيا وأصبحت كل مصالح الشرطة المغربية تبحث عنه. ومن ألمانيا، كان عباس يتوصل بانتظام بأخبار عن صديقه. فقد كتب له بعد انقلاب الصخيرات: "سمعت أنكم عِشتم حفلا جميلا، وأنا آسف لأنني لم أحضر هذا الحفل".

منذ ذلك الوقت، والمغرب يعرف حالة غليان ولم يعد مكانا هادئا آمنا يلجأ إليه الثوار السريون. ولأن عباس بقي هو هو كما كان معروفا عنه منذ صغر سنه، ولأنه فرح بلقاء الرجل الشجاع النشيط الذي فارقه منذ بضع سنين، فإنه سرعان ما وجد بيتا صغيرا في الرباط يأوي صديقَه.

لم يكن عباس يبلغ من العمر سنة 1962 سوى 14 سنة، عندما التقى دهكون أولَ مرة، في إعدادية النهضة بسلا. كان دهكون، وأصله من جنوب المغرب كما هو شأن عباس، قد وصل حديثا. وهاهو عباس يتذكر: "كانت أسرته قد هربت من الزلزال الذي ضرب أغادير يوم *29* فبراير *1960*". وأما عباس فإنه قَدِم من مكناس، مدينتُه بالتبني. وسط هذه الصداقة الحماسية التي تربط بين أفراد هذه الحلقة الصغيرة، المُشَكلة من أبناء المقاومين، على ساحة إعدادية سلا، نضجت فكرة الكفاح المسلح نضجاً طبيعيا. سمع عباس مِراراً أباه يحكي عن مقاومة قريته الأصلية البطولية، وهي آخر قرية استسلمت للاحتلال الفرنسي، وأسرار الأحلام التي تلهب عقول

الأطفال لا يتقاسمها سوى رفاق المدرسة فيما بينهم لا غير. ولكن في هذه السنوات القاتمة، سرعان ما تحولت هذه الأسرار إلى أحلام بالثورة. ولهذا ليس من الصدفة أن يصبح العديد من رفاقه في اللعب بسلا، بعد عودتهم من تكوين عسكري في سوريا، حركيين سريين في التنظيم. هذا هو حال الجدايني، الرفيق الملازم لدهكون منذ أن وجد الواحد منهما عند الآخر قضيةً مشتركة[1].

وفي ليلة من ليالي الشتاء، تحدت المجموعةُ الصغيرة من تلاميذ الثانوي رطوبةَ شهر دجنبر لتجوب أزقة المدينة العتيقة بسلا التي كانت غارقة في الظلام، من أجل أن يكتبوا على جدران الأزقة شعارات مناهضة للمشاركة في الاستفتاء الدستوري. كان دهكون يبلغ من العمر 23 سنة، والجدايني 20 سنة، وهو 15 سنة بالكاد. كان دهكون والجدايني قد احتفلا بسخاء بنجاح مغامرتهما الليلية وكان صوتهما يعلو ويرتفع فأيقظ سكان الحي النائمين. وفي طرف الزقاق، التقى المناضلون الشباب الثلاثة وجها لوجه مع فرقة البوليس. ولكن، ولأن عباس لم يكن قد شرب من الشراب الذي أسكر رفيقيه، إذ إن صغر سنه كان يمنعه من ذلك، فقد أنقذ رفيقيه. إذ دخل في سرعة البرق زقاقا، فطارده رجال الشرطة. بدأت حينها مطاردة داخل أزقة المدينة العتيقة بسلا. وكان عباس قد أخذ معه لوازم النظافة ليتظاهر بأنه كان ذاهبا إلى الحمام العمومي في حالة اعتقاله. وصل إلى ساقية، ثم بعد أن نزع الثياب عن جذعه، مرر على بدنه الكثير من الصابون حتى يخفي آثار الصباغة التي كانت تغطي يديه ووجهه. ولما لحق به رجال الشرطة، سألوه إن كان قد رأى رجلا يجري. فأجاب، دون أن يرفع رأسه، مشيرا بمحض الصدفة إلى زقاق: "لقد مر من هناك".

بالنسبة إلى عباس، كان النشاط السياسي إذن جزءً من تعلم الحياة. فقد اكتشف السياسة، كما يكتشف آخرون الصداقة والحب وكل ما يسم دخول المراهق حياةَ الكبار الراشدين. كانت السياسة لعبة ممتعة، لأن فيها مخاطرة. وقد مكنت الصغيرَ عباس من أن يرقى إلى الصف الذي يطمح إليه الكبار وذلك في الوقت الذي كان فيه سنه يتأرجح بين الطفولة والمراهقة. عَلِم عن طريق أبيه، أن السياسة في المغرب تستدعي القمع. ولأن أباه كان مقاوما شديدا للاستعمار الفرنسي، ولأنه أصبح فيما بعد مناصرا لحزب الاستقلال قبل أن يلتحق بالاتحاد الوطني للقوات الشعبية، فإنه كان يُعتقَل بانتظام بسبب أنشطته. ولما كان عباس في ربيعه الخامس، زار أباه أول مرة في السجن صحبة عمه. كان يعتقد بأنه ذاهب إلى ذلك البيت الذي يوجد جنوب المغرب والذي طالما وصفه له أبوه. كانت التجربة مفيدة وما فتئت أن أصبحت له مثالا.

وجاء دوره في شهر يوليوز من سنة 1963، إذ اعتُقِل عباس في إطار موجة الاعتقالات التي اجتاحت البلاد، وذلك بينما كان يمضي عطلته وسط عائلته بالجنوب.

---

1 أنظر الفصل الأول.

عُذب أبوه عذابا عنيفا في مخفر الشرطة. في حين تعرض هو نفسه بانتظام لانتقام قائد السلطة ضربا. فأصبح عباس مناضلا بغريزة المقاومة.

بعد أن حصل عباس والجدايني على الباكالوريا سنة 1964. تابع عباس دراسته في الجزائر. وهناك تميز كعضو نشيط داخل الاتحاد الوطني لطلبة المغرب ومناضل مثابر داخل الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. ولما عاد من الجزائر من أجل أداء الخدمة العسكرية. ساهم سنة 1965. مع عمر بنجلون واليازغي. في إنشاء فرع للحزب بمكناس. مدينته بالتبني. ولما أنهى دراساته القانونية. أوصى به اليازغي عبدَ الرحيم بوعبيد الذي وظفه كمحام متدرب في مكتبه.

لم تكن زيارة دهكون لعباس من قبيل اللقاءات التي تجمع أصدقاء دراسة سابقين[2]. إذ منذ بضعة شهور. أعاد دهكون بتأن وصبر تنظيم خلايا الدار البيضاء والرباط من أجل وضع هيكل شبكة. مترددا بين شبه السرية والسرية المطلقة. كل شيء يدل على أن دهكون كان يحس بأن عباس سوف يلتحق بصفوف التنظيم. وبالنسبة إلى عباس. فإن المرور من المحكمة إلى العمل السري. لا يستلزم سوى خطوة واحدة. فقطعها عباس دون تردد. هل كان ذلك عن خبرة ودراية؟ لم يكن الأمر أكيدا.

فمنذ اعتقالات السنة السابقة. كان دهكون يعمل جاهدا على تجنيد أفراد جدد. ولهذا الغرض. نظم الخصاصي وبلقاضي شبكةً موازية داخل الاتحاد الوطني لطلبة المغرب.وخلال التجمعات. كانا يبثان الحماس في الأذهان من أجل الكشف عن المواهب الثورية. وكان الذين يَبدون عازمين مصممين يُرحلون بعد ذلك ليتم تكوينهم في الخارج. وعند عودة دهكون إلى المغرب. يوم 15 أكتوبر من سنة 1971. ووسط اندفاع النمري. نظم يوم 29 أكتوبر وهو اليوم ذو الدلالة الرمزية. يوم ذكرى اختطاف المهدي بن بركة. سلسلةً من العمليات ضد مخفرَي الدائرة الخامسة والثامنة بالدار البيضاء ومطبعة ماروك سوار (المغرب مساءً). وهي الجريدة التابعة لمجموعة ماس.

وهاهو عباس يقول لي بصوت هادئ. بعد مرور أزيد من ثلاثين سنةً: "لو كان علي أن أعيد ما فعلته من قبل. لفعلته ثانية". ومع ذلك. فإن عباس كان لا يزال يحتفظ في ذاكرته بعدم جدوى العمل السياسي. فهو قد عاش خلال دراسته بالجزائر العاصمة شللَ الجهاز السياسي والصراعات الداخلية وجو الشك العام: فقد كانت التقارير عن الخونة المفترضين كثيرةً عديدةً. ولا شك أن الحماس الذي تلا محاولة انقلاب الصخيرات قد بدد نهائيا تخوفاته.

كانت مهماته الأولى تقتصر على القيام بزيارات عديدة لسعيد بونعيلات وأحمد بنجلون في السجن. ومنذ سنة 1972. أصبح رجلَ الاتصال المفضل بين دهكون

2 لم يكن الجدايني والملياني ودهكون هم الوحيدين قدماء إعدادية النهضة بسلا الذين التقوا في معسكرات التدريب بسوريا. كان هناك كذلك: بنيجيى وتوفيق الإدريسي والصدقاوي والورادي (المخبر الواشي). وقد التحق مناضلون آخرون بالتنظيم لاحقا. كما هو شأن إبراهيم أوشلح. تمدرسوا هم كذلك بإعدادية النهضة.

والخارج. ويعترف عباس بأنه "أكثر من مرة، انتابني القلق من عمليات الذهاب والإياب التي كانت القيادةُ تطلب مني القيام بها". فقد كان من البديهي أن المحامي المتدرب، وهو يكثر من عمليات عبور الحدود مهددٌ بأن تنتبه إليه الشرطة التي ضاعفت من تيقظها[3]". ولأن عباس لم يكن سوى حلقة من حلقات سلسلة، فإنه وجد أمامه وابلا من أسئلة لا جواب عنها: "ما الذي كان يفعله دهكون في المغرب، في الوقت الذي كان فيه البحث عنه جاريا في كل البلد؟ هل للأمر علاقة بالانقلاب؟ ما هي الوسائل التي كانت بحوزته؟"

الكوموندو البحري

ويتذكر إبراهيم قائلا: "عند نهاية سنة 1971، وصل أربعة رجال إلى طرابلس، قادمين من دمشق. كل ما كنت أعرفه عنهم هو أنهم كانوا يشكلون فريقاً من النخبة تحت قيادة محمود. فطلب مني هذا الأخير أن أعزلَهم عن الباقين تواً وأن أعمل على أن لا يكون لهم أي اتصال بباقي المناضلين[4]". الرجالُ الأربعةُ الذين بعث بهم إبراهيم إلى بنغازي هم الملكي والنجار والصغير وسي إبراهيم. كلهم أطلقت سراحهم الشرطة الإسبانية، في الوقت نفسه الذي سُلم فيه سعيد بونعيلات وأحمد بنجلون إلى جلاديهما. وعند عودتهم إلى دمشق، وُضعوا في حالة "نوم" ليصبحوا طلبة كما ادعوا ذلك في مدريد. كان برنامج دراستهم يهم تعلم اللغات وكذا ممارسة الرياضة، وذلك بغية الحفاظ على سلامة الأبدان. ولكن سرعان ما واصل الرجال الأربعة طريقَهم إلى العراق، حاملين جوازات سفر دبلوماسية. كانت قبلتهم النهائية هي قاعدة بحرية سرية في البصرة. تلقى فيها الرجال الأربعة تدريبا خاصا لتلقن مهنة رجال الضفادع وكذا تكوينا في الميكانيك وصنع المتفجرات. وهاهو الملكي يتذكر: "في شهر غشت من سنة 1971، عدنا إلى بغداد، ومن ثمة التحقنا بدمشق سرا عبر بيروت حيث خُبِّئنا[5]".

كانت طبيعة تكوين هؤلاء الرجال وكذا عددهم المحدود يوحي بأنهم سوف يقومون بعملية مسلحة. فقد كان الفريق يتكون من مقاتلين مدربين على الحرب بعد أن تكَونوا في العديد من التداريب، من الجزائر إلى ليبيا مرورا بسوريا والعراق، دون احتساب تجربتهم في صفوف حرب العصابات داخل صفوف الفلسطينيين. كل هذا يدل على أن الرجال في مستوى عالٍ من الخبرة العسكرية. وهو المؤشر على الطابع الحساس للمهمة التي تنتظرهم.

إلى حد هذا اليوم ما زال السر قائما. إلا إذا كان الجواب يوجد عند بعض المصادر التي تقول، بعد وقوع ما وقع، إن المخابرات الجزائرية، كما يؤكد ذلك بعض رجال

---

3 حوار للمؤلف مع مبارك بودرقة، المعروف بعباس.
4 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشلح.
5 حوار للمؤلف مع عبد الله الملكي.

استعلامات التنظيم، هي التي قدمت المعلومات التي كانت وراء هذه المهمة فوق العادة: منذ انقلاب الصخيرات، كان الحسن الثاني قد أعَدّ من جديد قصرَه الصيفي ليمضي فيه أغلبَ وقته في إشارة إلى أنه يتحدى [الذين يريـ.ـون خلعه]. والحال أن الملك كان يمضي لياليه في المرسى، في أعالي بحار الصخيرات، عـى ظهر يخت وضعه رهن إشارته ملك العربية السعودية.

القيادة العليا الثورية

منذ بداية سنة 1972، كان محمود وعجول وبنيحيى وإبراهيم وأطر أخرى من التنظيم يلتقون، كلما سنحت بذلك الظروف، في بيتٍ صغيرٍ فوق سطحٍ في مونمارتر. كانوا جميعهم يشكلون نواة مهندسين ومثقفين تحولت تدريجيا إلى قيادة عليا حول الفقيه البصري. في ذلك الوقت، كان كل مَن غدا له إطار مهندسٍ، أو مدرس أو محامي، يعني أن بإمكانه أن يتمتع بالحظوة والنفوذ. وكثيرا ما كانت العناصر المكونة في جامعات أوروبا تُختار لتشارك داخل الأحزاب في تشكيل الحرس المقرب من الجهاز التنفيذي. كان هؤلاء الرجال يَظهَرون بمظهر الإدارة التقنوقراطية التي ليس لها من هَم سوى الفعالية. وبفضلهم، وصل التنظيم إلى مستوى من التدبير والتنظيم لم يسبق له أن بلغهما. فقد تغيرت المناهج والأسلوب. وأصبح العمل منهجيا مهنيا. وأما الأسلوب فقد أصبح ماركسيا. وسرعان ما كانت تُتَجاوَز نقط الاختلاف باللجوء إلى القرار الديمقراطي. ورغم أنهم قاموا بتحليلٍ نقدي للماضي، فإن المستقبل وحده كان يهمهم. وكانوا قليلي الاهتمام بالنزاعات البشرية، فلا يهتمون إلا بالحصيلة الفعلية.

ولهذا، انصاع الفقيه البصري، في شيء من اللامبالاة المصطنعة، إلى هذا الأسلوب الجديد. ذلك أنه ولا شك كان يرتاح أكثر في العمل مع عمالٍ مكتسبين إيديولوجيا أكثر مما يرتاح مع مثقفين يحسنون استعمال النقد الذاتي. إنها مراهنةُ مقاوم سابق على العودة، مقاومٌ تطبعه وطنية عربية اشتراكية غير واضحة. يعتبر أن التواطؤات التي اختُبرت زمنَ المقاومة ما زالت قائمة. ذلك أنه من الصعب التخلي عن العادات القديمة. ففي نظر الفقيه البصري، يبقى رفاقُه أيام المقاومة، سواء كانوا قد تقاعدوا أو التحقوا بجهاز الشرطة أو الجيش لخدمة الملك، يبقَون دائما حلفاء الأمس ويمكنهم أن يصبحوا ثانية حلفاء الغد. إنه ارتدادٌ إلى طِباع القدماء ستُغذي وتطعم منطقَ التآمر الذي سوف يُوجه بقية الأحداث توجيها صارما ...

كان محمود هو أول مَن فكر في تفضيل العمل الثوري الذي يلتحم من جديد حول مثال أعلى مشترك. ففي رسالته المؤرخة بـ 7 غشت من سنة 1971، كتب محمود: " (..) ولا يمكن الاعتماد فقط على الشعور أو السخط والاستياء ولا حتى الإرادة

إذ أن هذا كله لا يشكل مضمون مبدأ أو شعار. (..) إن ما يربطنا هو اتفاق عام وهو بذلك غامض. إن مجرد إثارة هذا الموضوع مع المناضل أو المسؤول من بيننا تثير جدالا حادا لاختلاف المفاهيم. وليس الغرض هو توحيد المفاهيم فحسب وإنما تزويد الجناح السياسي والجناح العسكري على الخصوص باستراتيجية محددة يلتزم بها الكل ويعمل على تحقيقها، تنظم مجهوداتنا وتوحدها وتجعل حدا للفوضى الفكرية والتنظيمية".

خمن محمود وجود اهتمامات أخرى وراء هذا الإهمال التنظيمي. ذلك أنه خلف ماطلات الفقيه البصري الجاهدة، لم يكن الرجل مبتدئا في عالم السياسة. وتبين التجربة أنه إن كان في سوريا قد فوض دون تردد تدبير التنظيم إلى محمود ورفاقه، فإنه لم يفعل الأمر نفسه مع الجهاز الذي كان يقود العمليات في المغرب. وقادت الضرورات التنظيمية محمود إلى التساؤل حول نمط إدارة التنظيم: "بناء على اقتناعي بأن التنظيم الثوري الحقيقي هو إلى جانب" انضباط أعمى" و" طاعة حديدية" فإنه أيضا متفتح لدرجة تسمح بنقل الأفكار والإبداع في تيار مزدوج من القمة إلى القاعدة ومن القاعدة إلى القمة وهذه إحدى الضمانات الأولية ليكون التنظيم طليعة فعلية للطبقة الكادحة يعيش واقعها، ويعيش في زمنه ويعيش مشاكله".

وحتى لا يساور الشك في ضرورة إعادة تشكيل إدارة التنظيم، فإنه يضيف: "وفي هذا الصدد، فإن الاعتماد على أفراد منعزلين ليقوموا بوضع ما تحتاج إليه الحركة من برامج وتخطيطات قد مورس وأظهر لنا من جملة ما أظهر أن المنتوج يكون دائما غير كاف ودون المطلوب. لذلك يجب اعتماد طريقة العمل الجماعي (..) لأن حركتنا قائمة على الولاء الشخصي في مختلف مستوياتها (..) وقائمة على سلسلة من الأساليب القديمة أغلبها من رواسب المجتمع الإقطاعي (..) وإن كنا نلتزم بما يحلو لنا ترديده في مناشيرنا من اعتماد التحليل العلمي فيجب عند تقديرنا لوضع من الأوضاع ووضع خطة من الخطط أن تنطلق من الواقع لا من الممكن. غير أن التحليل يبقى عندنا وهما وأسطورة وفي أحسن الأحوال حليا تتزين به حركتنا، ما دمنا نستعمل الصيغ المحفوظة نرددها كما هي، كباقي المنزلات السماوية، تكون في أحسن الأحوال قادرة على إبراز أهداف عامة وبصفة تقريبية. وأخطر من هذا ترك المغالطات تروج بين صفوفنا بل وإثارتها".

ويؤكد محمود في الخاتمة: "مع علمي بأن النقد ضرورة تكوينية وتربوية".

إنها نبرة مجددة في سياق المرحلة، الذي كان لا يزال موسوما بطرق المقاومة المتسرعة وانضباط إيديولوجي يُستعمل حجة لممارسات سلطوية.

ومع ذلك، فبينما كان هو يحلم بالتغيير، كان الحزب لا يزال، سنة 1972، في قبضة الماضي الذي يهمل الحديث عن الواقع الحاضر وإمكانيات المستقبل. ولأن الحزب لم يزود نفسه بوسائل تعبئة الجماهير من أجل نصرة كفاحه، فإن العديد من الهيآت المسيرة للحزب لم تكن ترى من بديل سوى التنازل عن المبادرة لفائدة الجيش.

كان آيت قدور، بعد أن تجاوز الثلاثين من عمره، سنة 1972، رجلا مكتملا. فقد حصل على دبلوم مهندس الأشغال العمومية، وهو يشغل منصب مدير ميناء آسفي. بيد أنه، كان كذلك مناضلا متمرسا محنكا. فبعد أن ترقى مراتبَ الحزب، التقى المهدي بن بركة في باريس، في الوقت الذي كان فيه كاتبا للفرع المحلي للاتحاد الوطني للقوات الشعبية. هناك، كان آيت قدور يلتقي أطرا شابة كان ينتظرها مستقبل زاهر متنوع: مناصب وزراء وسفراء ومفكرين ورجال أعمال. وقد أدهشه وضوح تحاليل المهدي بن بركة، وهو يلاقي مَعْلَمات أكاديمية وفكرية كما هو شأن جاك بيرك وروني ديمون. كان آيت قدور بارعا في تحليل مسألة إجلاء الاستعمار والإصلاح الفلاحي.

كان آيت قدور يعيش مباشرةً التضامن مع الشعب الجزائري الذي كان حينها يكافح، و يشهد كذلك تجاوزات الشرطة الفرنسية. وقد مكنه سفره إلى الجزائر بعد تحريرها من اكتشاف منفى المسيرين وخضم النزاعات والمنافسات. ثم جاء دوره في القمع والتعذيب والسجن. فدخل آيت قدور بذلك مجال القتال لأول مرة. ومنذ ذلك الحين، تغيرت أمورٌ كثيرة. فقد لاحظ من بعيد فشل محاولة قيام حرب العصابات سنة 1969. ومن بعيد كذلك، شهد محاولةً انقلاب اعبابو الفاشلة وهو الذي كان رفيقه في إعدادية آزرو. ومن بعيد دائما، شهد بنهيمة، الوزير الوصي عليه سابقا، يصبح وزيرا للداخلية.

وتدريجيا، تزايدت عمليات ذهاب وإياب آيت قدور إلى الخارج. ففي دجنبر من سنة 1971، زار بروكسيل من أجل مشروع لبناء جرافات في الميناء البحري. ثم سافر مرتين كذلك، في شهر أبريل وشهر يونيو من سنة 1972، في رحلتين لم تكن لهما سوى علاقة بعيدة بمشروع الميناء. وأما الذي سلمه جوازَ سفره فهو الجنرال حسني بنسليمان. هل هو تواطؤ أم جهل؟ وهاهو الرئيس البارز لعيادة القنيطرة، عمر الخطابي، والذي لا يمكن اتهامه بحب الأكاذيب، يصرح: "أنا الذي اتصلت بالجنرال حسني بنسليمان، الذي كان حينها عاملا على القنيطرة، لأطلب منه إرسال جواز سفر آيت قدور. وكان العقيد (الكولونيل) أمقران، الذي أنذرته اتصالات آيت قدور الكثيرة بضباط الشرطة، قد ارتأى بأن هذا الأخير يثير الشكوك أكثر من اللازم. وبما أنه اعتبره عنصرا يكمن فيه خطر، فإنه أسر إلي نيته في تصفيته. وبما أن الجنرال بنسليمان كان صديقا شخصيا، فإنني تدخلت عنده لأطلب منه تسهيل رجيل آيت قدور[6]".

وصل آيت قدور يوم الثلاثاء 4 يوليوز من سنة 1972 إلى فرنسا. وهاهو يوضح: "واصلت الطريق يوم الجمعة 7 يوليوز إلى ألمانيا لألتقي هنالك بالعقيد (الكولونيل)

6 حوار للمؤلف مع عمر الخطابي.

أمقران والفقيه البصري[7]". وهكذا فإن الرجلين التقيا بفضل موعد رتبه لهما آيت قدور. لم تكن المبادرة أبدا مبادرة معزولة، إذ إن اللقاء جاء بعد أن قام وسيط باتصال بين قيادة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية و ... أوفقير.

وبعد وقوع ما وقع، فإن الأسباب التي تفسر الدوافع الانقلابية لأوفقير هي تعذيب رفاقه الذين أعدموا بعد انقلاب الصخيرات الفاشل والصعود القوي للدليمي واكتشافه، ولو متأخرا، أن النظامَ نظامٌ مختلِس مبتز. وبعد اتصالات سرية عديدة، حصل أوفقير على الضوء الأخضر من المخابرات الفرنسية والأمريكية[8].

ولا شك أنه عندما بادر كذلك إلى إخبار قيادة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية كان غرضه أن يصبح بإمكانه التصرف بحُرية. فقد أرسل ضابطا يُدعى القبطان بوجمعة، إلى فرنسا حاملا رسالة إلى الفقيه البصري وعبد الرحمن اليوسفي، وذلك شهرَين قبل الانقلاب. كان الرجل قريبا من أقارب المِيد، قائد شبكة رجال العبور الذي تعاون مع أحمد بنجلون بمليلية. وقد مكن تدخله من تسهيل مأمورية الوسيط.

ولكن هذا الاتصال الأخير تسبب داخل الكواليس في ظهور سيناريو ثان. فقد عزم أعضاءُ قيادة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية الرئيسيون على أن يضربوا عصفورين بحجر واحد. وهكذا وُلد مشروع انقلاب مزدوج الزناد: أن يُترَك أوفقير يتكلف بالملك، ثم، يُصَفى أوفقير، وهو الروح اللعينة لنظام ساهم في إقامته على جثت رفاقه. ولما وصل آيت قدور، يوم 7 يوليوز، إلى ألمانيا صحبة الفقيه البصري وأخيه حسن، كان ذلك من أجل ضبط حبكة وسيناريو العملية.

بدا أن العقيد (الكولونيل) أمقران والفقيه البصري متفقان متفاهمان. إذ إن كان الفقيه البصري يرى أن من الحكمة، بل من الضروري، الاعتماد على مساعدة الجيش للتحكم في محاور البلد الحيوية والحساسة، فإنه كان متحفظا فيما يخص قدرة أمقران على تصفية الملك. كان يرى أن العملية بالغة الحساسية، ومن ثمة وجب عدم إسنادها إلى جنود محترفين يحترمون أوامر رؤسائهم أكثر مما يحترمون مُثُلا سياسية عليا. وهو يحتفظ في ذاكرته بتفاصيل فشل انقلاب الصخيرات، قبل سنة من ذلك، وهو الفشل الذي كان يرجع إلى تطبيقٍ رافقته الصدفةُ وإلى تدبير غير منظم في الوقت نفسه، وكذا وعلى وجه الخصوصٍ إلى جيوش لم يكن التحكم فيها تاما: فقد تراجع الجنود التلاميذ في اللحظة التي كان فيها الحسن الثاني على مرمىً من بنادقهم. عِوض جنود أمقران، كان الفقيه البصري يفضل رجالَه هو، وهم مناضلون اكتسبتهم القضية الثورية ومستعدون للتضحية بأنفسهم. على الجيش

---

7 حوار للمؤلف مع محمد آيت قدور. وهناك خواتم على جواز السفر تشهد بصحة التواريخ.

8 حسب ستيفن سميث، فإن أوفقير قد أخبر الأوائل خلال وجبة غذاء رفقة ألكسندر دوماروشيس، المسؤول الكبير عن SDECE، بلندن. ورغم أن لا وجود لأثر، حتى يومنا هذا، للمفاوضات مع المخابرات الأمريكية، فإن كون القاعدة الأمريكية في القنيطرة استُعمِلت كمركز لقيادة الانقلابيين يشهد على مواقفهم. أوفقير، مصير مغربي ،منشورات كالمان ليفي، 1999.

إذن أن يسلم الحسن الثاني إلى رجاله، الذين سيتكلفون بالباقي. ويؤكد إبراهيم: "وُضِع مشروع تعطيل الطائرة المروحية الملكية. وحالما تنزل المروحية على الأرض هبوطا اضطراريا في مكان محدد مسبقا، يتكلف فريقٌ بالملك. كانت كلمة السر للعملية هي: الفيضان[9]".

هل كانت هذه هي المهمة السرية التي تكلف بها الكوموندو البحري[10]؟

ومع ذلك فلا شيء يدل على أن التواطؤ بين الفقيه البصري وآيت قدور من جهة، والعقيد (الكولونيل) أمقران من جهة أخرى قد أفضى حقيقةً إلى برنامج عمل متفق عليه. بل إن آيت قدور يرفض الأمر قائلا: "كان أمقران مريضا، وخلال فترة نقاهته في بادن بادن، أصبح الرجل منهوك القوى ويعرف أن أيامه قد باتت معدودة. كان يتنقل متكئا على عكازه. كيف يمكن، وحالته هاته، أن يفكر في تزعم مؤامرة وقيادتها ؟[11]" ويتوقف آيت قدور قليلا قبل أن ينهي كلامه بخاتمة لن يعود إليها ثانيةً: "لقد زُج بأمقران في عملية لم تكن عمليته وعلاقاتنا كانت علاقة صداقة محضة[12]".

وعند عودة آيت قدور من المنفى بعد مرور عدة سنوات، أعاد القصة نفسها على رجال الشرطة الذين أَتَوا لاستنطاقه. ورغم أنه تردد بعض التردد في الحوار الثاني، فإن هذه الشهادة باتت بالنسبة إليه الروايةَ الرسمية. وفي سيرة ستيفن سميث عن أوفقير[13]، تحدث، دون أن يركز على الأمر، عن عقيدٍ (كولونيل) هو أمقران أنقذه أوفقير من التصفية وأصبح حليفا في مشروع الانقلابٍ بعد أن تردد كثيرا. ويبدو أن بعض اليقين ينجلي من هذه الظنون والشكوك. فإن كان أوفقير هو الرجل الذي تكلف بتصفية الحسن الثاني، فإن أمقران كان في نظر الفقيه البصري هو الرجل الذي عليه تصفية أوفقير.

كان الدكتور عمرالخطابي، وهو ابن أخ البطل التاريخي عبد الكريم، ومن ثمة فهو ريفي الأصل كما هو شأن العقيد أمقران. كان معروفا بكونه يعادي الملكية دون أن تكون له انتماءات حزبية. كلفه العقيدُ أمقران بربط الاتصالات السياسية لإعداد مرحلة ما بعد الحسن الثاني. ويؤكد عمر الخطابي بأن أوفقير، إن كان الوصي على الانقلاب فإنه لم يكن هو المحرض عليه. وقد كان الهدف الأخير للعقيد أمقران هو

---

9 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشلح.

10 تتضمن شهادة المهتدي، أحد أعوان دهكون، وحسب محضر محكمة القنيطرة، أمراً مُحيراً إن اعتبرنا أن السجناء يفضلون حصر تصريحاتهم فيما نعرفه السلطة مسبقا: في يوليوز من سنة 1972، أي شهرا قبل الانقلاب، أرسل الميد رسولا إلى دهكون يطلب منه الذهاب إلى الرباط من أجل التعرف على محيط بناياتٍ تأوي المقر العام للقيادة العليا للقوات المسلحة الملكية. المصدر: قرار المحكمة العسكرية بالقنيطرة، رقم 8754/1748.

11 حسب شهادة الدكتور الخطابي، الذي اعتُقِل وحُوكِم بسبب علاقاته مع أمقران والكويرة، وهما منفذا انقلاب 16 غشت من سنة 1972 والذي كان طبيبَهما، فإن أمقران كان يعاني من مرض في الكلي لا يُشفى، وكان يعلم، منذ سنة 1972، أن أيامه أصبحت معدودة. بل وخلال إقامته في المستشفى في يونيو من سنة 1972 بفرنسا، كان حسب طبيبه، في حالة موت سريري. تقارير صحافية.

12 حوار للمؤلف مع محمد آيت قدور.

13 <u>أوفقير، مصير مغربي</u>، منشورات كالمان ليفي، 1999.

تصفية الحسن الثاني وكذا أوفقير نفسه. وأما فيما يخص عملية اتفق عليها العقيد أمقران والفقيه البصري، فإن عمر الخطابي يبدو جازما في رأيه: "كان الفقيه البصري على علم بالأمور التي يتم الإعداد لها، كما كان شأن زعماء آخرين لأحزاب سياسية، ولكنه لم يساهم في شيء في الإعداد للأمر[14]".

وهاهو مقطعٌ يحكيه إبراهيم يرفع جانباً آخر من الحجاب الذي يلف المسألة. ففي يوليوز من سنة 1972، التقى الفقيهَ البصري في باريس، بمحطة القطار الشرقية. عَبَر الرجلان شارع ستراسبورغ ذات صباح صيفي جميل وهادئ ومُشمس. كان على إبراهيم أن يرحل إلى طرابلس في اليوم الموالي. أخذ يُعَدد المشاكل التنظيمية التي لاقاها في ليبيا واحدةً تلو أخرى. ولكن الفقيه البصري لم يكن يصغي تمام الإصغاء إلى المشاكل التي تقلق إبراهيم. كان فكره شاردا. ولما أحس بأن إبراهيم قد انتهى من حديثه، أخبره بأن هناك انقلابا يتم الإعداد له في المغرب. وهو قد أخبر إبراهيم بالسر، لأن الليبيين يعلمون به كذلك. ولما سأل إبراهيم عن مدبري الانقلاب، نطق الفقيه البصري باسم أوفقير. كان الرد عفويا، عاريا من التعابير الملائمة التي يكون القصد منها عادةً هو تلطيف إحساس بعدم تصديق ما قيل أو عداءُ شخصٍ غير متقبل للأمور. ذلك أن الفقيه البصري، وكما هو شأن قادة الحزب، لم يكن يرى من الضروري تبرير الأوامر التي تُعطَى للمناضلين الذين من المفروض فيهم أن يتميزوا بالخصلة الأولى وهي التفاني الذي لا يساوره الشك. بقي إبراهيم مبهورا مندهشا. فإن كانت لا تزال بعض الأوهام تسكنه، فإن كلام الفقيه البصري قد زعزعها إلى الأبد.

ولما رجع الفقيه البصري من ألمانيا حيث ودع العقيد أمقران، كان قد عقد عشية ذلك اليوم اجتماعاً لقيادته العليا في باريس. وهاهو إبراهيم يوضح: "كنت قد حضرت اجتماعا في مونمارتر. كان الهدف من هذا الاجتماع هو تعبئة القيادات العليا السياسية في أفق حدوث الانقلاب. ولكنني كنت أجهل تفاصيل العملية[15]". كل شيء يدل إذن على أن القيادة العليا للتنظيم، إن كانت تعلم بالسر فإنها لم تكن تساند مشروع الانقلاب. هل وافق عليه محمود؟ مَن يعرف إيمانَه الثوري، يمكنه أن يشك في الأمر. فقد اعتاد أن يردد للمقربين منه: "إن قصدنا ليس هو قطع بضعة رؤوس، ولكن قصدنا هو تحقيق الثورة[16]". ومن ثمة، فإن أي تواطؤ مع أوفقير ولو كان تكتيكيا، لا يمكن أن يوافق عليه محمود إلا بصعوبة بالغة. فقد كان الرجل في نظره يجسد منتوجا استعماريا من الدرجة الثانية، ويجسد في الآن نفسه جلادا. وقبل ذلك، وغداة أول انقلاب عسكري، حذر محمود من خطر "استبدال نظام فاسد بآخر".

---

14 حوار للمؤلف مع عمر الخطابي. سوف يعترف في المحاكمة بالقنيطرة بأن الفقيه البصري كان قد قدمه له آيت قدور في القاهرة. ولربما سُلمت وثيقة إلى أمقران من اجل تسليمها إلى اوفقير، بغرض التحضير للقاء به. وهو يُذّكر بأن أمقران كان قد جُرح في الصخيرات وأنه أصيب بصدمة نفسية وأنه يرى أن أوفقير قد استطاع إرجاع الثقة إلى صفوف الجيش.

15 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشلح.

16 حوار للمؤلف مع حميد بن عمار.

ويوم 30 يوليوز من سنة 1972، اجتمع أعضاء الحزب الأشد عزماً في لجنة صغيرة في الرباط. حضر الاجتماعَ عمر بنجلون وعبد الرحيم بوعبيد واليازغي والخصاصي. هل كان الغرض هو تنقية الحزب بإزاحة الزعماء القدماء قبل إطلاق أول رصاصة؟ إن السياق المشحون في تلك الفترة يسبغ على هذا الاجتماع أجواءَ لجنة للإنقاذ العام، والتي سُميت نظرا لغياب تسمية أفضل "الاتحاد الوطني للقوات الشعبية-اللجنة المركزية". سوف يتولد عنها بعد مرور الوقت الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية[17]. ساند هذا الديوان المصغر مبادرة التنظيم المسلحة وهو يواصل تعزيز الصورة المطَمئنة لحزبٍ إصلاحي ودستوري. وأمام الطريق السياسي المسدود الذي ما فتئ يتجه نحو خطر مجابهة عسكرية، بات التنظيم، وهو المكون السري للحزب، يجسد الجناح المتحرك الذي من المفروض فيه أن يأتي بالتغيير.

ولئن كان الفقيه البصري يدعي بأنه هو صاحب المبادرة، فإن عبد الرحمن اليوسفي وعبد الرحيم بوعبيد، ورغم أنهما يحتاطان فيما يخص الأمور العسكرية، لا ينكران أبوتهما السياسية لهذه المبادرة. وقد قال عبد الرحمن اليوسفي لإبراهيم الذي كان يتحادث معه يوما في مشاكل التسلح قولا معبرا: "لا يهمني الكسكس، ما يهمني هو الخضر التي تتوج الطبق![18]".

الأربعاء 16 غشت من سنة 1972

حوالي الساعة الرابعة بعد الزوال، تعرضت طائرة بوينغ 727، التي كانت عائدة بالحسن الثاني وحاشيته إلى الرباط بعد زيارة إلى فرنسا، تعرضت لإطلاق النار من قبل طائرات مطاردة فـ5 نورثروب ظهرت فجأة في الأفق فوق سماء تطوان بمجرد ما دخلت الطائرة الفضاء الجوي المغربي. وبعد هبوط طائرة البوينغ هبوطا اضطراريا في مطار الرباط، أقلعت طائرات أخرى من قاعدة القنيطرة واتجهت إلى مطار الرباط، حيث قصفت القاعدة الشرقية وأطلقت قنابل على القصر الملكي. وقد التَقط القائد (كومندان) كويرة، الذي كان يقود سربَ الطائرات في عرض مياه الرباط. وأما العقيد أمقران، والذي كان يقود العمليات من برج المراقبة بالقاعدة العسكرية بالقنيطرة، فقد قفز داخل طائرةٍ مروحية صحبة الملازم الأول (ليوتنان) الميداوي، ولجأ إلى جبل طارق. وفي اليوم الموالي، أعلنت الإذاعة انتحار الجنرال أوفقير، وزير الدفاع ورئيس القيادة العليا للقوات المسلحة الملكية.

---

[17] في هذه اللحظة، انقسم الاتحاد الوطني للقوات الشعبية إلى قسمين، فرعٌ في الدار البيضاء يقوده عبد الله إبراهيم ومحجوب بن الصديق، الكاتب العام للاتحاد المغربي للشغل، وفرع الرباط، يقوده عبد الرحيم بوعبيد. وكان الفرعان يتهم الواحد منهما الآخرَ بالخيانة.

[18] [وهو ما معناه: إني أترك لك مسألة اختيار الوصفة، المهم عندي هو أن يكون الطبق موفقا]

وهكذا فشل الانقلاب الثاني بفعل تظافرٍ مدهش للظروف. وهو الأمر الذي أسال بعد ذلك مدادا كثيرا. أرادت الرواية شبه الرسمية أن يكون العقيد أمقران هو الذي وَشَى بأوفقير. مباشرة بعد دخوله جبل طارق. وهو السيناريو الممكن إن تذكرنا تواطؤه المفترض مع الفقيه البصري. وكما كان شأن احمد بنجلون وسعيد بونعيلات سنة 1970، فإن العقيد أمقران والملازم الأول الميداوي سوف يُسَلمان إلى جلاديهما. وفي هذه المرة. كان الداعي هو المصلحة العليا البريطانية بدل الإسبانية.

وأما القصر. فقد شك من جهته شكا كبيرا في طبيعة الانقلاب الثاني. عُذب العقيد أمقران طيلة ليال لتُنتَزع منه اعترافات عن تواطئه مع الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. وخاصة مع اليازغي وعمر بنجلون. ومن باب الوفاء بعد الموت. حاول العقيد أمقران تحذيرهما بواسطة المحامين لحظات قبل أن يسقط تحت رصاص الإعدام يوم 13 يناير من سنة 1973. صادف الأمر. ولكّن دون أن يكون ذلك مجرد مصادفة. تعرض اليازغي وعمر بنجلون في اليوم نفسه لمحاولة اغتيال بواسطة طرد ملغوم.

الإدارة برأسين

بعد فشل الانقلاب الثاني. تخندق كل واحد وراء مواقفه. بين "الخط الإصلاحي". الذي كان ينتمي إليه عبد الرحيم بوعبيد. و"الخط الثوري". الذي كان ينادي به الفقيه البصري. بين هذا وذاك. كان الاتحاد الوطني للقوات الشعبية يبحث عن طريقه. كان تكتيك عبد الرحيم بوعبيد هو التلويح بشبح انتفاضة مسلحة من أجل تليين موقف القصر ودفعه إلى القبول باتفاق سياسي. وفي هذا الحين. كان الفقيه البصري. كما هو شأن دوغول في المنفى عندما نادى بعدم التعاون مع العدو. يراهن على تزايد القمع الذي سوف يغذي في الآن نفسه نزيف المناضلين ويخصب ضمائرهم الثورية.

فكما كان دوغول يملك موجته الإذاعية. كان الفقيه البصري كذلك يملك موجته الإذاعية. وفي هذا الجو الذي تزايد فيه التوتر. سرعان ما أصبحت هذه الموجة حجرَ الزاوية. فالقصر. بعد أن أخذ العِبر من فشل الانقلاب الثاني. دعا عبد الرحيم بوعبيد إلى التفاوض. فبدأت فكرة حكومة اتحاد وطني تختمر. زد على ذلك . أن إدارة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بدأت في إدخال شباب الحزب إلى الساحة والاحتفاظ في الصفوف الخلفية بالقدماء. والحال أن هذه المناورة لم تكن تفيد في شيء نوايا الفقيه البصري.

وفي شتنبر من سنة 1972. كتب صحافي راديو ليبيا من طرابلس افتتاحية حارقة ضد عبد الرحيم بوعبيد. ووافق إبراهيم الذي كان حينها في أوروبا على الأمر. ولم يكن ذلك ليُرضي عبد الرحمن اليوسفي. المسؤول عن العلاقات الدولية للحزب.

والذي كان المؤهل بهذه الصفة للتقرير فيما يخص خط الافتتاحية على أمواج راديو ليبيا. وبعد أسبوع من ذلك، استدعى الكل إلى طرابلس. لم يُبْدِ الفقيه البصري ومحمود وإبراهيم وصاحب النقد اللاذع الندم على ما قاموا به رغم تأنيب عبد الرحمن اليوسفي. أحس محمود بالغضب ينتابه، فوقف وقال لعبد الرحمن اليوسفي:

— في جميع الحالات . ليس أحمد (وهو لقب إبراهيم) الذي أعطى الأوامر بالتعرض لعبد الرحيم بوعبيد[19]".

وكان عبد الرحمن اليوسفي ينتظر هذه اللحظة، فقال بهدوئه الاعتيادي:

— بالنسبة إلي، ليس هناك سوى مسؤول واحد عن راديو ليبيا، وهو بنونة (الاسم العائلي المستعار لإبراهيم)".

ولكن لا شيء بسيط في المغرب. وسوف تقدم تصريحات عبد الرحيم بوعبيد أمام محكمة القنيطرة، بعد سنة من ذلك[20]، إنارة جديدة لطبيعة تلك المصالحات السرية مع الحسن الثاني. فقد رد على القاضي الذي كان يؤاخذ بعض المتهمين على مجرد اتصالهم بالفقيه البصري، بأن الحسن الثاني نفسه كان يتفاوض مع الفقيه البصري بوساطة منه[21].

أكتوبر من سنة 1972: تدريب في ليبيا

ومع توافر الظروف، أُقيم معسكر للتدريب في ليبيا بدايةَ خريف سنة 1972. تتابعت بانتظام أفواجُ عديدة من مجموعات المناضلين تتكون مِنْ خمسةِ إلى عشرةِ أعضاء، منهم من استقطبتهم الخلايا السرية ومنهم مَن اجتذبتهم أمواج راديو ليبيا. كانوا يأتون من أوروبا ومن الجزائر ومن الشرق الأوسط ومن المغرب. كانوا في أغلبيتهم عمالا مهاجرين وطلبة، بل إن ابراهيم يتذكر سينمائيا كان من بينهم، وطبعا كان من بينهم كذلك رجال البوليس. ويتذكر إبراهيم أن "الطلبة كانوا على وجه العموم طوباويين يريدون الشروع في العمل على وجه السرعة، في حين كان المناضلون واللاجؤون في الغالب يعصون الأوامر[22]". فإن كان عبد الغني بوستة طالبا سابقا في غرنوبل، ثم أصبح مهندسا في الآلية الصناعية، غادر منصبه كمدير لسدود جنوب

---

19 حوار للمؤلف مع ابراهيم أُوشلح.

20 فقد قال في مرافعة سوف تحتفظ بها كتب التاريخ بالمغرب إن "الملك كان يفكر في العفو عن الفقيه البصري والسماح بعودته إلى المغرب سنة 1971 و1972". ويتحدث بوعبيد عن خيبة الأمل التي تولدت عن فشل هذه المفاوضات واختطاف المهدي بن بركة والعراقيل السياسية واليأس الذي تولد عن القمع. فبالنسبة إليه، كان العنف-المضاد رد فعل شرعيا. ومع ذلك فهو يُدين العنف-المضاد. كما يُدين التدخلات الخارجية ويؤكد بأن الحزب يجب أن يتخذ موقفا، خلال مؤتمر، فيما يخص مصيّر الفقيه البصري. وصرح كذلك بأنه مستعد للمشاركة في الحكومة من أجل الإعداد لانتخابات حرة ونزيهة، وملكية دستورية وديمقراطية حقيقية. لوموند (العالم)، 9 غشت 1973.

21 أنظر جيل بيرو، صديقنا الملك،منشورات غاليمار، 1985.

22 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشلح.

المغرب ليلتحق بصفوف الثوار، فإن العديد من المناضلين الآخرين تخلوا كذلك عن متابعة دراستهم ليلتحقوا بصفوف الكفاح المسلح. وهذا إلى درجة أن النوايا الحسنة لم تكن دائما مصحوبة بكفاءات حقيقية. فوسط اندفاعهم الحماسي، تسرع العديد منهم بعض التسرع عندما حولوا حبهم للعدالة إلى موهبة ثورية. لقد كانت ثورتهم صادقة ولكن تكوينهم كان يحتاج إلى أن يُشحذ أكثر.

كان على خالد أن يصنع من هؤلاء الرجال، الذين كانوا يميلون إلى البطولة أكثر مما يميلون إلى الانضباط، أطرا مناضلة فعالة وجديرة بالثقة، يعوض وعيُها السياسي ودرايتها العسكرية الأوهامَ الشاعرية الأولى. ويقول إبراهيم، الذي أطلق عليه المناضلون لقب كولومبو في إحالة إلى شَعْره الأشعث وإلى معطفه المدعوك الذي لا يفارقه: "كان الكتمان فيما يخص الهوية مطلقاً وقلما كنت أعرف الهوية الحقيقية للمناضلين". ويواصل قائلا: " ولكن كان هناك اتفاق ضمني فيما يخص المسائل الإيديولوجية". إنه تعبير ملطف، إذ إن المناضلين المتدربين يجمعون على هدف واحد مشترك: الإطاحة بالنظام الملكي. وأما فيما يخص الباقي، فإن إبراهيم كان يجد نفسه أمام مسائل حساسة، ولكنها كانت تدل على ظروف العيش التي تتصف بها إقامة المناضلين، كما هو شأن تعايش عناصر تصوم شهر رمضان وأخرى لا تصوم.

ويوضح خالد بأن "التدريب بدأ في السواني، وهو معسكر أعد في غابة تبعد مسافةَ ثلاثين كيلومترا عن طرابلس[23]". وكان التكوين يدوم ما بين 45 و50 يوما، يتم خلالها تعلم التقنيات التي وُضعت في سوريا والتي جُربت منذ ذلك الحين على أرض الواقع. والحاصل هو أن مائتي مناضل كانوا يتدربون على حرب العصابات في ليبيا تحت قيادة خالد.

كان الليبيون يزودون بالسلاح والمال، ولكن مساعدتهم هاته، رغم أنها كانت ثمينة، فإنها لم تكن مُسرفة مُفرطة: 17 جنيها (أي حوالي خمسين دولارا، في ذلك العهد) لليوم الواحد ولحوالي عشرة مقاتلين. تنضاف إليها مساعدات إضافية، منها عربات نقل أو تذاكر طائرة. في ذلك العهد، لم تكن ليبيا قد وضعت يدها على جميع آبار البترول التي سوف تُمول بعد ذلك نزعة مسيرها الانعزالية الحساسة. وكانت مختلف القنوات الثورية الدولية، وخاصة منها قناة الفلسطينيين، تشكل مصدرا آخر لتمويل التنظيم.

وهكذا ساهم الدعم اللوجستيكي والمالي الذي سهرت عليه الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ومنظمة ياسر عرفات فتح، ساهم بنصيب وافر في تعزيز مصاريف التنظيم. وأما السلاح، فإنه كان هو نفسُه الذي يُستعمل في سوريا، ولكن بعد أن

---

23 حوار صحفي مع محمد التوزاني، المعروف بخالد.

عرف بعض التحسينات. وأحيانا، كانت بعض الآلات البالغة التطور، كما هو شأن الرشاش ستيرن المزود بكاتم للصوت، تثير إعجاب المدعوين عندما يحل مساءٌ لا يكفي فيه التحليل الإيديولوجي لِيبقى تركيزُهم متنبها.

نقل الأسلحة

في المغرب بدأ قياديو خلايا التنظيم، أمدة والنمري وسيدي حمو في الجبال، ودهكون في المدن، يطالبون بإلحاح بالأسلحة والذخيرة. ذلك أنه رغم أن السبيل الذي دبره الحسين المانوزي قد أبان عن فعاليته، فإن الحمولات كانت قليلة والكميات محدودة.

وسوف يطلق على الطريق التي كان يتم عَبرَها نقل الأسلحة "طريق إبراهيم المانوزي" في ذكرى المعــذَّب الذي أعدم في شهر يوليوز من سنة 1971. وتشبيها لها بطريق هو شي منغ التي كانت تزود الخطوط الأولى لفييت كونغ. وهاهو أحد ناقلي الأسلحة الرئيسيين يتذكر: "كنا نأخذ مسارَين لربط وهران. مسارٌ أول عبر تونس، طوله *1500* كيلومتر، والثاني كان يتجنب تونس وطوله *2400* كيلومتر. كانت الرحلة تدوم ما بين ثلاثة أيام وعشرة أيام، ذلك لأن المتاعب الميكانيكية لم تكن قليلة[24]". كانت العربات المخصصة لنقل الأسلحة، وهي شاحنات صغيرة في حالة متواضعة، تُستقدم على وجه العموم من إيطاليا أو بلجيكا. وكانت قنابل اللدائن وآلات التفجير تُستقدم داخل حقائب، غالبا ما ينقلها مناضلون جُندوا داخل أوساط المهاجرين المغاربة ويجهلون محتوى الطرود. لقد كان هذا الحل غير الأنيق لازما وضروريا لضمان سلامة أعضاء التنظيم. زد على ذلك أن حسين المانوزي كان يُنَشط خلية من مناضلي الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في ليبيا لهذا الغرض.

ويتذكر عباس، وهو المحامي المتدرب الذي استقطبه دهكون، والذي أصبح مراسل التنظيم من داخل المغرب: "في شهر أكتوبر من سنة *1972*. وفي اليوم الأول من شهر رمضان، ذهبت إلى باريس. وكانت ذريعتي هي التسجيل في جامعة السربون من أجل الدراسة بالسلك الثالث حقوق. وكان اسمي المستعار هو البراك[25]". إنه أول اسم مستعار من لائحة طويلة، كانت بمثابة بطاقات زيارة عابرة تدوم دوام المهمة الواحدة. في باريس، التقى الفقيهَ البصري. كان الغرض من اللقاء هو تنظيم تسرب مجموعة من المقاتلين المسلحين. بدأ عباس سلسلة من الشكاوى استهلها بالمؤهلات المهنية للرجال المعنيين، وأنهاها بنوع السلاح المطلوب. وأما الفقيه البصري، الذي لم يكن

24 حوار للمؤلف مع بوجمعة بالحاج، المعروف بسعد.
25 حوار للمؤلف مع مبارك بودرقة، المعروف بعباس.

من عـادته الاهتمام بالجزئيات التقنية، فإنه اكتفى بأن أكد على أن كل شيء تم توقعه، ودعا عباس إلى الالتحاق بطرابلس لوضع اللمسات الأخيرة. وغداة اليوم الموالي، رحل عباس إلى روما ومنها استقل الطائرة إلى طرابلس. وعند وصوله، استقبله إبراهيم.

كان التنظيم حينها يتصرف في العديد من الفيلات والشقق بالعاصمة الليبية. وكانت إحداها تأوي هيأة التحرير براديو ليبيا، والأخريات كان يقطنها المناضلون عند مرورهم من ليبيا. ودون أن يعلم عباس بالأمر، أمضى الليلة صحبة أعضاء الفريق المتكون من الغواصين الأربعة الذين تكونوا في العراق. وقد جاء هو بالضبط خصيصا لترتيب تسريبهم. وهم كذلك كانوا يجهلون سبب مجيء عباس. إنها خاصية من خصوصيات العمل السري الذي يجعل أقدارا متضامنة يجهل بعضُها بعضاً تتواجد جنباً إلى جنب.

درس إبراهيم العملية مع الهوني الذي دعا إلى اللقاء الرائدَ (الكوماندان) عبد الرحمن سعيد، قائد القوات المسلحة البحرية الليبية. فاتفقوا على إنزال الكوموندو برجاله وعتاده، في شاطئ على ساحل البحر الأبيض المتوسط في نواحي تطوان. وأما عباس، فإنه خططٍ لكيفية إيواء الفريق بعد الإنزال. دُرِس كل شيء بعناية انطلاقا من بطاقات التعريف المزورة التي سلمها لهم قاضٍ عضو في التنظيم، إلى تحديد قدرات عربات النقل التي سوف توضع عليها الحمولة. كان من المفروض أن يتم إنجاز العملية في ليلة مقمرة ويوم سبت حتى يتسنى لقائد السلطة بالمنطقة، وهو متواطؤ مع التنظيم، أن يُحَول اهتمام حرس السواحل بتنظيم سهرة تنشطها راقصات. كان كل شيء قد تم إعداده وترتيبه إلا مسألة جزئية واحدة، لم تكن مهمة ولكنها كانت مصيرية، وهي التي أفشلت العملية. فبما أنه كان من المستحيل استعمال بارجة عسكرية ليبية، فقد تم اللجوء إلى باخرة تجارية. وبعد معاينة الباخرة تبين أنها لا يمكنها أن تُبْحِرَ إلا بحمولة ثلاثة أطنان على الأقل، والحال أن هذه الحَمولة تتجاوز قدرة العربات التي سوف تستقبل الفريق ومتاعه.

هل كان الأمر ذريعة مغلوطة تُخفي وراءها الرفض؟ هذه الفرضية غير أكيدة عندما نكون على دراية بمستوى الارتجال عند الليبيين. فهم إن كانوا لا ينضَبون عندما يتعلق الأمر بالتغني بأمجاد الثورة، فإنه لم يكن من النادر أن يبقوا مكتوفي الأيدي والألسن عندما يحدث مشكل تقني. كان من اللازم إعادة العملية. وبعد مرور بضعة أيام، دعا الهوني إبراهيم، واقترح عليه إنزالا من الجو. ولكن الاقتراح كانت فيه مخاطرة كبيرة: ذلك أن أعضاء الخلية السرية سوف يكون عليهم أن يتحركوا دون غطاء.

المطاردة

كان أغلب اللاجئين الذين وصلوا إلى باريس ممزقين بين تيه الماضي والواقع الصعب الذي يعيشونه والحلم بغدٍ مُشرق. فكانوا يواسون أنفسهم بعملٍ حركي نشيط جامح. وهاهو أحدهم يتذكر: "كنتُ مسؤولا عن شبيبة الحزب بمراكش وكان لي الحظ بأن أتواجد في الدار البيضاء لحظةَ حملة الاعتقالات في دجنبر من سنة 1969. إذ هكذا استطعتُ الهروب من البوليس واللجوء إلى فرنسا[26]". ولا شك أن وجهه الطيب وابتسامته المرحة هي أحسن غطاء يتخفى وراءه هذا المنفي الجديد. وحالما وصل إلى باريس، عوض المناضلَ السابقَ الذي انكشف أمره عند إنزال الشرطة في شقة شارع سان دومينيك واعتقال النمري[27]. ولأنه أصبح رجل اتصال التنظيم في فرنسا، وجد أن عليه أن يعمل كل شيء: يكتري الشقق ويحجز الغرف في الفنادق متخفيا وراء هويات مختلفة ويحجز تذاكر الطائرة ويزود بالسيارات ويرتب صناديق البريد، وكذا وعلى وجه الخصوص، يخبئ الوثائق والأموال وأحيانا السلاح. كان الرجل يجمع بين روح العمل التطبيقي ونزوع فطري إلى السرية والتكتم، فكانت له علاقات عابرة مع مسيري التنظيم.

كان الفقيه البصري ومحمود ودهكون والنمري يلتقونه لقاءً عابرا على ساحة بلدية باريس أو فوق جسر نويي أو داخل المترو. ذلك لأن باريس، المدينة ذات المسارات الرومانسية، كانت تُعتَبَر أرضا معادية في خرائط التنظيم. إنه واقع يقلل من الإحساس بالحرية الذي ينتاب المناضلَ السري حال خروجه من المغرب. لقد كان لسابقةِ حملة الاعتقال البوليسي التي داهمت شارع سان دومينيك وقعٌ تربوي تعليمي. فهو يُذكر المناضلين بأنهم في باريس يوجدون في مدينةٍ تعج بالبوليس السري. وقد أدى المهدي بن بركة وأحمد بنجلون وسعيد بونعيلات ثمن تعاونٍ لصيقٍ بين البوليس السياسي المغربي ومصالح المخابرات التابعة للأوصياء الاستعماريين سابقًا.

وكان هاجس عملية اختطافٍ ينفذها الأمن المغربي يفرض العديد من إجراءات الاحتياط. فغدا القدر اليومي للمناضلين هو تدريب ذاكراتهم على حفظ لوائح كاملة بأرقام الهواتف والعناوين، والانفلات من المطاردات. غدا هذا هو القدر اليومي للمناضلين الرسميين الذين يمرون من باريس. ولكن الصداقة الحميمية الناجمة عن خطر محدق مشترك لا توجد في العمل السري. فالمناضلون السريون إن كان يحدوهم الأملُ نفسه والتخوفات ذاتها، فإنهم ينغمسون في الوحدة التي يفرضها عليهم حذرهم

---

26 حوار للمؤلف مع أحمد الطلبي.

27 أنظر فصل التنظيم.

الذي لا ينطفئ فتيله. ويتذكر عباس قائلا: "عند وصولي إلى باريس في شهر مارس من سنة 1973، سمعت مَن أخبرني باعتقالي أنا شخصيا[28]". ولئن كان الخبر غير صحيح فإنه يدل على الأقل أن الانغلاق قد أبان عن فعاليته. فقد كان المناضل الذي أخبره بالاعتقال يجهل بكل وضوح مُخاطبَه. في هذا الجو المليء بالشك العام والذي يتحول أحيانا إلى حالة من الذُهان العصبي، أصبحت باريس الأرضية التي يعاد انطلاقا منها توجيه أعضاء الشبكة والسلاح والمال.

بيد أن التجربة بينت أن الحذر يفرض نفسه حتى على التراب الذي يُفترض فيه أنه "آمِن". فقد أرسل أوفقير العديد من المخبرين إلى طرابلس ليحاولوا التسرب داخل التنظيم. أكيد أن أعضاء التنظيم كانوا قد اعتادوا على الشك في أمور التحدي ودعوات الترحاب، وخاصة تلك التي تأتي من الأوساط المغربية المستقرة في ليبيا. ولكن، من بين هؤلاء، استطاع مقاول، يدعى إدريس أدمون، أن يراوغ حيطة وحذر حسين المانوزي. كان يُسَير مقاولةً ناجحة للنقل. وبلغت صداقته بالحسين المانوزي من القوة إلى حد أن العديد من عربات المقاولة كانت تُستعمل في نقل السلاح إلى الجزائر. ولما ذهب إبراهيم إلى فرنسا في شهر أكتوبر من سنة 1972، قرر الحسين المانوزي قضاء بضعة أيام في بلجيكا. ولهذا الغرض، قرر أن يتوقف في تونس من أجل زيارة صديقه أدمون الذي ينزل بها هو كذلك أحيانا. وهاهو إبراهيم يتذكر: "في الفترة نفسها حذرني متعاطفٌ مغربي له علاقات نافذة في طرابلس من تصرفات أدمون: فعند مروره من تونس، كان قد اندهش من تغيبات أدمون الغريبة والمتكررة خلال مواعيده ومن التصنع والتكلف اللذين يظهران عليه عندما يستفسره عن تغيباته المتكررة[29]". لقد كانت ملابسات غير كافية في نظر الحسين المانوزي، حتى تصبح حقيقة تُؤخذ بعين الاعتبار. فأي مصداقية يمكن أن تعطى لرأي متعاطف يجهل أنشطته السرية؟ هل كان الأمر بسبب البلادة أم بسبب ثقة عمياء؟ لن نعرف ذلك أبدا. سافر الحسين المانوزي إذن إلى تونس، وكانت آخر علامة على أنه لا يزال على قيد الحياة هي برقية بعث بها مؤرخة بـ 29 أكتوبر من سنة 1972: "لقد وصلتُ" توقيع: غاسبار.

كان غاسبار هو اسم السر. وهي إحالة إلى شخصية رسوم متحركة كانت مشهورة في ذلك العهد. وغاسبار يتميز بكونه صغير الحجم قوي البنية.

دق انفجار الانقلاب الثاني وكأنه تنبؤ. وزاد من الإحساس بضرورة التعجيل بالأمور إحساسٌ يمتزج بعدم اليقين، وهو الشعور الذي استحوذ على محمود ورفاقه. ولأن الضعف التنظيمي أبقاهم في حالة انتظار، فإنهم شهدوا النظام الشنيع يتأرجح فوق قواعده مرة ثانية. ولأنهم كانوا يبحثون عن أمور توجد قريبة منهم. ألم يكن يتهددهم خطر التيه والضياع؟

---

28 حوار للمؤلف مع مبارك بودرقة، المعروف بعباس.

29 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشلح.

كواليس الثورة
(1972 ـــ 1973)

الشبكة الحضرية

من الدار البيضاء إلى الرباط، ازدادت الشبكة السرية التي أنشأها دهكون أهميةً وفعاليةً. كان الغطاء هو: قارئ القرآن في إحدى مقابر الدار البيضاء. وهكذا كان دهكون الذي أصبح اسمه الفقيه الميلودي، يتجول في اطمئنان مرتديا جلبابا ومرسلا لحية طويلة وواضعا على عينيه نظارات شمسية وعلى رأسه طربوشاً. ولكن تحت جلبابه كان يخبئ مسدسا. كان يبدو بمظهره الصارم بارعا في فن التجسس براعةً لا شك أنها كانت ستثير إعجاب أطر المخابرات الروسية والأمريكية. من ذا الذي كان يمكن أن يشك في أن هذا الفقيه يُسَيِّر عدة خلايا، من وزارة الداخلية إلى قُياد المناطق (يعادلون مساعد والي الشرطة)[1]؟ كانت هذه الشبكة تخبره بأعمال وتحركات لائحة من الشخصيات التي كان محمود قد طلب منه مراقبتها مراقبةً لصيقة. ورغم أن دهكون لم يكن يحترم إلا جزئيا مبدأ الحيطة والحذر، فإنه أقنع رجاله بضرورة الاحتياط أيا كانت الظروف. كانت شبكته تتمحور حول العديد من الأطر الثورية التي تكَوَّنَ جلها في سوريا، والذين كانوا منتشرين في أهم مدن البلاد: الدار البيضاء والرباط وسلا ووجدة أساسا. كان كل إطار يؤطر خلية سرية تضم ما بين خمسة مناضلين ثوريين وعشرة[2].

وهاهو عباس يصرح: "إضافةً إلى منصبي في ديوان عبد الرحيم بوعبيد، كنت الكاتب العام لغرفة التجارة بالرباط وهو الأمر الذي كان يمكنني من التواجد داخل الدوائر السياسية والاقتصادية[3]". وهكذا كان يعرف كل شخصيات عالم السياسية وعالم الأعمال. كانت تقنية عباس بسيطة ولكنها فعالة: كان يتكلف هو نفسه بتنظيم

---

1 ثلاثةٌ من رجال القوات المساعدة سوف يحاكمون إلى جانب دهكون في القنيطرة: محمد أرزاز (تحت تبرئته) ومروان بن الجيلالي (تمت تبرئته) والمختبر لحسن (حُكِم عليه بالمؤبد). المصدر: قرار محكمة مكناس، رقم 130 /76.

2 رؤساء الخلايا الرئيسيين هم: المهتدي ويوس مصطفى وبوحما بالدار البيضاء، والملياني بسلا، والجداينى بوجدة، وعباس بالرباط.

3 حوار للمؤلف مع مبارك بودرقة، المعروف بعباس.

اللقاءات. ففي شقته، كان يلتقي رجالُ الأعمال الذين يبحثون عن بعض خبايا الأمور، وموظفون تجتذبهم بعض النساء وعسكريون لهم طموحات، لكنها طموحات مقموعة أو بالأحرى، خاملون، ومن ثمة ميالون إلى التآمر.

في مغرب بداية السبعينيات، كان رجال السلطة يشتركون في الوعي بأن وضعهم هش غير قار، ولهذا فإنهم يسارعون إلى جمع الثروات احتياطا من أيام عصيبة. وبينما كان المترددون على صالون عباس يستعرضون أمامه استخفافهم ووقاحتهم، كان عباس ينظر إلى عالم الامتيازات نظرةً عابرة خاطفة. فهذا العالم يعكس أمام عينيه صورة آماله الجريحة. كلهم هنا من أجل ترويج الخبر المثير وتبادل الابتسامات المتواطئة. ولأن معرفة ما يقوم به الملك ومحيطه كانت هي ميزة رجل الحاشية المتملق، فإن ضيوف عباس لم يكونوا يبخلون بالبوح بهذه الأسرار . غير أن رجال السلطة لا يقدمون خدمات بدون مقابل: فقد كان على عباس أن يقدم لهم العديد من الخدمات الصغيرة من أجل تخدير حذرهم ومن أجل جعلهم مدينين له متساهلين، بل ومتواطئين.

ولأن عباس كان يعرف كيف يجعل الآخرين غير قادرين على الاستغناء عنه، فإنه لم يكن يتوانى في وضع شقته رهن إشارة عقيد (كولونيل) ليلتقي فيها بعشيقته. وقد كان هذا العقيد مسؤولا في المكتب الثاني، وهو من المكاتب الرئيسية في المخابرات العامة. ومنذ ذلك الحين، فإنه لم يكن يمانع في أن تُستخدم بعض سيارات الوظيفة في قضاء "حاجات صغيرة". إنها ليست إلا حالة من بين حالات أخرى لضباط أو موظفين سامين أصبحوا ممنونين لعباس بعد أن استفادوا من خدماته. وقد زاد هذا التصرف المتقلب لهؤلاء الأعيان المتقززين المتساهلين أكثر مما هم متفانون في عملهم، زاد من قناعة عباس بأن ميولاتهم الانتهازية سوف تدفعهم في اللحظة المواتية إلى تبديل معسكرهم الحالي بآخر. وكانت إدانتهم للمنظومة لا تتعدى الحكم المبدئي، ولكن كل شيء في موقفهم كان يدل على رغبتهم في الولاء للمرشد الذي يعرف كيف يعيد البريق إلى أوهامهم الضائعة.

واستطاعت شبكة دهكون، بفضل التآمرات والتواطؤات، أن تتسرب إلى محيط الرجال الثلاثة الأكثر رهبة في البلد : العقيد الدليمي والجنرال أوفقير والملك الحسن الثاني نفسه. ولكن المدى الحقيقي لهذا التواطؤ يبقى إلى حد اليوم أمرا مجهولا. فقد رفض عباس دائما إرسال بعض الرجال ليتكونوا في الخارج كما كانت تطلب منه ذلك خلية باريس. وهكذا فإن العديد من المتواطئين لم يتعرف عليهم أبدا عميلو المخابرات الذين تسربوا إلى التنظيم. وقد أسر لي عباس بعد مرور أقل من ثلاثة عقود على ذلك : "اليوم، أصبح هؤلاء الأعضاء مسؤولين عن حركة حقوق الإنسان، وأصبح بعضهم نوابا برلمانين أو موظفين سامين في الدولة[4]".

---

4 حوار للمؤلف مع مبارك بودرقة، المعروف بعباس.

بعد فشل عملية سنة 1969، عاد الميد، رجل العبور في مليلية، إلى أعماله في فرنسا. ويلخص الأمر قائلا: "كنت أدير فندقا وبعض حوانيت البقالة"[5]. بيد أن الفيلا التي كان يملكها في بوندي، بالضاحية الشمالية-الغربية لباريس، واصلت استقبالها للعديد من أطر التنظيم. كان ينزل بها أحيانا الفقيه البصري وبوراس والنمري.

وأما البشير الفيكيكي، الذي كانت علاقته بالحزب متوترة، فإنه كان ينزل بها عن طيب خاطر. فقد كان، كما هو شأن الميد، من أصل فيكيكي. إلا أن التشابه بين الرجلين كان يتوقف هاهنا. فقد كان للبشير الفيكيكي دور مبهم غير واضح. فهو مقاوم سابق تحول إلى ميدان الأعمال وتبع مسارا ملتويا يتيه في الجوانب المظلمة من المشهد السياسي المغربي.

إعتُقل سنة 1963 لتواطئه مع الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في حِين أنه كان قد أبعد عن الحزب. فحاول في نهاية المطاف الالتحاق بتيارات سياسية أخرى. ومنذ ذلك العهد، كانت لهذا الطالب الأبدي في لندن والذي أصبح يهتم بالأعمال، كانت له اتصالات مع المخابرات الأمريكية والمخابرات المغربية عبر وساطة مكتب غريب للاستشارة بالدار البيضاء. ولكن التضامن كان هو الطابع المميز لأهل فيكيك. وهكذا كان الميد بسبب رد فعل قَبَلي وبسبب الانتهازية، لا يتخلى عن شركائه. إنه أمر جزئي وغريب ذاك الذي لامس المناضلين القلائل الذين علموا بالسر ولكن دون أن يثير أي رد فعل لديهم. ذلك أن ضرورة الكتمان كانت قد أغرقت هؤلاء في بحر من عدم اليقين حيث تخترق الأسئلة لأنها لم تُطرح.

ولأن الفقيه البصري كان معتادا على خفايا السرايا، فإنه لم يكن يجهل شيئا عن النقاشات التي تدور في صالون باريس. بل وأكثر من ذلك، فإنه كان يشجع هذه اللقاءات حتى يتسنى له الاتصال بانتظام بمحيط الجيش ووزارة الداخلية. ولما استقطب بوراس الميد سنة 1969، أي أحد أهل فيكيك، فإن بوراس رأى في الأمر بكل تأكيد وسيلة لمواصلة التحكم في العمليات الجارية. ولكن كان ذلك دون أن تؤخذ بعين الاعتبار مهارة المناورة عند الفقيه البصري الذي سوف يعرف كيف يقلب الوضع لصالحه.

لقد سهل الميد تسرب الأطر الثورية إلى المغرب، ثم كان وسيط رسول أوفقير خلال الإعداد للانقلاب الثاني. وكانت كلها "خدمات" تعطي مصداقية لفكرة الحفاظ على وسيلة تواصل مع جهاز البوليس والجيش التابع لوزارة الداخلية. وهكذا، استقبلت فيلا بوندي اتفاقات من نوع خاص لا علاقة لها باجتماعات القيادة العليا للتنظيم. يقول الميد[6]:
"عند الإعلان عن انقلاب الصخيرات، كان الفقيه البصري وبشير الفيكيكي عندي ببوندي".

---

5 حوار للمؤلف مع أحمد خير، المعروف بالميد.
6 حوار مع المؤلف.

عبر بنيحيى عن شكوكه. بعد مُضي عديد من السنوات. ولكي يُنسي سوابقه. تجول بعض الوقت بمظهره غير المبالي داخل أروقة كليات باريس. حيث تفرغ لتحضير شهادة السلك الثالث في الهندسة. "في ذلك العهد. كنت ألعب دور الوسيط إذ كنت على اتصال بالفقيه البصري ومحمود. كانت كميات كبيرة من الأموال تُصرف بدعوى تنظيم أمور متنوعة. وأحيانا. كان بارو يخبرني بمواعيد للفقيه البصري في جونيف دون أن أعرف مع مَن. لم أعرف إلا فيما بعد بأن بارو. المدير السابق لمعسكر أوواطا. قد سبق وأن كان كذلك مقربا من أوفقير. فتحدثت في الأمر مع محمود الذي كان يشاطرني تخوفاتي[7]".

أوَ كان الأمر محض صدفة؟ فعند مرور محمود من باريس كان يمضي من الوقت عند عباس سباطة أكثر مما كان يمضيه في بوندي. كان الساعدُ الأيمن السابق للفقيه البصري ورفيقُ دربه أحدَ أصدقاء محمود المقربين القلائل. كان كل شيء يجمع بينهما. كل شيء عدا علاقتهما بالفقيه البصري. فقد كان الخلط المحير بين النزعة القبلية والمحسوبية الذي يلف علاقات الفقيه البصري قد خيب منذ زمن بعيد آمال عباس سباطة. فتراجع خطوات إلى الخلف. وأما محمود. ومن خلال نقده الذاتي. فقد تيقن أن اللحظة التي سوف يكتب فيها الشعبُ تاريخَه قد غدت وشيكة مع الفقيه البصري أو بدونه. بيد أن هناك اختلافا كبيرا بين الرجلين. إذ إن كانت الثورة في ذهن محمود هي العنصر الذي سوف يُشعل فتيلَ غضبٍ طالما بقي حبيسا. فإن عليها أن تكون أكثر من نهاية مصطنعة. من المفروض أنها سوف تلهم تحريرا كاملا داخل وضعٍ جديد. ويبدو أن هذا الهم لم يكن يساور الفقيه البصري.

السلاح، المزيد من السلاح !

عاد عباس إلى باريس في شهر نونبر من سنة 1972 بعد أن ألح على ذلك دهكون الذي كان يطالب بالمزيد من السلاح. ضُرب له موعدٌ مع الفقيه البصري في الشقة الصغيرة بشارع الكوميرس (التجارة). في الدائرة 15. كان اللقاء متوترا. فقد انفعل رجل الاتصالات الشاب أمام الفقيه البصري الذي ذُهل من الأمر. لامه على عدم مسئوليته بإعطائه أوامر للمناضلين قد يتعرضون بالداخل إلى مخاطر مجانية. إذ إنهم قد ينكشفون في أي لحظة فيُسَلَّمون إلى براثن الشرطة السياسية. ما معنى هذا الخلل في نقل السلاح والمناضلين؟ لماذا يُطلبُ من محام متدرب أن يُكثر من تنقلاته إلى باريس ويُعَرض إلى خطر أن يتنبه إليه البوليس؟ ما الذي يفعله حتى ذلك الحين دهكون في المغرب؟ والفقيه البصري ما فتئ يؤجل الأمور إذ لم يكن يهتم إلا نادرا بأمور التدبير. وافق الفقيهُ البصري عباسَ على رأيه ولكنه قدم شروحات تتذرع بالظروف. كان الغرض منها مواساة المناضل المتقزز أكثر مما كان الغرض هو توضيح الموقف.

---

7 حوار للمؤلف مع محمد بنيحيى.

بعد هذه المقدمة، علم عباس أن حمولةَ أسلحةٍ قد تم إعدادها في بلجيكا. ولم يتبق سوى نقلها بالسيارة. تبددت شيئا ما ظنون عباس، فركب القطار إلى بروكسيل، مصحوبا بإطار عسكري متخصص في السلاح والسيارات جاء من طرابلس، فتكلف بتمويه السيارة حتى لا تثير الانتباه. وفي بروكسيل ظهر مشكل آخر لم يكن في الحسبان. كان لابد من تسجيل السيارة باسم السائق لتفادي شكوك رجال الجمارك. غير أنه في سنة 1972، كان وجود شاب محام متدرب عمره 24 سنة على متن سيارة أوبل جديدة وبخمسة أبواب تساوي قيمتها عدة سنوات من أجره الزهيد، كان أمرا يدخل في باب الفخفخة والاستعراض. رفض عباس، وبعد نقاشات عديدة، اتُّفِق على أن يقود مناضلٌ آخر السيارة. وقبل أن يغادر عباس بروكسيل، ضرب موعدا للرجل في ساحة محمد الخامس بالرباط. وبما أن تاريخ وصول المناضل الذي ينقل الحمولة غير مضبوط مسبقا، فإنهما اتفقا على أن يكون الموعد كما يلي: الأول في الصباح والثاني في المساء، ثلاثة أيام في الأسبوع. وكانت كلمة السر تشبه ما يحدث في الروايات البوليسية من فئة باء : "هل لديك قطع خبز بروكسيل المدهونة بالزبدة؟"

وعند رجوع عباس إلى الرباط، ذهب عدة مرات من مكتبه إلى ساحة محمد الخامس، لكِن المناضل ناقل الأسلحة لم يظهر إلا في شهر دجنبر. فقد تم تسلم السيارة وأفرغت من حمولتها دون أن يتصل المناضل ناقل السلاح الذي جاء من بلجيكا بالشبكة. وخُبئت الحمولة: 22 مسدسا ورشاشين اثنين و5000 شحنة بارود ومتفجرات، في بيت عضو من الخلية السرية بالرباط. في اليوم الموالي، التقى عباس بالمناضل ناقل السلاح ليتفق معه على المكان والساعة التي يستعيد فيهما السيارة. فحدث أمرٌ لم يكن متوقعا مرة أخرى. إذ توصل هذا الأخير بأمرٍ بأن يعود مباشرة بالطائرة دون استرجاع السيارة. وهو الأمر الذي لم يكن قد اتفِقً عليه من قبل. تلت ذلك مناقشة صاخبة.

لا شك أن دهكون كان معتادا على هذا النوع من الصدَفِ، فقد تكلف بحل المشكل وأخفى السيارة.

الرجوع إلى الجزائر

توجه الفقيه البصري ثانية بنظره إلى الجزائر.فدعوة بومدين، ولو أنها كانت بغرض الاستنفاع، فقد كانت نعمة وخيرا. إذ إنها تعني العودة إلى حظوة وعناية الجزائريين. زد على ذلك، وحتى يُسَرعَ الفقيهُ البصري بهذه العودة، فإنه بعث رُسُلاً يتحسسون الطريق إلى الجزائر العاصمة: إذ إن مناضلين يُفترض أن لهم اتصالات داخل محيط بومدين تعود إلى أيام المقاومة قد زاروا الجزائر العاصمة عدة مراتٍ منذ سنة 1971.

ويتذكر الميد قائلا: "التقيت محمود بوَهران لأول مرة. كان يتحدث قليلا ويقرأ كثيرا[8]".
وبتعليمات من الفقيه البصري، الذي كان عازما على مواصلة المبادرة، تكلف الميد بربط الاتصال بالخلايا الموجودة في المغرب. فبعد أن كان الميد رجلَ عبور في مليلية، ارتقى ليتسلم زمام القيادة بعد أن بقي المكانُ فارغا بسبب الاعتقالات العديدة التي جرت منذ ثلاث سنوات. وكان يوزع وقته بين باريس ووهران والجزائر العاصمة، مازجا مزجا بين الأعمال والأنشطة السرية والاتصالات بالمخابرات-المضادة الجزائرية وأحيانا المغربية.

وعند نهاية سنة 1972، حذا حذوه آيت قدور بالعاصمة الجزائرية. "غادرت باريس غداة الانقلاب وذهبت إلى طرابلس ما بين *17* و *20* غشت. قدمني الفقيه البصري على أنني الرجل الذي حرك الجيش ونظم لي جولة شرفية في ليبيا. وبين حصص المناقشات السياسية وبرنامج المذياع، التقيت الهوني الذي أعطاني أموالا لأسلمها للفقيه البصري[9]". وكانت المرحلة الموالية هي الجزائر العاصمة يوم 16 شتنبر. وحسب آيت قدور، فقد كان السيناريو هو نفسه : تقديم "رجل الجيش" للسلطات وجمع الأموال. ويواصل آيت قدور : "ويوم *4* نونبر من سنة *1972*، عدت إلى الجزائر العاصمة. كان الفقيه البصري ينوي إنشاء قاعدته العامة بها وكلفني بتحضير وصوله".

ولكن في وهران، اعترض الميد. إذ سرعان ما أفصح الجزائريون عن الرجل الذي يفضلونه: الميد. قبِل آيت قدور بالأمر دون انزعاج. فعلى كل حال، هو واحدٌ من أعضاء المنظمة الدائمي الترحال. فهو يوجد في الجزائر العاصمة دون أن يكون فيها حقا.

وحدثت صدفة في التوقيت، إذ في بداية شهر دجنبر، قام مدير الأمن الترابي، أحد أهم مصالح المخابرات المغربية، بزيارة خاطفة للعاصمة الجزائرية. كان يحمل في حقيبته طلبا من الحسن الثاني موجهاً إلى بومدين. كان ملك المغرب يطلب تدخلا ضد مخزنٍ للسلاح للتنظيم يوجد بعين تورك. تعرفَتْ على مكانه مصالحُ المخابرات المغربية. كان مصدر تسرب هذه المعلومة غير أكيد. تحدث البعض عن اعترافات انتُزعت من الحسين المانوزي. وربط البعض الآخر، كما هو شأن خالد، الأمر باعتقال ناقل سلاح بوجدة يُسمى بولفارش، وهو مهاجر في ألمانيا تكَون في ليبيا. وخلال عملية البوليس التي قادها الأمن الجزائري، اعتُقل بضعة رجال وهرّب آخرون. لم يُلحق حجز السلاح سوى أضراراً بسيطة بالشبكة التي احتفظت بالجزء الأكبر من ترسانتها العسكرية الموزعة بين طرابلس ووهران والجزائر العاصمة والمغرب. بيد أن هذه العملية كان لها وقعُ الإنذار. والغريب أن السلطة الجزائرية تبرر هذا التدخل العنيف بذريعةٍ واهية: هي أن معارضي بومدين لربما يستفيدون من الجهاز اللوجستيكي للتنظيم.

---

8 حوار للمؤلف مع أحمد خير، المعروف بالميد.
9 حوار للمؤلف مع محمد آيت قدور.

ويقــول بنيحيى: "أرسلني الفقيه البصري إلى الجــزائر العاصمة للتفــاوض مع دراعــيا (المســؤول الكبير عن الأمن الجزائــري منذ سنة 1965) في أمــر إطلاق سراح آيت عمي وصبري وأسكور، الذين كانوا حينها في قبضة المخابرات منذ اعتقالهم بعين تورك[10]". وسوف يَدعي الميد بأنه قــام بالمهمة نفسها : "ذهبت لملاقاة دراعيا ليعمل على تحرير رفاقنا[11]".

ولكن وبما أن الفقيه البصري كان يحسن الاستفادة من هذا النوع من المواقف، فإن الحادث سوف يسهل، وهنا المفارقة، عودته إلى العاصمة الجزائرية لتستأنف المفاوضات مع بومدين.

اجتماع باريس: نهايةَ سنة 1972

اعتاد هونري كيريبل[12]، وهو الخبير في الأمر، أن يقول: "العمل السري سرعان ما يُنهك". هل هو التوسع الكبير الذي أصبحت تعرفه المنظمة، أم التفريق المتزايد بين المهام أم، وبكل بساطة، إنهاك الزمن؟ ويتذكر آيت قدور[13] أن الواحد "يصبح موضع شك بدون سبب، فيُشَك فيه بأنه من البوليس؛ كانت التقارير كثيرة وفيرة". العمل السري خصب فيما يخص الإشاعات والشكوك حسب الخلافات التي سرعان ما تتحول إلى اتهامات. تزايدُ الحصار، والقيادةُ تبخل بتقديم الشروحات وعملٌ ذكي من قِبل المخابرات المغربية وأحيانا الجزائرية لإدخال المرض . كلها أمور غذت وشجعت إحساسا جماعيا بالذُهان الهذياني.

لا شك أن العمل السري يمنح الإحساس بطعم تلك الحرية التي يطمح إليها المناضلون. ولكنها حرية مصحوبة بسلسلة طويلة من الاكراهات باسم ضرورة الأمن. المشي ساعات طوال على الأقدام في الشوارع والأزقة للانفلات من مطاردة، وتفتيش مكانِ الموعدِ عدةَ مرات، وحفظ لائحة طويلة وطويلة من الأسماء المستعارة، وانتظار أمر مَفترضَ طيلة أيام وأيام، والعيش بين مخبأ وآخر، وخاصة .. الحيطة من آذان تُفرطَ في الإنصات لأنها ليست صديقة. كل هذا إضافةً إلى الخطر الدائم والحاضر في كل الأذهان بأن يتم الاعتقال والموت المحتمل إن لم يكن أكيدا في نهاية المطاف. إن المصادفات خلال العمل السري الذي لا يعرف المرء دوافعه ولا مقاصده تنخر الأعصاب وتزعزع القناعات. باسم ماذا اعتُقل رفيقٌ؟ هل كان لتضحيته ما يبررها؟ إن الشك يخنق الضمائر. فكيف إذن يجابه المرءُ الموتَ عندما يغيب الأمل؟

---

10 حوار للمؤلف مع محمد بنيحيى.

11 حوار للمؤلف مع أحمد خير، المعروف بالميد.

12 "رجل فريد متميز، هكذا كان هونري كيريبل"، جيل بيرو، كتاب الجيب، 1984.

13 حوار مع المؤلف.

ولهذا ليس من النادر أن يحاول المناضلون التعرف على المسؤولين عن فشل هذه العملية أو تلك. وعلى رأس الهرم، كانت الأمور تُتَرجَمُ دائما بالسيناريو نفسه: خلايا أزمة وشروحات وقرارات. وفي القاعدة، كان هذا يخلق إحساسا محبطا بضرورة العودة إلى نقطة الصفر.

وهذا ما حدث نهاية سنة 1972.

وبما أن تحذيرات محمود للفقيه البصري لم يكن لها أي وقع، فقد دعا إلى اجتماع في باريس. وكان غرض خلية الأزمة هاته، والتي تم استدعاؤها على وجه السرعة، هو القضاء على هذا المسلسل الثابت الذي أخذ يشتت الحركة. انعقد الاجتماع في بيت صغير بفيل جويف، في الضاحية الجنوبية بباريس. شاركت فيه الأطر الرئيسية للتنظيم، إبراهيم وآيت قدور وعجول ومحمود[14]. التحق بهم بنيحيى الذي كان يُعالَج في باريس من داء السل. أرسل الفقيه البصري الذي كان غائبا أخاه حسن كملاحظ. غضب محمود لكون حسن البصري يلعب دور النائب عن أخيه، وتلقى محمود الضربة في صمت. احتفظ بهدوئه ولكن ابتسامته المعروفة لم تعد تنذر سوى بتدهور العلاقات الداخلية. وبعد التحيات والمجاملات الاعتيادية، توالت التقارير. اتفق الحاضرون على أن تراقَب أنشطةُ التنظيم مراقبةً أفضل. وتم توزيع المهام من جديد.

وها قد ظهرت البوادر الأولى لتطهير المنظمة. ولأن محمود كان رجل سياسة متمرسا، فإنه تعرف -وكتاباته تشهد على ذلك- على خطرٍ له علاقة بأنشطة الفقيه البصري الموازية. وهو يعرف كذلك أن الميد هو الحجرة الرئيسية. ويتذكر إبراهيم قائلا: "عندما رجع محمود من وهران، كان يشتكي من الميد. قال لي: إن أعمال الميد في وهران تمثل الفوضى العارمة بعينها[15]". وأمام ساعة، أدلى محمود بملاحظة أكثر بلاغة وتعبيرا مما كانت عليه سالفتها : "عندنا، كل شيء يُشترى[16]".

كان لمحمود الوقت الكافي للوقوف على عدم كفاءة رجلِ الفقيه البصري هذا الذي يتكلف بكل شيء، فيما يخص تلك الأمور البسيطة التي يمكنها أحيانا أن تنقذ أرواحا. ولكنه كان يخشى ما هو أدهى. أيُّ انعدام كفاءةٍ يمتزج بطموحات خطيرة تتخفى وراء بلاغة الميد الخطابية المتباهية الكبيرة؟ كان الميد يتكلم بتلك الثقة التي يكتسبها المرء من معرفته بالأسرار الخفية. أكيد أن محمود كان معتادا على جحود بعض الأطر الناكرة للجميل وعلى تباهيها. ولكن، وفي هذه الحالة بالضبط، أحس محمود إحساسا مخالفا، لم يكن قادرا على تمييزه بوضوح. فمنذ أن أطلق الميد الرصاصات الأولى خلال المقاومة، ومساره الملتوي عبارة عن عشرين سنة من الحسابات

---

14 تحدث بنيحيى عن وجود الميد والطالبي وعمر زاهير.

15 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشلح.

16 حوار للمؤلف مع محمد بن عمارة، المعروف بساعة.

والطموحات غير الواضحة. فهو قادر على مناورة غير مضمونة من أجل تحقيق أغراض شخصية: يحسد الرفاق الذين قد يملكون بعض المال. إنه رجل خطير، لأن شأنه صغير. ومع ذلك، فإن كانت الآراء تجمع على ضيق أفقه الفكري وعلى ميله المَرَضي إلى المال، فإنها تختلف فيما يخص تواطؤه المفترض مع الخابرات المغربية. ولأن محمود كان يعرف بأن شبكة الميد تقوم على تحالفات قَبَلية وجهوية فإنه شك في كونه. ولهذا السبب، قد سُرب تسريبا.

وفي اليوم الموالي، وقبل أن يغادر محمود باريس، التقى ثانية بآيت قدور في مقهى في ساحة إيطاليا. جلس الرجلان إلى طاولة وتبادلا انطباعاتهما عن اجتماع الأمس. كانت باريس غارقةً في كآبة ظهيرة خريفٍ في أواخر أيامه. كان الجو ثقيلا، محملا بعاصفة مترددة، فزاد الأمر من جلال اللحظة وخطرها.

حذر محمود آيت قدور: "إن أهدافنا الثورية أصبحت متفاوتة مقارنة مع إمكاناتنا". وافق آيت قدور على الأمر بحركة من رأسه دون أن ينبس بكلمة. واصل محمود:

— إن كان الفقيه البصري يريد أن يعتمد على الميد فهذا شأنه. وعندما يحين وقت الرجوع، سوف نرجع ولكن لن أقبل بأن يُطلَبَ مني أن أقدم ثمرةَ عملنا على طبق[17].

كان لبنيحيى كذلك حوار على هامش الاجتماع مع محمود: "أخبرني بتحفظاته فيما يخص الميد، وهو الأمر الذي كنت اتفق معه عليه. وبعد ذلك، تحدث عن تخوفاته فيما يخص تطور الوضع السياسي، وفي الأخير أخبرني بأن الفقيه البصري قد ربط العلاقات ثانية مع الجزائريين[18]". في تلك اللحظة، لم يُثر هذا الخبر الأخير أي تعليق. بيد أن بقية الأحداث سوف تسبغ عليه دورا حاسما.

طرابلس، نونبر سنة 1972

كانت كل الأمور عادية عندما أخذ محمود بنبرته الهادئة يعدد لائحة حاجاته لإبراهيم. فهو قد وصل عشية ذلك اليوم إلى طرابلس، وهاهو يسأل كما هي عادته عن آخر التطورات في ليبيا، دون أن يهمل أي تفصيل من التفاصيل. ولكنه لم يخبر إبراهيم بدخوله المقبل إلى المغرب إلا بعد أن انفرد به في غرفة بفيلا ابن عاشور. ولأن إبراهيم كان صلة الوصل مع الليبيين، فقد كان عليه أن يلبي الحاجيات من الأسلحة على المدى الطويل. كان محمود يطالب بأسلحة كلاشنيكوف وقاذفات للقنابل ر.ب.ج. ومدافع هاون خفيفة من صنع إنجليزي، على أن يتم نقل هذه الأسلحة إلى المغرب حسب برنامج موضوع سلفا. وفيما يخص النقل، قدم الليبيون مساعدةَ طائرات

---

17 حوار للمؤلف مع محمد آيت قدور.

18 حوار للمؤلف مع محمود بنيحيى.

ناقلة للبضائع. إذ بات الليبيون يملكون طائرات ناقلة كبيرة يمكنها أن تزود مباشرة دون ضرورة التوقف في الجزائر. وكان طيارون يوغسلافيون، قادرون على الإنزال على علو منخفض، يعملون منذ زمن قصير في القواعد الليبية.

خُصصت إذن اللحظات الأخيرة من اتصالهما على انفراد لوضع شفرة اتصال وفق أبجدية تشتغل حسب وظائف حسابية بسيطة. وباتت الإذاعة الليبية هي وسيلة التواصل مع الجماعات الثورية بعد أن كانت حتى ذلك العهد أداة للدعاية. بعد أن انتهيا من هذه الإعدادات، ركب محمود وإبراهيم سيارة دجيب للذهاب إلى معسكر التدريب. وهاهو إبراهيم يعيد تركيب الحوار من جديد. سأل محمود:

— كيف هو حال" التلميذ" (الهوني)، هل يتعلم جيدا دروسه؟

فقال إبراهيم:

— لقد توقف، نظرا لضيق الوقت أو فتور في العزيمة. فأنت تعرف بأنه لا يستيقظ باكرا في الصباح. كان يريد أن يبدأ دروسه في اللغة الفرنسية على الساعة الثامنة صباحا، وكان قد رتب كل شيء من أجل تحقيق هدفه. فمعاونوه وضعوا سبورة كبيرة في قاعة الاجتماعات. ولكن صبره دام خمسة أيام، ثم عاد ثانية ليصبح رجل الصحراء، لا يضبط المواعيد.

— لقد فقدت إذن الاتصال الشخصي؟

— ليس تماما، ما زال" التلميذ" يزورني بعد قيلولته. يُحضر معه الجرائد الفرنسية، نشرب القهوة وأترجم له المقالات.

فقال محمود لإبراهيم مؤكدا:

— عليك أن تحافظ على الاتصال.

— نعم، يا محمود، ولكن أتذكُر أنني في قضية العقيد (الكولونيل) أمقران في جبل طارق، وجدت صعوبةً في الاتصال به، ورغم نداءات ملحة، فإنه لم يكن يجيب.

قهقه محمود ضاحكا، ثم توقف وقال:

— لا شك أنه كان في حاجة إلى أن يتشاور.

كانت البناءات الأخيرة في جنزور، وهي ضاحية من ضواحي طرابلس، تمتد حتى الأُفق. ولم تكن قاعدة التدريب بالسواني سوى على بعد بضعة كيلومترات. مرت سيارة الدجيب بسلسلة من المنعرجات لتتفادى الأخاديد والحفر التي تتخلل الطريق.

لاحظ محمود قائلاً : "إنك تحسن قيادة هذه السيارة". ثم وفجأة، ولأنه قلق بسبب غياب الرجل الذي يستأجر هاته العربات المحملة بالسلاح عبر الصحراء، قال بصوت ساوره الشك:

— بالمناسبة، ما هي أخبار الحسين المانوزي؟

— لا خبر عنه، منذ وصلت برقيته الموقعة باسم "غاسبار".

قطع صمت طويل حوارهما. كان الجزء السفلي من الطريق يمر أمام عينَي محمود. عن قريب، تكون عشرة أيام قد مرت. ولم يظهر أي أثرٍ لحسين المانوزي. ودون أن يعترف بالأمر حتى لنفسه هو، شك في كون الرجل قد سقط في أيدي البوليس السياسي المغربي. فقد أصبح قتل الرجل، كما هو شأنه هو نفسه، أمرا مطلوبا منذ محاكمة مراكش. وبعد أن ابتلعَت السيارةُ كيلومترا واحدا وهما صامتان صمتا مطبقا، عاود إبراهيم النقاش.

— وأنت في وهران، هل هناك مِن تقدم؟

فتنهد محمود وقال :

— لا، تطاردنا مخابرات دراعيا، وقد انضاف إليها اليوم الأمن العسكري الذي بدأ يتدخل في الأمر.

— ومناضلونا ؟

— هنا، وعلى العكس، يجب أن نتقدم، أن نمشي إلى الأمام. فإن الانتظار قد أصبح خطرا.

— لا شك أن سي محمد (الفقيه البصري) طلب مني لهذا السبب أن أرجع لَكي أنسق العمل بين بوعرفة وفيكيك.

استدار محمود مندهشا مذهولا:

— ومَن الذي سوف يتكلف بليبيا؟

— المسؤولُ عن التنظيم في سوريا".

فأجاب محمود:

— لا أبداً، أنت تبقى في طرابلس، فنحن نحتاجك في طرابلس... وقد اعترف إبراهيم فيما بعد : "دون أن ينتبه محمود إلى الأمر، فإنه كان قد أنقذ حياتي[19]".

عندما وصل محمود إلى السواني، استقبله رفاق الزيداني استقبالا حارا. كان حماسهم يتناقض مع اندهاش الجندين الجُدُد الذين يرون محمود لأول مرة. فهم يعبرون عن عاطفة تتجاوز كثيرا العلاقات غير المشخصنة التي تجمع الرفاق الثوار: منذ تجربة حرب العصابات الفلسطينية، التي تقاسمها هؤلاء الرجال على طول ضفتي نهر الأردن، وهم متعلقون بمحمود تعلقا لا تشوبه شائبة. واليوم، فإن مجيئَه يُخرجهم من عزلة وَلّدَها غيابُ العمل وغياب الخطر المشترك. وعند الانتهاء من تعابير الفرحة باللقاء وتبادل العناق، انفرد محمود بحوالي خمسة عشر رجلا كان قد كَلفَ بهم خصيصا مدرباً عسكريا ليبيا.

وأما إبراهيم فقد ارتجل حلقةً (دائرةُ تكوين)؛ كان محور النقاش فيها هو موضوع سياسي من وحي الظرف الراهن.

ويحتفظ أيضا خالد، وهو مسؤول في المعسكر، بذكرى دقيقة عن هذه اللحظات، وخاصة ذكرى اجتماع دام ثلاثة أيام متواصلة بإقامة ابن عاشور حضره محمود وآيت قدور والميد والفقيهٍ البصري. كان الجو متوترا. إذ كان آيت قدور والفقيه البصري

---

19 حوار مع المؤلف.

صامتَين متكتمَين كما هو شأن عِلية القوم عَشية مؤامرة. كان الميد منفعلا. ورغم أن محمود كان يبدو هادئا، فإنه كان فريسة غليان داخلي قوي. مع الفقيه البصري ومحمود وآيت قدور كانت قيادة الثورة مجتمعة.

وكان حضور الميد، وهو المكلف بالتدبير واللوجستيك، يدفع إلى الاعتقاد بأن مضمون المناقشات سوف ينصب على المسائل التقنية والتنظيمية. وكان خالد قد دُعِي إلى حضور جزءٍ من النقاشات، علم عندها أن مجموع الجهاز قد استُعرِض في اللقاء: الوضع السياسي والخلايا المحلية ومخابئ الأسلحة والمواصلات والتزويد. قُسم التراب إلى ست مناطق عملية، منطقتين في الشمال، ومنطقتين في الوسط، ومنطقتين في الجنوب. كان من المفترض أن كل منطقة تم تحديدها ستستقبل بؤرة ثورية تتكون من مناضلين مستعدين للقتال، ومن مصدَرٍ مُنْتَظِمٍ للتزود ومن وسائل التواصل ومن قاعدة للتراجع.

توجه محمود إلى خالد وأخبره بأنه سوف يتقاسم قيادة منطقة الشمال مع الميد. وذكر أسماء أربعة أطر سوف تساعده في هذه المهمة. فعبد السلام العالي، فيكيكي الأصل، تخرج مثله من الأكاديمية العسكرية السورية سوف يساعده فيما يتعلق بالجانب العسكري[20] وهو يوجد سلفا في المغرب. إنه مستخدم في البريد بوجدة. وسوف تتحمل ثلاثة أطر من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب تدربت في ليبيا مسؤوليةَ الإدارة السياسية[21]. كانت البنية التنظيمية مستوحاة من نظريات حرب العصابات الفيتنامية إلى جانب قيادة سياسية-عسكرية على مستويين. كان من المفترض أن هذا النمط من التنظيم سوف يعوض الضياع المحتمل لأحد المسيرين بفضل قيادة نائمة مستعدة لمواصلة الطريق.

اعترض خالد موضحا بأنه لا يعرف عن منطقة الريف شيئا. فرغم أن اسمه العائلي ريفي الأصل، فإن علاقاته بالمنطقة قد انقطعت منذ سنين. وافق الفقيه البصري بحركـــة من رأسه ولاحظ ببساطة أن الأصل لا يهم كثيرا. وعلى كل حالٍ فإن محمود، الذيٍ أصله من الرباط، سوف يعمل في قلب الأطلس. اقتنع خالد جزئياً، وسأل عن رفاق الدرب مستقبلا. فهو يعرف معرفة جيدة العالي، الذي تخرج مثله ضابطاً من الجيش السوري. ولكن الآخرين مَن هم؟ ما هي الوسائل التي تمتلكها شبكات منطقة الريف؟ كم هو عدد المناضلين المستعدين للقتال والقادرين عليه؟ وعند كل سؤال كان الفقيه البصري يترك الكلمة للميد الذي كان يجيب بنبرة المتأكد المتفق المتحمس:

— لقد تم تهييء كل شيء.

---

20 حُكِم عليه بالحبس عشرين سنة في محاكمة القنيطرة. سنة 1973 .

21 يهم الأمر، حسب شهادة خالد، عمر الزاهرير وأحمد كرم وأحمد أوباري، وهم ثلاثة أطر من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. وخالد يعرف أحمد أوباري لأنه سبق وأن التقاه في دمشق داخل أوساط الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية.

لم يكن خالد يعرف الميد. إنها أول مرة يراه فيها. فحاول جاهدا أن لا تظهر عليه أي علامة. فلم يُظْهِرْ أدنى شك. وذلك رضوخا منه لروح الانضباط أكثر مما كان عن اقتناع. فقد بدا له الرجل معتادا أكثر على التعابير الرائجة في مجال السياسة. تلك العبارات الملساء والغامضة. أكثر مما هو معتاد على تعقيدات الأمور العسكرية. اندهش خالد اندهاشا شديدا. فاستفسر بنظرهِ محمود. ثم سأله:

— إن ما تطلبه مني يخلو من الحيطة والحذر. أن أرجع ومعي ثلاثة أسلحة كلاشنيكوف للرجل الواحد هو. وبكل بساطة. ضرب من الانتحار. من الأفضل أن تسبق الأسلحةُ دخولَنا[22].

فيما بعد سوف يفهم خالد السبب العميق الذي دفع محمود إلى اتخاذ مثل هذا القرار. مهما كانت فيه من مخاطرة.

وكما هو شأن خالد. مرت أطر أخرى أمام القيادة المجتمعة في المجلس. وذلك من أجل أن يبلغوا بتعيينهم. من بينهم مصطفى الوالي: كان الوالي رياضي الهيأة. ذا بشرة دبغتها الشمس. كان يثير انتباه كل مَن يراه. جنده محمود في وهران في شتنبر من سنة 1972. إنه مناضل نشيط في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب بالرباط. كان معروفا برفضه ومعارضته. فغادر سرا البلد بمساعدة الخصاصي. ولما وصل إلى طرابلس. جنده الفقيه البصري. إذ سبق أن كان أبوه مقاتلا في صفوف جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. إنها مؤهل له قيمته في نظر المقاوم السابق. يقول إبراهيم: "خصصت للوالي وقتا في الإذاعة ليتحدث أسبوعيا في برنامج باللهجة الحسانية. وهي لهجة ساكنة الصحراء أيام الإسبان[23]". وهي المهمة التي قبلها الوالي دون تردد. ولكن سرعان ما اكتشف محمود والفقيه البصري في الوالي خصال قائد قادر على فتح جبهةٍ ثالثة في الجنوب[24].

ساعة الاختيار

يتذكر خالد أن"محمود والفقيه البصري لم يعودا يتبادلان الحديث". فقد تحول عدم الاتفاق السياسي إلى نزاع شخصي. دفع هذا التنافس الكامن كل واحد منهما إلى البحث عن تضامن المقربين منه أو مَن يُفترض فيهم ذلك. لم يكن محمود رجلا يبوح بالأسرار. بيد أنه. وعند نهاية أحد تأملاته الطويلة التي كانت تجلب أفكارا يفضل المرء أن يتقاسم ثقلها مع غيره. اعترف بقلقه. فأمام باب فيلا ابن عاشور. حيث ودع خالد. باح له محمود بما يخالجه. ويوضح خالد قائلا: "كان اليوم يوم ثلاثاء. يوم رحيل الطائرة إلى الجزائر العاصمة". كانت كلمات محمود تفيض مرارة :

---

22 حوار للمؤلف مع محمد التوزاني. المعروف بخالد.

23 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشلح.

24 أسس مصطفى الوالي البوليزاريو يوم 10 ماي من سنة 1973. ومات في هجوم على نواكشوط يوم 9 يونيو من سنة 1976.

— لاشيء صلب وقوي داخل المنظمة. إنها ضعيفة واهنة القوى لا تستطيع أن تنجز شيئا جديا". بقي خالد مندهشا مبهورا. فواصل محمود الحديث قائلا:

— حسب معلوماتي، فإن كلام الميد عن الشبكات في الداخل كلام مغلوط. وحدها الاتصالات بالسلطات الجهوية والنقط الاستراتيجية عملية. أما الأسلحة والإمكانات البشرية فإنها ناقصة ومؤطَرة تأطيرا رديئا. وسأل خالدٌ قلقا:

— ولكن لِمَ المرور إلى العمل في هذه الظروف؟" جاء الجواب وكأنه صوت البداهة التي لا غموض فيها:

— نحن وسط النار. يجب أن نتحرك. الآن، إما الحصول على كل شيء وإما عدم الحصول على أي شيء[25].

بدا محمود وكأنه مسكونٌ بهاجس الضرورة التاريخية لشن عمل واسع. فهو يعرف أن النصر الثوري يدين لتضحيات الشجعان النبلاء، وهو مستعد ليدفع الثمن، عازم على أن يسلك الطريق الوعر الذي يعج بالخوف والخيانة والتهاون.

على أي شئ يستند هذا الاختيار؟ على تواطؤ موضوعي مع تاريخ يسير ويتقدم؟ على عجز يشل السلطة؟ ولكن أَلَمْ يكن القصدُ من خروقات النظامً هو إثارة تنظيم غير مرئي ودفعه لكي يُفصِح عن نفسه؟ لِمَ البحث عن جواب؟ فقد اقتنع محمود بأنه، وفي غياب التناسق والكفاءة، سرعان ما سوف ينكشف أن ادعاءات التنظيم الثورية ليست سوى ضرب من المغامرة. فقد جعلته ممارسته للتنظيم يقيس أضرار غياب الحركة الذي سقطت فيها إدارته. كم من المناضلين ضُحيَ بهم، وكم من فُرَص أهدرت ومن استفاقات جاءت متأخرة؟ إن العجز والانتهازية والمنافسات الداخلية قد شلت قدرة التنظيم على الحركة. أي مصداقية لمن يرغبون في الوصول إلى السلطة والذين يُسيرون حركةً كما يُدَبر المرء خصاما بين الجيران؟ كان محمود فزعا مرعوبا عندما وقف على أن وراء قرار البصري الاستعراضي، هناك فَرَاغٌ تنظيمي وسياسي، غُلف بعتامة الإيديولوجية. إنه يكره الاتفاقات السرية، حيث يكون التفاوض حول السلط والامتيازات هو الاستراتيجية. إن رداءة الإدارة تساوي خيانةً في نظره. فهي تخون المناضلين المستعدين للتضحية بأرواحهم في سبيل القضية. والأدهى من ذلك هو أنها تجعلهم يشُكون في عدالة كفاحهم. والحال أن الإيمان هو سلاح الثورة الأساسي. بتعليم الضعفاء والمحرومين الإيمانَ، يستطيع الثوري أن يغير مجرى التاريخ.

تقاسم محمود ورفاقه العديد من لحظات السهر ليلا داخل الخيمات. فهو يعرف طموحاتهم وتخوفاتهم وخاصةً غضبهم لكثرة ما حاول تهدئتهم وإرشادهم وتعليمهم الصبر وروح التضحية التي يتطلبها كفاحهم. كل شيء يهمهم غدا يرتكز على هذا التفهم الذي يشد بعضهم إلى بعض. هذا التفاهم الذي يعجز اللسان عن وصفه والذي يصنعه كفاح يومي ضد المحن والظروف المناكفة. لا شك أنه

---

25 حوار للمؤلف مع محمد التوزاني، المعروف بخالد.

يجب البحث هاهنا عن أحد الأسباب التي كانت وراء اختيار محمود. فقد كانت الثقة التي وضعها فيه هؤلاء الرجال والتي كان يقرأها في عيونهم ونظراتهم، هي الداعي إلى إنجاز عمل تحريري. وأمام الطريق المسدود، كان ولا شك دافعه الأساسي، أكثر من أي وقت مضى، هو الأمل في أن ينهض عهد جديد. أملٌ يتقاسمه جيل بكامله، اختار القيام بالعمل الذي يُمكنه من أن يخلق كل شيء أو ألا يخلق شيءاً البتة.

ولأنه لم يستطع إعادة هيكلة التنظيم هيكلةً تمكنه من أن يجعل منه أداةً ثورية فعالة، فقد كان يحتاج إلى رجالٍ ثقة ومتمرسين، قادرين على تعويض النقص في التنظيم. كانت المعلومات التي تصلّه من الداخل ترسم صورةً غير منتظمة عن الوضع: فالحزب، الذي كان في طور إعادة هيكلته منذ المحاولتين الانقلابيتين، لا يقدم أي قاعدة عملية يمكن الاستناد عليها، وقياديوه تراقبهم الشرطة مراقبة لصيقة. وهكذا فإن نجاح محمود رهين، وفي الآن نفسه، بقيمة الرجال الذين سوف يرافقونه وبقدراتهم على التحرك في إطار الاكتفاء الذاتي.

انتزعت ضرورة العمل خالد من الانهيار البطيء الذي أخذت تعرفه المنظمة، ليستعيد التحكم في قدراته. هذه الضرورة نفخت في قناعاته طاقةً جديدة. فمنذ العملية الفاشلة لسنة 1969، كان قلبه يتأرجح بين المرارة التي توحي بها شساعة الخسارة المخيفة والحماس الذي زرعه الغليان السياسي الذي يزعزع المغرب. وكأنه يريد التخلص من الحِمل الثقيل، حِملٌ مرعب، أجاب دون تردد:

— أنا معك. فتابع محمود قائلا:

— في هذه الحالة، سوف تتبعني إلى الجزائر العاصمة وستذهب عند الساهر في وهران حيث ستجد أوامري مكتوبةً[26].

كانت منطقة الريف مراقَبة عن قرب شديد منذ محاولتي الانقلابين العسكريين. كان إذن على خالد ورجاله أن يقيموا بها أقل وقت ممكن. أي أن يتم تسريب الأسلحة والمقاتلين إليها بضعة أيام قبل انطلاق العمليات. سوف تكون الأسلحة مُهيأة على الحدود الجزائرية والرجال يأتون مباشرة من معسكر التدريب الليبي. كان محمود يتوقع أن الأمر لن يكون انتفاضة منظمة من قبيل تلك التي كان يتوقعها في الأطلس ولكنها سوف تكون عبارة عن غارة. ففي ذهنه، بمقدور ضربة قوية ومفاجئة أن تعيد التعبئة التي كانت قد بدأت على المستوى الوطني والتي أهملتها قيادة آراؤها مشتتةٌ، فيما يخص مصير الثورة.

كان الاختيار وليدَ تفكير طويل. كان محمود يعرف عن الفقيه البصري ما يجعله يعتقد أنه رغم خلافاتهما، سوف يجاريه ليَبْقَى هو الزعيم على الأقل.

غادر محمود خالد بعد عناق قصير. إنه عناق لا يُعَبر طويلا عن العواطف حتى يكون تشجيعا صامتا. فطريقاهما، إن التقيتا ثانية، فسيكون ذلك عند اشتداد وطيس الكفاح التحريري الذي وهبا له حياتهما.

---

26 حوار للمؤلف مع بوراس الفيكيكي.

وهاهو بوراس الذي زار محمود في دمشق بضعة أسابيع من قبل، قد احتفظ في ذاكرته بالحجج التي استند إليها محمود: "كان مقتنعا بأن الظروف التاريخية الاستثنائية التي تولدت عن الانقلابين الفاشلين لن تتكرر. فبعد ثلاث سنوات من غياب الحركة، جاء الوقت في نظره للمرور إلى مرحلة العمل. غير مهم إن كان التنظيم لا يزال غير مستعد". وكان يكرر لي ب"أنه يكفي أن تُكوَن قواعد ثورية". قبل أن يضيف "أنه عندما تنهظ هذه القواعد، وبمساعدة الظروف الموضوعية، فإن الثورة سوف تستمر رغم الأخطاء الذاتية سواءً ارتكبها الفقيه البصري أم هو نفسه". قبل أن يضيف موضحا: "استشارني محمود في خصوصيات منطقة فيكيك والزناغا. فحذرته حينذاك من كل محاولة تسرب انطلاقا من هذين التجمعين[27]".

وتتذكر إلك، زوجة محمود، وأمي، ذلك التناقض بين عزمه والإهمال الظاهر الذي كان يحيط به: "في دمشق، صُدِمت بطريقة عيش بعض من رفاق محمود الذين يزعمون بأنهم ثوريون. ولكنه كان يكتفي برفع كتفيه [غير مكتَرث][28]". فبعض أطر التنظيم التي دخلت في وقت مبكر في هذا الكسل المريح الذي تتفهمه الأوهام البرجوازية، كانوا يرون في العيش الرغيد على أنه تجربة ثورية. ذلك أن عدوى العادات تنتقل بسرعة أكبر مما تنتقل عدوى الشجاعة. وهاهم يفضلون أن يترددوا على صالونات علية القوم ويستنكرون في الوقت نفسه بقناعة مدهشة، عادات الأغنياء، وذلك دون أن يتخلوا عن الكلام اللامع الذي يُبقيهم دائما في مرتبة النجوم في نظر المناضلين. كان طموح محمود الشخصي متواضعا. إذ إن الأمر بالنسبة إليه مسألة أخلاق سياسية. بل كان يتسامح مع إفراط بعض الرفاق: سوف تتعرف الثورة على أبنائها ... وتواصل إلك: "آخر مرة رأيته فيها كانت في القاهرة صيفَ سنة 1972. بعد أن مر وقت قصير على عودتي من فرانكفورت، حدثت عمليةُ شهر شتنبر من سنة 1972 ضد الرياضيين الإسرائيليين في ميونيخ. كانت الشرطة الألمانية في حالة استنفار، وكانت المراقبة على الحدود على أشدها. في هذه الظروف، كان يستحيل عليه الانتقال إلى فرانكفورت". ثم تضيف موضحةً وكلها يأس: "آخر رسالةٍ جاءتني منه تحمل تاريخ 11 نونبر من سنة 1972[29]".

السبت 20 يناير من سنة 1973، طريق مكناس

غادرت سيارةُ رونو 10 الرباط واتجهت نحو الشمال في يوم ممطر، كان على متنها ثلاثة رجال توجهوا إلى مدينة مكناس. يركب السيارةَ ثلاثةُ رجال، عباس خلف المقود، وإلى جانبه يجلس دهكون بجلبابه ولحيته اللذَين لم يبرحهما منذ ثلاثة شهور، إنه المظهر الذي بات يتخفى به، فيُظهِره أكبر من سنه (37 سنة) : لقد بات وكأنه أبٌ برفقة ابنَيه.

---

27 حوار للمؤلف مع إلك بنونة.

28 حوار للمؤلف مع إلك بنونة.

في الخلف، جلس المهتدي، من شبكة الدار البيضاء. تَكَوَّن المهتدي وهو شاب في التاسعة والعشرين من عمره في معسكر الزبداني. إنه شاب مندفع يكاد يكون غير مكترث بشيء. إنه "جيمس بوند" كما يقول عنه خالد عندما يتذكر جموحه الذي لا يتناسب مع الصرامة العسكرية. كانت للمهتدي نظرة رومانسية عن الثورة. فهي بالنسبة إليه لعبة، طريقة في مواصلة أحلام الطفولة في عالم الكبار القاسي. ففي السنة السابقة، في شهر أكتوبر من سنة 1971 ، كان ضمن مدبري عمليات لإحياءِ ذكرى اغتيال المهدي بن بركة. ومنذ ذلك الحين، قام برحلتين إلى الخارج، واحدةً إلى باريس والثانية إلى الجزائر العاصمة، وذلك من أجل تنسيق نقل السلاح لحساب دهكون. فعندما لا يكون حاضرا في اجتماعات خليته السرية في الدار البيضاء أو لا يطارِد أحدا أو لا يراقب مكانا، فإنه يعمل أمينَ وكالة النقل الحضري بالدار البيضاء.

وبعد مكناس، تزايدت مراقبة البوليس. كان القطار أكثر وسائل النقل أمانا. ترك عباس السيارة في مرأب بيته العائلي بمكناس، وودع عائلتَه مدعيا أنه ذاهبٌ لحضور حفل زفافِ أحدِ أصدقائه. ومن مكناس، وصل إلى وجدة على متن القطار صحبة المهتدي، في حينَ عاد دهكون إلى الدار البيضاء. وبعد أن أمضى المهتدي وعباس ليلةً داخل القطار، استقبلهما الجدايني في وجدة. وها قد تشكل ثلاثي التلاميذ السابقين بالمدرسة الثانوية الذين كانوا يقومون بالجولات الليلية للكتابة على حيطان مدينة سلا. ولكن تحولت الألعاب غير المبالية إبان أيام شبابهم إلى كفاح لا رحمة فيه من أجل الحرية. ذلك أن الجدايني، الذي أصبح مُدرسا في الثانوي وعضوا نشيطا في الحزب، تدرب في سوريا، وغدا الرجل المفتاح للتنظيم في وجدة.

فبعد أن عمل الجدايني على عبور المهتدي وعباس الحدودَ الجزائرية، أوصلهما إلى وهران عند ساهر الذي استقبلهم بوجبة غذاء ضخمة. قدم عباس نفسه قائلا:

— اسمي البراك، وهناك مَن ينتظرني.

بعد نهاية الوجبة، جاء شاب إلى بيت ساهر وطلب منهما أن يصحباه على بُعْد. قاد عباس والمهتدي إلى شقة في الطابق الرابع عشر من عمارة وسط وهران. كان عباس يتوقع أن يلتقي الفقيهَ البصري، وهاهو الميد يستقبله. ففي غرفة تتوسط المنزل، كان رجلٌ ينتظر، إنه محمود. المهتدي يعرفه. فقد تدربا معا في الزبداني. وبينما محمود والمهتدي يتبادلان الحديث في الصالون، أدخل الميد عباس إلى غرفة مجاورة.

ما كادا يجلسان حتى انهالت أسئلة الميد:

— كم عددكم؟ أين وصلت استعداداتكم؟"

انتاب عباس إحساس بأن هناك خطرا يكمن وراء هذه الأسئلة. لم يستطع الميد، وهو يتظاهر باللامبالاة والعزم، أن يبدد إحساس عباس. فاحتاط عباس ولم يُدلِ بكل التفاصيل:

— ليس هناك تنظيم. هناك عناصر فقط. إلى حد الآن، نحن ما زلنا نحتاج إلى مقاتلين قادرين على التحرك في استقلالية داخل المجتمع.

شعر عباس شعورا واضحا بأن الميد أخذ يفقد صبره. فعباس لن يعرقل مهما كان الثمن، العمل السري المتأني والدؤوب الذي أنجز منذ حوالي السنة. بيد أن الأحداث تسارعت. فقد انفجرت عدة ثورات في المغرب، فضاعفت من بؤر التوتر. خمن عباس اللحظة الحاسمة. ظهر أن الميد يريد الانتقال إلى العمل بسرعة. فقال دون مراوغة: "هنا، نحن مستعدون".

وحتى يَظهَر بِمظهرٍ لائق، أضاف: "بإمكاننا أن نقدم لكم الدعم اللوجستيكي الذي تحتاجونه".

وأما عباس، الذي بقي حذرا محتاطا، فقد تشبث بموقفه:

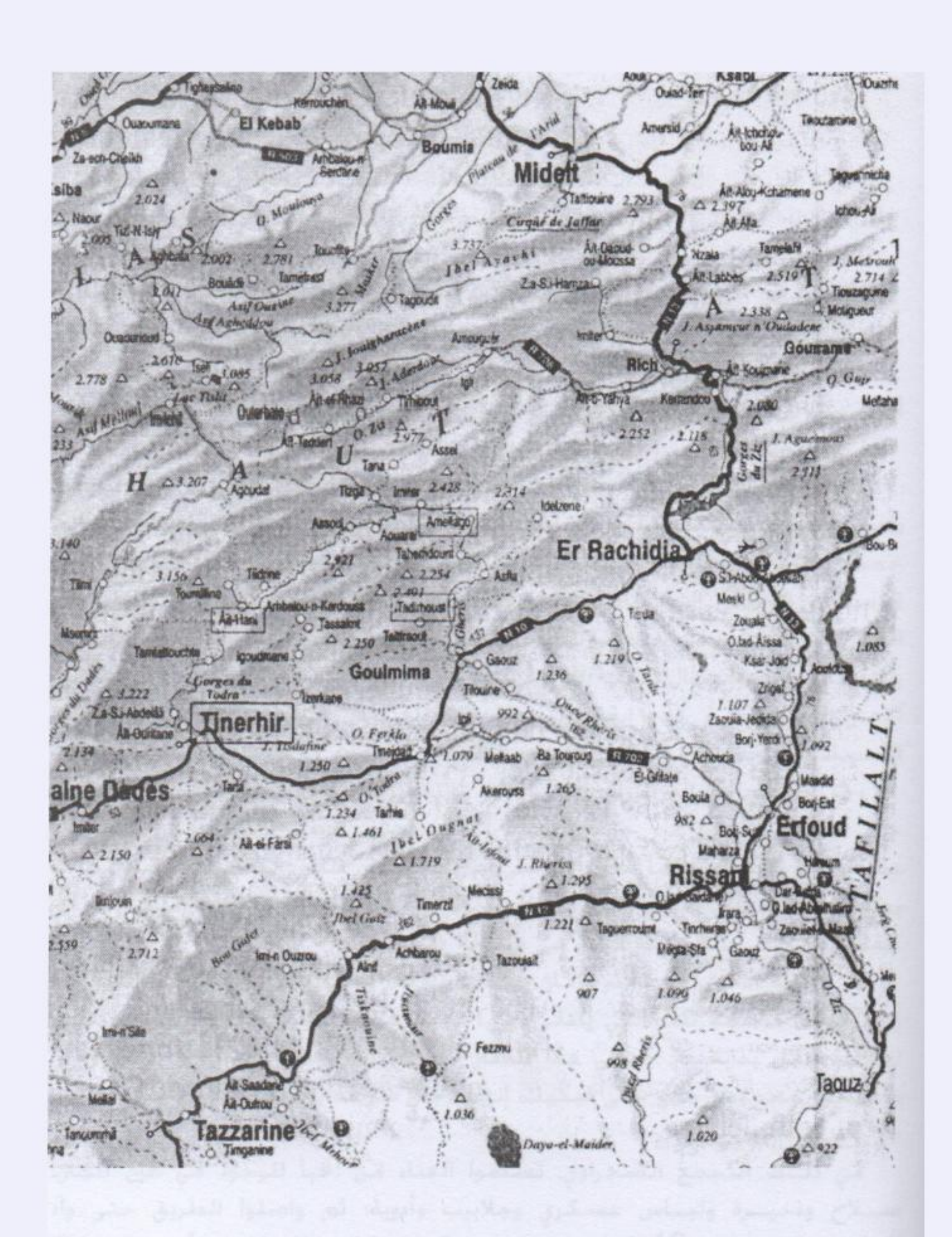
— أقول لك إننا لسنا مستعدين بعد.

وحسب عباس، فإن النقاش توقف هاهنا. رفض دعوة الميد له بأن يقضي الليلة في وهران، متذرعا بأن عليه أن يُدلي بمرافعة في اليوم الموالي بمحكمة الرباط. وكان الانطباع الذي خرج به من هذا اللقاء، ودون أن يجرؤ على التعبير بصراحة عن رأيه، انطباعا سوف يتقاسمه العديد من المناضلين: هذا الرجل لا يملك طينَةَ مَن يمكنه أن يتحمل هذه المسؤوليات.

دام اللقاء بين الميد والمهتدي نصف ساعة. وخلالها، تبادل عباس ومحمود، الذي كان لا يزال داخل الغرفة الوسطى، انطباعات عامة. وكما هي العادة دائما، فإن النقاش في هذا النوع من اللقاءات يكون عاما فضفاضا، إذ يتم تجنب التفاصيل الشخصية والتنظيمية بعناية. بيد أن عباس خرج من هذا اللقاء بالقليل من الرضى. فبعد غضب الميد، جاءت قوة محمود الهادئة لتمنحه شيئا يشبه المواساة. إنه الحوار الوحيد الذي كان لعباس مع محمود.

وكما كان الشأن خلال رحلة الذهاب، كانت العودة إلى وجدة تحت الأمطار. لم يتكلم أحد. كان صوت العجلات على إسفلت الطريق اللامع يؤثث الصمت. اليوم يومُ أحد. عاد الجدايني إلى وجدة، والمهتدي إلى الدار البيضاء، وعباس مباشرة إلى محكمة الرباط بعد ليلة من السفر.

بعد مرور ثلاثة أيام، أي يوم الأربعاء 24 يناير 1973، منع وزيرُ الداخلية الاتحادَ الوطني لطلبة المغرب.



El Kebab
Boumia
Midelt
Cirque de Jaffar
Jbel Ayachi
Rich
Gourrama
Er Rachidia
Goulmima
Tinerhir
Gorges du Todra
Gorges du Ziz
Erfoud
Rissani
Taouz
Tazzarine
Daya-el-Maider
TAFILALT
Tinejdad
Amellago
Imilchil
Zeida
Ksabi
Tighedouine
Tadighoust
Aït-Hani
Ouled-Ter
Amersid
Tattiouine
Meski
Zouala
Mellaab
Achbarou
Fezzou
Timerzit
Tazouguert
Alnif
Mecissi
Jbel Ougnat
Jbel Gafz
Oued Rheris
N 10
N 13
R 702

الأطلس (1973)

السبت 27 يناير

كانت سيارة بوجو 404 في المقدمة، تتبعها شاحنة. انطلق الموكب من فيكيك وعَبَر هضبة تافيلالت على علو يفوق الألف متر، وتوجه نحو كلميمة : حوالي خمس مائة كيلومتر من الطريق غير المعبد. وفي شهر يناير، كانت الليالي باردة قارسة في الأطلس. التصق الرجال الخمسة عشر بعضهم ببعض، كانوا يلبسون لباس القتال، ومكدسين في خلفية الشاحنة. فوق لباسهم ذي اللون الكاكي، وضعوا جلبابا من وبر الجمال. كانت الأيادي التي تشد على السلاح متجمدة من البرد. الاهتزازات المتتالية تحدد إيقاع الرحلة التي تغوص في الليل الصامت، فيتزايد الإحساس بحجم الخطر كلما اهتزت الشاحنة اهتزازات ما فتئت تتزايد وتكبر.

دخل محمود ورجاله التراب المغربي منذ ثلاثة أيام. إذ قادهم الفرشي وساهر والميد حتى الحدود، فدخلوا عبر حمدان بوعزة بلباس مدني، مساء يوم الخميس 25 يناير عند إطفاء الأضواء. وكما فعل الفرشي قبل سنة من ذلك عندما ودع النمري، هاهو يودع محمود بعناق طويل وحار، وكأنه يريد أن يمرر له تلك القوة التي جمعتهما في كفاحهما والتي ستحسم اليوم في مسألة نهايتها.

في الجهة الأخرى من الحدود، كان ينتظره ساعة، وهو المسؤول المحلي عن التنظيم. إنها لحظة حاسمة تلك التي يلتقي فيها مسار هؤلاء الرجال الذين كانوا يختلفون اختلافا خلال بداياتهم، يلتقي هذا المسار ليذوب داخل مصير مشترك. رافق رجال مسلحون محمود ورجاله حتى فيكيك: إنهم رجال شرطة يحرسون الحدود ومتعاطفون مع التنظيم.

في ذلك التجمع الصحراوي، تسلموا العتاد من المخبأ الموجود في عين المكان: سلاح وذخيرة ولباس عسكري وجلابيب وأدوية؛ ثم واصلوا الطريق حتى واد الهاسي، على بعد 16 كيلومترا غرب فيكيك. كانت المنطقة وبأعجوبة هادئة ومهجورة، لم تكن هناك أي مفرزة عسكرية. كانت مدينة فيكيك بكاملها،

من الفلاح إلى رجل القوات المساعدة، تساند قضيتهم. وكم كانت دهشتهم حين زار المقدم (وهو ممثل وزارة الداخلية على صعيد الدوار) رجالَ محمود. كاد فضولُه يودي بحياته. ذلك أن أوامر محمود كانت واضحة: إطلاق النار على أي رجل من رجال الأمن قد يظهر. وهكذا، كان بعض رجال محمود يستعدون جادين لإطلاق النار على المقدم. وهو مدين بحياته إلى إلحاح ساعة الذي أخبرهم بأنه عضو من أعضاء شبكته.

كان من المفترض أن يكون اللقاء مع مناضلي كلميمة في مفترق طرق يُدعى المسكي على بعد 80 كيلومترا من فيكيك. ولكن، وفي المكان المحدد، لم يأتِ أحدٌ، لا في الموعد الأول، ولا في الموعد الثاني الذي ضُرب في حالة تأخرٍ غير متوقع. ولأنه لم يعد بالإمكان الرجوع إلى الخلف، قرر محمود مواصلة السير تحت قيادة ساعة، ما دام الرجل قد سبَقَ وكان مساعدَ قائد السلطة بكلميمة.

عبَر الموكبُ مدينةَ قصر السوق دون أن يتوقف. بعد ثلاث ساعات من الطريق، وصل إلى كلميمة فجرَ يوم الأحد 28 يناير من سنة 1973. كان الجو باردا. كانت أولى علامات الشفق قد أخذت تتراءى خلف القمم المغطاة بالثلوج التي تطوق المدينة النائمة. فكلميمة، وسط واحةِ النخيل الفاخرة، ومنازلها الحمراء الجاثمة داخل علبتها الخضراء، كانت تبدو وكأنها مراكشُ صغيرة. في الجهة الغربية، تقف شامخةً جبالُ الأطلس الكبير. ومن جهة الشرق، تعلو أولى تضاريس الأطلس الصغير. وفي قعر هذه الحلبة الجبلية، تمتد، في اتجاه الجنوب، هضبةٌ صحراوية تتخللها الواحات. إنه موقع جغرافي أكسب كلميمة لقبَ باب الصحراء.

توقف صوت الشاحنة أمام محطة بنزين عند مدخل المدينة. إنها محطة يملكها اللوزي، الممثل المحلي للتنظيم[1]. وبينما الرجال يزودون الشاحنة بالبنزين، خرج ساعة لإخبار مناضلٍ من مناضلي التنظيم يسكن على بعد خطوتين من هناك. كان هذا المناضل نائماً أو يكاد، فأيقظه ساعة وهو يشتمه. وتذكر الرجل أن: "وصول الموكب كان منتظرا غدا، إنه قد وصل قبل الموعد بيوم[2]". إذن فاللقاء الذي لم يتم في المسكي سببُه خطأ في تواريخ الموعد.

وبسرعة، اقتيد محمود ورجالُه إلى بيتٍ صحراوي في قلب واحةِ النخيل التي تمتد على جوانب كلميمة. ولما علم المسؤولون المحليون بالأمر، جاءوا على وجه السرعة[3].

1 حدو اللوزي تُوفي سنة 1997 بمدينة الرباط.

2 حوار للمؤلف مع الحسين الخباب، المعروف بطام.

3 الجزء الأساسي من تفاصيل أحداث الأطلس مأخوذ من تقارير كتبها سنة 1973، بطلب من قيادة التنظيم، ثلاثةُ مساعدين لمحمود. نجوا من المعارك ولجئوا إلى الجزائر: سي إبراهيم والنجار والصغير. هذه الشهادات الثلاث التي تتطابق فيما بينها، قورنت بعد ذلك بشهادات جُمعت بين سنتي 1996 و2000 خلال تحقيقات مختلفة في الأطلس.

كلميمة

يتذكر مرزوق[4] ما حدث وكأنه وقع بالأمس القريب. فهو قد عرف ولد النصارا، وهو شاب من الرباط كان يناضل لصالح المقاومة الجزائرية نهايةَ الخمسينيات. ولكنه لم يكن يظن أن محمود الذي يتراسل معه بواسطةِ رسول هو الرجل نفسه الذي كان أمامه. كان مرزوق حينها فلاحا قوي البنية، سنه 40 سنة، وينحدر من عائلة من ملاكين صغار للأراضي شبه فيوداليين من قبيلة آيت عطا. كان حفيدَ شيخ من قبيلة آيت حديدو، وقد مكنه نسبه المتميز هذا من أن يصبحِ الكاتب الأول لِّلفرع الجهوي للحزب. ولكن وفي ذلك الصباح، استقبل محمود ورجاله بصفته عضواً في التنظيم. استقبلهم استقبالا حارا ما يشهد على الأهمية القصوى التي تكتسيها هذه اللحظة بالنسبة إليه.

ويحكي مسؤولٌ محلي آخر عن التنظيم: "كنت قد وصلت من تنغير عشيةِ ذلك اليوم صحبة سيدي حمو واثنين من رجاله. كنا نستعد لقدوم الأطر الثورية عندما أخْبرنا بأنهم قد وصلوا[5]". وكان سيدي حمو، ثائر الأطلس، فعلا ضمن القياديين المحليين الذين حضروا لاستقبال محمود. كان الجهل يقلص من مستوى الوعي السياسي عند الساكنة المحلية، ومن ثمة فإن هالة قادة التنظيم وهيبتهم سوف يكون لهما الدور الحاسم في تعبئة هؤلاء السكان من أجل خوض الكفاح. كان سيدي حمو سلطةً معنوية معترفاً بها في تنغير، يُهَاب ويُحْترم. وكان اللوزي، وهو شخصية ذكية ونافذة، يملك محطة البنزين الوحيدة في كلميمة وكان له أصدقاء كثيرون متواطؤون داخل السلطة الجهوية. كان الآخرون[6] شيوخا، يملكون هالة المقاومين. كان مناضلوا الخلايا السرية التي أنشؤوها في المنطقة قد تدربوا داخل الحزب. إذ كانت ثقافتهم التعليمية وحدها كافية لتجعل منهم أعيانا. وبعد أن تردد اللوزي طويلا بين جلال اللحظة والحماس الذي يحركه من أعماقه، لم يستطع أن يكبح اندفاعه وفرحته، فصرح: "إن السلطة المركزية لم يعد لها نفوذ ولا سلطة في المنطقة".

لقد كان حرمان السكان وقهرهم قد بلغ أوجَه وأصبح غضبهم محسوسا ملموسا مهدِّدا، والقوات المساعدة مستعدة لتنظَم إلى معسكر الثورة. ولأن اللوزي تعايش سنواتٍ مع البؤس، فإنه يعرف الشعور الذي يوجد خلف خمول الدواوير المحيطة. إلى جانبه، حرِّك القياديون المحليون الآخرون رؤوسهم دلالةً على أنهم متفقون. كانت سنواتٌ من الغضب تعبر عن نفسها، وكذا سنوات من الصبر. منذ خمس سنوات،

---

4 مات في حادثة في شهر يوليوز من سنة 2001.

5 حوار للمؤلف مع توركي عدي.

6 إضافةً إلى لحسن مرزوق وحدو اللوزي، حضر كذلك سي حموَ علا، شيخ تاديغوست، وسعيد أوداز وحسين آيت زابد وتوركي عدي.

أرسلوا جماعات من المناضلين ليتكونوا في الجزائر. توصلوا بالسلاح وخبأوه وشهدوا سيدي حمو والنمري يأتيان على التوالي. ولهذا فإن الكل رأى في وصول محمود ورجاله الحدث الهام.

بعد أن لبى محمود ورجاله نداء شهيتهم من الطعام، أمر محمود رجالَه بتنظيف السلاح الذي تسلموه في فيكيك. وأن يتوزعوا إلى مجموعات تتكون من أربعة أفراد. دون صَخَب. وأما الآخرون فكان عليهم أن يبقوا حذرين متيقظين. نفذوا الأوامر بحركات فيها من العناية ما يُذكر بإنجاز طقس غريب. ففي هذه اللحظة. وحده الزمن الحاضر هو الذي يهم.كانت الحركات قصيرة واللحظة حاسمة. وأثناء ذلك وزع محمود المجموعات والأدوات.

كانت المجموعة الأولى تتكون من أسكور وصبري، وهما من قدماء سنة 1969. فقد رافقا اليزيد في رحلته الفاشلة إلى تارودانت، وآيت عمي، وهو عضو سابق في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والباعمراني والناصري، وهما ضابطا صف سابقان في القوات المسلحة الملكية. هذه المجموعة سوف تتوجه إلى خنيفرة لتعزيز النمري وأمدة.

وأما المجموعة الثانية فتتكون من العثماني وبوزيان، وهما على التوالي ملازم سابق في القوات المسلحة الملكية ومقدم سابق بآسفي، وهما كذلك من قدماء سنة 1969. كانا ضمن الناجين من مجموعة الفرشي والملكي الثائر المبكر. والجزار ودحمان سعيد. وهما جنديان سابقان. سوف يتدخل هؤلاء الرجال [بالسلاح] في تنغير تحت قيادة سيدي حمو.

وأما المجموعة الثالثة فتضم سليمان العلوي وفريكس، الجندي غير النظامي، وثلاثة أعضاء آخرين من الكوموندو البحري: سي إبراهيم والنجار والصغير. وستبقى هذه المجموعة في منطقة كلميمة لتأطير خلايا اللوزي. وسوف يكون محمود إلى جانبهم لتنسيق تحركات فرق الكوموندو.

كل مجموعة تشكلت كانت تضم، كما هو شأن قوات النخبة، رجالا أكفاء في مجال التسلح والقنابل والاتصال عن بعد. لم يكن أحدٌ من هؤلاء الرجال مبتدئاً. عمرهم في المتوسط 35 سنة، تكونوا في الزبداني وعرفوا صرامة وقساوة معسكر أوواطا في الجزائر. قاوموا في صفوف الفدائيين الفلسطينيين ونجوا من الاعتقالات التي ذهبت بالرفاق. إنها اختبارات رمتهم في قرار أنفسهم هم بالذات، في ذلك المكان الذي يُجابه فيه الضميرُ القناعات والقدرات على المقاومة، ليخرج منه وقد تغير بكل تأكيد.

في نهاية هذا المسار، احتفظوا بميلهم إلى الثورة سالما، في الوقت الذي قد يميل فيه معاصروهم، الذين تُخضعهم المحن والظروف الصعبة، إلى القبول بأوزار الطاعة

والإذعان. لقد جعلت منهم تجربتهم النواة الصلبة لنخبة ثورية عزمُها لا تشوبه شائبة. اجتمعت فيهم خصالٌ قلما تجتمع في فرد واحد: إنكار الذات والشجاعة والنزاهة. وبالنسبة إليهم، غدا التخفي طبعاً ثانياً والجَلَد قوةً لا يساور فيها الشك. وباختصار، فإن محمود قد اختار من بين أعضاء جيشه أفضلَهم ليخوضوا كفاحا في مستوى تضحياتهم.

وبعد يوم من الراحة، طلب محمود من المجموعات أن تستعد للرحيل. وذكر مرةً أخرى مسؤولي الجهات بتعليماته:

— كونوا على استعداد للهجوم يوم 3 مارس، يوم عيد العرش.

بَرْمَج محمود شهرا ليعيد تنظيم الخلايا، وتكوين المناضلين المحليين وتدريبهم على القتال ووضع جهاز للهجوم. وهكذا فقد كان في نيته أن يشعل فتيل الانتفاضة مباشرة بعد ذوبان الثلوج وكفايةً قبل أولى لفحات حر فصل الصيف.

غادرت المجموعة الأولى كلميمة على الساعة الواحدة صباحا لتتوجه إلى خنيفرة تحت قيادة موحى أوالحاج، الرجل النافذ والنشيط في اخنيفرة، ومعهم رجاله. وأما الثانية فلم تتوجه إلى تنغير إلا في اليوم الموالي، يوم 29 يناير، على الساعة الثانية عشر ليلا. وأما محمود والرجال الباقون فقد غادروا الملجأ بعد ساعتين من رحيل المجموعة الثانية. ركبوا الشاحنة لتوصلهم إلى قرية صغيرة توجد على بعد عشرين كيلومترا غربَ كلميمة، أسفلَ سلسلةِ جبال الأطلس الكبير: قرية تاديغوست.

تاديغوست

المنطقة متوحشة، أرض خلاء طبيعية، تنتشر فيها قصور متفرقة، والقصور هنا تُطلق على حصون من العصور الوسطى، تشهد على ماض هائج صاخب وعلى حاضر استقر في سِلم نسبي. كان الجبل العاري، الذي يشرف في جلالٍ على الهضبة، يتباهى بقممه التي تكسوها الثلوج. لقد شكلت قساوة ووعورة الطبيعة والمشهد طباعَ السكان. فقد كانت الحياة ثمرة كفاح يومي ضد طبيعة قاسية وعرة. خلقت تخوم هذه الجبال القاحلة، لأنها ربت ساكنتها على التقشف والزهد، مواهبَ نبيلة ومقاتلة كثيرا ما وقفت في وجه فساد السلطة المركزية. ولا شك أن هذا السبب هو نفسه الذي دفع حكام المغرب المتتالين، من ذوي السلطة المعنوية المتذبذبة، إلى أن يخصوا هذه المنطقة بدورٍ بئيس: فجعلوا منها قِبلةً للنفي والاعتقالات السرية: أغبالو زمن الحماية، والسجن الشهير ببؤسه، تازمامارت، وقلعة نكردوس في عهد الحسن الثاني.

كل قصر من تلك القصور يأوي بداخله ثوارا واعين أو كامنين. إنهم رجال ونساء يشتغلون خمس عشرة ساعة في اليوم منذ طفولتهم، وعزاؤهم الوحيد هو بضع

ويتذكر الميد قائلا: "التقيت محمود بوَهران لأول مرة. كان يتحدث قليلا ويقرأ كثيرا[8]". وبتعليمات من الفقيه البصري، الذي كان عازما على مواصلة المبادرة، تكلف الميد بربط الاتصال بالخلايا الموجودة في المغرب. فبعد أن كان الميد رجلَ عبور في مليلية، ارتقى ليتسلم زمام القيادة بعد أن بقي المكانُ فارغا بسبب الاعتقالات العديدة التي جرت منذ ثلاث سنوات. وكان يوزع وقته بين باريس ووهران والجزائر العاصمة، مازجا مزجا بين الأعمال والأنشطة السرية والاتصالات بالمخابرات-المضادة الجزائرية وأحيانا المغربية.

وعند نهاية سنة 1972، حذا حذوه آيت قدور بالعاصمة الجزائرية. "غادرت باريس غداة الانقلاب وذهبت إلى طرابلس ما بين *17* و *20* غشت. قدمني الفقيه البصري على أنني الرجل الذي حرك الجيش ونظم لي جولة شرفية في ليبيا. وبين حصص المناقشات السياسية وبرنامج المذياع، التقيت الهوني الذي أعطاني أموالا لأسلمها للفقيه البصري[9]". وكانت المرحلة الموالية هي الجزائر العاصمة يوم 16 شتنبر. وحسب آيت قدور، فقد كان السيناريو هو نفسه : تقديم "رجل الجيش" للسلطات وجمع الأموال. ويواصل آيت قدور : "ويوم *4* نونبر من سنة *1972*، عدت إلى الجزائر العاصمة. كان الفقيه البصري ينوي إنشاء قاعدته العامة بها وكلفني بتحضير وصوله".

ولكن في وهران، اعترض الميد. إذ سرعان ما أفصح الجزائريون عن الرجل الذي يفضلونه: الميد. قبل آيت قدور بالأمر دون انزعاج. فعلى كل حال، هو واحدٌ من أعضاء المنظمة الدائمي الترحال. فهو يوجد في الجزائر العاصمة دون أن يكون فيها حقا.

وحدثت صدفة في التوقيت، إذ في بداية شهر دجنبر، قام مدير الأمن الترابي، أحد أهم مصالح المخابرات المغربية، بزيارة خاطفة للعاصمة الجزائرية. كان يحمل في حقيبته طلبا من الحسن الثاني موجهاً إلى بومدين. كان ملك المغرب يطلب تدخلا ضد مخزن للسلاح للتنظيم يوجد بعين تورك. تعرفَتْ على مكانه مصالحُ المخابرات المغربية. كان مصدر تسرب هذه المعلومة غير أكيد. تحدث البعض عن اعترافات انتُزعت من الحسين المانوزي. وربط البعض الآخر، كما هو شأن خالد، الأمر باعتقال ناقل سلاح بوجدة يُسمى بولفارش، وهو مهاجر في ألمانيا تكَون في ليبيا. وخلال عملية البوليس التي قادها الأمن الجزائري، اعتُقل بضعة رجال وهرّب آخرون. لم يُلحق حجز السلاح سوى أضراراً بسيطة بالشبكة التي احتفظت بالجزء الأكبر من ترسانتها العسكرية الموزعة بين طرابلس ووهران والجزائر العاصمة والمغرب. بيد أن هذه العملية كان لها وقعُ الإنذار. والغريب أن السلطة الجزائرية تبرر هذا التدخل العنيف بذريعةٍ واهية: هي أن معارضي بومدين لربما يستفيدون من الجهاز اللوجستيكي للتنظيم.

8 حوار للمؤلف مع أحمد خير، المعروف بالميد.
9 حوار للمؤلف مع محمد آيت قدور.

ويقول بنيحيى: "أرسلني الفقيه البصري إلى الجزائر العاصمة للتفاوض مع دراعيا (المسؤول الكبير عن الأمن الجزائري منذ سنة 1965) في أمر إطلاق سراح آيت عمي وصبري وأسكور، الذين كانوا حينها في قبضة الخابرات منذ اعتقالهم بعين تورك[10]". وسوف يَدعي الميد بأنه قام بالمهمة نفسها : "ذهبت لملاقاة دراعيا ليعمل على تحرير رفاقنا[11]".

ولكن وبما أن الفقيه البصري كان يحسن الاستفادة من هذا النوع من المواقف، فإن الحادث سوف يسهل، وهنا المفارقة، عودته إلى العاصمة الجزائرية لتستأنف المفاوضات مع بومدين.

اجتماع باريس: نهايةَ سنة 1972

اعتاد هونري كيريبل[12]، وهو الخبير في الأمر، أن يقول: "العمل السري سرعان ما يُنهك". هل هو التوسع الكبير الذي أصبحت تعرفه المنظمة، أم التفريق المتزايد بين المهام أم، وبكل بساطة، إنهاك الزمن؟ ويتذكر آيت قدور[13] أن الواحد "يصبح موضع شك بدون سبب، فيُشَك فيه بأنه من البوليس؛ كانت التقارير كثيرة وفيرة". العمل السري خصب فيما يخص الإشاعات والشكوك حسب الخلافات التي سرعان ما تتحول إلى اتهامات. تزايدُ الحصار، والقيادةُ تبخل بتقديم الشروحات وعملٌ ذكي من قِبل الخابرات المغربية وأحيانا الجزائرية لإدخال المرض . كلها أمور غذت وشجعت إحساسا جماعيا بالذُهان الهذياني.

لا شك أن العمل السري يمنح الإحساس بطعم تلك الحرية التي يطمح إليها المناضلون. ولكنها حرية مصحوبة بسلسلة طويلة من الاكراهات باسم ضرورة الأمن. المشي ساعات طوال على الأقدام في الشوارع والأزقة للانفلات من مطاردة، وتفتيش مكانِ الموعدِ عدةَ مرات، وحفظ لائحة طويلة وطويلة من الأسماء المستعارة، وانتظار أمر مَفترضَ طيلة أيام وأيام، والعيش بين مخبأ وآخر، وخاصة .. الحيطة من آذان تُفرطُ في الإنصات لأنها ليست صديقة. كل هذا إضافةً إلى الخطر الدائم والحاضر في كل الأذهان بأن يتم الاعتقال والموت المحتمل إن لم يكن أكيدا في نهاية المطاف. إن المصادفات خلال العمل السري الذي لا يعرف المرء دوافعه ولا مقاصده تنخر الأعصاب وتزعزع القناعات. باسم ماذا اعتُقل رفيقٌ؟ هل كان لتضحيته ما يبررها؟ إن الشك يخنق الضمائر. فكيف إذن يجابه المرءُ الموتَ عندما يغيب الأمل؟

---

10 حوار للمؤلف مع محمد بنيحيى.

11 حوار للمؤلف مع أحمد خير، المعروف بالميد.

12 "رجل فريد متميز، هكذا كان هونري كيريبل"، جيل بيرو، كتاب الجيب، 1984.

13 حوار مع المؤلف.

ولهذا ليس من النادر أن يحاول المناضلون التعرف على المسؤولين عن فشل هذه العملية أو تلك. وعلى رأس الهرم، كانت الأمور تُتَرجَمُ دائما بالسيناريو نفسه: خلايا أزمة وشروحات وقرارات. وفي القاعدة، كان هذا يخلق إحساسا محبطا بضرورة العودة إلى نقطة الصفر.

وهذا ما حدث نهاية سنة 1972.

وبما أن تحذيرات محمود للفقيه البصري لم يكن لها أي وقع، فقد دعا إلى اجتماع في باريس. وكان غرض خلية الأزمة هاته، والتي تم استدعاؤها على وجه السرعة، هو القضاء على هذا المسلسل الثابت الذي أخذ يشتت الحركة. انعقد الاجتماع في بيت صغير بفيل جويف، في الضاحية الجنوبية بباريس. شاركت فيه الأطر الرئيسية للتنظيم، إبراهيم وآيت قدور وعجول ومحمود[14]. التحق بهم بنيحيى الذي كان يُعالَج في باريس من داء السل. أرسل الفقيه البصري الذي كان غائبا أخاه حسن كملاحظ. غضب محمود لكون حسن البصري يلعب دور النائب عن أخيه، وتلقى محمود الضربة في صمت. احتفظ بهدوئه ولكن ابتسامته المعروفة لم تعد تنذر سوى بتدهور العلاقات الداخلية. وبعد التحيات والمجاملات الاعتيادية، توالت التقارير. اتفق الحاضرون على أن تراقَب أنشطةُ التنظيم مراقبةً أفضل. وتم توزيع المهام من جديد.

وها قد ظهرت البوادر الأولى لتطهير المنظمة. ولأن محمود كان رجل سياسة متمرسا، فإنه تعرف -وكتاباته تشهد على ذلك- على خطرٍ له علاقة بأنشطة الفقيه البصري الموازية. وهو يعرف كذلك أن الميد هو الحجرة الرئيسية. ويتذكر إبراهيم قائلا: "عندما رجع محمود من وهران، كان يشتكي من الميد. قال لي: إن أعمال الميد في وهران تمثل الفوضى العارمة بعينها[15]". وأمام ساعة، أدلى محمود بملاحظة أكثر بلاغة وتعبيرا مما كانت عليه سالفتها : "عندنا، كل شيء يُشترى[16]".

كان لمحمود الوقت الكافي للوقوف على عدم كفاءة رجلِ الفقيه البصري هذا الذي يتكلف بكل شيء، فيما يخص تلك الأمور البسيطة التي يمكنها أحيانا أن تنقذ أرواحا. ولكنه كان يخشى ما هو أدهى. أيُّ انعدام كفاءةٍ يمتزج بطموحات خطيرة تتخفى وراء بلاغة الميد الخطابية المتباهية الكبيرة؟ كان الميد يتكلم بتلك الثقة التي يكتسبها المرء من معرفته بالأسرار الخفية. أكيد أن محمود كان معتادا على جحود بعض الأطر الناكرة للجميل وعلى تباهيها. ولكن، وفي هذه الحالة بالضبط، أحس محمود إحساسا مخالفا، لم يكن قادرا على تمييزه بوضوح. فمنذ أن أطلق الميد الرصاصات الأولى خلال المقاومة، ومساره الملتوي عبارة عن عشرين سنة من الحسابات

---

14 تحدث بنيحيى عن وجود الميد والطالبي وعمر زاهير.

15 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشلح.

16 حوار للمؤلف مع محمد بن عمارة، المعروف بساعة.

والطموحات غير الواضحة. فهو قادر على مناورة غير مضمونة من أجل تحقيق أغراض شخصية: يحسد الرفاق الذين قد يملكون بعض المال. إنه رجل خطير، لأن شأنه صغير. ومع ذلك، فإن كانت الآراء تجمع على ضيق أفقه الفكري وعلى ميله المَرَضي إلى المال، فإنها تختلف فيما يخص تواطؤه المفترض مع المخابرات المغربية. ولأن محمود كان يعرف بأن شبكة الميد تقوم على تحالفات قَبَلية وجهوية فإنه شك في كونه، ولهذا السبب، قد سُرب تسريبا.

وفي اليوم الموالي، وقبل أن يغادر محمود باريس، التقى ثانية بآيت قدور في مقهى في ساحة إيطاليا. جلس الرجلان إلى طاولة وتبادلا انطباعاتهما عن اجتماع الأمس. كانت باريس غارقةً في كآبة ظهيرة خريفٍ في أواخر أيامه. كان الجو ثقيلا، محملا بعاصفة مترددة، فزاد الأمر من جلال اللحظة وخطرها.

حذر محمود آيت قدور: "إن أهدافنا الثورية أصبحت متفاوتة مقارنة مع إمكاناتنا". وافق آيت قدور على الأمر بحركة من رأسه دون أن ينبس بكلمة. واصل محمود:

— إن كان الفقيه البصري يريد أن يعتمد على الميد فهذا شأنه. وعندما يحين وقت الرجوع، سوف نرجع ولكن لن أقبل بأن يُطلَبَ مني أن أقدم ثمرةَ عملنا على طبق[17].

كان لبنيحيى كذلك حوار على هامش الاجتماع مع محمود: "أخبرني بتحفظاته فيما يخص الميد، وهو الأمر الذي كنت اتفق معه عليه. وبعد ذلك، تحدث عن تخوفاته فيما يخص تطور الوضع السياسي، وفي الأخير، أخبرني بأن الفقيه البصري قد ربط العلاقات ثانية مع الجزائريين[18]". في تلك اللحظة، لم يُثر هذا الخبر الأخير أي تعليق. بيد أن بقية الأحداث سوف تسبغ عليه دورا حاسما.

طرابلس، نونبر سنة 1972

كانت كل الأمور عادية عندما أخذ محمود بنبرته الهادئة يعدد لائحة حاجاته لإبراهيم. فهو قد وصل عشية ذلك اليوم إلى طرابلس، وهاهو يسأل كما هي عادته عن آخر التطورات في ليبيا، دون أن يهمل أي تفصيل من التفاصيل. ولكنه لم يخبر إبراهيم بدخوله المقبل إلى المغرب إلا بعد أن انفرد به في غرفة بفيلا ابن عاشور. ولأن إبراهيم كان صلة الوصل مع الليبيين، فقد كان عليه أن يلبي الحاجيات من الأسلحة على المدى الطويل. كان محمود يطالب بأسلحة كلاشنيكوف وقاذفات للقنابل ر.ب.ج. ومدافع هاون خفيفة من صنع إنجليزي، على أن يتم نقل هذه الأسلحة إلى المغرب حسب برنامج موضوع سلفا. وفيما يخص النقل، قدم الليبيون مساعدةَ طائرات

---

17 حوار للمؤلف مع محمد آيت قدور.

18 حوار للمؤلف مع محمود بنيحيى.

ناقلة للبضائع. إذ بات الليبيون يملكون طائرات ناقلة كبيرة يمكنها أن تزود مباشرة دون ضرورة التوقف في الجزائر. وكان طيارون يوغسلافيون، قادرون على الإنزال على علو منخفض، يعملون منذ زمن قصير في القواعد الليبية.

خُصصت إذن اللحظات الأخيرة من اتصالهما على انفراد لوضع شفرة اتصال وفق أبجدية تشتغل حسب وظائف حسابية بسيطة. وباتت الإذاعة الليبية هي وسيلة التواصل مع الجماعات الثورية بعد أن كانت حتى ذلك العهد أداة للدعاية. بعد أن انتهيا من هذه الإعدادات، ركب محمود وإبراهيم سيارة دجيب للذهاب إلى معسكر التدريب. وهاهو إبراهيم يعيد تركيب الحوار من جديد. سأل محمود:

— كيف هو حال "التلميذ" (الهوني)، هل يتعلم جيدا دروسه؟

فقال إبراهيم:

— لقد توقف، نظرا لضيق الوقت أو فتور في العزمة. فأنت تعرف بأنه لا يستيقظ باكرا في الصباح. كان يريد أن يبدأ دروسه في اللغة الفرنسية على الساعة الثامنة صباحا، وكان قد رتب كل شيء من أجل تحقيق هدفه. فمعاونوه وضعوا سبورة كبيرة في قاعة الاجتماعات. ولكن صبره دام خمسة أيام، ثم عاد ثانية ليصبح رجل الصحراء، لا يضبط المواعيد.

— لقد فقدت إذن الاتصال الشخصي؟

— ليس تماما، ما زال "التلميذ" يزورني بعد قيلولته. يُحضر معه الجرائد الفرنسية، نشرب القهوة وأترجم له المقالات.

فقال محمود لإبراهيم مؤكدا:

— عليك أن تحافظ على الاتصال.

— نعم، يا محمود، ولكن أتذكُر أنني في قضية العقيد (الكولونيل) أمقران في جبل طارق، وجدت صعوبةً في الاتصال به، ورغم نداءات ملحة، فإنه لم يكن يجيب.

قهقه محمود ضاحكا، ثم توقف وقال:

— لا شك أنه كان في حاجة إلى أن يتشاور.

كانت البناءات الأخيرة في جنزور، وهي ضاحية من ضواحي طرابلس، تمتد حتى الأفق. ولم تكن قاعدة التدريب بالسواني سوى على بعد بضعة كيلومترات. مرت سيارة الدجيب بسلسلة من المنعرجات لتتفادى الأخاديد والحفر التي تتخلل الطريق.

لاحظ محمود قائلاً : "إنك تحسن قيادة هذه السيارة". ثم وفجأة، ولأنه قلق بسبب غياب الرجل الذي يستأجر هاته العربات المحملة بالسلاح عبر الصحراء، قال بصوت ساوره الشك:

— بالمناسبة، ما هي أخبار الحسين المانوزي؟

— لا خبر عنه، منذ وصلت برقيته الموقعة باسم "غاسبار".

قطع صمت طويل حوارهما. كان الجزء السفلي من الطريق يمر أمام عينَي محمود. عن قريب، تكون عشرة أيام قد مرت. ولم يظهر أي أثرٌ لحسين المانوزي. ودون أن يعترف بالأمر حتى لنفسه هو، شك في كون الرجل قد سقط في أيدي البوليس السياسي المغربي. فقد أصبح قتل الرجل، كما هو شأنه هو نفسه، أمرا مطلوبا منذ محاكمة مراكش. وبعد أن ابتلعَت السيارةُ كيلومترا واحدا وهما صامتان صمتا مطبقا، عاود إبراهيم النقاش.

— وأنت في وهران، هل هناك مِن تقدم؟

فتنهد محمود وقال :

— لا، تطاردنا مخابرات دراعيا، وقد انضاف إليها اليوم الأمن العسكري الذي بدأ يتدخل في الأمر.

— ومناضلونا ؟

— هنا، وعلى العكس، يجب أن نتقدم، أن نمشي إلى الأمام. فإن الانتظار قد أصبح خطِرا.

— لا شك أن سي محمد (الفقيه البصري) طلب مني لهذا السبب أن أرجع لَكي أنسق العمل بين بوعرفة وفيكيك.

استدار محمود مندهشا مذهولا:

— ومَن الذي سوف يتكلف بليبيا؟

— المسؤولُ عن التنظيم في سوريا".

فأجاب محمود:

— لا أبداً، أنت تبقى في طرابلس، فنحن نحتاجك في طرابلس... وقد اعترف إبراهيم فيما بعد : "دون أن ينتبه محمود إلى الأمر، فإنه كان قد أنقذ حياتي[19]".

عندما وصل محمود إلى السواني، استقبله رفاق الزيداني استقبالا حارا. كان حماسهم يتناقض مع اندهاش الجندين الجُدُد الذين يرون محمود لأول مرة. فهم يعبرون عن عاطفة تتجاوز كثيرا العلاقات غير المشخصنة التي تجمع الرفاق الثوار: منذ تجربة حرب العصابات الفلسطينية، التي تقاسمها هؤلاء الرجال على طول ضفتي نهر الأردن، وهم متعلقون بمحمود تعلقا لا تشوبه شائبة. واليوم، فإن مجيئَه يُخرجهم من عزلة وَلّدَها غيابُ العمل وغياب الخطر المشترك. وعند الانتهاء من تعابير الفرحة باللقاء وتبادل العناق، انفرد محمود بحوالي خمسة عشر رجلا كان قد كَلفَ بهم خِصيصا مدرباً عسكريا ليبيا.

وأما إبراهيم فقد ارتجل حلقةً (دائرةُ تكوين)؛ كان محور النقاش فيها هو موضوع سياسي من وحي الظرف الراهن.

ويحتفظ أيضا خالد، وهو مسؤول في المعسكر، بذكرى دقيقة عن هذه اللحظات، وخاصة ذكرى اجتماع دام ثلاثة أيام متواصلة بإقامة ابن عاشور حضره محمود وآيت قدور والميد والفقيهٍ البصري. كان الجو متوترا. إذ كان آيت قدور والفقيه البصري

---

19 حوار مع المؤلف.

صامتَين متكتمَين كما هو شأن عِلية القوم عَشية مؤامرة. كان المِيد منفعلا. ورغم أن محمود كان يبدو هادئا، فإنه كان فريسة غليان داخلي قوي. مع الفقيه البصري ومحمود وآيت قدور كانت قيادة الثورة مجتمعة.

وكان حضور المِيد، وهو المكلف بالتدبير واللوجستيك، يدفع إلى الاعتقاد بأن مضمون المناقشات سوف ينصب على المسائل التقنية والتنظيمية. وكان خالد قد دُعِي إلى حضور جزء من النقاشات، علم عندها أن مجموع الجهاز قد استُعرِض في اللقاء: الوضع السياسي والخلايا المحلية ومخابئ الأسلحة والمواصلات والتزويد. قُسم التراب إلى ست مناطق عملية، منطقتين في الشمال، ومنطقتين في الوسط، ومنطقتين في الجنوب. كان من المفترض أن كل منطقة تم تحديدها ستستقبل بؤرة ثورية تتكون من مناضلين مستعدين للقتال، ومن مصدَرٍ مُنْتَظِمٍ للتزود ومن وسائل التواصل ومن قاعدة للتراجع.

توجه محمود إلى خالد وأخبره بأنه سوف يتقاسم قيادة منطقة الشمال مع المِيد، وذكر أسماء أربعة أطر سوف تساعده في هذه المهمة. فعبد السلام العالي، فيكيكي الأصل، تخرج مثله من الأكاديمية العسكرية السورية سوف يساعده فيما يتعلق بالجانب العسكري[20] وهو يوجد سلفا في المغرب. إنه مستخدم في البريد بوجدة. وسوف تتحمل ثلاثة أطر من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب تدربت في ليبيا مسؤوليةَ الإدارة السياسية[21]. كانت البنية التنظيمية مستوحاة من نظريات حرب العصابات الفيتنامية إلى جانب قيادة سياسية-عسكرية على مستويين. كان من المفترض أن هذا النمط من التنظيم سوف يعوض الضياع المحتمل لأحد المسيرين بفضل قيادة نائمة مستعدة لمواصلة الطريق.

اعترض خالد موضحا بأنه لا يعرف عن منطقة الريف شيئا. فرغم أن اسمه العائلي ريفي الأصل، فإن علاقاته بالمنطقة قد انقطعت منذ سنين. وافق الفقيه البصري بحركــة من رأسه ولاحظ ببساطة أن الأصل لا يهم كثيرا. وعلى كل حالٍ فإن محمود، الذيّ أصله من الرباط، سوف يعمل في قلب الأطلس. اقتنع خالد جزئياً، وسأل عن رفاق الدرب مستقبلا. فهو يعرف معرفة جيدة العالي، الذي تخرج مثله ضابطاً من الجيش السوري. ولكن الآخرين مَن هم؟ ما هي الوسائل التي تمتلكها شبكات منطقة الريف؟ كم هو عدد المناضلين المستعدين للقتال والقادرين عليه؟ وعند كل سؤال كان الفقيه البصري يترك الكلمة للمِيد الذي كان يجيب بنبرة المتأكد المتفق المتحمس:

— لقد تم تهييء كل شيء.

---

20 حُكِم عليه بالحبس عشرين سنة في محاكمة القنيطرة. سنة 1973 .

21 يهمَ الأمر، حسب شهادة خالد، عمر الزاهرير وأحمد كرم وأحمد أوباري، وهم ثلاثة أطر من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. وخالد يعرف أحمد أوباري لأنه سبق وأن التقاه في دمشق داخل أوساط الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية.

لم يكن خالد يعرف الميد. إنها أول مرة يراه فيها. فحاول جاهدا أن لا تظهر عليه أي علامة. فلم يُظْهِرْ أدنى شك. وذلك رضوخا منه لروح الانضباط أكثر مما كان عن اقتناع. فقد بدا له الرجل معتادا أكثر على التعابير الرائجة في مجال السياسة. تلك العبارات الملساء والغامضة. أكثر مما هو معتاد على تعقيدات الأمور العسكرية. اندهش خالد اندهاشا شديدا. فاستفسر بنظرهِ محمود. ثم سأله:

— إن ما تطلبه مني يخلو من الحيطة والحذر. أن أرجع ومعي ثلاثة أسلحة كلاشنيكوف للرجل الواحد هو. وبكل بساطة. ضرب من الانتحار. من الأفضل أن تسبق الأسلحةُ دخولَنا[22].

فيما بعد سوف يفهم خالد السبب العميق الذي دفع محمود إلى اتخاذ مثل هذا القرار. مهما كانت فيه من مخاطرة.

وكما هو شأن خالد. مرت أطر أخرى أمام القيادة المجتمعة في المجلس. وذلك من أجل أن يبلغوا بتعيينهم. من بينهم مصطفى الوالي: كان الوالي رياضي الهيأة. ذا بشرة دبغتها الشمس. كان يثير انتباه كل مَن يراه. جنده محمود في وهران في شتنبر من سنة 1972. إنه مناضل نشيط في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب بالرباط. كان معروفا برفضه ومعارضته. فغادر سرا البلد بمساعدة الخصاصي. ولما وصل إلى طرابلس. جنده الفقيه البصري. إذ سبق أن كان أبوه مقاتلا في صفوف جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. إنها مؤهل له قيمته في نظر المقاوم السابق. يقول إبراهيم: "خصصت للوالي وقتا في الإذاعة ليتحدث أسبوعيا في برنامج باللهجة الحسانية. وهي لهجة ساكنة الصحراء أيام الإسبان[23]". وهي المهمة التي قبلها الوالي دون تردد. ولكن سرعان ما اكتشف محمود والفقيه البصري في الوالي خصال قائد قادر على فتح جبهةٍ ثالثة في الجنوب[24].

ساعة الاختيار

يتذكر خالد أن "محمود والفقيه البصري لم يعودا يتبادلان الحديث". فقد تحول عدم الاتفاق السياسي إلى نزاع شخصي. دفع هذا التنافس الكامن كل واحد منهما إلى البحث عن تضامن المقربين منه أو مَن يُفترض فيهم ذلك. لم يكن محمود رجلا يبوح بالأسرار. بيد أنه. وعند نهاية أحد تأملاته الطويلة التي كانت تجلب أفكارا يفضل المرء أن يتقاسم ثقلها مع غيره. اعترف بقلقه. فأمام باب فيلا ابن عاشور. حيث ودع خالد. باح له محمود بما يخالجه. ويوضح خالد قائلا: "كان اليوم يوم ثلاثاء. يوم رحيل الطائرة إلى الجزائر العاصمة". كانت كلمات محمود تفيض مرارة :

---

22 حوار للمؤلف مع محمد التوزاني. المعروف بخالد.

23 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشلح.

24 أسس مصطفى الوالي البوليزاريو يوم 10 ماي من سنة 1973 . ومات في هجوم على نواكشوط يوم 9 يونيو من سنة 1976 .

— لاشيء صلب وقوي داخل المنظمة. إنها ضعيفة واهنة القوى لا تستطيع أن تنجز شيئا جديا". بقي خالد مندهشا مبهورا. فواصل محمود الحديث قائلا:

— حسب معلوماتي، فإن كلام الميد عن الشبكات في الداخل كلام مغلوط. وحدها الاتصالات بالسلطات الجهوية والنقط الاستراتيجية عملية. أما الأسلحة والإمكانات البشرية فإنها ناقصة ومؤطَرة تأطيرا رديئا. وسأل خالدٌ قلقا:

— ولكن لِمَ المرور إلى العمل في هذه الظروف؟" جاء الجواب وكأنه صوت البداهة التي لا غموض فيها:

— نحن وسط النار. يجب أن نتحرك. الآن. إما الحصول على كل شيء وإما عدم الحصول على أي شيء[25].

بدا محمود وكأنه مسكونٌ بهاجس الضرورة التاريخية لشن عمل واسع. فهو يعرف أن النصر الثوري يدين لتضحيات الشجعان النبلاء، وهو مستعد ليدفع الثمن، عازم على أن يسلك الطريق الوعر الذي يعج بالخوف والخيانة والتهاون.

على أي شئ يستند هذا الاختيار؟ على تواطؤ موضوعي مع تاريخ يسير ويتقدم؟ على عجز يشل السلطة؟ ولكن أَلَمْ يكن القصدُ من خروقات النظامٍ هو إثارة تنظيم غير مرئي ودفعه لكي يُفصِح عن نفسه؟ لِمَ البحث عن جواب؟ فقد اقتنع محمود بأنه، وفي غياب التناسق والكفاءة، سرعان ما سوف ينكشف أن ادعاءات التنظيم الثورية ليست سوى ضرب من المغامرة. فقد جعلته ممارسته للتنظيم يقيس أضرار غياب الحركة الذي سقطت فيها إدارته. كم من المناضلين ضُحيَ بهم، وكم من فُرَص أهدرت ومن استفاقات جاءت متأخرة؟ إن العجز والانتهازية والمنافسات الداخلية قد شلت قدرة التنظيم على الحركة. أي مصداقية لمن يرغبون في الوصول إلى السلطة والذين يُسيرون حركةً كما يُدَبر المرء خصاما بين الجيران؟ كان محمود فزعا مرعوبا عندما وقف على أن وراء قرار البصري الاستعراضي، هناك فَرَاغٌ تنظيمي وسياسي، غُلف بعتامة الإيديولوجية. إنه يكره الاتفاقات السرية، حيث يكون التفاوض حول السلط والامتيازات هو الاستراتيجية. إن رداءة الإدارة تساوي خيانةً في نظره. فهي تخون المناضلين المستعدين للتضحية بأرواحهم في سبيل القضية. والأدهى من ذلك هو أنها تجعلهم يشُكون في عدالة كفاحهم. والحال أن الإيمان هو سلاح الثورة الأساسي. بتعليم الضعفاء والمحرومين الإيمانَ، يستطيع الثوري أن يغير مجرى التاريخ.

تقاسم محمود ورفاقه العديد من لحظات السهر ليلا داخل المخيمات. فهو يعرف طموحاتهم وتخوفاتهم وخاصةً غضبهم لكثرة ما حاول تهدئتهم وإرشادهم وتعليمهم الصبر وروح التضحية التي يتطلبها كفاحهم. كل شيء يهمهم غدا يرتكز على هذا التفهم الذي يشد بعضهم إلى بعض. هذا التفاهم الذي يعجز اللسان عن وصفه والذي يصنعه كفاح يومي ضد المحن والظروف المناكفة. لا شك أنه

---

25 حوار للمؤلف مع محمد التوزاني، المعروف بخالد.

يجب البحث هاهنا عن أحد الأسباب التي كانت وراء اختيار محمود. فقد كانت الثقة التي وضعها فيه هؤلاء الرجال والتي كان يقرأها في عيونهم ونظراتهم، هي الداعي إلى إنجاز عمل تحريري. وأمام الطريق المسدود، كان ولا شك دافعه الأساسي، أكثر من أي وقت مضى، هو الأمل في أن ينهض عهد جديد. أملٌ يتقاسمه جيل بكامله. اختار القيام بالعمل الذي يُمكنه من أن يخلق كل شيء أو ألا يخلق شيءاً البتة.

ولأنه لم يستطع إعادة هيكلة التنظيم هيكلةً تمكنه من أن يجعل منه أداةً ثورية فعالة، فقد كان يحتاج إلى رجالٍ ثقة ومتمرسين، قادرين على تعويض النقص في التنظيم. كانت المعلومات التي تصلُه من الداخل ترسم صورةً غير منتظمة عن الوضع: فالحزب، الذي كان في طور إعادة هيكلته منذ المحاولتين الانقلابيتين، لا يقدم أي قاعدة عملية يمكن الاستناد عليها، وقياديوه تراقبهم الشرطة مراقبة لصيقة. وهكذا فإن نجاح محمود رهين، وفي الآن نفسه، بقيمة الرجال الذين سوف يرافقونه وبقدراتهم على التحرك في إطار الاكتفاء الذاتي.

انتزعت ضرورة العمل خالد من الانهيار البطيء الذي أخذت تعرفه المنظمة، ليستعيد التحكم في قدراته. هذه الضرورة نفخت في قناعاته طاقةً جديدة. فمنذ العملية الفاشلة لسنة 1969، كان قلبه يتأرجح بين المرارة التي توحي بها شساعة الخسارة المخيفة والحماس الذي زرعه الغليان السياسي الذي يزعزع المغرب. وكأنه يريد التخلص من الحِمْل الثقيل، حِمْلٌ مرعب، أجاب دون تردد:

— أنا معك. فتابع محمود قائلا:

— في هذه الحالة، سوف تتبعني إلى الجزائر العاصمة وستذهب عند الساهر في وهران حيث ستجد أوامري مكتوبةً[26].

كانت منطقة الريف مراقَبة عن قرب شديد منذ محاولتي الانقلابين العسكريين. كان إذن على خالد ورجاله أن يقيموا بها أقل وقت ممكن. أي أن يتم تسريب الأسلحة والمقاتلين إليها بضعة أيام قبل انطلاق العمليات. سوف تكون الأسلحة مُهيأة على الحدود الجزائرية والرجال يأتون مباشرة من معسكر التدريب الليبي. كان محمود يتوقع أن الأمر لن يكون انتفاضة منظمة من قبيل تلك التي كان يتوقعها في الأطلس ولكنها سوف تكون عبارة عن غارة. ففي ذهنه، بمقدور ضربة قوية ومفاجئة أن تعيد التعبئة التي كانت قد بدأت على المستوى الوطني والتي أهملتها قيادة آراؤها مشتتةٌ، فيما يخص مصير الثورة.

كان الاختيار وليدَ تفكير طويل. كان محمود يعرف عن الفقيه البصري ما يجعله يعتقد أنه رغم خلافاتهما، سوف يجاريه ليَبْقَى هو الزعيم على الأقل.

غادر محمود خالد بعد عناق قصير. إنه عناق لا يُعَبر طويلا عن العواطف حتى يكون تشجيعا صامتا. فطريقاهما، إن التقيتا ثانية، فسيكون ذلك عند اشتداد وطيس الكفاح التحريري الذي وهبا له حياتهما.

---

26 حوار للمؤلف مع بوراس الفيكيكي.

وهاهو بوراس الذي زار محمود في دمشق بضعة أسابيع من قبل، قد احتفظ في ذاكرته بالحجج التي استند إليها محمود: "كان مقتنعا بأن الظروف التاريخية الاستثنائية التي تولدت عن الانقلابين الفاشلين لن تتكرر. فبعد ثلاث سنوات من غياب الحركة، جاء الوقت في نظره للمرور إلى مرحلة العمل. غير مهم إن كان التنظيم لا يزال غير مستعد". وكان يكرر لي ب"أنه يكفي أن تُكوّن قواعد ثورية". قبل أن يضيف "أنه عندما تنهظ هذه القواعد، وبمساعدة الظروف الموضوعية، فإن الثورة سوف تستمر رغم الأخطاء الذاتية سواءٌ ارتكبها الفقيه البصري أم هو نفسه". قبل أن يضيف موضحا: "استشارني محمود في خصوصيات منطقة فيكيك والزناغا. فحذرته حينذاك من كل محاولة تسرب انطلاقا من هذين التجمعين[27]".

وتتذكر إلك، زوجة محمود، وأمي، ذلك التناقض بين عزمه والإهمال الظاهر الذي كان يحيط به: "في دمشق، صُدِمت بطريقة عيش بعض من رفاق محمود الذين يزعمون بأنهم ثوريون. ولكنه كان يكتفي برفع كتفيه [غير مكترث][28]". فبعض أطر التنظيم التي دخلت في وقت مبكر في هذا الكسل المريح الذي تتفهمه الأوهام البرجوازية، كانوا يرون في العيش الرغيد على أنه تجربة ثورية. ذلك أن عدوى العادات تنتقل بسرعة أكبر مما تنتقل عدوى الشجاعة. وهاهم يفضلون أن يترددوا على صالونات علية القوم ويستنكرون في الوقت نفسه بقناعة مدهشة، عادات الأغنياء، وذلك دون أن يتخلوا عن الكلام اللامع الذي يُبقيهم دائما في مرتبة النجوم في نظر المناضلين. كان طموح محمود الشخصي متواضعا، إذ إن الأمر بالنسبة إليه مسألة أخلاق سياسية. بل كان يتسامح مع إفراط بعض الرفاق: سوف تتعرف الثورة على أبنائها ... وتواصل إلك: "آخر مرة رأيته فيها كانت في القاهرة صيفَ سنة 1972. بعد أن مر وقت قصير على عودتي من فرانكفورت، حدثت عمليةُ شهر شتنبر من سنة 1972 ضد الرياضيين الإسرائيليين في ميونيخ. كانت الشرطة الألمانية في حالة استنفار، وكانت المراقبة على الحدود على أشدها. في هذه الظروف، كان يستحيل عليه الانتقال إلى فرانكفورت". ثم تضيف موضحةً وكلها يأس: "آخر رسالةٍ جاءتني منه تحمل تاريخ 11 نونبر من سنة 1972[29]".

السبت 20 يناير من سنة 1973، طريق مكناس

غادرت سيارةُ رونو 10 الرباط واتجهت نحو الشمال في يوم ممطر، كان على متنها ثلاثة رجال توجهوا إلى مدينة مكناس. يركب السيارةَ ثلاثةُ رجال، عباس خلف المقود، وإلى جانبه يجلس دهكون بجلبابه ولحيته اللذَين لم يبرحهما منذ ثلاثة شهور، إنه المظهر الذي بات يتخفى به، فيُظهِره أكبر من سنه (37 سنة) : لقد بات وكأنه أبٌ برفقة ابنَيه.

---

27 حوار للمؤلف مع إلك بنونة.

28 حوار للمؤلف مع إلك بنونة.

في الخلف، جلس المهتدي، من شبكة الدار البيضاء. تَكَوَّن المهتدي وهو شاب في التاسعة والعشرين من عمره في معسكر الزبداني، إنه شاب مندفع يكاد يكون غير مكترث بشيء. إنه "جيمس بوند" كما يقول عنه خالد عندما يتذكر جموحه الذي لا يتناسب مع الصرامة العسكرية. كانت للمهتدي نظرة رومانسية عن الثورة. فهي بالنسبة إليه لعبة، طريقة في مواصلة أحلام الطفولة في عالم الكبار القاسي. ففي السنة السابقة، في شهر أكتوبر من سنة 1971 ، كان ضمن مدبري عمليات لإحياء ذكرى اغتيال المهدي بن بركة. ومنذ ذلك الحين، قام برحلتين إلى الخارج، واحدةً إلى باريس والثانية إلى الجزائر العاصمة، وذلك من أجل تنسيق نقل السلاح لحساب دهكون. فعندما لا يكون حاضرا في اجتماعات خليته السرية في الدار البيضاء أو لا يطارِد أحدا أو لا يراقب مكانا، فإنه يعمل أمينَ وكالة النقل الحضري بالدار البيضاء.

وبعد مكناس، تزايدت مراقبة البوليس. كان القطار أكثر وسائل النقل أمانا. ترك عباس السيارة في مرأب بيته العائلي بمكناس، وودع عائلتَه مدعيا أنه ذاهبٌ لحضور حفل زفافِ أحدِ أصدقائه. ومن مكناس، وصل إلى وجدة على متن القطار صحبة المهتدي، في حين عاد دهكون إلى الدار البيضاء. وبعد أن أمضى المهتدي وعباس ليلةً داخل القطار، استقبلهما الجدايني في وجدة. وها قد تشكل ثلاثي التلاميذ السابقين بالمدرسة الثانوية الذين كانوا يقومون بالجولات الليلية للكتابة على حيطان مدينة سلا. ولكن تحولت الألعاب غير المبالية إبان أيام شبابهم إلى كفاح لا رحمة فيه من أجل الحرية. ذلك أن الجدايني، الذي أصبح مُدرسا في الثانوي وعضوا نشيطا في الحزب، تدرب في سوريا، وغدا الرجل المفتاح للتنظيم في وجدة.

فبعد أن عمل الجدايني على عبور المهتدي وعباس الحدودَ الجزائرية، أوصلهما إلى وهران عند ساهر الذي استقبلهم بوجبة غذاء ضخمة. قدم عباس نفسه قائلا:

— اسمي البراك، وهناك مَن ينتظرني.

بعد نهاية الوجبة، جاء شاب إلى بيت ساهر وطلب منهما أن يصحباه على بُعْد. قاد عباس والمهتدي إلى شقة في الطابق الرابع عشر من عمارة وسط وهران. كان عباس يتوقع أنٍ يلتقي الفقيهَ البصري، وهاهو الميد يستقبله. ففي غرفة تتوسط المنزل، كان رجلٌ ينتظر، إنه محمود. المهتدي يعرفه. فقد تدربا معا في الزبداني. وبينما محمود والمهتدي يتبادلان الحديث في الصالون، أدخل الميد عباس إلى غرفة مجاورة.

ما كادا يجلسان حتى انهالت أسئلة الميد:

— كم عددكم؟ أين وصلت استعداداتكم؟"

انتاب عباس إحساس بأن هناك خطرا يكمن وراء هذه الأسئلة، لم يستطع الميد، وهو يتظاهر باللامبالاة والعزم، أن يبدد إحساس عباس. فاحتاط عباس ولم يُدلِ بكل التفاصيل:

— ليس هناك تنظيم. هناك عناصر فقط. إلى حد الآن، نحن ما زلنا نحتاج إلى مقاتلين قادرين على التحرك في استقلالية داخل المجتمع.

شعر عباس شعورا واضحا بأن الميد أخذ يفقد صبره. فعباس لن يعرقل مهما كان الثمن، العمل السري المتأني والدؤوب الذي أنجز منذ حوالي السنة. بيد أن الأحداث تسارعت. فقد انفجرت عدة ثورات في المغرب، فضاعفت من بؤر التوتر. خمن عباس اللحظة الحاسمة. ظهر أن الميد يريد الانتقال إلى العمل بسرعة. فقال دون مراوغة: "هنا، نحن مستعدون".

وحتى يَظهَر بِمظهرٍ لائق، أضاف: "بإمكاننا أن نقدم لكم الدعم اللوجستيكي الذي تحتاجونه".

وأما عباس، الذي بقي حذرا محتاطا، فقد تشبث بموقفه:

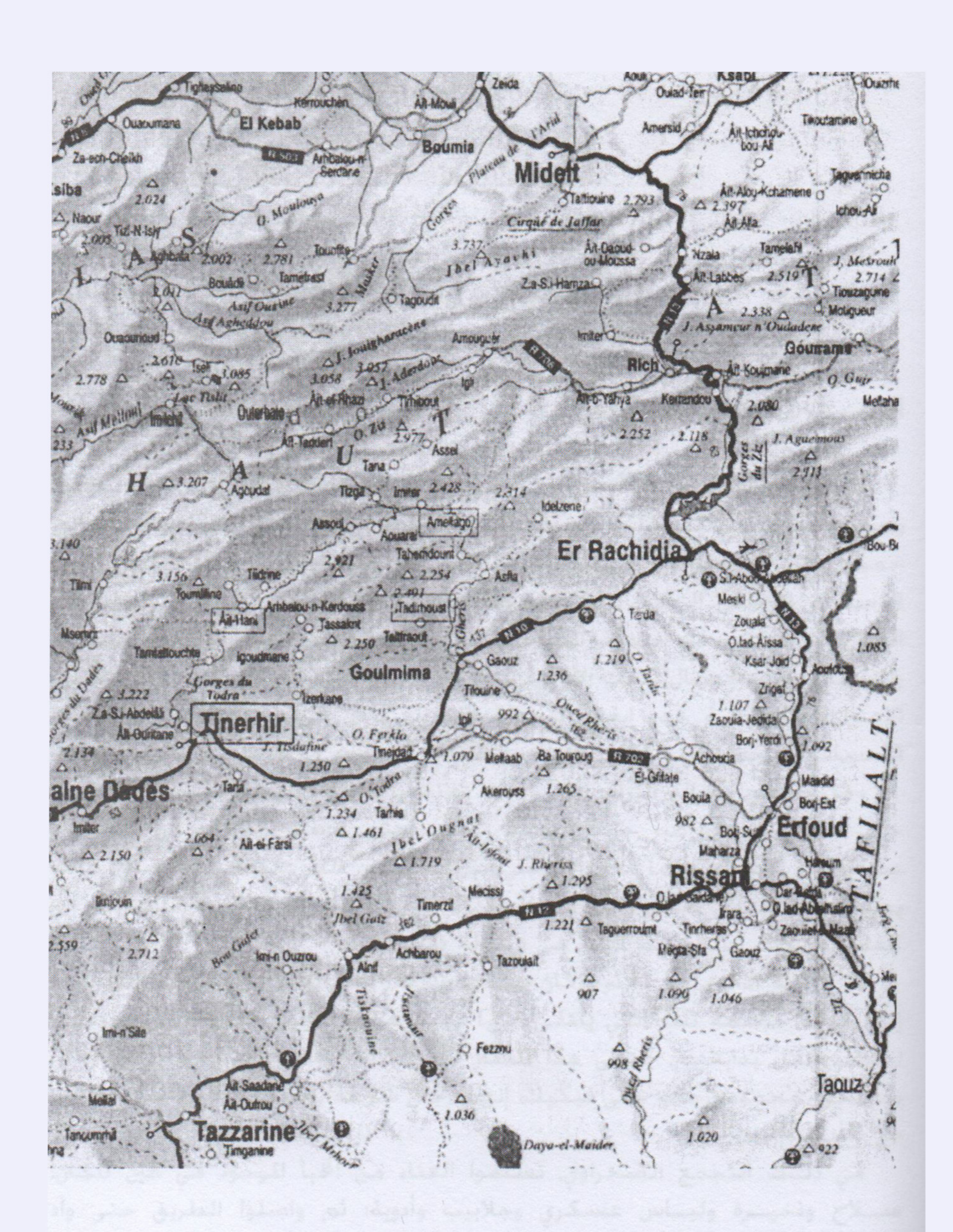
— أقول لك إننا لسنا مستعدين بعد.

وحسب عباس، فإن النقاش توقف هاهنا. رفض دعوة الميد له بأن يقضي الليلة في وهران، متذرعا بأن عليه أن يُدلي بمرافعة في اليوم الموالي بمحكمة الرباط. وكان الانطباع الذي خرج به من هذا اللقاء، ودون أن يجرؤ على التعبير بصراحة عن رأيه، انطباعا سوف يتقاسمه العديد من المناضلين: هذا الرجل لا يملك طينَةَ مَن يمكنه أن يتحمل هذه المسؤوليات.

دام اللقاء بين الميد والمهتدي نصف ساعة. وخلالها، تبادل عباس ومحمود، الذي كان لا يزال داخل الغرفة الوسطى، انطباعات عامة. وكما هي العادة دائما، فإن النقاش في هذا النوع من اللقاءات يكون عاما فضفاضا، إذ يتم تجنب التفاصيل الشخصية والتنظيمية بعناية. بيد أن عباس خرج من هذا اللقاء بالقليل من الرضى. فبعد غضب الميد، جاءت قوة محمود الهادئة لتمنحه شيئا يشبه المواساة. إنه الحوار الوحيد الذي كان لعباس مع محمود.

وكما كان الشأن خلال رحلة الذهاب، كانت العودة إلى وجدة تحت الأمطار. لم يتكلم أحد. كان صوت العجلات على إسفلت الطريق اللامع يؤثث الصمت. اليوم يومُ أحد. عاد الجدايني إلى وجدة، والمهتدي إلى الدار البيضاء، وعباس مباشرة إلى محكمة الرباط بعد ليلة من السفر.

بعد مرور ثلاثة أيام، أي يوم الأربعاء 24 يناير 1973، منع وزيرُ الداخلية الاتحادَ الوطني لطلبة المغرب.



Midelt
El Kebab
Boumia
Zeida
Aït-Mouli
Kerrouchèn
Tighessaline
Ouaoumana
Za-ech-Cheikh
Arhbalou-n-Serdane
R 503
Plateau de l'Arid
Gorges
O. Moulouya
Taltitouine
2.793
Cirque de Jaffar
3.737
Jbel Ayachi
Aït-Oaoud-ou-Moussa
Za-S.i-Hamza
Imiter
Tagoudit
Toufite
Tamelrast
Boudidi
Aghbala
Tizi-N-Isly
Naour
2.024
2.008
2.002
2.781
3.277
Asif Ouirine
Asif Agheddou
Ouaouroud
Isef
2.610
3.085
2.778
Lac Tislit
Asif Melloul
Imilchil
Outerbate
3.058
3.057
J. Jouigharacène
J. Aderdour
Aït-el-Rhazi
Tirhiout
Aït-Tadderi
O. Ziz
2.977
Assel
Tana
Amouguer
R 706
Igli
Aït-b-Yahya
Rich
Kerrandou
2.252
2.118
Gorges du Ziz
H
A
U
T
S
L
A
T
3.207
Agoudal
Tizgui
Imiter
2.428
2.314
Idelzene
Amellago
Assoul
Aouarat
2.921
Tahrhdount
3.156
Tadrine
Toumliline
2.254
Asfla
2.401
Arhbalou-n-Kerdouss
Aït-Hani
Tadirhoust
Tassakrit
2.250
Igoudmane
Telfraout
Goulmima
Gheris
3.140
Tilmi
Msemrir
Tamtattouchte
Gorges du Todra
3.222
Gorges du Dadès
Za-S.i-Abdellâ
Aït-Ouritane
Tinerhir
Izerkane
J. Tisdafine
O. Ferkla
Tinejdad
1.250
1.079
2.134
Tarra
Dadès
Imiter
2.150
2.664
Aït-el-Fârsi
O. Todra
1.234
Tarhia
1.461
Jbel Ougnat
Aït-Isfoul
1.719
J. Rheriss
1.295
1.425
Jbel Gaïz
Mecissi
Timerzit
N 12
1.221
Taguerroumt
Ikniouin
2.559
2.712
Bou Gafer
Imi-n Ouzrou
Alnif
Achbarou
Tazoulaït
907
1.090
1.046
Tiskaouine
Imi-n'Sife
Fezznu
998
Oued Rheris
Aït-Saadane
Aït-Outrou
Tazzarine
Timganine
Jbel Mhorf
1.036
Daya-el-Maider
1.020
922
Taouz
Tanoumrhit
Mellal
Er Rachidia
S.i-Abou-Abdellah
Meski
Zouala
N 13
O.lad-Aïssa
Ksar-Jdid
Aoufous
Zrigat
1.107
Zaouia-Jedida
Borj-Yerdi
1.092
Maadid
Borj-Est
Erfoud
Boula
982
Borj-Sud
Maharza
Rissani
Hannoum
Dar-Beïda
O.lad-Abdelhalim
Zaouiet-el-Maati
Irara
Tinrheras
Megta-Sfa
Gaouz
O. Ziz
TAFILALT
Tizda
1.219
1.236
Titouine
992
Oued Rheris
Igli
Mellaab
Ba Tourouq
R 702
Achouria
El-Ghfitate
Akerouss
1.265
Gaouz
Ksabi
Ouled-Tern
Amersid
Aït-Ichchou-bou-Ali
Tikoutamine
Taguemnicha
Aït-Aloy-Kchamene
2.397
Ichou-Ali
Aït-Alla
Nzala
Tamelalt
J. Maurouli
2.714
Aït-Labbès
2.519
Tiouzagune
2.338
Mouguer
J. Assameur n'Oudadene
N 13
Gourrama
Aït-Koujmane
O. Guir
2.080
Meltaha
J. Aguemous
2.111
Bou-Bel
1.085

الأطلس (1973)

السبت 27 يناير

كانت سيارة بوجو 404 في المقدمة، تتبعها شاحنة. انطلق الموكب من فيكيك وعَبَر هضبة تافيلالت على علو يفوق الألف متر، وتوجه نحو كلميمة : حوالي خمس مائة كيلومتر من الطريق غير المعبد. وفي شهر يناير، كانت الليالي باردة قارسة في الأطلس. التصق الرجال الخمسة عشر بعضهم ببعض، كانوا يلبسون لباس القتال، ومكدسين في خلفية الشاحنة. فوق لباسهم ذي اللون الكاكي، وضعوا جلبابا من وبر الجمال. كانت الأيادي التي تشد على السلاح متجمدة من البرد. الاهتزازات المتتالية تحدد إيقاع الرحلة التي تغوص في الليل الصامت، فيتزايد الإحساس بحجم الخطر كلما اهتزت الشاحنة اهتزازات ما فتئت تتزايد وتكبر.

دخل محمود ورجاله التراب المغربي منذ ثلاثة أيام، إذ قادهم الفرشي وساهر والميد حتى الحدود، فدخلوا عبر حمدان بوعزة بلباس مدني، مساء يوم الخميس 25 يناير عند إطفاء الأضواء. وكما فعل الفرشي قبل سنة من ذلك عندما ودع النمري، هاهو يودع محمود بعناق طويل وحار، وكأنه يريد أن يمرر له تلك القوة التي جمعتهما في كفاحهما والتي ستحسم اليوم في مسألة نهايتها.

في الجهة الأخرى من الحدود، كان ينتظره ساعة، وهو المسؤول المحلي عن <u>التنظيم</u>. إنها لحظة حاسمة تلك التي يلتقي فيها مسار هؤلاء الرجال الذين كانوا يختلفون اختلافا خلال بداياتهم، يلتقي هذا المسار ليذوب داخل مصير مشترك. رافق رجال مسلحون محمود ورجاله حتى فيكيك: إنهم رجال شرطة يحرسون الحدود ومتعاطفون مع <u>التنظيم</u>.

في ذلك التجمع الصحراوي، تسلموا العتاد من المخبأ الموجود في عين المكان: سلاح وذخيرة ولباس عسكري وجلابيب وأدوية؛ ثم واصلوا الطريق حتى واد الهاسي، على بعد 16 كيلومترا غرب فيكيك. كانت المنطقة وبأعجوبة هادئة ومهجورة، لم تكن هناك أي مفرزة عسكرية. كانت مدينة فيكيك بكاملها،

من الفلاح إلى رجل القوات المساعدة، تساند قضيتهم. وكم كانت دهشتهم حين زار المقدم (وهو ممثل وزارة الداخلية على صعيد الدوار) رجالَ محمود. كاد فضولُه يودي بحياته. ذلك أن أوامر محمود كانت واضحة: إطلاق النار على أي رجل من رجال الأمن قد يظهر. وهكذا، كان بعض رجال محمود يستعدون جادين لإطلاق النار على المقدم. وهو مدين بحياته إلى إلحاح ساعة الذي أخبرهم بأنه عضو من أعضاء شبكته.

كان من المفترض أن يكون اللقاء مع مناضلي كلميمة في مفترق طرق يُدعى المسكي على بعد 80 كيلومترا من فيكيك. ولكن، وفي المكان المحدد، لم يأتِ أحدٌ، لا في الموعد الأول، ولا في الموعد الثاني الذي ضُرب في حالة تأخرٍ غير متوقع. ولأنه لم يعد بالإمكان الرجوع إلى الخلف، قرر محمود مواصلة السير تحتَ قيادة ساعة، ما دام الرجل قد سبَقَ وكان مساعدَ قائد السلطة بكلميمة.

عبَر الموكبُ مدينةَ قصر السوق دون أن يتوقف. بعد ثلاث ساعات من الطريق، وصل إلى كلميمة فجرَ يوم الأحد 28 يناير من سنة 1973. كان الجو باردا. كانت أولى علامات الشفق قد أخذت تتراءى خلف القمم المغطاة بالثلوج التي تطوق المدينة النائمة. فكلميمة، وسط واحةِ النخيل الفاخرة، ومنازلها الحمراء الجاثمة داخل علبتها الخضراء، كانت تبدو وكأنها مراكشُ صغيرة. في الجهة الغربية، تقف شامخَةً جبالُ الأطلس الكبير. ومن جهة الشرق، تعلوا أولى تضاريس الأطلس الصغير. وفي قعر هذه الحلبة الجبلية، تمتد، في اتجاه الجنوب، هضبةٌ صحراوية تتخللها الواحات. إنه موقع جغرافي أكسب كلميمة لقبَ باب الصحراء.

توقف صوت الشاحنة أمام محطة بنزين عند مدخل المدينة. إنها محطة يملكها اللوزي، الممثل المحلي للتنظيم[1]. وبينما الرجال يزودون الشاحنة بالبنزين، خرج ساعة لإخبار مناضلٍ من مناضلي التنظيم يسكن على بعد خطوتين من هناك. كان هذا المناضل نائماً أو يكاد، فأيقظه ساعة وهو يشتمه. وتذكر الرجل أن: "وصول الموكب كان منتظرا غدا، إنه قد وصل قبل الموعد بيوم[2]". إذن فاللقاء الذي لم يتم في المسكي سببُه خطأ في تواريخ الموعد.

وبسرعة، اقتيد محمود ورجالُه إلى بيتٍ صحراوي في قلب واحةِ النخيل التي تمتد على جوانب كلميمة. ولما علم المسؤولون المحليون بالأمر، جاءوا على وجه السرعة[3].

1 حدو اللوزي تُوُفي سنة 1997 بمدينة الرباط.
2 حوار للمؤلف مع الحسين الخباب، المعروف بطام.
3 الجزء الأساسي من تفاصيل أحداث الأطلس مأخوذ من تقارير كتبها سنة 1973، بطلب من قيادة التنظيم، ثلاثةُ مساعدين لمحمود. نجوا من المعارك ولجئوا إلى الجزائر: سي إبراهيم والنجار والصغير. هذه الشهادات الثلاث التي تتطابق فيما بينها، قورنت بعد ذلك بشهادات جُمعت بين سنتي 1996 و2000 خلال تحقيقات مختلفة في الأطلس.

يتذكر مرزوق[4] ما حدث وكأنه وقع بالأمس القريب. فهو قد عرف ولد النصارا، وهو شاب من الرباط كان يناضل لصالح المقاومة الجزائرية نهايةَ الخمسينيات. ولكنه لم يكن يظن أن محمود الذي يتراسل معه بواسطةِ رسول هو الرجل نفسه الذي كان أمامه. كان مرزوق حينها فلاحا قوي البنية، سنه 40 سنة، وينحدر من عائلة من ملاكين صغار للأراضي شبه فيوداليين من قبيلة آيت عطا. كان حفيدَ شيخ من قبيلة آيت حديدو، وقد مكنه نسبه المتميز هذا من أن يصبح الكاتب الأول لِلفرع الجهوي للحزب. ولكن وفي ذلك الصباح، استقبل محمود ورجاله بصفته عضواً في التنظيم. استقبلهم استقبالا حارا مما يشهد على الأهمية القصوى التي تكتسيها هذه اللحظة بالنسبة إليه.

ويحكي مسؤولٌ محلي آخر عن التنظيم: "كنت قد وصلت من تنغير عشيةِ ذلك اليوم صحبة سيدي حمو واثنين من رجاله. كنا نستعد لقدوم الأطر الثورية عندما أُخْبرنا بأنهم قد وصلوا[5]". وكان سيدي حمو، ثائر الأطلس، فعلا ضمن القياديين المحليين الذين حضروا لاستقبال محمود. كان الجهل يقلص من مستوى الوعي السياسي عند الساكنة المحلية، ومن ثمة فإن هالة قادة التنظيم وهيبتهم سوف يكون لهما الدور الحاسم في تعبئة هؤلاء السكان من أجل خوض الكفاح. كان سيدي حمو سلطةً معنوية معترفاً بها في تنغير، يُهَاب ويُحْترم. وكان اللوزي، وهو شخصية ذكية ونافذة، يملك محطة البنزين الوحيدة في كلميمة وكان له أصدقاء كثيرون متواطؤون داخل السلطة الجهوية. كان الآخرون[6] شيوخا، يملكون هالة المقاومين. كان مناضلوا الخلايا السرية التي أنشؤوها في المنطقة قد تدربوا داخل الحزب. إذ كانت ثقافتهم التعليمية وحدها كافية لتجعل منهم أعيانا. وبعد أن تردد اللوزي طويلا بين جلال اللحظة والحماس الذي يحركه من أعماقه، لم يستطع أن يكبح اندفاعه وفرحته، فصرح: "إن السلطة المركزية لم يعد لها نفوذ ولا سلطة في المنطقة".

لقد كان حرمان السكان وقهرهم قد بلغ أوجَه وأصبح غضبهم محسوسا ملموسا مهدِّدا، والقوات المساعدة مستعدة لتنظَم إلى معسكر الثورة. ولأن اللوزي تعايش سنواتٍ مع البؤس، فإنه يعرف الشعور الذي يوجد خلف خمول الدواوير المحيطة. إلى جانبه، حرِّك القياديون المحليون الآخرون رؤوسهم دلالةً على أنهم متفقون. كانت سنواتٌ من الغضب تعبر عن نفسها، وكذا سنوات من الصبر. منذ خمس سنوات،

4 مات في حادثة في شهر يوليوز من سنة 2001.
5 حوار للمؤلف مع توركي عدي.
6 إضافةً إلى لحسن مرزوق وحدو اللوزي، حضر كذلك سي حمو علا، شيخ تاديغوست، وسعيد أوداز وحسين آيت زابد وتوركي عدي.

أرسلوا جماعات من المناضلين ليتكونوا في الجزائر. توصلوا بالسلاح وخبأوه وشهدوا سيدي حمو والنمري يأتيان على التوالي. ولهذا فإن الكل رأى في وصول محمود ورجاله الحدث الهام.

بعد أن لبى محمود ورجاله نداء شهيتهم من الطعام. أمر محمود رجالَه بتنظيف السلاح الذي تسلموه في فيكيك. وأن يتوزعوا إلى مجموعات تتكون من أربعة أفراد. دون صَخَب. وأما الآخرون فكان عليهم أن يبقوا حذرين متيقظين. نفذوا الأوامر بحركات فيها من العناية ما يُذكر بإنجاز طقس غريب. ففي هذه اللحظة. وحده الزمن الحاضر هو الذي يهم.كانت الحركات قصيرة واللحظة حاسمة. وأثناء ذلك وزع محمود المجموعات والأدوات.

كانت المجموعة الأولى تتكون من أسكور وصبري. وهما من قدماء سنة 1969. فقد رافقا اليزيد في رحلته الفاشلة إلى تارودانت. وآيت عمي. وهو عضو سابق في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. والباعمراني والناصري. وهما ضابطا صف سابقان في القوات المسلحة الملكية. هذه المجموعة سوف تتوجه إلى خنيفرة لتعزيز النمري وأمدة.

وأما المجموعة الثانية فتتكون من العثماني وبوزيان. وهما على التوالي ملازم سابق في القوات المسلحة الملكية ومقدم سابق بآسفي. وهما كذلك من قدماء سنة 1969. كانا ضمن الناجين من مجموعة الفرشي والملكي الثائر المبكر. والجزار ودحمان سعيد. وهما جنديان سابقان. سوف يتدخل هؤلاء الرجال [بالسلاح] في تنغير تحت قيادة سيدي حمو.

وأما المجموعة الثالثة فتضم سليمان العلوي وفريكس. الجندي غير النظامي. وثلاثة أعضاء آخرين من الكوموندو البحري: سي إبراهيم والنجار والصغير. وستبقى هذه المجموعة في منطقة كلميمة لتأطير خلايا اللوزي. وسوف يكون محمود إلى جانبهم لتنسيق تحركات فرق الكومندو.

كل مجموعة تشكلت كانت تضم. كما هو شأن قوات النخبة. رجالا أكفاء في مجال التسلح والقنابل والاتصال عن بعد. لم يكن أحدٌ من هؤلاء الرجال مبتدئاً. عمرهم في المتوسط 35 سنة. تكونوا في الزبداني وعرفوا صرامة وقساوة معسكر أوواطا في الجزائر. قاوموا في صفوف الفدائيين الفلسطينيين ونجوا من الاعتقالات التي ذهبت بالرفاق. إنها اختبارات رمتهم في قرار أنفسهم هم بالذات. في ذلك المكان الذي يُجابه فيه الضميرُ القناعات والقدرات على المقاومة. ليخرج منه وقد تغير بكل تأكيد.

في نهاية هذا المسار. احتفظوا بميلهم إلى الثورة سالما. في الوقت الذي قد يميل فيه معاصروهم. الذين تُخضعهم المحن والظروف الصعبة. إلى القبول بأوزار الطاعة

والإذعان. لقد جعلت منهم تجربتهم النواة الصلبة لنخبة ثورية عزمُها لا تشوبه شائبة. اجتمعت فيهم خصالٌ قلما تجتمع في فرد واحد: إنكار الذات والشجاعة والنزاهة. وبالنسبة إليهم، غدا التخفي طبعاً ثانياً والجَلَد قوةً لا يساور فيها الشك. وباختصار، فإن محمود قد اختار من بين أعضاء جيشه أفضلَهم ليخوضوا كفاحا في مستوى تضحياتهم.

وبعد يوم من الراحة، طلب محمود من المجموعات أن تستعد للرحيل. وذكر مرةً أخرى مسؤولي الجهات بتعليماته:

— كونوا على استعداد للهجوم يوم 3 مارس، يوم عيد العرش.

بَرْمَجَ محمود شهرا ليعيد تنظيم الخلايا، وتكوين المناضلين المحليين وتدريبهم على القتال ووضع جهاز للهجوم. وهكذا فقد كان في نيته أن يشعل فتيل الانتفاضة مباشرة بعد ذوبان الثلوج وكفايةً قبل أولى لفحات حر فصل الصيف.

غادرت المجموعة الأولى كلميمة على الساعة الواحدة صباحا لتتوجه إلى خنيفرة تحت قيادة موحى أوالحاج، الرجل النافذ والنشيط في اخنيفرة، ومعهم رجاله. وأما الثانية فلم تتوجه إلى تنغير إلا في اليوم الموالي، يوم 29 يناير، على الساعة الثانية عشر ليلا. وأما محمود والرجال الباقون فقد غادروا الملجأ بعد ساعتين من رحيل المجموعة الثانية. ركبوا الشاحنة لتوصلهم إلى قرية صغيرة توجد على بعد عشرين كيلومترا غربَ كلميمة، أسفلَ سلسلةِ جبال الأطلس الكبير: قرية تاديغوست.

تاديغوست

المنطقة متوحشة، أرض خلاء طبيعية، تنتشر فيها قصور متفرقة. والقصور هنا تُطلق على حصون من العصور الوسطى، تشهد على ماضٍ هائج صاخب وعلى حاضر استقر في سِلم نسبي. كان الجبل العاري، الذي يشرف في جلالٍ على الهضبة، يتباهى بقممه التي تكسوها الثلوج. لقد شكلت قساوة ووعورة الطبيعة والمشهد طباعَ السكان. فقد كانت الحياة ثمرة كفاح يومي ضد طبيعة قاسية وعرة. خلقت تخوم هذه الجبال القاحلة، لأنها ربت ساكنتها على التقشف والزهد، مواهبَ نبيلة ومقاتلة كثيرا ما وقفت في وجه فساد السلطة المركزية. ولا شك أن هذا السبب هو نفسه الذي دفع حكام المغرب المتتالين، من ذوي السلطة المعنوية المتذبذبة، إلى أن يخصوا هذه المنطقة بدورٍ بئيس: فجعلوا منها قِبلةً للنفي والاعتقالات السرية: أغبالو زمن الحماية، والسجنً الشهير ببؤسه، تازمامارت، وقلعة نكردوس في عهد الحسن الثاني.

كل قصر من تلك القصور يأوي بداخله ثوارا واعين أو كامنين. إنهم رجال ونساء يشتغلون خمس عشرة ساعة في اليوم منذ طفولتهم، وعزاؤهم الوحيد هو بضع

لحظات من الراحة داخل أكواخ غير صحية يتكدس فيها أبناؤهم الذين لا مستقبل لهم. إنه شعب تائه وسط هذه المناطق المعزولة النائية حيث لا وجود للزمن. إنهم يعيشون عيشة ينخرهم فيها البؤس والإسهال والجوع. إنه شعب مستعد ليرفع راية غضبه الشديد. فالثورة ستولد من الجوع والبؤس.

سوف تزود الثورةُ سكان هذه الأماكن الملعونة من المملكة بالأسلحة الضرورية ليكسبوا الخبز والكرامة. سوف تلتقي مجموعات حرب العصابات في الأطلس الكبير انطلاقا من كلميمة وتنغير وإملشيل. عند انطلاق العملية، سوف يتم الدخول إلى المراكز الثلاث وسوف توضع النقط الاستراتيجية تحت المراقبة. وسوف تجري عملية أخرى بتزامن مع الأولى في عمالة خنيفرة على بعد 300 كلم من هناك، وعلى بعد ساعتين من الرباط.

وكما كان سيفعل محمود لو أراد إضرام نارٍ، فإنه توقع أن يشعل فتيل الانتفاضة في أماكن مختلفة وفي وقتٍ واحد. لقد اختيِرت ميادين العمليات والأهداف ودُرِست بعناية شديدة. فمنذ محاولتي الانقلابين، وضع الحسن الثاني ترسانة القوات المسلحة الملكية تحت مراقبة الدرك الملكي، التابع للقصر الملكي. كانت العديد من مخازن الأسلحة توجد في الأطلس. وهي تشكل هدفا أولويا لعناصر حرب العصابات.

كان الرسل والوسطاء يخبرون محمود بتقدم الاستعدادات. وكان قادة الخلايا يلتقونه بانتظام ليلا. كم عدد مخبري محمود الذين كانوا يذهبون حينها إلى المراكز الإدارية، متذرعين بطلبٍ، فكانوا يشربون الشاي ويتحدثون ثم ينصرفون وفي رأسهم تصميم البناية وأحسنِ مواقع إطلاق النار؟ كان محمود يؤكد على أن يبقى وجود أطر الثورة أمرا سريا. كان على المناضلين، المنَظمين داخل خلايا سرية، أن يكونوا مستعدين لكل الاحتمالات، ولكنهم كانوا يجهلون تفاصيل الإعدادات الجارية. فبعد أن يتم تكوينهم وتأطيرهم، سوف يُشكلون قوةً ضاربة موزعة إلى مجموعات.

كان البيتُ الذي يأوي محمود ورجالَه مَسكنا مصنوعا من تراب مدكوك لونه أمغر، يوجد وسط واحة كثيفة على سفح هضبة. للوصول إليه، كان لا بد من الخروج عن الطريق الذي يؤدي إلى تاديغوست، والميل جهة اليمين مباشرةٍ قبل الوصول إلى القصر. إذن فهذا البيت يوجد بعيدا كفاية عن القرية ليشكل مخبأً لا يثير الفضول. بين الفينة والأخرى، كان صياح الأطفال أو نباح الكلاب يذكران بقرب القصر. كان محمود ورجاله يعيشون وسط قطيع من المعز الهزيل أسكنه رب البيت في بهو المنزل الضيق، كما هو شأن رعاة المنطقة. لقد كانوا يتقاسمون هناك الحياة الخشنة لفلاحي الجبال، وهو نموذج للبساطة والصبر والتحمل.

كان مضيفُهم رجلا دائم الابتسامة ودائم الاحترام والتقدير. يبدو أفضل مَن يمكنه أن يضمن لهم عدم مبالاة رجال السلطة المحلية. وزيادة في الاحتياط وحتى

لا يثير الشكوك، فإنه أصبح يدخن، علماً أنه لم يدخن قط في حياته. فقد كان من اللازم تبرير رائحة التبغ التي اكتسحت بيته منذ وصول محمود ورجاله. ولكن خلف هذا الاحترام وهذا التأدب، كان الرجل يُخفي روح مقاتل. فقد حارب الفرنسيين داخل صفوف المقاومة، وكان يعرف معرفة جيدة سليمان العلوي، أحد ضيوفه السريين، لأنه قاسمه محنة النار والرصاص. سوف يتذكر الرجل بعد مرور السنين بأي براعة ومهارة، كان محمود يصلح البنادق التي كان يأتي بها مناضلوا التنظيم المحليين: "كان يستعمل أضلاع البقر للبنادق. وكان يملأ قارورات صغيرة بالحمض 44أ ثم يصقلها بالكبريت والسكر. وكان يشرح لي بأن القارورة عندما تتكسر، فإن الحمض ينفجر عندما يختلط بالكبريت[7]".

تنغير

أنزلت سيارة بوجو 204، مُثقَلَة ومحملة، المجموعةَ الثانية في تيزغيرت، وهي زاوية توجد فوق جبل يطل على تنغير. أخرج الرجالُ الثمانية الذين غادروا العربة عشرةَ بنادق-رشاشة والعديد من الكيلوغرامات من الأدوات. مرت الرحلة من كلميمة إلى تنغير تحت قيادة سيدي حمو بسلام. لم يكن هناك أي حاجز لرجال البوليس.

كان سيدي حمو شيخاً محترما كل الاحترام في المنطقة، ومن ثمة فهو يتمتع بهيبة وهالة تُشِع حتى فيما وراء تنغير. وتمكنه سلطته المعنوية إضافةً إلى علاقاته القبلية من تعبئة قبيلتي آيت حديدو وآيت ميرابط، وهما قبيلتان معروفتان بنزعة قتالية ميالة إلى الحرب. كان البحث عنه شديدا منذ سنتين، ولكنه يتمتع بتواطؤات وصداقات مكنته، إضافةً إلى النجاح في ضمان أمنه، مكنته من الاستفادة من تسهيلات وخدمات يقدمها له أولئك الذين يُفترض فيهم هم أنفسهم أنهم سيعتقلونه. من تنغير إلى مسمرير، وضع شبكةً من الخلايا السرية يرجع الفضل في فعاليتها إلى تواطؤ العديد من رجال السلطة.

وقد كان رجال السلطة هؤلاء يشكلون حلقة مهمة في خطة الهجوم التي وضعها محمود. فكما هو الشأن في تاديغوست، كان عشرات المناضلين ينتظرون في تنغير أن يتعلموا استعمال السلاح وتقنيات حرب العصابات. وهاهو أحدهم يتذكر: "كنت مكلفا بالمؤونة. ذهبت عند تجار كلميمة لشراء المؤونة الضرورية، ولتبرير الكميات الكبيرة، ادعَيت بأنني مقتصدُ شركةِ تنقيب عن المعادن في المنطقة. بعد يومين انتشر الخبر، فأخذ كل أرباب العائلات الذين يودون تشغيل أبنائهم يتقربون مني. فلم يبق لي سوى أن أطلب منهم الانتظار[8]".

---

7 حوار للمؤلف مع موحى أولحو.
8 حوار للمؤلف مع توركي عدي.

ولكن الأسرار في الجبال سرعان ما تنكشف. وهكذا، التحق مناضلٌ بالمقاتلين التحاقا يكاد يكون محض الصدفة، إذ إنه فطن لكميات الأكياس التي تنتقل إلى الجبل: فواكه وخضر وسجائر بكميات كبيرة. فعقد المقاتلون على وجه السرعة جلسة تشاور. ما الذي يجب عمله بالمناضل المتطفل؟ ولأنهم كانوا يعرفون بأنه قريب أحد قياديي خلية للتنظيم، فإن أحدا لم يفكر في تصفيته الجسدية. وحسم قائد الخلية الأمر قائلاً: "أعطوه سلاحا واجعلوه هو كذلك ضالعا في الأمر. وهكذا فإنه لن يخوننا[9]".

اخنيفرة

حول اخنيفرة تمتد منطقة متوحشة من تلالٍ تغطيها الغابات وجبال وعرة، مما يشكل أرضا مثالية لحرب تقوم على نصب الكمائنٍ. لطالما كانت هذه المنطقة الخضراء معقل لصوص وتحتفظ بسمعتها على أنها أرضٌ لا ترحب بالزوار. فسكانها يقولون "اشرب واهرب". إنها نصيحة لكل زائر قد يتبادر إلى ذهنه أن يمضي بعض الوقت قرب منبع ماءٍ يعتقد بأنه يرحب به.

وأماً وصول المجموعة الثالثة إلى اخنيفرة فلم يكن دون مشاكل. إذ أوقفهم حاجزٌ لرجال الدرك في مِيدلت. وكاد رجال محمود أن يطلقوا النار على رجال الدرك. ودون أن يبدو على موحى أوالحاج أي تردد، أخرج رخصةً ملكية لا تفارقه أبدا عند قضاء أغراضه التجارية. وها هي الوثيقة تقضي كذلك أغراض المقاتلين.

وعند وصولهم إلى خنيفرة، قادهم موحى أوالحاج إلى بيتٍ معزول وسط غابة كثيفة، في منطقة وعرة، قرب أكلموس حيث كان ينتظرهمً أمدة والنمري. الممر الوحيد إلى هذا الملجأ المنعزل يتم عبر طريق غير معبدة طولها 15 كيلومترا انطلاقا من أكلموس. كان المكان منعزلا كفايةً ليشكل قاعدة خلفية آمنة ومكانا خفيا لإجراء التداريب.

عند وصول رجال محمود، شعروا بأنهم في أرض صديقة : المنطقة تطوقها شبكة من الخلايا السرية، التي وضعها أمدة والنمري ويؤطرانها. وفي المجموع كان هناك عشرات الرجال يعلمون بالسر، منهم حوالي ستة من ضباط الجيش مستعدون لتلبية النداء.

ينتمي الرجال الذين يرافقون موحى أوالحاج إلى الجنوب: من بينهم أسكور وصبري اللذان سبق وحاولا سنة 1970، إلى جانب بنيحيى واليزيد ودهكون، إنشاء قاعدة ثورية في منطقة تارودانت، والتي لاقت النجاح الذي نعرف. إن مهمتهم في خنيفرة هي وبالضبط دعم أمدة ليستولي على مخازن الأسلحة والذخيرة المتفرقة في

---

9 حوار للمؤلف مع باسو.

المنطقة. ولكنهم، بعد توزيع السلاح على المناضلين السريين، فإنهم سوف يواصلون الطريق مع النمري إلى الجنوب.

السبت 10 فبراير

مساء يوم السبت 10 فبراير من سنة 1973، عبر محمود على متن دراجة نارية صغيرة العشرين كيلومترا التي تفصل تاديغوست عن كلميمة. كان يرتدي لباس فلاح من المنطقة: جلباب أبيض على الكتفين وشاشية ملفوفة على رأسه. كان مرزوق يقود الدراجة النارية. وكان مخبران يوجدان على طول الطريق للإخبار عن كل ما يُشتبه فيه. عند وصولهما إلى كلميمة، رافق مرزوق محمود عند مناضل من التنظيم، حيث كانت تنتظرهما وجبة عشاء. وسط وجبة الطعام، دخل رجلٌ فجأة:

— لقد وصل ساعة. إنه ينتظرك عند اللوزي.

وبينما مرزوق يتمم ما تبقى من الطعام، رافق المناضلُ محمود حتى عتبة بيتٍ، على بعد بضع عشرات الأمتار من هناك، ثم انصرف ليتركه على انفراد مع اللوزي وساعة. دخلا الغرفةَ الشهيرة المعروفةَ بغرفة "سيدي حمو"، والتي سُميت بها الاسم منذ استقبلت الهارب الشهير.

سلم ساعة إلى محمود كيسَ مالٍ: ثلاثة ملايين سنتيم. ولكن الأخبار التي كان يحملها دفعت محمود إلى التفكير:

— لم أتوصل بأي إشارة من الجزائر، ولم يعبر أحدٌ الحدود. فأسر له محمود:

— يجب استعجال الأمـور. عليك أن تذهب إلى وهران لتنشيط العمليات، نتلاقى بعد أسبوعين[10].

بعد مرور نصف ساعة، أخذت سيارةٌ يقودها أحد المناضلين السريين، أخذت محمود واللوزي إلى تنغير. فقد وضع بها موحى أوالحاج منتجعه الصيفي حيث يتعاطى لرياضته المفضلة: القنص. وبهذه المناسبة، نظم .. حفلةً على شرف المقاتلين. إذ سواءٌ كانت الثورة أم لم تكن، فموحى أوالحاج لم يكن بالرجل الذي يعيش في الظل. لم تُعجب جرأتُه التي لا تُصدق محمود الذي كان يفضل الفعالية والتكتم على البهرجة. ولكن مثل هذه الدعابة والمزاح يعطي صورةً عن التعاطفات التي كان يتمتع بها التنظيم في المنطقة. وهاهو المناضل السري الذي أخذ محمود واللوزي إلى تنغير، ومهنته ممرض، هاهو يتذكر: "أنزلتهما في مكان محدد على جانب الطريق، قبل تنغير بكيلومترات قليلة. ومن هناك، واصلا السير راجلَين وسط الصحراء. مررت بذلك المسار ثلاث مرات، بأمر من التنظيم، دون أن أعرف أبدا مَن الذي كان يرافق اللوزي[11]".

---

10 حوار للمؤلف مع محمد بن عمارة، المعروف بساعة.

11 حوار للمؤلف مع علي الزواغي..

بعد انطفاء مصباح الجيب، غاصت في الظلام وجوهُ الرجال الذين اصطفوا على الأريكة التي تمتد على طول الخيمة. تقدم محمود واللوزي على أرض غير مستوية تغطيها الزرابي، وجلسا بعد التحيات الاعتيادية، والتي تقلصت، نظرا للظروف الخاصة، إلى حدها الأدنى. من بين الحاضرين الصامتين، كانت هيأة موحى أوالحاج وسيدي حمو الأليفتان تتميزان وسط الظل. كان الضوء المتحرك الذي ينبعث من المصباح الغازي يرسم ظلالا مترددة فوق رؤوس المدعوين كاشفا عن قسمات وجوههم. خيمت على المشهد عصبية مكبوتة.

كان محمود محاطا بقيادبي المنطقة الثلاثة : اللوزي وسيدي حمو وموحى أوالحاج، فأعاد تعداد القوات الموظفة. كانت حرب العصابات تستلزم وسائل لوجيستيكية تنقص على جميع المستويات : احتياطي الطعام والسلاح والذخيرة والنقل وما إلى ذلك. كان عدد الرجال المستعدين للقتال يناهز البضع مئات، إضافة إلى آخر الأسلحة تطورا وبعض البنادق المتوفرة في مختلف الخلايا السرية، أحضر محمود معه 30 بندقية-رشاشة والنمري حوالي العشرة، وقد سبقتهم بنادق-رشاشة أخرى، كانت بحوزة حسين آيت زايد. وفي المجموع، كانوا يملكون ما يُمكن من تسليح 80 رجلا تسليحا معقولا. كل واحد يمتلك تسعين خرطوشة. وسوف يُمكن الهجومُ على مخازن الأسلحة بتنغير وأميلاغو وإملشيل ومولاي بوعزة من جمع عدة مئات من بنادق الهجوم وعدد مهم من المسدسات.

ولكن تَبَين أن الذخيرةَ غير كافية، وكان محمود يخشى أن يؤدي نقص الوسائل إلى الحد من استقلالية العمل. فهو قد تعود على العمل السري كفايةً ليكون على علم بأن نقص الإمكانيات يزيد من خطر الانزلاقات. إذ إن العملية، إن عجزت عن مراقبة جنودها، تتحول إلى فتنةِ جموعٍ غير مسلحة، وسرعان ما تُقمَعُ قمعا دمويا، كما كان شأن العديد من الانتفاضات السالفة. ولضمان سرية الإعدادات ومراقبة العمليات، لا بد من وسائل إضافية. لقد وجه رسالة مُشَفرة بهذا الغرض إلى القيادة العليا في الجزائر العاصمة، بعثها مع مرزوق، قبل ذلك ببضع ساعات بكلميمة: "تنقص الحبوب في السوق".

زد على ذلك أن محمود، وكي يتواصل مع كلميمة وتنغير، لا يملك سوى جهاز إرسال بالراديو يغطي 60 كيلومترا. وهو يطلب من محاوريه العمل على وضع جهاز لاقط يمكن من الاتصال بالخارج. وتدريجيا أخذت الأمور البديهية تفرض نفسها على ذهنه، إن لم يتم ملء هذه الفراغات في الوقت المناسب، فإن إشعال الانتفاضة يجب أن يؤجل إلى ما بعد يوم ثالث مارس، وهو الموعد الذي حُدد من قبل.

سوف يؤثر هذا القرار على مجرى الأحداث الموالية.

كان العمل على عدم خدش شعور القادة المحليين وصلاحياتهم عملا يستلزم دبلوماسية عليا. فإن كان محمود يضع نفسَه فوق الفروقات والإنتماءات القبلية، فإنه مع ذلك لم يكن يجهل ثقلها بالنسبة إلى اشتغال التنظيم في الأطلس وتنظيمه. ولكن يبدو أن محمود يلقى خارج البلد المقاومات الأقوى. ويحتفظ مرزوق، المسؤول عن كلميمة، في ذاكرته بالرسالة التي بعثتها القيادة العليا في الجزائر العاصمة إلى اللوزي : "أنصتوا إلى محمود ولكن هدِّءوه، إنه جذري لا يتفاهم". وأما بقية الرسالة فإنها أوضح من هذا بكثير : "إن بدأتم قبل التوصل بالأوامر، فتحملوا مسؤولياتكم ولا تنتظروا منا شيئا"[12].

في انتظار الشفق

في تاديغست، كان هدوء وسكينة المكان يتناقضان مع حدة الأحاسيس التي كانت تخالج محمود ورفاقه. كانت الأيام تمتد وتطول فتتحول إلى أسابيع. بدأ بعض القلق يتسلل إلى صفوف المحاربين. وكان تدريبهم يطول ويطول والرجال مرغمون على الانتظار بدون يقين. كل مساء، كانوا يتساءلون إن كانوا في اليوم الموالي سوف يحققون ما لم يحققوه في اليوم السابق. فتملكت أشدَّهم جرأةً وتهورا الرغبةُ في أن يُنهوا الأمر وهم لم يبدؤوه بعد. وأما الآخرون، فإن ضرورة القيام بعمل وشيك قريب، تَسِير حياتَهم اليومية في اتجاهه، كانت تذوب داخل الانتظار وتغرقهم في حياةٍ مبهمة حيث بدأ الانضباط يتراخى شيئا فشيئا.

كان رفاق محمود مقاتلون جيدون، فقد تعلموا القتالَ على جميع الحلبات وبأنواع مختلفة من الأسلحة، وتدربوا على العيش وسط الأعداء. ولكن الآن، أصبح الوضع مختلفا عن ذاك الذي عرفوه في معسكرات سوريا أو ليبيا. لقد عادوا إلى الأرض التي وُلدوا فيها، وهم عازمون على تحريرها من نير العبودية. وراء الحيطان، على بعد بضع خطوات، ما زال إخوانهم وأخواتهم وآباؤهم وأمهاتهم يعانون إهانات أعيان السلطة المحليين. لم يعمل الانتظار سوى على إثارة تلهفهم وأغرقهم في خليط من الملل والقلق لا يمكن أن يطفئه سوى الانتقال إلى مرحلة العمل. كان محمود يعرف أن الرغبة في العمل التي أخذت تستولي على رجاله قد تخفف من حيطتهم وحذرهم. فوظف كل قوته في إقناعهم من أجل تهدئة حماسهم واندفاعهم: إن القتال ضد الملل هو جزء من قتال الثوار. يجب أن نعرف كيف نبقى على أهبة الاستعداد خلال أسابيع طويلة دون أي تذبذب.

وأما الجولة التي كان قد عزم على القيام بها في المنطقة عاملُ منطقة قصر السوق، مصحوبا بالقائد الممتاز ومساعد القائد، فقد أذكت ثانيةً الاضطراب والعصبية:

---

12 حوار للمؤلف مع لحسن مرزوق.

— ماداموا سوف يمرون من تاديغوست لحظور احتفالات عيد العرش، لِمَ لا يُنصب لهم كمين؟

فرد محمود قائلا:

— الأمر فيه الكثير من المغامرة. إن عملية من هذا النوع، سوف تعزلنا وتمنع عنا كل قاعدة للتراجع.

ومحمود نفسه، الذي كان يعرف كيف يبقى هادئاً في كل الظروف، كان عليه هذه المرة أن يبدل مجهودا حتى يحافظ على هدوئه هو كذلك. كانت خطته مضبوطة ولا تقبل أي عملية مرتجلة:

— إن هدفنا هو أن نشعل بدايةَ انتفاضة عامة. ولهذا الغرض، علينا أن نهاجم مخازن الأسلحة ونفرغها، وأن نوزع السلاح على المّناضلين الذين نثق فيهم وأن نعبئ المنطقة بكاملها وراء كفاحنا[13].

الثلاثاء 27 فبراير

كما جرت العادة في المنطقة، فإن مسؤول التنظيم بتاديغوست جمع حول مائدة عشاء، قياديي الخلايا العاملة في الأطلس الكبير. وبالفعل فإن التنظيم كان يملك عدة خلايا سرية في هذه التخوم، وخاصة لهرون وأملاغو وأغبالو وأسول وإملشيل. أجاب الدعوة زهاء عشرة أفراد. كان الحضور يتكون أساسا من مقدمين وشيوخ وعناصر من القوات المساعدة، فبدا الأمرُ وكأنه جلسةُ السلطات الإدارية أكثر مما هو اجتماعٌ سري[14]. عند نهاية الوجبة، أخبرهم مضيفُهم نفسُه عن سبب التجمع.

— إن الأطر الثورية موجودة في تاديغوست، سوف نُرحلُهم إلى لهرون، ومن ثمة سوف يذهبون إلى دوار كل واحد منكم ليقوموا هناك بالتأطير العسكري للمناضلين[15].

ما كاد المدعوون يغادرون المكان ليهضموا الطعام ويهضموا كذلك شروحات مضيفهم، حتى أخذ هذا الأخير يعطي تعليماته إلى أعضاء خليتَي كلميمة وتاديغوست. تسلم أحدُ المناضلين السريين بخلية كلميمة مسدساً ولائحةً بأسماءِ أشخاص يسكنون تاديغوست، ففسر له قائده الأمر:

— عندما أعطيك الأمر بذلك، سوف تصفي الخونة الذين توجد أسماؤهم في هذه اللائحة[16].

---

13 شهادة كتبها محمد بلقاضي، المعروف بالصغير.

14 عُقد الاجتماع في بيت سعيد أوداز بكلميمة بنداء من سيدي حمو علا. حضر الاجتماعَ عدي شان، مقدم أملاغو، وسكو عقار، مقدم لهرون، وسعيد أوخويا، من القوات المساعدة بإملشيل، وعلي أوسكونتي، شيخ أسول، وأومهرير، ضابط أملاغو، وباسو أوتعتوت من أغبالو نكردوس، ومولاي محمد من تافاسو، وعلي أوخيري وحدو أوفديل (اعتُبر هذا الأخير مفقودا).

15حوار للمؤلف مع عدي شان.

16حوار للمؤلف مع حسين الخباب، المعروف بطام.

ولما انتصف الليل، غادر تاديغوست صفان من المناضلين وتوجهوا نحو لهرون، على بعد عشرين كيلومترا. كانت البغال محملة بالبنادق-الرشاشة والقنابل اليدوية والألبسة العسكرية. كانت المجموعتان تسيران كل واحدة من جهتها.

تلتوي الطريقُ غير المعبدة والتي تتخللها الحفر وسطَ وادٍ مليءٍ بالحفر، على جانبيه جرفان حادان. في جوف الوادي يجري نهر الريس، وهو نهر صغير يجري أسفل صخرة من طين. كان من الصعب التقدم وسط الظلام والطريق المليء بالحفر. لم يكن القمر يضيء سوى قليلا هذه الصخور الشامخة، والتي كانت قممها واضحة بادية في السماء.

بعد ساعتين من المشي، دارت المجموعتان داخل وادٍ جانبِي صغير. كان الطريق الصغير المليء بالأحجار يسلك وسط ممرٍ جَبلي ضيق ومحفر. كان هذا الوادي الصغير يفضي إلى تاحمدونت، وهي قرية صغيرة عالقة على الجانب الصخري على مدخلِ الممر. على بُعد بضعة كيلومترات، انفتح الوادي الصغير على منفذ آخر يحرسه قصر لهرون. كان المكان يتوسط تاديغوست وأميلاغو. لا مياه صالحة للشرب ولا طاقة كهربائية في هذا المكان النائي.

وصلت المجموعتان على التوالي إلى لهرون عند الفجر. أخبر مقدمُ القصر الذي كان يرافق المجموعة الأولى الشيخَ، وهو أيضا عضو في التنظيم.

استغل المحاربون يوم 28 فبراير للاستراحة، في حين أن محمود جمع قادة الخلايا. لم يُخف هؤلاء حماسهم. في أميلاغو وأغبالو ولهرون، بدأ تجنيد المناضلين. كان زهاء الثلاثين رجلا من الأوفياء المتمرسين، على أهبة الاستعداد. وكانت الأسلحة التي دخلت عبر الجزائر في مكان آمن، وكانت مرابط المؤونة والاتصالات عملية. زد على ذلك أن بعض قياديي الخلايا الذين كانوا يستغلون السلطة التي أكسبتها لهم وظيفتهم بصفتهم ممثلين للدولة، لم يكونوا يترددون في أن يصرحوا بأنهم يضمنون وفاء سكان قصورهم. ولا شك أن قياديي خلية قصر أسفلا كانا الأشد حماسا:

— سكان قصر أسفلا يساندون كلهم قضية الثوار [17].

وأما قياديو إملشيل وأسول، حيث أعدت مخابئ السلاح والذخيرة منذ سنة، فقد كان كلامهم يفيض تشجيعا. كانت حفاوة الاستقبال الذي خُص به محمود عند وصوله يدل على أن مجيء أطر حرب العصابات كان منتظرا منذ زمن طويل. وهاهو مناضل سري من إملشيل يشهد: "كان بعض الرجال يأتون لملاقاتنا، عمي وأنا، بتاريبانت قرب أسول. كانوا يأتون دائما ليلا ويعلنون قدومَهم بحجر يرمونه في الساحة. وفي يوم من الأيام، طلبوا منا أن نكون مستعدين للتدرب. فإن هناك أسلحة قادمة، وساعةُ الانتفاضة قد اقتربت [18]".

---

17 اعتُقل كل رجال القصر سنة 1973، ثم رُحلوا إلى مركز الاعتقال السري في كوراما حتى سنة 1975.

18 حوار للمؤلف مع أهمون ميمون.

وقد كان عضو في خلية سرية في أسول، هو كذلك شاهدا على مثل هذه الإعدادات في قصر مجاور لقصره: "ذهبت في ليلة من ليالي نهاية شهر فبراير إلى جنازة عم توفي في قصر آيت بويزني قرب أميلاغو. هناك، وجدت نفسي وجها لوجه مع شيخ أسفلا وشيخ لهرون. لم يكن هناك من حاجة عَلَيهما قضاؤها في ذلك المكان. رأيتهما يغادران بيتا مر به العديد من رجال القصر. فبدا لي واضحا أن هذا البيت كان يأوي اجتماعا سريا من نوع تلك الاجتماعات التي تنعقد عندما يتعلق الأمر بتجنيد مناضلين جدد[19]".

كان كلام مسؤولي الأطلس الكبير تتخلله عبارات تقنية وحربية، فكان يترك مكانا فسيحا للحلم. منذ شهور، وبالنسبة إلى البعض منذ سنوات، كانت جهودهم تصب في هدف واحد: أن يصبحوا أحرارا. فقد أذكت حياة يومية بئيسة ثقيلة رتيبة لا أمل فيها، أذكت طموحهم الذي أصبح العلة الوحيدة لوجودهم.

ولأن محمـود وسَمَه عذاب وآلام الصراعات السـابقة، فإنه ما زال يحتفظ بتبصرٍ يهدئ من الحماس الذي يحيط به. في هذه المناطق النائية، كان للتضامنات القبلـيّة حدودٌ يصعب أحيانا التعرف عليها. كان محمـود يعرف أنه لإنجاح العملية، عليه أن يضمن وقع المفاجأة. وهكذا، وحتى يتجنب خطر اللقاءات والمعاشرات، كان يناشد القياديين المحليين أن يلزموا أقصى ما يمكن من الحيطة والحذر. فالمجموعات المكلفة بضرب الخصم ومفاجأته، والتي ستشكل الصف الأول، سوف تُكَوَّن وتؤطَّر في عـزلةٍ عن الآخرين ودون أن تختلط بـهم. ولن يتم الدمج فيما بينها إلا عند انطلاق العملياتِ، عندما يتسلمون الأسلحة. واكتشف مقدم أميلاغو، وكذا رفاقُه، وهم ينصتون إلى محمود يقدم تعليماتِه، المخططَ الذي وضعته قيادة التنظيم.

فتساءل المقدم :

— متى سوف نتسلم السلاح من أجل القتال؟

ففسر له محمود الأمر قائلا:

— نحن هنا من أجل تكوين المناضلين وتأطيرهم. سوف تبدأ العمليات عندما نتوصل بإشارة من أعلى.

وكانت ملاحظة محمود المركزة التي أعادها وأعادها على مسامعهم منذ أسابيع، تُستَقبَل بحركة من رؤوسهم يعبرون بها عن موافقتهم. إنها حركات آلية ينفذها الحاضرون ليؤكدوا انخراطهم التام، في الوقت نفسه الذي يتفكرون ويتأملون فيه التعليمات. بان على وجه مقدم أميلاغو فضولٌ لم يستطع إخفاءه:

— من أي نوع سوف تكون هذه الإشارة؟

فأسر له محمود بتجرد ودون أن ينوي الإطالة في الموضوع:

---

19 حوار للمؤلف مع علي أوسكونتي.

— سوف تكون الإشارة هي انطلاق إضراب في المعامل[20]. على قدر ما كانت معرفة الخلايا بالأمور قليلة، على قدر ما تكون الأمور أفضل. وبما أن الانتفاضة يجب أن تشتعل في البلد بأكمله، فإن الأوامر-المضادة تلت الأوامر، وذلك كلما ظهرت أمورٌ غير متوقعة. وحدَه هو والقيادة العليا في الجزائر العاصمة، واللذان لهما اتصال بباقي الخلايا السرية في المغرب، بإمكانهما تقييم الوضع.

بعد استعراض الجهاز، عَين محمود ثلاثةً من مساعديه، النجار والصغير وسي إبراهيم، لتكوين مناضلي إملشيل وتأطيرهم. وأما فريكس وسليمان العلوي وهو نفسه، فقد تكلفوا بخلايا لهرون وأميلاجو. ولكن أحد مسؤولي إملشيل، المكلف بإحضار البغال التي سوف تُستعمل لنقل السلاح، تأخر. إذ إن الثلوج تساقطت بكثافة فأقفلت المعبر الذي يفصل وادي الريس عن وادي إملشيل. يمكن أن يطول الانتظار، وزيادة في الاحتياط، قرر محمود الذهاب إلى الجبل مع رجاله لانتظار وصول الرجل الذي تأخر عن الموعد.

وفي ليلةِ فاتح مارس، وصل المحاربون إلى جبل تاباستي، على بعد ثلاث ساعات مشيا، فوق لهرون. نزلوا في مغارةٍ فجرَ يوم ثاني مارس. كان الوادي كله يمتد أمام أعينهم. وبينما كانت التداريب قد بدأت، أسر مقدمُ أميلاغو لمحمود بتحفظاته فيما يخص أحد الجندين الجدد:

— أومهرير عنصرٌ فيه خطر، فهو قد سبق وقتل بريئاً وأخلاقُه مشكوكٌ فيها.

اعتقد محمود في قرارة نفسه أن الأمر لا يعدو أن يكون قصةً قديمة من قصص العداوات القَبَلية القديمة. وبالفعل، فإن أب أحد المحاربين، وهو قائد من المخزن وزعيم قبلي له هيبته عند قبيلة آيت موغغاد، كان قد أعدم الأخ الأكبر لأومهرير، الذي كان يشك بأنه كان يتعاون مع الفرنسيين. ألم يضمن له مسؤول التنظيم بتاديغوست، الذي كان قد أدى خدمته العسكرية مع أومهرير، بأن الرجل شجاعٌ ووفي؟ فقال المقدم:

— دعني أتصرف وسوف أُصفي أومهرير.

فرد عليه محمود:

— أومهرير مناضل ائتمَنّا عليه مسؤولُ التنظيم المحلي. ليس من عادتنا أن نصفي الرفاق. أن تكون أنت الذي تقبض السلاح في يدك لا يعني أنك أنت القاضي. كان محمود لا يتسامح ولا يتساهل في الأمور التي قد تؤدي إلى انزلاقات:

— الأول الذي يطلق النار على مواطن، سوف أتكلف به أنا شخصيا. نحن هنا من أجل تحرير المقهورين، عدونا الوحيدُ هو المخزن.

إنه تحذير سبق لمحمود أن وجهه مرارا لمساعديه، فقد كان مقتنعا بأن انزلاقا إجراميا قد يصرف عنهم بكل تأكيد مساندةَ السكان. يجب على

---

20 حوار للمؤلف مع عدي شان.

وجه الخصوص عدم الخطأ في تحديد مَن هو العدو. إن الأمرَ أكثرُ من هَمٍّ تكتيكي، إنه العلامة الدالة على أن الرجل رجلُ مبادئ.

ثورة أم انقلاب؟

الجزائر العاصمة، رأس الجسر المؤدي إلى الثورة

في منتصف شهر فبراير من سنة 1973، وصل الفقيه البصري إلى الجزائر العاصمة. نزل بفيلا بالبيار، وهو حي إقامة على مرتفعات الجزائر العاصمة. وفي اليوم الموالي، طلب الفقيه البصري لقاءً مع بومدين، الذي كان البصري يظنه من حلفائه. وهكذا، التقى بومدين رجلاً لا يساوره الشك في نجاحه مستقبلا. كان الفقيه البصري قد غادر الجزائر العاصمة سرا سنة 1968. وها قد أصبح نفوذه اليوم يمتد حتى دوائر المسيرين في العالم العربي، حيث استطاع أن يفتنهم بخطبه وقدرته على التكيف مع الظروف. إنه الآن سينتقم لنفسه. وبالنسبة إليه فإن عودته إعلانٌ عن بداية عهد جديد.

في المغرب، أصبح الوضع راديكاليا. فالعديد من النقابيين العمال قد اعتُقلوا[1]. ومنذ شهر يناير، توالت الإضرابات والمظاهرات داخل البنايات الجامعية بمدينة الرباط. وبينما البوليس يفرق بخشونة مناضلي الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، تم الهجوم على مقر نقابة الطلبة بالرباط يوم 11 يناير واعتُقِل أهم مسيريها[2]. ويوم 24 يناير، منعت الحكومةُ الاتحادَ الوطني لطلبة المغرب.

وفي الوقت نفسه الذي كان يدل فيه هذا الهيجان على أن التوتر متزايد، فإنه يؤكد صعودَ وتنامي اليسار الماركسي وتأثيره على الطلبة. ها قد حلت ساعةُ الثورة. فأخذت تستولي على القلوب وتلهب العقول. فالنقابيون والطلبة والعمال ينادون بالكفاح المسلح الذي لا يمكن أن ينبعث إلا من الرجة الاجتماعية والسياسية. إنها كلمات تنطق بعنف عامٍ غامض مستعدٍ للانفجار. لقد أصبحت الحجج والخطب بدون

1من بينهم، يوم 15 دجنبر من سنة 1972، نوبير الأموي، الكاتب العام مستقبلا للكونفدرالية الديمقراطية للشغل (ك.د.ش.)، وهي النقابة المرتبطة بالاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية مستقبلا، الحزب الذي حل محل الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

2 منهم رئيس الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، عبد العزيز المنبهي، الذي اعتُقِل يوم 8 يناير ونائب الرئيس، عبد الواحد بلكبير، يوم 12 يناير من سنة 1973.

جدوى ولا ضرورة. وعبد الرحيم بوعبيد قد تحدث من قبل مع الفقيه البصري عن خطر هيجانٍ من جهة اليسار: فقد كان مكتبه يدافع عن المناضلين اليساريين السريين الذين اعتقلتهم الشرطة جماعات جماعات. وخلال هذا الوقت، لم يعد بعض الضباط السامين يخبئون ما يخالجهم، وبدأ قادةُ (كومندارات) الجهات يُحادثون التنظيم علناً. ولهذا، أصبحت فكرة عملية مسلحة قادرة على دفع الجناح اليساري إلى العمل وتعبئة القوات المسلحة الملكية تختمر منذ بعض الوقت في ذهن الفقيه البصري. وعززت المحاولات الانقلابية المتتالية والنشاط الحركي السري في الجامعات مشروعَه العازم على الانتفاضة.

بدأ الرجال بدافــع هذه الظرفية يأتون من المغرب وفرنسا وبلجيكا وألمانيا. كانوا جميعُهم يعلنون أنهم مستعدون للقتال. وحدها مبادرة مسلحة يمكنها أن تجمع ما بين القوى الثورية المشتتة. وهاهو أحد المناضلين المجهولين المنفيين تلبيةً لحاجة القضية الثورية، هاهو يتذكر حتى اليوم تلك الحقبة حيث كانت الآمال تبدو ممكنة التحقيق: "جَنّدَني الخصاصي في وهران. كان سني عندما وصلت إلى طرابلس في بداية سنة 1973، اثنين وعشرين سنة. بعد ثلاثة أيام من الإجتماعات بالعاصمة الليبية تسلمت فيها التعليمات، التحقت بمعسكر التدريب. وعند انتهاء تدريبي، اقترحني المسؤول الذي كان مكلفا بالتأطير العسكري للالتحاق بشمال المغرب[3]".

وكان رد النظام هو الزيادة في عمليات القمع. وفي فجر يوم 13 يناير من سنة 1973، نُفذ حُكْمُ الإعدام في الطيارين الأحد عشر الذين حكمت عليهم به محكمة القنيطرة. وقبل أن يسقط العقيد (الكولونيل) أمقران تحت رصاص منفذي حكم الإعدام، حذر أحدَ محاميه الذين حضروا تنفيذ الحكم: "حذر عمر بنجلون واليازغي وعمر الخطابي، قل لهم بأننا آسفون[4]".

بعد أن انتُزع هو والرائد (لكومندان) كويرة من زنزانتهما في سجن القنيطرة، اقتيدا إلى مركز التعذيب بدار المقري. تواصلت حصص التعذيب بوحشية مضاعفة، انتهت بالانتصار على مقاومتهما. وبات الحسن الثاني يعرف بأن أوفقير لم يكن سوى سِتَارٍ في محاولة انقلاب الطيارين. بعد ساعات من ذلك، توصل كل من اليازغي وعمر بنجلون، وهما الرجلان اللذان حاول الكولونيل أمقران إنذارهما، توصلا بطردين ملغومين. جُرح اليازغي جُرحا خطيرا في وجهه. وأما عمر بنجلون، الذي بقي حذرا، فإنه اكتشف الحيلة وأوقف مفعول القنبلة المخبأة داخل كتاب. وأما عمر الخطابي فقد اختُطِف.

3 حوار للمؤلف مع الحمدي.
4 حوار للمؤلف مع عمر الخطابي.

الأحد 25 فبراير

بعد أن انتظر ساعة بدون جدوى إشارة من وهران، قرر أن يرحل إلى الجزائر. إذ كان موعده مع محمود في كلميمة قد اقترب. والحال أن الرجال والوسائل المنتظرة لم يصلوا بعد إلى فيكيك. استقبله الميد:

— الرجال؟ إنهم ما زالوا في ليبيا.

— السلاح؟ إنه في الطريق.

— أجهزة الراديو؟ غير مهيأة بعد[5].

اختلطت الأمور. قَمَعَ ساعة رغبَتَه في الاحتجاج، وتردد في الموقف الذي عليه أن يتخذه. ونظرا لحذره فقد اكتفى بالعودة إلى فيكيك. لأن الأمور كانت تجري هنالك على أية حال. أمَّا ما كان يجهله فهو أن يوم ثالث فبراير، وبأمر من الميد[6]، كان الجدايني قد سبق الكل إلى وجدة. هاجمت مجموعتُه مركزَ الدرك في الدائرة الثانية بوجدة، فقَتَلَت الشرطي الذي كان يحرس المركز، واستحوذت على الترسانة. فباتت جميعُ خلايا وجدة بفضل هذه الترسانة وبفضل السلاح الذي سبق أن أوصله الميد مسلحةً تسليحا كاملا وغدت في حالة انتظار.

ما كاد ساعة يرحل حتى قام البشير الفيكيكي بزيارة الميد. كان الرجلان يعرفان بعضهما. لم يكن وجود البشير الفيكيكي في الجزائر محض صدفة، فالرجل يبدو وكأنه أرسل في مهمةٍ، وقد جاء يستفسر عن ضعف محتمل في الإرادة المسلحة ظهر عند الفقيه البصري. كان من البديهي أن هذه المعلومات مهمة ولو أنها غير تامة.

يبدو أن البشير الفيكيكي قد أحس بضيق في دوره كعميل مزدوج. وهاهو ذا البشير الفيكيكي يقدم لي رواية أخرى إذ قالً لي فيما بعد: "كنت قد علمت من صديق من رجال الشرطة أن محمود قد عاد إلي المغرب وأنه تحت المراقبة. وقد كان مقهىً في الدار البيضاء هو مكان مواعيده. حاولت أن أنذره بواسطة أخيه عبد الواحد في الرباط وعباس سباطة في باريس[7]". وخلف هذه الأقوال المتفق عليها سلفا، والتي أوحت بها ازدواجية العمل السياسي، ظهرت حقيقة مرعبة. سوف تمضي سنوات عديدة لِتَبْرُز أمام أعين المناضلين الصادقين. ولكن الذين عجنتهم يقينياتٌ إيديولوجية.

---

5 حوار للمؤلف مع محمد بن عمارة، المعروف بساعة.

6 الميد. إن كان ينسب إلى نفسه الأمر الذي أعطِيَ، فإنه يقدم روايةً أخرى مغايرةً لتلك التي سُجلت في محضر محكمة القنيطرة: "لم يكن الجدايني هو الذي قام بالعملية، ولكن الذين قاموا بها هم رجالٌ سَربوا من الجزائر. زد على ذلك أن الهدف لم يكن الهجوم ولكن جمع السلاح. وموت الشرطي ليس سوى انزلاق للعمليةِ".

7 حوار للمؤلف مع البشير الفيكيكي.

ورغم أن البشير الفيكيكي والميد كانا متعارضين سياسيا، فإنهما كانا يتقاسمان الأصل القَبَلي نفسه والطموحات الانقلابية ذاتها. ولأن البشير كان قد لاحظ طيش الميد وميولَه إلى الارتشاء، فإنه كان يعرف أن الميد يميل إلى المصلحة الشخصية أكثر مما يميل إلى قَسَم الإيمان بالثورة. وحسب الفرشي: "اتصل بي الميد من أجل أن أرافقه هو والبشير إلى الجزائر العاصمة[8]". وفي الجزائر العاصمة، التقى كذلك آيت قدور بالبشير الفيكيكي. وهاهو يتذكر: "دون أي اضطراب، تحدث معي بنبرة ملؤها الثقة في النفس وكأنه هو الذي يقود العمليات، بل إنه أمرني بأن لا أتجاوز الأمور الإدارية[9]". وهاهو آيت قدور يخفي اندهاشه ويمتثل للأوامر. ومع ذلك، ونظرا للحسابات والطموحات الخفية، فإن الحديث لا يخلو من معنى. وبالفعل، فإن الفقيه البصري، الذي كان يخشى تأثير مجموعة الفيكيكيين وتأثير الميد، قد أرسل ولا شك آيت قدور إلى الجزائر العاصمة من أجل أن يشكل ثقلا مضادا. ولكن آيت قدور لن يكون الوحيد الذي التقى البشير الفيكيكي الذي عزم على القيام بجولة في العاصمة الجزائر[10].

إن هذه الزيارة الغريبة التي قام بها رجلٌ من السلطة إلى الثوار المستقرين في الجزائر العاصمة، تثير التساؤل عن مدى شساعة اللعبة المزدوجة.

إلى أي حد تعلم بعض مكونات السلطة في الرباط وتترك مع ذلك الأمور تجري على راحتها؟ إلى أي حد يستعمل الفقيهُ البصري هذه التسريبات ليؤثر على الجيش وعلى قوات أمن وزارة الداخلية؟ أهي تبادل معلومات وخدمات وفق تواطؤات لتحقيق مصالح ظرفية؟

كانت الثورة تسبح داخل المياه العكرة للمخابرات المضادة. وبواسطة البشير الفيكيكي، كان الدليمي يتفاوض مع الميد الذي كان يتصرف بأوامر الفقيه البصري. والميد يؤكد الأمر قائلا: "طلب مني الفقيه البصري أن أحضر البشير الفيكيكي إلى الجزائر العاصمة". ويقول المعني بالأمر موضحا: "دعاني الفقيه البصري إلى الجزائر العاصمة ليطلب مني أن ألتحق بمنظمته[11]".

ما هو محتوى اللقاء الذي تم رأسا لرأس بين الفقيه البصري والبشير الفيكيكي، وهو اللقاء الذي تم في الجزائر العاصمة حسب زعم الميد؟ ألا تعْدو الثورة أن تكون مناورة لتحويل الانتباه حتى يبقى الدليمي حرا في تصرفه؟ هل وراء الثورة مشروع جديد لانقلابٍ قادم في الطريق؟ ألا يتعلق الأمر بانقلاب فارغ وصدفوي، الهدفُ منه هو إثارة جيشٍ يُعتبَر مُبَالِغاً في خوفه وفزعه؟

---

8 حوار للمؤلف مع عمر الناصر، المعروف بالفرشي.

9 حوار للمؤلف مع محمد آيت قدور.

10 التقى كذلك ببنيحيى ومحمد الباهي. كان الباهي صحافيا وصديقا لليوسفي. توفي، بعد مرض، في المغرب سنة 1996 في الوقت الذي أصبح فيه مدير جريدة الاتحاد الاشتراكي.

11 حوار للمؤلف مع البشير الفيكيكي.

عندما نعرف تواطؤات الدليمي والطليعة الجديدة المقربة من بومدين، يمكن أن نخمن أن البشير الفيكيكي كان يستفيد في الجزائر العاصمة من مباركة المخابرات الجزائرية. وقد أبان قاصدي مرباح[12] والدراعيا بل ووزير الشؤون الخارجية بوتفليقة، أبانوا عدة مرات عن تعاطفهم مع بعض عناصر الجيش المغربي. بدءً من الدليمي، الذي يعتبره أعيانُ السلطة في الجزائر واحداً منهم، وينسبون إليه مساعدة سرية ولكنها فعالة للقواعد الخلفية لجبهة التحرير الوطني بالمغرب خلال حرب الجزائر. هل انتبه الفقيه البصري إلى أن ترحيب النظام الجزائري هو ترحيب تكتيكي ليس إلا؟ لقد أفصح الجزائريون عمن يفضلون. إذ بما أن بومدين قد أرهقته النزعة التدخلية للقذافي، فإنه التقى به يوم الجمعة 2 فبراير من سنة 1973 وسط الصحراء وكانت الرسالة واضحة:

— أنت تتكلف بالشرق، وأنا سوف أتكلف بالغرب.

وفيما يخص الغرب، كان بومدين يفضل نظاما أخا، أي حكومة عسكرية. وحده الدليمي يبدو القادر على تحقيق هذا الهدف.

في هذه المرحلة، كان الدليمي، شريك موحى أوالحاج خلال رحلات الصيد، يوجد أكثر من أي وقت مضى في ظل التنظيم.

12 بقي قاصدي مرباح لمدة طويلة رئيس المخابرات السرية الجزائرية، ثم أصبح وزيرا أولا سنة 1988، ليموت مقتولا في شهر غشت من سنة 1993، بعد مفاوضات سرية مع جبهة الإنقاذ الإسلامية في سويسرا.

مارس 1973

الخميس فاتح مارس 1973

كان التعب باديا على رسول خنيفرة عندما وصل يوم فاتح مارس عند الفجر إلى كلميمة. لقد عَبَر ليلا المسافةَ التي تفصل خنيفرة عن كلميمة ليُسلم إلى موحى أوالحاج رسالةً شفهية:

— سوف تنطلق العمليات خلال احتفالات عيد العرش، يوم السبت ثالث مارس.

ومن كلميمة تم تعويض الرسول برسولٍ آخر ليواصل الطريق إلى تنغير عند سيدي حمو، ثمِ أملاكو عندِ محمود. ووصل في المساءِ نفسه جوابُ سيدي حمو:

— أخبِر موحى أوالحاج بأن يوقف كل شيء، وبأن ينتظر الأوامر [1].

في ذلكَ اليوم، غادر عباس مكتبه مبكرا على غير عادته. التحق بدهكون في الدار البيضاء. عند نهاية العشية، يتراخى هرج المدينة، ويتسرب إليها الخمول في شيءٍ من السكينة الليلية. الليلُ يأتي باكرا في هذه الفترة من السنة. الجو هادئ ولا ينذر بالاستعدادات للمأساة القادمة. كان هذا التناقض يملأ عباس قلقا، هو الذي كان يعرف بأنه يعيش اليوم الذي يسبق مساء كبيرا. في قرارة أعماقه، كان يحس إحساساً غريزيا بأن الأيام التي سوف تتوالى لن تشبه أبدا الأيام التي سبقت.

منذ بضعة أيام، ضاعف الميد من الاتصالات الهاتفية من باريس، وذلك حتى حدود اليوم السابق حين صرح لدهكون:

— أرسلوا لي سراويل، فقط بعض السراويل لإرضاء زينائي، يجب أن أتوصل بها يوم ثالث مارس [2].

كان دهكون ينتظر هذه الرسالة منذ زمن طويل. ومع ذلك، فإن الاعتدال الذي يبدو أن الميد يطلبه قد أدهشه: "فقط بعض السراويل"؟؟. بدا على عباس عدمُ الرضى والندم، فكشف عن تحفظه. إنه غير راض على أن يستعمل شبكته "فقط" لإحداث بعض الضوضاء، كما يبدو أن الميد يطالب بذلك. أما دهكون من جهته، والذي لم يكن في مرحلةِ الاختبار والتدريب، فقد انصاع للأمر. فبعد أن اشترى عباس ساعات لصنع نظام مُوَقِّتة لتفجير القنابل، تبع دهكون إلى شقة حيث كان ينتظرهما المهتدي واثنان من رجاله. كانوا يُدخِلون مادة ت.ن.ت. المتفجرةً مع الرمل في أسطوانة. وهي حركات اعتادوا عليها لأنهم لطالما كرروها. لا شيء يميز هذا التمرين عن حصص التدريب، اللهم بعض الاضطراب والعصبية الداخليين.

---

1 خبرٌ أكدته شهادات التوركي عدي وسيدي حمو واللوزي (جمعها أحمد ويحمان).

2 حوار للمؤلف مع مبارك بودرقة، المعروف بعباس.

كانت المقادير تقاس بعناية لتجنب الجرحى. وبعد المداولة، اتفق دهكون ورجالُه على تفجير أربعة مواقع: موقعين في الرباط، وموقعين في الدار البيضاء. فالغرض من العملية هو غرضٌ رمزي ليس إلا. بل إن دهكون ذهب إلى حد كتابة رسائل على القنابل: "هدية إلى الحسن".

وقبل أن يذهب دهكون، سلم المهتدي جزءاً من الأسلحة التي تسلمها عباس في الرباط. وفي اليومِ الموالي، وفي العاصمة، وُضِعت قنبلة في المركز الثقافي الأمريكي وقنبلة ثانية في مدخلٍ ثانوي لمسرح محمد الخامس حيث كانت ستَجري في اليوم الموالي الاحتفالات بعيدٍ العرش. وكان الشأن نفسه في الدار البيضاء: وُضِعت قنبلة أولى داخلِ سيارة القنصل العام الأمريكي، والثانية في الطابق الأول منَ دار أمريكا. ووُجهَ بلاغٌ يعلن وضعَ القنابل إلى وكالة رويْتر[3].

الجمعة 2 مارس، اخنيفرة

عند عودته إلى اخنيفرة، مساء يوم 2 مارس، قدم رسول موحى أوالحاج تقريرا عن الأمر-المضاد الذي توصل به في كلميمة. ارتبك موحى أوالحاج وامتقع لونه. فهو قد أخبر منذ قليل النمري بالأمر الذي كان ينتظره منذ شهور ليتابع السير إلى الجنوب ويعاود إنجازاته أيام جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب.

— هاجموا مركز القوات المساعدة بمولاي بوعزة واستولوا على مخزون السلاح !

غضب أَمدة واحتد النقاش. وبعد أن تحادث موحى أوالحاج وأمدة بصوت مرتفع، اتفقا على الذهاب حالا إلى مولاي بوعزة. وبعد احتساب الوقت الذي تستلزمه الرحلة، تبين أنه بالإمكان الوصول قبل إطلاق الرصاصة الأولى. تكدس موحى أوالحاج وأمدة وثلاثة رجال داخل سيارة بوجو انطلقت بسرعة كبيرة. بعد ساعة، وصلوا إلى قرية مولاي بوعزة الصغيرة. كان كل شيء هادئا. لا شيء يوحي بإمكانية حدوث هجوم. وهاهو أحد الرجال الذين ركبوا السيارة يحكي: "لأننا لم نجد النمري ورجالَه، استنتجنا أنهم لم يصلوا بعد. سرنا بضعة كيلومترات في اتجاه اخنيفرة، ثم أوقف موحى أوالحاج السيارة على قمة جبلٍ يطل على التلال المجاورة. أسكت محركَ السيارة وأطلق إشاراتٍ بضوء السيارة في الوجِهة التي كان من المفروض أن يظهر منها الفريق المسلح[4]".

---

3 لن تنفجر أي قنبلة. وحسب عباس، فإن الطاقة التي استُعمِلت في الجهاز المُفجر كانت ضعيفة لا تستطيع إشعال النار. وفي جلسة محكمة القنيطرة، سوف يقول دهكون إن خيوط نظام إشعال النار كانت قد قُطعت عن قصد. وهذه الرواية تعطي مصداقية للفكرة القائلة بأن الشرطة كانت على علم بالعمليات المسلحة. أنظر العلم، 30 يونيو 1973.

4 حوار للمؤلف مع أحمد بويقبا.

وأما بقية الأحداث فتسلسلت تسلسلا مأساويا محتوما. وهاهو أحد رجال الفريق الذي يسيره النمري يحكي عن تتابع الأحداث: "كنا ستة عشر[5]، مسلحون ببنادق-رشاشة، نجوب في عز الليل الثلاثين كيلومترا التي كانت تفصلنا عن مولاي بوعزة. وعشية ذلك اليوم، كان النمري قد جمع الرجال في بيتي حول مائدة عشاء. وعند نهاية الطعام، أخبرنا بنيته في الهجوم على مولاي بوعزة في تلك الليلة نفسها وحدد لكل واحد منا مهمته". ويواصل المحارب السابق: "وعلى بعد كيلومتر واحد أو اثنين من مولاي بوعزة، رأينا أضواء السيارة وسط الظلام. كانت تتجه إلى اخنيفرة. ولأننا كنا نجهل بأنها سيارة موحى أوالحاج، فإننا اختبأنا. وبعد أن اختفت السيارة، واصلنا السير حتى مولاي بوعزة. وهناك انقسم الفريق إلى ثلاث مجموعات. تموضعت مجموعة أولى على المنافذ، وقطعت مجموعةٌ ثانية الاتصالات الهاتفية، وطَوقت مجموعةٌ ثالثة مركزَ القوات المساعدة. وحسب معلوماتنا، كانت الأسلحة موضوعة في مخزن آخر. كان علينا أن نعتقل العريف المكلف بالحراسة لنتعرف على المكان. كان للمركز بابان، واحدٌ من جهة الأمام، والآخر من جهة الخلف. ضرب النمري على الباب. ولأن أحدا لم يُجب فإنه أطلق النار على المزلاج لتكسيره. وأما الرجال الذين كانوا يراقبون الباب الثاني، فقد تبادر إلى ذهنهم بأن إطلاق النار إنما هو رد فعلِ حَرَس المركز. وعندما فتح العريف المذعور الباب الثاني الذي يقابل البناية وحاول الهروب، أرداه آيت عمي قتيلا[6]".

ولأن العريف قد مات، أخذ النمري ورجالُه يفتشون المكانَ في عصبية بحثا عن مخزن السلاح. ولكن دون جدوى. كان الفجر قد اقترب، أعطى النمري الأمر بالتراجع. وفي اللحظة نفسها، انفجرت قنبلتان في خنيفرة. ولكن المناشير بقيت داخل الصناديق بسبب أمر-مضاد ولا شك. وهكذا كانت حصيلة هجوم مولاي بوعزة خلال الليلة من ثاني إلى ثالث مارس... عملية فاشلة.

السبت 3 مارس، أملاكو

يوم ثالث مارس، اجتمع محمود ورجالُه حول خروف مشوي في بيتِ مقدم أميلاغو، وهو تجمعٌ من القصور على سفح مرتفعٍ من طين. ولأنهم علموا عشية ذلك اليوم بوصول قائد الخلية المتأخرة قادما من إملّشيل، غادروا مأواهم الجبلي.

---

5 يتعلق الأمر بعلي أمزيان (صاحب الشهادة) ونعشابي (محمد الواحي). تكَون في سوريا. وحديدو ومحمد علي (موحى أوعلي) ومحمد بن صالح (عقى بن صالح) وأوحا بن رقية وموحى أو عقى وأحمد بن صالح ومهروق (أمهروق أمزيان). كان كذلك النمري وخمسة من رجال محمود: صبري وأسكور والناصري وآيت عمي وبا العمزاني. المصدر: قرار محكمة مكناس. رقم 130 /76.

6 حوار للمؤلف مع علي أمزيان.

تناقش المحاربون مع قادة الخلايا في موضوع خصائص ميدان المعركة حتى يضعوا التقنيات المناسبة للحرب. توقف نقاشهم عند دخول أحد الحرس معلنا قدومَ رسول. فخلافا للأوامر، وصل الرجل نهارا، ومن الطريق الرئيسية. مثل هذا التصرف ينذر بأن الأمر مستعجل. أذهل الخبرُ محمود:

— إن النمري يستعد للشروع في العمل.

والمشهد التالي وصفه المقدم الذي استقبل في بيته الثوار، وهو مشهد يشبه إلى حد كبير استذكاراً من وحي الإنجيل.كان محمود واثنا عشر رجلا من رجاله قد اجتمعوا لتناول وجبة العشاء[7]. ووسط دائرة المجتمعين، كانت تفوح رائحة الخروف المشوي بمناسبة عيد العرش. ضمن هؤلاء الرجال، كان يوجد خائنٌ. لم تكن الوجبة قد انتهت بعدُ عندما أعلن الراديو الهجومَ على مولاي بوعزة. جمّد الخبرُ الحاضرين في صمتٍ يملؤه الهول. بقي الرجال مشدوهين. ومحمود [نفسه] بقي مذهولا. وأما ابتسامته البريئة، وهي الشاهد المطمئنُ على حماسه الرحب، فقد تجمدت في وقار وصرامة مفاجئين. اتجهت إليه أنظار الحاضرين، يتطلعون إلى وجهه ليعرفوا باقي الأخبار. كانت نظراتٌ طويلة ملؤها مزيجٌ من الاستنكار ومن الخوف لم تعد الأفواه قادرةً على الإفصاح عنه.

إن هذه الانطلاقة المعزولة تُوَرطُ التخطيطات التي وُضِعت بصبرٍ وتؤدة منذ شهور. ولأن محمود عليه أن يَقبَل بِتَبِعات هذه الحماقة، فإنه حاول أن يقِّيس مداها. منذ بضعة أسابيع، كان قد بدأ عملية إعادة تنظيم الخلايا السرية والتجنيد والموارد والتسلح، وهي العملية التي لم تنته بعد. فإن كان يجب على خلايا أميلاجو أن تَكونَ عمليّةً بعد بضع أيام، فإن خلايا إملشيل سوف تحتاج وقتا أطول قبل أن تهضم مبادئ حرب العصابات.

أكيد أنهم يعرفون أدق تفاصيل الميدان: مواقع القوات المساعدة وعددها ولائحة الأسلحة وتفاصيل البناية التي تأوي مساعد قائد السلطة ومقر الإذاعة ... ولكنهم أضاعوا الأمر الأهم: مفعول المفاجأة. فقد بات عدد حرس مخازن الأسلحة بكل تأكيد ضعف ما كان عليه، وبدأت كذلك مطاردة المحاربين.

سأله النجار بصوت محايد كسر الصمت الذي كانت تؤثثه طقطقة المذياع، التي أصبحت فجأة بعيدة بعيدة: "ماذا سنفعل الآن؟"

اتجهت نظرات الضيوف نحو محمود في إلحاح، وتشبثت بجوابه فقال وهو ينهض ببطء:

7 الحاضرون هم رجاله الذين دخلوا، كما هو شأنه. من الجزائر: سي إبراهيم والصغير والنجار وفريكس وسليمان العلوي. ومسيرو خلايا المنطقة: عدي شان وأومهرير وسكو عقادر وأوسكونتي وسعيد أوخويا وموحى أوحمو وسي حمو علا.

— يجب أن نبقى هادئين وأن ننتظر حتى تهدأ الأمــور. من غير الجدي أن نورط مخططــاتنا أكثر مما كان. ومع شيء من الحظ. فإن رد فعلِ السلطة سوف يبقى مركزا على اخنيفرة [8].

أجاب محمود ببطء. بكلمات واضحة. وهو ينظر إلى كل واحد من المدعوين الحاضرين وكأنه يريد أن يوصل إلى كل واحد منهم قراره الذي لا جدال فيه. ردت حركات متتابعة من الرأس على كلماته. وبما أن مضيفَهم كان هو مقدم أملاكو. أي الممثل المحلي لوزارة الداخلية. فإن السلطات لن تشك في كون بيتِه يأوي المحاربين.

ولكن مقدم أملاكو يحكي بأن محمود. عندما انفرد به. اعترف له بغيظه متهما نفسَه بالإهمال:

— ضاع كل شيء. إنها غلطتي. كان علي أن لا أدع المجال حرا لحركةٍ معزولة[9].

حام صمت ثقيل على بقية الطعام. إن كان لابد لهم من الموت. فعلى الأقل يجب أن لا يكون ذلك مجانا.

أرسل محمود اثنين من رجاله المكلفين بالاتصال لجمع السلاح الذي بقي في الجبل وإخفائه في مكان آمن عند شيخ لهرون. ثم أمر النجار بأن يستعد للرحيل إلى إملشيل في الليلة نفسها.. النجار من الأوفياء. وقد اختاره محمود نظرا لقدراته على البقاء ولحماسه المتيقظ دائما. والآن. فإنه ينتظر منه أن يعطي أقصى ما يمكن. ولهذا وبجلال ووقار خاصين. حدثه عما يجب وضعه في إملشيل.

وفي منتصف الليل. غادر النجار والصغير وسي إبراهيم منزلَ المقدم يقودهم قائدًا خلية إملشيل. تبعتهم بغالٌ محملة بالسلاح وبالقنابل اليدوية والذخيرة. ساروا على طول الهضبة التي تضيئها أضواء القرية. ثم اختفوا. بعد أن غطاهم الظلام. كان البرد المفاجئ يملأ الجو الصافي حيث تلمع النجوم في السماء. كانت الأسلحة والذخيرة تبطئ سيرهم. الطريق طويلة والبرد القارس يَكنِسُ الثلوج. وهذه الأخيرة. عندما ترفعها الرياح. تُضعِفُ القدرة على الإبصار وتأخذ صوت تنفس النجار ورفاقه المتسارع وغير المنتظم. وبعد بضع كيلومترات. توقفت الرياح لتبدأ ليلةٌ من صمتٍ مطبِق.

عندما فاجأتهم أول أضواء الفجر. بعد أن أخذوا يحسون بعناء التعب. اختبأوا داخل مرتفعات جبل أسول. وخلال هذا الوقت. ابتعد أحد مرشديهم ليظهر ثانية محملا بالخبز الذي أحضره من مريط. وفي الليلة الثانية. وصل النجار ورفاقه إلى نواحي تانا. ثم وصلوا أخيرا إلى هدفهم عند نهاية ليلة ثالثة من المشي.

---

8 حوار للمؤلف مع عدي شان.

9 حوار للمؤلف مع عدي شان.

الأحد 4 مارس، أملاكو

أنجز رَجُلاَ الاتصال، اللذَان أرسلهما محمود لجمع السلاح الذي بقي في المغارة، مهمتهما. وهاهو أحدهما يحكي: "عندما وصلت إلى لهرون، طلب مني الشيخ أن أذهب إلى كلميمة من أجل أخذ تجهيزات تنفع في الجبال العالية. وفي الوقت نفسه، أرسل الرفيق الآخر ليُحضر له منظارا مقربا وجهاز راديو بقيا في المغارة[10]".

إنها اللحظة التي تتأرجح فيها المواهب المترددة بين الوفاء والخيانة. عند أومهرير، وهو رجل الاتصال الثاني الذي أرسله محمود، أخذ العزم الذي أبان عنه في اللحظات الأولى يتراجع : فقد غزت ذهنَه الحسابات التي يوحي بها الخوف لذوي الطباع المتقلبة. عبَرَ حدودَ الجبن. ومحمود، ومن قبيل الاحتياط والحذر، كان دائما يبعث المناضلين السريين في جماعة تتشكل من فردَين. فقد كان حذرهما المتبادل ضامنا قويا. وأما شيخ لهرون، الذي كان ولا شك يثق أكثر في فضائل التضامن القَبَلي، فقد ارتأى أن هذا الاحتياط غير ضروري. ولأن أومهرير بُعث منفردا، فإنه ذهب مباشرةً عند مساعد قائد السلطة بأملاكو، ووضع سلاحه مُعْتَرِفاً:

— لقد أرسلوني لقتلك، إنهم في بيت المقدم.

انتاب الفزعُ مساعدَ قائد السلطة، فاتصل في الحال بالقائد الممتاز لكلميمة ليطلب منه تدخل فرقة مسلحة. ولأن هذا الأخير لم يكن يملك العدد اللازم، فإنه اتصل بعامل قصر السوق، الذي كان في حالة استنفار بسبب الهجوم على مخزن الأسلحة بمولاي بوعزة. فأرسل له، على وجه السرعة، مَفرَزَةً من القوات المساعدة المتواجدة في الريش.

ويواصل رجلُ الاتصال الأول الذي أرسله محمود: "عندما وصلت عند مناضل سري بكلميمة، قدم لي هذا الأخير رفيقا من قلعة نكردوس سلمني أكياسا تحتوي على جلابيب وأحزمة وحقائب عسكرية. غادرت كلميمة يوم 4 مارس مساءً[11]". لن يصل رجل الاتصال إلى أملاكو، فقد تجاوزته في منتصف الطريق قافلةٌ عسكرية. وعلى بعد أمتار من هناك، قطعت عليه الطريق سيارة دجيب بعد أن أطفأت أضواءها ومحركها. وُجهت إليه البنادق وسُئِل، تذرع بسوق الجمعة الأسبوعي ليبرر حمولته. ولكن، وفي اللحظة التي كان يستعد فيها لركوب بغله، خانته المنشورات المخبأة في طربوش جلبابه.

---

10 حوار للمؤلف مع علي أوسكونتي.

11 حوار للمؤلف مع علي أوسكوني.

الاثنين 5 مارس، فيكيك

عند عودة ساعة إلى فيكيك، زاره يوم ثاني مارس رسولٌ من الميد : "يريد الميد أن يراك، إنه ينتظرك في وهران".

ولأن موعد ساعة مع محمود كان مرتقبا بعد اليوم الموالي، فإنه قرر تأجيل رحيله إلى وهران. قال في نفسه إنه، ولو كانت الأسلحة والرجال على أهبة الاستعداد للدخول، فإن عليه أن يعيد ثانية الوقوف على الوضع في مجمله مع محمود. ولكن في اليوم الموالي، صدمه خبر الهجوم على مولاي بوعزة. وزاره شخصيا في بيته ضابطٌ متعاطفٌ من القوات المسلحة الملكية ليحذره : "أخرج الرجال قبل فوات الأوان".

وفي خضم هذه الحيرة والارتباك، أرسل ساعة ضابطا آخر من القوات المسلحة الملكية[12]، وهو عضو نشيط في التنظيم، إلى خنيفرة ليستفسر عن الوضع. ثم، أرسل رجلين ليتأكدا من وضع المراقبة على الحدود. أقنعته المعلومات التي بلغته والتي تنذر بالخطر بضرورة إخبار القيادة العليا في الجزائر.

وحالما التقى ساعة الميد في وهران، عرض عليه الوقائع في عصبية :

— يجب العبور من طاوس، الحدود في فيكيك أصبحت خطيرة.

ولكن الميد لم يهتم كثيرا بوضع نقط العبور.

— أبلغني رسولٌ من الرباط بأنك أصبحت مبحوثا عنك وعليك أن تغادر البلد.

حير هذا الطلب المفاجئ ساعة، فحاول أن يفهم. ورغم الأحاسيس المتناقضة التي استولت عليه، حاول أن يعالج الأمور الأكثر استعجالا:

— يجب الآن تأجيل العمليات الجارية لتفادي خطر الانزلاقات[13].

اجتاح احساسٌ بعدم اليقين ساعة، فرجع إلى فيكيك في اليوم الموالي، خامس مارس، ليكتشف أن المنطقة غدت مطوقة والحدودَ مراقبةٌ عن قرب. دخلت القوات المساعدة ووحدات الدرك الخاصة فيكيك وقلبت الأرض بالجرفات لتكتشف العديد من مخابئ السلاح. تم حجزُ 39 سلاحا أوتوماتيكيا، منها 17 بندقية-رشاشة وعدة أكياس من الذخيرة. سوف يتعرف ساعة وسط ضباط الدرك على رجل لا يناسبه اللباس الرسمي لرجال الدرك. إنه رجل اتصال، أرسله قبل شهرين من ذلك اللوزي ليتعرف على الأماكن قبل دخول محمود ورجاله. الرجل عميلٌ مزدوج، فهو قد أنذر السلطات بدخول الثوار. وأما الموعد الذي لم يتم مع المسكي والذي اعتبر محمود أن سببه هو خطأ في ضبط التواريخ، فقد كان في الواقع محاولة أولى لإفشال العملية. بل إن ساعة يعرف الرجلَ. إذ في بيته وُضع جزءٌ من حمولة الأسلحة التي أحضرها ساعة إلى الأطلس أيامَ كان مساعدا لقائد السلطة بكلميمة. ولكن الرجل الذي

---

12 الوزان بلقاسم، اعتُبر مختفيا منذ ذلك الحين.

13 حوار للمؤلف مع محمد بن عمارة، المعروف بساعة.

خُبئت عنده الأسلحة كان يملك من روح التجارة أكثر مما يملك من روح حب الوطن. فقد قايض الأسلحة، بندقية مقابل عنزة، فأصبح يملك قطيعا من الماشية.

استشهاد ثوري

بعد أن حل الليل محل المساء، وصل الملازم أُوعرجي إلى أميلاجو على رأس مفرزته، عند بداية الساعات الأولى من يوم 5 مارس. كان الملازم أحد قدماء جيش الاستعمار، وقد زادت رتبته في صفوف القوات المساعدة. وكما هو الشأن في فيكيك، كانت الوحدات التي أرسلت وحدات من القوات المساعدة ومن الوحدات الخاصة في الدرك.

كان بيت المقدم بأملاكو يُجاور مكاناً صغيرا للحَفْر كان يتواجد به محمود ورفاقه. طُوق المكانُ في الحال. أخرج صوتُ أحذيةِ الجنود المقدمَ من نومه. اعتقد بأنه يسمع صوت رجُلَي الاتصال اللذَين ذهبا إلى المغارة، واللذَين كان يُنتظر رجوعُهما منذ اليوم السابق، قام من فراشه وخرج. ما كاد يعبر عتبة منزله، حتى طوقه الجنود واقتادوه. وأطلقت زوجةُ المقدم التي أيقظها الصوت الإنذارَ. وداخل البناية، كان يوجد محمود واثنان من رفاقه، سليمان العلوي وفريكس. استعد الرجال الثلاثة على التو لإطلاق النار. وفي رمشة عين، انتبهوا للوضع. هناك مَن خانهم، وهم الآن قد وقعوا في فخ. لم يعد أمامهم أي منفذ ممكن. إن هؤلاء الرجال الذين تدربوا على الحرب والمستعدين للموت دفاعاً عن قناعاتهم، قد اكتشفوا الطاقة التي يأتي بها اليأس.

استمر القتال مع القوات المساعدة خمس ساعات قبل أن يُحْسَم الموقف. ولأن الملازم أوعرجي كان يخشى هذا الموقف، فإنه حاول في البداية تجنب مجابهةٍ مباشرة وذلك بتكليفه مستشارا في الجماعة، وهو مقاوم سابق، بأن يتفاوض مع المقاتلين كي يستسلموا. لم ينته الرجل بَعْدُ من سلسلةٍ من الصيغ والتعابير التي تهدئ النفوس مُغَررةً بها، حتى سدد نحوه محمود بندقيتهً :

— لديك عشر ثوانٍ لتخرج من هنا إن كنت تريد البقاء حيا".

وما كاد المستشار الجماعي يدير ظهره حتى أطلق المحاربون النارَ على المهاجمين الذين فروا مبتعدين. فأمر عندها الملازمُ أوعرجي رجالَه بأن يردوا في الحين على إطلاق النار. كان صوت البنادق-الرشاشة يمزق صمت الصباح، ويرفع سحابةً من الغبار. بدأت الأشعة الأولى تضيء ذلك الصباح داخلَ ساحة الدار.

أصيب جندي إصابة مباشرة فسقط، رأسه أولا، داخل الساقية (وهي قناة للري). جُرح فريكس في ساقه. تزايد إطلاق النار وتصاعد دخانٌ من داخل بيت المقدم: إذ بأمرٍ من محمود، أشعلت زوجةُ المقدم النار في حقيبة من المال وفي الوثائق التي أعطاها لها.

وبينما الدخان ينفرج، فهم الملازم أوعرجي أن المجابهة المباشرة ستفشل لا محالة. كان فريكس متخندقا وراء نافذة في البناية، وكان يحمي رفيقَيْه، المتمركِزَيْن في شكل كمين في الخارج، فيمنع كل محاولة لتطويقهما. وبما أن الملازم ورجاله أصبحوا أمام ضربات قاتلة يسددها لهم محمود وسليمان العلوي، فإنه أحس بأن جنوده، الذين بدأت أعدادهم تتناقص، سيتعرضون لمجزرة. ولأنه كان عازما على إنهاء المعركة قبل وصول المساعدات، فإنه حاول ضربَ المحاصَرين من الخلف، فأمر رجالَه بتسلق الحائط من الخلف. ولكن المحاولة فشلت، فقد تعرض رجاله إلى طلقات محمود وسليمان العلوي. ولما وقف الملازمُ على الخسائر التي تعرض لها، فهِمَ أنه من الأفضل أن يُهدئ الموقفَ وأن يقتصد في الجهد. استغل محمود وسيدي سليمان فترةَ الراحة هذه، فرجعا إلى البيت.

وما أن احتميا داخل البيت حتى ناشد محمود زوجةَ المقدم:

— نحن سوف نموت، ولكن أنتِ يجب أن تعيشي لأبنائكِ، خذي طفلَيْك واخرجي، لن يحدث لك شيء.

وليتأكد محمود بأن المرأة فهمته فهما جيدا، طلب من سليمان العلوي أن يترجم لها هذا الكلام إلى اللغة الأمازيغية: إنها فترةُ توقف لن تدوم طويلا، فإما الآن وإلا فلن تكون هناك فرصة أخرى.. ترددت المرأة وغطت طفليها بيديها ووقفت أمام عتبة الدار، أمَرَها صوتٌ من الخارج بأن تتقدم نحوه. ولما وصلت إلى مستوى الرجل الذي كان يصيح فيها، وجدت أمامها جنديا شابا دلها على الملازم أوعرجي بإصبعه :

— يريد أن يتكلم معك.

ولما اقتربت منه المرأة، سألها مرهقا:

— كم عددهم في الداخل؟

فأجابته المرأة :

— رأيت منهم ثلاثة.

وبحركة باديةِ الضجر، أشار الملازم إلى جندي بأن يرافق المرأة حتى مكتب القائد المساعد. وهاهي زوجة المقدم تتذكر : "عندما دخلت المكتبَ، تواصل إطلاقُ النار".

وفي السجن، وقبل تنفيذ حكم الإعدام في فريكس، حكى للمقدم آخر لحظات رفاقه. "على الساعة العاشرة، استجمع الملازمُ رجالَه وهاجم ثانيةً المنزل. تمركز محمود وسليمان العلوي خارج الدار، الأول شَكَلَ كمينا وراء البئر، والثاني تموضع في خندقٍ صغير. وأنا، ولأن ساقي الجريحة كانت تمنعني من الحركة، فإنني كنتِ أغطيهما بعد أنً تمركزْتُ خلف نافذة. جُرِح الملازم وكذا العديدُ من رجاله. وبعد ساعة، أصِيب محمود إصابةً قاتلةً وسقط وراء البِئر. جره سليمان العلوي إلى داخل البيت. ولأنه أصيب عدة إصابات، فقد مات بعد بضع دقائق عند مدخل المنزل. ولأن ذخيرتي نفذت لم يعد لي من سبيل للدفاع، فقبضوا أخيرا علي[14]".

---

14 حوار للمؤلف مع عدي شان.

عَبّئَ الرجالَ من سكان القصر لجمع الجرحى والموتى. قُتِل خمسةُ جنودٍ على الأقل. وجُرِح زهاء الخمسة عشر[15]. ويتذكر أحد الجنود أن "عنف الاشتباك الثاني كان من القوة بحيث إن قائد (كومندان) القوات المساعدة قرر أن يرسل طائرات مروحية إلى أملاكو للهجوم على المخبأ جوا. مما دفع الملازم أوعرجي، الذي رأى أن كرامته تفرض عليه أن يقضي على محمود قبل التدخل الجوي، أن يشن الهجوم الثاني آمرا بأن تُطلَق النارُ بسخاء كبير[16]". ويتذكر التلاميذ القدماء بالمدرسة الابتدائية بأملاكو : كانت جثّتا محمود وسليمان العلوي ممددتين لا تتحركان داخل قاعة الدرس الوحيدة، وعليهما غطاء. وفريكس، اتكأ على جانب آخر، تحت حراسة جندي، وقد نزف دمه. كان ينظر نظرةً فارغةً إلى الأفق، إلى ما وراء فتحة الباب الصغيرة.

نيران المنحدر

إن كان يمكن تصور الرجة، فإن آيت قدور وبنيحيى والميد والفقيه البصري، وكلهم كانوا موجودين في الجزائر العاصمة، يمكنهم أن يشهدوا بذلك: اختلطت الشجاعة بالأنانية، واختلط الحلم بالعدالة بالانتهازية، والرؤية السياسية بالعمى الإيديولوجي، فأدى هذا كله إلى حركة وانتفاضة غير منظمة. بدل هذا الاندفاع على غيابٍ تام للتنسيق. وصل عبد الرحيم بوعبيد، من جهته إلى باريس عند إطلاق أول رصاصة واستقر في بيت صغير في شارع موفطار قرب بيت المهدي العلوي. ويتذكر بنيحيى أنه حَرَّر في باريس بلاغا، بموافقة عبد الرحمن اليوسفي، يتبنى انطلاق العمليات باسم مجموعة *ليست هي الحزب*: "التقيت الطبيب بناني على رصيف مقهى على هضبة مونمارتر. وحررنا معاً بلاغا من بضعة أسطر، أرسل على التو بالتيليغراف إلى راديو طرابلس[17]". والنص الذي كان يحمل تاريخا سابقا والذي يحمل عنوان "بلاغ من مكناس"، يعلن تبني العمليات باسم الجبهة الوطنية للتحرير. وبعد ذلك بقليل، استقل بنيحيى الطائرةَ إلى الجزائر العاصمة.

وفي الجزائر العاصمة، كانت الساعة ساعةَ الفرحة العارمة. وكما هي عادة الفقيه البصري دائما، فإنه وضع علاماته حتى تتوافق العملية مع أهدافه. فقد أرسل مبعوثين إلى مختلف العواصم العربية الصديقة ليطلب منها أن تجعل من مساندتها السياسية مساندةً ملموسة. ويتذكر شاهدٌ أن "البعض بدأ النقاشَ حول العلم الوطني والنشيد الوطني". لقد تحولت الثورة إلى استعراض حيث البراعةُ هي أن يسلكَ المرء الطريق حتى الصف الأول. تَم جلبُ الأسلحة والذخيرة مباشرةً إلى الجزائر

15 لن تعترف السلطات سوى بقتيل واحد وثلاثة جرحى من جانب قوات النظام. العلم، 26 يونيو 1973.
16 حوار للمؤلف مع شاهدٍ فضل عدم ذكر اسمه.
17 حوار للمؤلف مع محمدٌ بنيحيى.

العاصمة. وهاهو خالد يشهد: "لما وصلتُ من ليبيا يوم 6 مارس، وجدت نفسي في شقة وسط الجزائر العاصمة مع العديد من الرجال. كانوا كلهم قد تدربوا في ليبيا وكان الغرض من وجودهم هو تشكيل القوة الضاربة فيما يخص عمليات المنطقة الشمالية. كان هناك رجالٌ آخرون نزلوا في إقامة بهيدرا. كان علينا جميعا الحفاظ على السر[18]".

وفيما يخص التعليمات التي تركها محمود عند ساهر، فإن خالد زارَه الميد وبنيحيى وآيت قدور. لم يعودوا يتحدثون عن ثورة وإنما عن عمل جريء بوجدة. تعددت اللقاءات بين خالد والفقيه البصري. لم يخمد حماس خالد. ففي رأيه، لم تكن عملية معينة في وجدة يتبعها تراجعٌ داخل التراب الجزائري إلا ضرباً من الحماقة الصرفة.

وكما هو الشأن غالبا في مثل هذه الظروف، فإن القيادة، التي جرفتها قوة الكلام، يستحوذ عليها إحساس أبله بالنصر فتستسهل الصعوبات التقنية. لم يكن حماسهم ليقبل بأن تقلل منه بعض الإشاعات المتشائمة التي تدق ناقوس الخطر. تحول قادة التنظيم في الجزائر العاصمة إلى مهربين للأخبار المغلوطة وقرروا مجزرةً وهم يحلمون بالثورة.

ورغم أن خالد لم يكن بوسعه أن يُقَيم الأوضاع على الميدان، إلا أنه كان يملك من الخبرة ما يكفي ليفهم بأن تسربا إلى التراب المغربي يستلزم قاعدةً للتراجع في عين المكان لا في الجزائر. وإلا فإن القوات المسلحة الملكية لن يكون عليها سوى إغلاق الحدود بمساعدة الجزائريين لتُوقِع هؤلاء الرجال في الشرَك. أكيد أن خالد رجل منضبط، ولكن الأوامر التي توصل بها من القيادة العليا لم تُرض الإيمانَ العميق الذي كان قد جعل منه ثوريا.

وأما ساعة، الذي تراجع إلى وهران، فقد طُلِب منه هو كذلك المشاركة وذلك بتقديم تصاميم مفصلة عن مخابئ الأسلحة ونقط العبور. وهاهو يقول: "كنت أقول لهم وأكرر بأن المنظمة داخل البلد قد تسرب إليها المخبرون، وبأن الجيش بات على عِلمٍ، ولكن دون جدوى[19]".

يبدو أن الأوامر كانت مختلطة مبهمة، مما يشهد على أن القيادة ممزقة وميؤوس منها. ولأن ما تبقى من قيادة الثورة هذه تنقصه الوسائل الحقيقية، فإنه أصبح يبني ويشيد الأوهام. وبعد شهرٍ من انتظار غير مجدٍ، أخذ الرجال يشدون الرحال ويعودون إلى أوروبا.

وأما الهجوم على مدينة وجدة فلم يقع.

---

18 حوار للمؤلف مع محمد التوزاني، المعروف بخالد.

19 حوار للمؤلف مع محمد بن عمارة، المعروف بساعة.

الثلاثاء 6 مارس، سونتات

لحق الفجر مجموعةَ النجار في نواحي سونتات. بدأ الشفق يظهر في خجل، ينير ضبابَ الصبح الخفيف الذي يغطي الهضبة. وحولها، أخذت تضاريس الجبال غير الواضحة والمتغيرة تستعيد وضوحَها كلما تلاشت آخر أشلاء الضباب. بعد أن سار سيرا سريعا النجار والصغير وسي إبراهيم وقائدا التنظيم في إملشيل وأحسوا بالتعب والإرهاق، فرحوا عندما بلغوا الهدف.

يوجد قصر سونتات على جانب هضبة على علو يزيد عن 2500 متر. إنه واد واسع يتجه مصبه إلى إملشيل. وبعد أن آوى أحدُ المسؤولين المحليين رفاقَه في بيته البسيط المتواضع، خرج ليتفقد الأمور. مرت ساعة. وعندما عاد ثانية قاد رفاقَه إلى منزل آخر حيث كان ينتظرهم مناضلون سريون. عَدَّدَ النجار رجالَه والأسلحة المتوفرة. ثم قرر أن يلتحق بالجبل الذي يعلو مركز إملشيل الإداري. إذ من ثمة، يمكنهم أن يتعرفوا على الميدان وينظموا المناضلين في فرق. وبينما المحاربون يتناقشون حول الهدف الذي يجب ضربه، (مركز القوات المساعدة بإملشيل)، انتابَت القصرَ بعضُ الحركة غير العادية. أرسل قائدُ الخلية أحدَ المناضلين الحاضرين ليستفسر عن السبب. رجع الشاب بعد دقائق :

— القوات المساعدة تبحث عنا.

انتابه رعبٌ شديد ففر هاربا وتبعه العديد من الرجال الحاضرين. تموقع النجار ورفاقه لمجابهة كل هجوم وأرسلوا زوجةَ أحد المناضلين لتَزَودهم بأخبارٍ أدق. عادت بعد وقتٍ قصير لتخبرهم بأن اشتباكا قد وقع في أملاكو. قُتل العديد من الرجال، واعتُقل آخرون. لا شك أنهم باحوا بالأمر وأفصحوا عن وجودهم بإملشيل. كانت الزوجةُ خائفةً مرعوبة. وبعد أن استوضح الصغير كلامها ببضع أسئلة بسيطة ودقيقة، حاول طمأنتها وأرسلها لتتحرى حركات قوات النظام. وعند عودتها، وصفت لهم الأوضاع وصفا لا يبشر بالخير:

— عبأ مساعد قائد السلطة القواتِ المساعدةَ، وهو يستعد لتفتيش قرية سونتات بعد أن فتش تنغيغاشت تفتيشا دقيقا. وقد تَم اعتقالُ العديد من الرجال.

إن بقي المحاربون في سونتات فلربما تَم تطويقهم. وسوف تؤدي مواجهة داخل القرية إلى إهدار دماء كثيرة. قرر النجار أن يتراجع إلى الجبل. ولحسن الحظ، كان البيت الذي يوجدون به على طرف القرية. انسل النجار ورفاقُه من باب خلفي، وتحت شمس الظهيرة، اتجهوا نحو الجبل. ما كادوا يسيرون كيلومترا واحداً حتى اقتفت القواتُ المساعدة أثرهم. ومن بعيد، أمرهم مقدمٌ بالاستسلام :

— سلموا أنفسكم، نحن نطبق الأوامر رغما عنا.

إنها مفرزة من رجال القوات المساعدة المحلية، الذين كانوا على علم كاف بالتنظيم، فكانوا بذلك متواطئين معه رغما عنهم. ولكن النجار ورفاقه أطلقوا النار. فوجئ رجالُ القوات المساعدة فتفرقوا وكأنهم الجراد. كانوا مسلحين ببنادق بسيطة، مما كان يحد من قدرتهم على الدفاع والرد. مكنت دهشتهم وانكسارهم الفريقَ من الوصول إلى أعالي جبل أمالو سونتات.

ولكن الهدنة لم تدم طويلا.

وابتداءً من الساعة الرابعة زوالا، ظهر سربٌ من الطائرات المروحية في السماء الصافية معلنا وصولَ الإمدادات. وبعد بضع دقائق، حطت الطائرات في شكل نصف دائرة أسفل الجبل، ونزلت منها جماعاتٌ وجماعات من جنودِ قوات التدخل الخاصة، التي جاءت من قصر السوق ومن الريش.

وخلال ذلك الوقت، واصل النجار ورفاقُه تسلق الجبل إلى أن بلغوا قمتَه، على علو يزيد عن 3000 متر. ومن هناك، باتوا يراقبون الوادي وكل جوانب الجبل. وعند نهاية النهار، بدأت الوحدات الخاصة هجومها بينما الطائرات المروحية تحلق فوق المنطقة. ولكن كان من المستحيل إخراج النجار ورجاله من موقعهم. حاول الجنود عدة مرات الهجوم ولكن دون جدوى، فكان الثمن خسائر ثقيلة. كان سعيد أوتاما، وهو من أعيان السلطة المحليين، كان متواجدا حتى في زمن الحماية، هو الذي يقود عمليات القمع باعتباره مستبدا على علمٍ بالأمور. ولكن، ولأنه طاوع حماسه ونزوعه إلى القمع، استبق قدرَه ليلقى الموت علَى أيدي الثوار.

عندما بدأت الشمس نزولها خلف قمة الجبل، كانت مجموعة النجار لا تزال تواصل المقاومة، وهو الأمر الذي لم يكن متوقعا. أحس الصغير بأن هناك محاولة لتطويقهم، فاقترح مغادرة المكان. وحتى يكون لتراجعهم حظ من النجاح، كان عليهم أن ينتظروا حتى يحل الظلام وأن يقتصدوا في الذخيرة. وافق الثوار وكلفوا الصغير بأن يغطي بنيران رصاصه فجوةً من الجبل تمكنهم من الوصول إلى وادٍ جانبي. كان الجبل سلسلة من الأودية تجعل كل إمكانية للبحث مكلفةً ومرهقةً. وبقليل من الحظ، يمكنهم الوصول إلى نقطة تراجع في المنطقة.

بيد أنه، ولحظةَ إخلاء المكان، لم يعد يُسمع أي شيء يدل على أن الصغير مازال على قيد الحياة. بحث عنه النجار بنظره، لم يعد يُرَى. اعتقد بأنه جريح، فزحف اتجاهه، لم يجده. وزيادة في الحيطة، قرر النجار ورفاقه الذهاب في الاتجاه المعاكس. عبروا ليلةً باردة قارسة، مشوا حتى الفجر يلويهم البرد والجوع والعطش. وبعيدا، كانت صواريخُ مضيئة تطلق شُهباً تضيء الجبل.

باتت المنطقة محاصرة. أخذت امداداتٌ أخرى تتوجه إلى المنطقة انطلاقا من مراكش وورززات. عندما لاحت أولى أشعة الفجر على قمة الجبل، كان النجار ورفاقه

قد عبروا حوالي الثلاثين كيلومترا. خيم الصمت على مشهدٍ طبيعي قمري يغلفه ضوءٌ باهت، يبدو فيه أن الزمن قد توقف. لجأ المحاربون المنكسرون إلى كَفْرِ رُعاةٍ في مصب مرتفعات أمالو. اسم الدوار تاغيغاشت.

الجمعة 9 مارس، تنغير

زعزع خبر موت محمود الأطر المحاربة بتنغير. إذ باختفائه، اختفى مصممُ مخططات الهجوم التي كانت تُكرر وتُعاد بصبرٍ وأناة منذ أسابيع. تراجع الثوار إلى تضاريس شِعَب التودرا منذ إعلان الهجوم على مولاي بوعزة، وانتابتهم لحظةٌ اختلطت فيها الأمور. كانت الثلوج تكسوا الجبل بكامله فغدا معزولا. لم يظهر سيدي حمو منذ ثلاثة أيام. وأما حسين آيت زايد، ساعدُه الأيمن، فإنه لجأ إلى مغارة مع عدة أفرادٍ من قبيلته.

وهاهو أحد قادة الخلايا يتذكر: "أرسلوا رجلهم في الاتصال لنتفق على موعدٍ في الجبل خلال الليل. أخذتُ سلاحي والتحقتُ بهم في المكان المحدد. كان الجو باردا ورطبا. وكانت الرياح قوية. كان ترتيبٌ معين للأحجار على جانب الطريق يدل على وجودهم. أطلقتُ صفيراً، فظهروا[20]".

تبع ذلك نقاشٌ صاخب. كان بوزيان والعثماني، اثنين من رجال محمود، متحمسَين للعمل في أقرب وقت. وأما رئيس الخلية، والذي كان يعرف أن عملا معزولا يمكن أن يتسبب في عمليات قمع، فقد عارض، وسانده في ذلك دحمان سعيد والجزار، وهما إطاران آخران من أطر حرب العصابات.كاد الخلاف ينقلب إلى مواجهة. ففَقَدَ بوزيان والعثماني صبرهما. لم يعد الوقت وقتَ مناقشات ومشاورات. فحَسَمَت الأمرَ بقيةُ الأحداث. ويشهد أحد المناضلين قائلا: "أخبرني فيما بعد أحد أقربائي الذي كان يساهم في عمليات البوليس بأن مفرزةً من قوات النظام قد أجرت عدة إنزالات بتنغير دون أن تجد أحدا. كان مصدر معلوماتهم الوحيد هو أومهرير، الخائن بأملاكو، والذي استفاد من بعض الأسرار التي باح بها اللوزي. وعلى إثر ذلك، جاء أمر من القيادة العليا من الرباط بإنجاز عملية تفتيش أخيرة والعودة إلى عين شير لمراقبة الحدود. وخلال هذا التفتيش الأخير عثروا على آثار حسين آيت زايد وأخوين اثنين من إخوانه[21]".

وفي اليوم الموالي، أي يوم 10 مارس، على الساعةِ الخامسة صباحا، طوقت القواتُ النظامية المغارةَ. تبع ذلك اشتباكٌ عنيف، انتهى بأن أصيب العربي، أحدُ أخَوَي الحسين آيت زايد، وأحد المهاجمين، إصابةً مميتة. أُلقِي القبض أخيرا على الحسين آيت زايد في

20 حوار للمؤلف مع التوركي عدي.
21 حوار للمؤلف مع توركي عدي.

حين أن عمر، أخاه الثاني، استطاع الفرار. ولكن لم تدم الهدنة طويلا: فقد لَحِق به مطاردوه بعد أسبوع من ذلك اليوم[22].

وفي اليوم نفسه، التقى سيدي حمو ثانيةً بشِعَب التودرا المحاربين الذين أصبحوا فريسةَ اختلافاتهم. وبعد مداولات، اتفقوا على أن يذهب دحمان سعيد والجزار إلى أزيلال ليُكَوِّنا هناك فرقةً من المناضلين المحليين. وسوف يفعل الشيءَ نفسَه بوزيان العثماني والملكي وسيدي حمو نفسه فوق تنغير. وضُرِب موعدٌ بعد ستة أيامٍ لالتحام الجميع.

وفي اليوم الموعود، اتصل رسولٌ من المجموعة الثانية بسيدي حمو. وبينما سيدي حمو ورجاله في طريقهم إلى المكان المتفق عليه عند نهاية النهار، مزق الجوَّ دويُّ بنادقَ-رشاشة. إنه كمين. ارتمى سيدي حمو وبوزيان اللذان كانا يمشيان في المقدمة، ارتميا أرضاً فتفاديا وابل الرصاص الذي هطل دون تمييز على طريق تكسوها الحجارة. رد الملكي والعثماني اللذان كانا في الخلف ردا آليا. أصيب جندي كان مختبئا إصابةً مباشرة، فسقط من على الجرف. انسل سيدي حمو وبوزيان من الجانبين ليتلقى المهاجمون النارَ من جهتين فيخففوا من قبضتهم. دام الاشتباك حوالي العشرين دقيقة، وفي النهاية انكسر رجال القوات المساعدة. قُتِل الضابطُ الذي يُسَيِّر القواتِ التي نظمت الكمين خلال تبادل النار، ففضل الجنودُ، الذين غدوا بدون قائدهم، التراجعَ.

استغل سيدي حمو ورجاله هذا التقدم على الخصم، ففروا ولجؤوا إلى الجبال.

22 سوف يُحكَم عليه بعشرين سنةً سجناً في محاكمة القنيطرة.

الخارجون على القانون

الثورة اليتيمة

كان موحى أوالحاج أول ضحية لحماسه واندفاعه. إذ بما أنه لم يستطع إيقاف هجوم مولاي بوعزة الذي تسبب في انطلاقه قبل الأوان، فقد نزلت تبعاتُ ذلك متسلسلةً تسلسلا محتوما. إذ إن النداءات المتواصلة التي كان يوجهها بضوء السيارة لإنذار مجموعة النمري، أفرغت بطارية السيارة فتعطل محركها. جعله سوء حظه هذا يواجه واقعا معاديا لم يكن بعد يقيس مدى خطورته. وهاهو أحد رفاق ضربة الحظ العاثر هذه يحكي: "عدت أنا وأمدة ورجُلين من رجاله مشياً على الأقدام في حين أن موحى أوالحاج قرر أن يبقى في عين المكان ليمضي الليلة عند شيخ قرية مجاورة. كان ينوي إصلاح السيارة في اليوم الموالي[1]".

وعند عودة موحى أوالحاج يوم ثالث مارس إلى خنيفرة، كانت الأحداث على ما يبدو قد تجاوزته. وهاهو أحد المسؤولين المحليين يتذكر: "جاء عندي وحكى لي عن الهجوم على مولاي بوعزة ووضح لي بأن لا شيء تم العثور عليه. توسلت إليه أن يرحل ويختبئ في الجبال[2]". اعتُقل موحى أوالحاج بعد يومين من ذلك عند الفجر.

عندما تفقد الثورة قيادتها تسقط وتتهاوى وسط ملحمة دموية غير منتظمة. يشهد أحد المحاربين قائلا: "بعد أن التحقنا بالنمري ورجاله، عدنا إلى الجبل بآكلموس نعمي. بالنسبة إلينا، كان كل شيء لا يزال ممكنا. ولم نعلم بموت محمود إلا بعد أن وصلنا إلى هذا المكان. صَدَمَنا الخبرُ. غدونا وكأن الشلل أصابنا[3]".

حل فجرٌ تسمه أجواء الجنازة على الجبل. بدا الموت الدامي لمحمود وسليمان العلوي بدايةَ نهاية مأساوية. أصاب موت محمود الرجالَ في مصدر قوّتهم. فقد كان محمود الشخصَ الذي عرف كيف يبعث فيهم الشجاعة والمثابرة.

كان على رفاقٍ آخرين أن يُؤَدوا أغلى الثمن. ويضيف المحارب الذي نجا من المغامرة: "كنا قد قررنا أن ننتقل إلى مرحلة العمل. نزل النمري ورجلان إلى خنيفرة وانتقموا قتلا

---

1 حوار للمؤلف مع أحمد بويقبا.

2 حوار للمؤلف مع محمد القاسمي.

3 حوار للمؤلف مع علي أمزيان.

من الشيخ النهاماني، وجرحوا شرطيين عند عودتهم. كان الرجل عميلا محليا للمخابرات التابعة لوزارة الداخلية. ولهذا كان اسمُه يوجد على رأس لائحة بأسماء الخونة الذين كان من الواجب قتلهم توقعا لقيام الانتفاضة". ويوم عشرين مارس، انفجرت أربع قنابل بوجدة مستهدفةً بنايات إدارية، ثم تلاها في اليوم الموالي انفجاران بالناضور. إنها عملياتٌ تعبر عن التحدي، عمليات يائسة.

تاهت الثورة اليتيمة في الإرهاب. مع قتلِ الشيخ النهماني انفجر غضبُ العاصمة الرباط، فأرسَلت على وجه السرعة وحداتٍ من المظليين إلى اخنيفرة لتكثيف عمليات البحث. تضاعفت الاعتقالات. باتت أدنى وِشاية أو شك كافيين لتختفي الضحية في سراديب مراكز الاعتقال التي أصبحت تعج بالمعتقلين. النمري وأمدة يتقاسمهما الأملُ والشكُ وهما يترقبان علامات انتفاضة كان من المتوقع انطلاقها في المناطق الأخرى من البلد. ولكن كانت السلطة تنظم ردها وجوابها في كل مكان.

بدأ الرد في فيكيك بسبب وشاية عميلٍ مزدوج. فاجتاحت المدينةَ وحداتٌ خاصة جاءت من الريش لتدارك التواطؤ السلبي أو النشيط لعناصر القوات المساعدة المحلية؛ فاختُطف عدةُ ضباط بفيكيك. وبعد اخنيفرة وكلميمة وتنغير ثم وجدة، سرعان ما أصبحَ البلد بكامله يطوقه الجيش والدرك، اللذَان كانا في حالة استنفار قصوى.

الخميس 22 مارس، الدار البيضاء

يوم 19 مارس مساءً، اعتُقل المهتدي بالدار البيضاء. اعتماداً على أي معلومات؟ لا أحد يعلم[4]. دخل الرهانَ كذلك مصيرُ رجلٍ آخر، مصيرُ رجلٍ يصارع جلاديه. أنذر حركيٌّ سري، رأى المهتدي قُبَيل اعتقاله بقليلٍ، دهكون بالهاتف. فأمره هذا الأخير بجمع الأسلحة التي كانت في حوزة المهتدي ووضعها في مكانٍ آمن بعين السبع عند أحد أعضاء الخلية لا يعرفه المهتدي. ولكن الخيانة لم تتوقف عند هذا الحد، وذهبت المجهودات من أجل احتواء اعترافات المهتدي المحتملة أدراجَ الرياح.

اعتُقل دهكون يوم الخميس 22 مارس عند الفجر. لم يدخر الدليمي وسيلةً من أجل القبض على ذاك الذي يتحدى شرطتَه منذ أربع سنوات. أقفلت الشارعَ فرقةٌ كاملة من رجال الشرطة وداهمت الشقة، ففاجأت القائد الثوري. وقد باح لي عباس[5] بأن "دهكون اعتُقِل بالمفاجأة، لأنه كان مسلحا وكان عازما على أن لا يُعتَقَل حياً".

4 كان من اللازم انتظار شهر مارس من سنة 2002، ومع ظهور كتاب أحمد البوخاري، السر (مطبوعات ميشيل لافون) لتصلنا رواية. لربما كان هذا الاعتقال يرجع إلى مُخبر تسرب إلى إحدى الخلايا، يُدعى موحى. لربما اعتُقِل المهتدي يوم ثاني مارس وأطلق سراحُه بعد أن باح بكل أسراره للشرطة التي أوقفت فيما بعد مفعول القنابل. ولربما وقع اعتقال المهتدي نهائيا بعد أن استطاعت الشرطة تحديد مكان دهكون.

5 حوارٌ مع المؤلف.

ويوم 22 مارس، وضع عباس تذكرة الطائرة داخل جيبه. فمنذ يوم الخامس عشر من شهر مارس، كان من المفروض أن يذهب إلى باريس. وهاهو يوضح: "كنا نريد أن نطلب من القيادة تعليقَ كل عملية جديدة لأن خلايانا لم تكن بعد عملية".

كان عباس يجهل كل شيء عن اعتقال دهكون والمهتدي. وبما أنه رافع في الصباح في الرباط، فقد التحق بالدار البيضاء عند بداية الظهر. وقبل أن يواصل الطريق إلى المطار، حاول أن يتصل بدهكون: "ذهبت إلى شقة كنا نستعملها مقرا للنزول ومخبأ للأسلحة. بعد أن أرسلت ولدا ليتأكد بأن الطريق آمن، لاحظت بأن لا أحد يوجد داخل الشقة ولا أحد يراقبها".

فالشرطة لم تكن تعلم بعد بوجودها. وفي المطار، أخبر عباس شرطيا كان من رجال الاتصال بالتنظيم. تعرف عليه عباس لأن هذا الشرطي سلمه هو نفسُه ظرفاً من قِبَل الفقيه البصري بالمحطة الطرقية بالرباط منذ بضعة أسابيع. اقترب منه عباس وقال بصوت منخفض دون أن يدير رأسه: "إن تَم اعتقالي عند عبوري الحدود، أخبر باريس بذلك".

ولكن العبور مر بسلام. إذ لم تتسلم شرطة الحدود الإشعار بالبحث عن عباس إلا في اليوم الموالي. وفي هذا اليوم بالذات، تَم اعتقال العديد من مساعدي دهكون بالدار البيضاء ووجدة، من بينهم الجدايني.

فبعد يومين من الزيارة الخاطفة التي قام بها الجدايني إلى وهران، يوم 9 مارس، توصل بحمولة من السلاح أرسلها الميد وكان يستعد للقيام بسلسة من العمليات. ولكن الخيانة عملت عملها المخرِّب في صفوف الثوار. فقد تَم اعتقال المناضلين الذين كانوا مستعدين للهجوم بالمئات. في وجدة والرباط والدار البيضاء وآسفي، حجز البوليس عشرات الكيلوغرامات من المتفجرات وأسلحة أوتوماتيكية وجوازات سفر بيضاء وآلاف المنشورات تدعو إلى الكفاح المسلح. لقد بات فشل الثورة أمرا لا جدال فيه.

السبت 24 مارس، مطار الجزائر العاصمة

من باريس، واصل عباس الطريق إلى الجزائر العاصمة ليصل إليها يوم 24 مارس. هو الذي أقسم على أن لا يصبح يوما منفيا سياسيا، ها هو في ذلك اليوم يدشن منفىً سوف يدوم عدة عقود. وفي مطار الجزائر العاصمة، كان له شرفُ أن تستقبله لجنةٌ، إنها القيادة العليا التي كان خالد لا يزال صامدا في وجهها انطلاقا من شقته في الجزائر العاصمة. تتكون اللجنة من الميد وبنيحيى وآيت قدور.

كان الميد يملك رخصة مرور، فعبر حاجزَ الجمارك ليلتقي بعباس. ولكن هذا الأخير انتبه إلى إشارةٍ بالرأس وجهها له آيت قدور وبنيحيى اللذان كانا وراء الحاجز الزجاجي

الذي يفصل الجمارك عن ردهة الاستقبال. أمام إسراع الميد لتحية عباس واستقباله، على غير عادته: تظاهر عباس بأنه لم يلحظ هذا الاسراع، وكذا وابل الأسئلة التي بادره بها، لاذ عباس بالصمت. في الحقيقة، لم تكن الإشارة الخفية التي وجهها له آيت قدور وبنيحيى هي الدافع الحقيقي لموقف عباس، فقد كان من طبعه أن يلزم الحيطة والحذر. بل بالعكس، كانت هذه الإشارة دلالةً على بداية الخلافات في الجزائر العاصمة.

انطلاقا من المطار، وطول الطريق التي قادت الجماعة إلى المكان المنشود، واصل الميد تحقيقَه غير الجدي. وهاهو عباس يتذكر: "في المساء، التقينا حول مائدة عشاء بفيلا الفقيه البصري بالبيار، إلى جانب الفقيه البصري. كان هناك آيت قدور وبنيحيى. لم يكن الميد حاضرا[6]".

وخلال وجبة العشاء، رن جرس الهاتف. على الطرف الآخر من الخط، عضوٌ من التنظيم في وهران يخبر باعتقال دهكون واعتقال عباس. فقد أعلنت عن هذين الاعتقالين وزارةُ الداخلية المغربية. كل الأنظار توجهت نحو عباس، تنتظر جوابه:

— ما الذي سوف تفعله الآن ؟

لم يكن السؤال البتة اعترافا بالعجز، بل هو تشجيع على مواصلة الكفاح. إذ لم تستطع الأوضاع الخطيرة على الميدان، والتي قلما كانت تصل عنها أشلاء أخبار إلى الجزائر العاصمة، ولا سذاجة أوامر القيادة العليا التي كانت تعمي بصرَها يقينياتٌ، لم تستطع أن تقلل من النشوة التي كانت تحرك الثوار. بل على العكس، فإن هذه الأمور لم تكن تزيد الثوار إلا عزما على أن يواصلوا المشوار تجاه احتضارٍ مجهول.

بيد أن وزير الداخلية في المغرب نشر في وسائل الإعلام صورةَ محمود حتى يبين لأنصار محمود أن قائدهم قد مات. مُنِع الاتحاد الوطني للقوات الشعبية-الرباط في اليوم الموالي للهجوم على مولاي بوعزة، واعتُقِل كل أعضاء اللجنة المسيرة. اعتُقِل ثلاثة عشر محاميا منهم اليازغي وعمر بنجلون والسيء الحظ توفيق الادريسي الذي سبق أن برأته منذ وقت قصير محكمةُ مراكش. وحدَه عبد الرحيم بوعبيد، الذي غادر المغرب في الوقت المناسب، أخذ ينتظر بقية الأحداث من باريس.

ولكن النصر، في نظر المتواجدين بالجزائر العاصمة، كان أقرب من أي وقت مضى. كانت مجموعاتٌ مسلحة أخرى على أهبة الاستعداد للدخول إلى المغرب. بعد أن هدأ روعُ عباس عندما غدا متيقنا بأن النصر سيتحقق في آخر المطاف، عاد إلى باريس متخفيا بهوية جديدة. ومن فرنسا، أرسل بعض الأموال إلى شبكته في الرباط. ثم رحل إلى ليبيا ليتلقى تدريبا عسكريا.

---

6 حوار للمؤلف مع مبارك بودرقة، المعروف بعباس.

تاغيغاشت

دخل فريق النجار إلى تاغيغاشت يوم 9 مارس عند الفجر. استقبل السكانُ المحاربين بحماس يشوبه بعض الخوف. فقد عَبَر خبرُ اشتباكهم الوادي. اجتاحت الساكنةَ فرحةٌ عامة عندما علموا بموت ذاك الذي يسمونه "الخائن"، سعيد أوتاما. ولكن كانت الفرحةُ قصيرةً. ففرحة الفلاح في هذه المناطق النائية، لكثرة ما اعتاد على التعب والحزن، لا تدوم طويلا. كان الانطباع في هذا التجمع السكاني الجبلي الصغير، وكأن به شيئا لا ينتمي إلى الواقع. وكأن الزمن توقف. وعَلِق بقدرٍ متردد. آوى السكانُ المقاتلين وأطعموهم.

انفجرت كبرى بنات أحد المقاتلين، وزوجة ابن رب البيت، انفجرت باكيةً عندما رأت أباها. فقالت له وصوتها يخنقه الخوف:

— مَن الذي سوف يعتني بنا إن أنت قُتِلت؟ يجب أن تضع سلاحك الآن.

وأما المحَارب الذي تحدثت إليه ابنَتُه، والذي تميز بشجاعة في القتال لا تشوبها شائبة، فلم يقاوم إلا جاهدا خوفَ ابنته وقلقَها. فتكلم أحدُ الرفاق بدل الأب المحارب الذي كان يشعر باضطراب شديد منعه من الكلام. شرح بكل هدوء للفتاة الشابة بأن الوطن هو كذلك عائلتها، إنها عائلة كبيرة يجب حمايتها من الاستبداد والبؤس. واستشهد في سياق حديثه بشجاعة نساء الفييتنام البطولية. بدا أن الحديث الذي يفيض إيمانا قد فعل فعله، إذ تراجعت الفتاة الشابةُ، ثم استسلمت للأمر في صمت.

بيد أنه أخذ النجار ورفاقُه يستوعبون تدريجيا صعوبةَ وضعهم. فقد منع عنهم اشتباك سونتات التواصل مع قواعدهم اللوجستيكية وباتوا لا يعرفون شيئا عن الصغير. بل إنهم بعد القضاء على مجموعة محمود، باتوا بدون قائد. وخلال هذا الوقت، كانت القوات المسلحة الملكية معززة بالوحدات الخاصة التابعة للقوات المساعدة والدرك الملكي، كانت تجوب المنطقة. عبأ الشيوخ والمقدمون المحليون السكانَ ووعدوهم بالهدايا والجزاء، فنظموا المطاردة. ولأن الجيش علم بمدى تسلح المحاربين وبعزمهم، فإنه تفادى المواجهة وأرسل السكان المدنيين جاعلا منهم دروعا بشرية. أكيد أن العديد من هؤلاء تظاهروا بالبحث والتفتيش، ولكنهم يُحَوِّلون أنظارهم في اللحظة المواتية. بل إن منهم مَن كان يخرج مساءً لتموين المحاربين بعد أن تظاهر بالتفتيش عنهم نهارا. ولكن ومع مرور الوقت، انتصرت أكياسُ المساعدة الأمريكية من الدقيق وعروض الحج والتمدرس، انتصرت على ساكنةٍ كانت حتى ذلك الحين، إن لم نقل متعاطفة، فإنها كانت على الأقل غير مبالية.

إن فقر تلك الساكنة ماديا جعلها رهينةً طيعةً للسلطات العسكرية. إنهم أناس لا يمانعون في القيام بأشد الأعمال صعوبة وعناء، فكانوا بذلك أفضل الجنود المنذورين للموت.

أوقف الدخول المفاجئ لإحدى بنات رب البيت ما كان يخالج النجار من أفكار. قالت دفعةً واحدة :

— وصلت شاحنة مملوءة بالجنود إلى القرية. هم يفتشون كل البيوت ويعتقلون مناضلي الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

وبحركة واحدة. أخذ المقاتلون أسلحتهم واستعدوا لإطلاق النار. وفي الوقت نفسه. طلب النجار من سكان المنزل أن يتصرفوا كعادتهم يوميا. دام الانتظار ثلاث ساعات. لم يحدث شيء. فالمنزل الذي يسكنونه لم يداهمه الجنود لسبب بسيط هو أن مضيفهم ليس عضوا في الحزب.

وهذا معناه أن وجبة العشاء كانت إحدى ألذ الوجبات وأمتعها. فقد هُنئت أحَر التهاني تلك الفتاة الشجاعة التي أنذرت بالخطر. فالسمن كان مذاقه لذيذا. لم تكن الوجبة وليمة ضخمة. ولكن بالنسبة إلى النجار ورفاقه. كان الأمر أقرب إلى الوليمة. وبعد الانتهاء من الوجبة. اتفق المحاربون على التراجع إلى أزغار.

تتوسط أزغار الطريقَ إلى أغبالو. وبها قاعدة لوجستيكية تابعة للتنظيم وكذا مالٌ ومعداتٌ. وبعد أن جمعوا الطعام الذي يكفي لحاجتهم خلال الطريق. غادروا تاغيغاست على الساعة الثامنة مساء قُبَيْل حظر التجول بقليل. وصلوا بعد اليوم الموالي إلى أزغار بفضل تواطؤ بعض سكان المنطقة. وعلموا أن المسؤول المحلي عن التنظيم. سعيد أميدو. قد قُتل في بيته انتقاما للجنود الذين قُتلوا في سونتات. شن الجيش غزوا حقيقيا على الساكنة. فتعرضت زوجته وأطفاله والعديد من سكان القصر إلى الاغتصاب والتعذيب.

بعد الاستحواذ على أزغار. اضطر المحاربون إلى مواصلة السير حتى بلغوا آيت هاني. قادتهم أقدامهم التي أعياها الجهد إلى أبواب قرية منكوبة. تراءت لهم الحوانيت مقفلة والأزقة مهجورة يكسوها بؤس صامت. كأن الخوفً يخيم على المكان.

اعتُقِل جل الرجال وكانت الأبواب توصد عند اقترابهم. ولأن المحاربين فقدوا الضيافةَ التي كانت تلقاهم حتى ذلك الحين. فإنهم ساروا في طرق خفية. ضاع وقع خطواتهم وسط الوديان. تاهوا وسط لامبالاة المكان.

معاينة الفشل

عند وصول النجار ورفاقه إلى تنغير. بعد مرور ستة أيام. وبعد سير لا هوادة فيه. علموا بأن شبكة التنظيم قد تلقت ضربات مفجعة. لم يعد بالإمكان العثور على

سيدي حمو. والمناضلون، وحتى عائلاتهم، كانوا يُعْتقَلون بالمئات. كان النجار ورجاله يشعرون بإنهاكٍ شديد. كان البرد القارس يمزق أرجلهم ويجمد أعضاءهم. كانوا يحسون بعطش شديدٍ. فقرروا أخذ قسط من الراحة في الجبال فوق تنغير متسترين بالأشجار عساها تصد عنهم عمليات التفتيش التي يقوم بها الجيش وجولاتُ الطائرات المروحية. سلمهم متواطؤون من تنغير عشر كيلوغرامات من الدقيق، وأربع كيلوغرامات من التمر وبعض السكر. بالنسبة إلى المحاربين الذين لم يعيشوا حتى ذلك الحين إلا على قَضم النباتات القليلة في الأطلس الكبير، فإن ما توصلوا به يساوي وليمة.

بين الفينة والأخرى، كان اثنان منهم ينزلان إلى الوادي قرب النهر الصغير ليُحَضِّرا الخبزَ وليأتيا بالماء لإعداد الشاي. لا تُشعَل النار إلا عند طلوع الشمس وعند غروبها، عندما تُصَفي أشلاءُ الضباب ضوءَ الشمس، فلا تُرى إلا أشكالٌ غير واضحة.وزيادة في الاحتياط، كانت النار تُشعل عند الفجر بأخشاب يابسة لا تنفث إلا دخانا قليلا، وبخشب رطب في المساء حتى لا يخترق ضوءُ النار ظلامَ الليل.

ولكن المقام في الجبال وتعداد ساعات انتظارٍ لا يقين فيها لا يمكن أن يدوم. إن النجار ورجاله تكونوا على تحقيق المستحيل، ولكنهم لم يكونوا حتى تلك اللحظة قادرين على الاعتراف بحقيقة الأمر، إلا انهم بدأوا يحسون ولو إحساسا غامضا، بأنهم قد بلغوا الحدود الحاسمة لما يمكن أن يتحقق. وها هو الموت الذي لم يعد بعيدا يجابههم بقدرهم المؤلم، بل اصبح واقعا آنيا محسوسا. إنه تعسفي تحكمي، يقرر مصير كل واحد ولا يأبه بالعلاقات التي تجمع بينهم. ظهر الألم الممتزج بالغضب في شكل اشمئزاز عميق. مع رحيل محمود، رحل جزء منهم هم أنفسهم. لم تعد هناك ابتسامتهُ المواسية التي كانت تعرف كيف تطرد التخوفات، لقد نضب ذاك اليقين الهادئ الذي عرف كيف يلقنه لهم. إن الأشياء البسيطة التي يتشبث بها المرء عادةً حتى يستطيع تحمل الاضطراب والقلق، قد تاهت وسط ظلام الليل في ذلك المكان الذي تستحوذ فيه العزلةُ المعنوية على العقول.

ما الذي يستطيع أن يفعله احتقارُ الخطر عندما تنجرف القناعات؟ أحس المحاربون بأن ثقتهم بدأت تتزعزع بعد أن أخذ الشك يخنقها. كانت الأمسياتُ الطويلة تخصص لتحليل وضعهم تحليلا سياسيا؛ إنه تعبير لطيف قليل أمام معاينة بديهية. إذ بما أنهم فقدوا مفعولَ المفاجأة، فإن هجوما ولو غير منظم على مخابئ السلاح محكوم عليه سلفا بالفشل. وأما مناضلو الخلايا السرية الذين انتظروا أسلحتهم، إن لم تجرفهم حملة الاعتقالات، فقد اختبأوا تحت التراب، كما هو شأن ساكنة استسلمت إلى الخوف. كانت الجبال مطوقة بجولاتٍ دائمة لطائرات الهيليكوبتر، والطرق داخل الوادي تعج بالحواجز العسكرية.

فأينما شك الجيش والقوات المساعدة في وجودهم إلا وعبأوا الساكنة لتفتيش

الجبال المجاورة. فيصبح المحاربون بدون سلاح وبدون رجال. يلويهم البرد والجوع والأمر القاطع بعدم إطلاق النار على المدنيين. يصبحون رجالا مطاردين. فبعد أن كانوا ثوارا، أصبحوا خارجين على القانون. نجاتهم في هروبهم.

على بعد عشرات الكيلومترات من هناك، فرضت المعاينةُ نفسَها ذاتَها على أمدة والنمري وسيدي حمو.

استشهادُ رجلٍ رَفَضَ الخضوع

وكما هو شأن سيدي حمو فوق تنغير، سقط فريقًا النمري وأمدة في كمين. فقد اعترف أحدُ رسلهم بعد اعتقاله وتعذيبه بمكان قاعدةٍ للتموين. كان الاشتباك عنيفا، ولكن القوات المساعدة التي كانت لها معلومات خاطئة عن مستوى تسلح الثوار وعن عددهم، فوجئت. مات العديد من الجنود، في حين أن المحاربين فقدوا رَجُلا واحدا وهو نشابي الذي قَتَلَ نفسَه بعد أن جُرِحَ حتى لا يقع حيا في أيدي القوات المساعدة.

أصبح المحاربون في اخنيفرة مرغمين على الاكتفاء بالدفاع، فأخذوا يفكرون في منفذ. اتفقوا جميعا على أن يَعبُر النمري إلى الجزائر للحصول على الدعم والذخيرة. وسوف ينتظر أمدة عودته في الجبال مع حوالي الخمسة عشر رجلا. وبالنسبة إلى النمري ورجاله وهم صبري وأسكور وآيت عمي وباالعمراني وبعضٌ من الرجال الأوفياء، فقد بدأت بالنسبة إليهم رحلةٌ دموية مأساوية. دخلوا في اشتباك ثانٍ يوم 6 ماي بآجدير. فأصبحوا مطوّقين وقَلت ذخيرتهم، فلم يستطع النمري ورجالُه رغم شجاعتهم أن يفعلوا شيئا لمواجهة وحدات القوات المساعدة الكثيرة العدد.

ولكن، وكما كان الشأن في أملاكو وأسول، فإن الوحدات الخاصة اصطدمت بعزم المحاربين : ضحى أسكور بنفسه من أجل أن يغطي هروبَ رفاقه. تَم تطويقه، وقاوم مقاومةً عنيفة. تَقَدمَ الجنود، وألحق بهم خسائر ثقيلة. وبعد أن نفذت ذخيرته، شرب سم الزرنيخ فمات. وبينما رفاقه يبتعدون، عاد الصمت ثانية وفق إيقاع تنفسه الذي أخذ يخفت شيئا فشيئا ليتوقف عند بداية غروب جديد. وهكذا لفَظَ أنفاسَه الأخيرة. وعندما اقتربت من مخبئه خطواتُ المهاجمين، الذين حيرهم أمر هذا التوقف المفاجئ في إطلاق النار، كانت الشمس تنهي غروبها في الأفق لتختبئ هي كذلك، تاركةً الظلام يغطي آثار تراجع النمري ورجاله.

وهاهو أحدُ المحاربين الذي وقع بين أيدي القوات النظامية في اليوم السابق يتذكر: "في اليوم الموالي لاعتقالي، عُرِضَ علي جسدُ أسكور". فسأله ضابطٌ في القوات المساعدة وألح في السؤال كاشفا عن اندهاشه من هذه الشجاعة الاستثنائية لهذا المحارب: "هل تعرف هذا الرجل؟" ويتذكر أخوه في السلاح الذي كان رهن الاعتقال: "لم

تكن عليه أية علامة لإطلاق النار ولم تكن آثارٌ على وجهه".

بعد تضحية أسكور بقليل، لحق بالنمري ومجموعتِه مطاردوهم قرب أميسور، في الوقت الذي كانوا يستعدون فيه لبلوغ الحدود. ويتذكر السجين السابق قائلا: "يومان بعد أن عرض علينا الضابط جثة أسكور، كان هذا الضابط يقول فرحا:

— لقد ألقينا القبض على الحاج (لقب النمري)، سوف يدلي لنا بكل ما لا تريد أنت أن تقوله[7].

وبالفعل فقد أُلقِيَ القبضُ على النمري وصبري، ولكن كلاهما كان يحتضر. فكما هو شأن أسكور، شربا سم الزرنيخ الذي كانا يحتفظان به معهما توقعا لمثل هذه اللحظة البئيسة. كان النمري بين الحياة والموت، عندما حطت به طائرة مروحية بمستشفى اخنيفرة، فواصل معركته الأخيرة. كانت نظرته القوية الكثيفة تتبدل تدريجيا كلما غادر بريقُ الحياة عينيه لتتجمدا بعد أن اصفرتا وهما تحدقان في الفراغ. مات النمري قبل هبوط الطائرة، في حين أن صبري، الذي كان مصرا على الموت هو كذلك، كان بالإمكان إنقاذه بعد أن غُسِلت معدتُه. لم تكن العمليةُ عمليةَ إنقاذ، بل كان الهدف منها تمديد مدة احتضاره تمديدا وحشيا. وهذا بالضبط ما كان صبري يريد الانفلات منه.

بعد أسبوعين من ذلك، قُبِض على آيت عمي وباالعمراني، العضوين الأخيرين في رحلة النمري اليائسة، بعد أن أنهِكَت قواهُما، قُبِض عليهما في تالسينت، على بعد أربعين كيلومترا من الحدود الجزائرية.

شريف الأطلس

لحق القدر مجموعةَ سيدي حمو قرب تونفيت. بعد شهر من التيه في جبلٍ تكسوه الثلوج بنواحي ميدلت، قادتهم خطواتهم إلى ما وراء سلسلة جبل الموعسكر التي يغطيها الثلج ، على بعد مائة وخمسين كيلومترا من تنغير. على سفح الجبل كانت توجد تونفيت، وهي قرية صغيرة توجد بين سلسلة جبلية عارية وهضبة جافة تمتد إلى ما لا نهاية له وتتحول أحيانا إلى منتجع قطعانً السهل. وحدها طريقٌ غير سالكة تربط القرية بباقي البلد، عندما لا تكسوها الثلوج كما يكون حالها عدة أشهر في السنة.

كان سيدي حمو ورجاله يوجدون في الغابة الصغيرة التي تعلو توفيت، ومن هناك شاهدوا وصول تعزيزات هامة من الجيش. مرت ثمان عشرة شاحنة أمام أعينهم، وقد سارت في الطريق الوحيدة التي تمتد أسفل المكان الذي لجأوا إليه. وفوق رؤوسهم، نبههم إلى الخطر دويُّ طائرات الهيليكوبتر المتزايد. المروحيات تحلق على عُلُو مرتَفِعٍ

---

7 حوار للمؤلف مع علي أمزيان.

فلم تنتبه لوجود الرجال تحت الأشجار. ولكن سيدي حمو ورجالَه لا يستطيعون أن يفلتوا من مراقبة الجنود على الأرض. ولأن المجموعةَ كانت تعلم بأن الساكنة سوف تُعبأ من أجل البحث عنهم، فإنهم قرروا التراجع مستغلين الفوضى الناجمة عن الارتباك العام الذي انتاب الساكنة. خلق سيدي حمو ورجاله فجوة فانسلوا وسط الظلام يُطاردهم صوت الرصاص والأوامر بالاستسلام:

— سَلِموا أنفسكم !

ارتبك المَلكي هو كذلك. غاص رفاقُه وسط الغبار الذي تطاير بعد الاشتباك القصير فغطى سريعا القرية. تاه لأنه سبق الآخرينَ.

وخلال هذا الوقت، تقدم رفاقُه حتى وصلوا إلى نهرٍ بجوار القرية يجري فيه الماء بقوة. كان بوزيان والعثماني قد وصلا إلى وسط النهر، والماء يغطي صدريهما، عندما وُجهت نحوهما أضواءٌ مركبةٌ على شاحنات عسكرية. وعندها كنست طلقاتُ السلاح الأوتوماتيكي وادي النهر. أطلق سيدي حمو، الذي كان متخندقا في الضفة المقابلة، النارَ في اتجاه الأضواء الساطعة. أسقط على التو أربعةَ جنود، فانطفأت الأضواء في الحال وتراجع المهاجمون.

استغل بوزيان والعثماني تحويل الأنظار هذا، فحاولا عبور النهر من الجهة العليا. ولكن خانهما الحظ وهما يهربان مرتبكين دون وجهة محددة. فما كادا يصلان إلى الضفة الأخرى ويسيران زهاء المائة متر، حتى وجدا نفسيهما مُطَوقين. خرج الجنودُ من كل الجهات في حين كان الضابط يصيح زاعقا بالأوامر. أرغم واقع الضياع والتعبُ بوزيان والعثماني، اللذين أنْهكت قواهما بعد فرار لا نهاية له، على وضع السلاح.

وأما سيدي حمو، فقد اختفى في الليل. إنه مَدينٌ في بقائه حيا إلى صدفة سعيدة. خلال هروبه، لجأ إلى مجموعةٍ من البدو الرحل، أراد أن يوهمهم بأنه شريفٌ يطلب صدقة. كانت الحيلة واهية. تعرفً عليه البدو الرحل، فأطعموه وآووه، ثم وضعوه تحت حمايتهم. وبفضلهم، استطاع سيدي حمو، بعد مرور بضعة أيام، أن يعثر ثانيةً على أثرٍ للملكي.

لم تعد هناك أي محطة قطار أو مكتب بريد أو محطة حافلات لا يوجد بها إعلانُ البحث عن سيدي حمو. كانت الشرطة على أهبة الحرب. كانت تقوم بإنزالات مفاجئة في ساعات مختلفة من النهار والليل عند كل مَن يمكن أن يُؤويه، دون جدوى. بدأ ميلاد أسطورة. وذات مساء، وإبان إنزال مفاجئ عند زوجة سيدي حمو بتنغير، فرح العميدُ الذي يقود العملية فرحا كبيرا: كانت تحيط بالطاجين الساخن قطعتانِ من الخبز، في حين كانت الزوجة وحدها داخل غرفة الجلوس. صاح العميد جَذِلا فرحاً، كما هو شأن القناص المقبل على اصطياد الفريسة:

— أين هو؟ أعرف أنه كان هنا يأكل معكِ.

فأجابته الزوجة بثبات:

— نعم، ألم تروا قطا أسود ينزل الدرج وأنتم صاعدون؟ فأجاب العميد، منزعجا من هذا الحديث عن قط أسود لا أهمية له كان مذعورا من دخول رجال العميد المفاجئ:

— بكل تأكيد.

فقالت الزوجة:

— إن سيدي حمو هوَ ذلك القط.

غذت الجهودات الفاشلة لقوات البوليس التي تلاحق سيدي حمو الكثيرَ من الإشاعات التي انتشرت في البلد بكامله : سيدي حمو شريفٌ له بركة التحول إلى قط. بعد مرور عدة سنوات، وعند عودته من المنفى، وعندما سأله صحافي عن صحة هذه الأسطورة، أجاب بكل بساطة: "نعم، إنها حقيقية"، وعلى وجهه ابتسامة مرحة، قبل أن يوضح للصحافي الذي لم يكن يصدقه: "عندما يملك المرء حب الشعب، فإن كل شيء يصبح ممكنا. زد على ذلك، أن قدرات الشريف هي قدراتٌ تَردَع كل مَن سولت له نفسه الخيانة".

بعد أن التقى سيدي حمو والملكي ثانية، كان أول ما فعلاه هو الالتحاق بأمدة في اخنيفرة.

كانا يمشيان ليلا، وينامان نهارا، مختبئين في بعض الأضرحة المعزولة. كانت وحدات القوات المساعدة التي تطاردهما لا تتصور أنه بالإمكان قطع هذه المسافة مشيا على الأقدام. وبما أن المنطقة بين تونفيت واخنيفرة منطقة تعرف الغليان، فإن سيدي حمو والملكي مرا بتادلة ثم بني ملال. يعيشان عيشة الرحل ويقتاتان من الطعام القليل الذي يعطيه لهما فلاحون يتظاهرون بعدم التعرف عليهما.

العودة إلى بني ملال

غشي الضبابُ عينيه، ثم أُغمي عليه، إذ نَظَراً لشدة الارتفاع، فقد الصغير الوعيَ في حمأة الاشتباك بجبل أسول. عندما عاد إلى رشده، كان الليل قد حل. اتجهت أول نظرةٍ منه إلى بريق النجوم التي تضيء السماء، من حوله، كانت صواريخ مضيئة تنير القمم في الأفق. شيئا فشيئا، بدأت الأمور تتضح له. لقد بدأت المطاردة والجيش يجري وراءه. لم يعد يرى النجار ورفاقه. وبكل حيطة وحذر، غادر المكان متفاديا تحركات القوات المسلحة. تلا النهارُ الليلَ، اختبأ في ملجأٍ خَرِبٍ. وفي المساء، عندما هدأت الحركة، وانتشرت الظلال، واصل السير. عاش الصغير هكذا ثلاثة أيام دون أن يأكل شيئا. وفي اليوم الرابع، جرفته مياهُ النهر التي حاول أن يختبئ فيها ليصل إلى الوادي. كانت الثلوج لا زالت تغطي جزءً من النهر.

بلغ الضفةَ الأخرى بعد جهد جهيد، وبعد أن وظف طاقةً تفوق طاقة البشر. أنهكه الجوع والتعب. فسلم أمره للأقدار. اتجه الصغير حينها إلى مسكن يتعالى منه نباحُ كلبٍ. استقبله رب البيت، وآواه وقدم له طعاما. فقد مضت أربعة أيام لم يذق فيها طعاما. سأله الرجل دون إلحاح. حاول الصغير أن يرتجل الإجابات. ادعى بأنه جندي نجا من انقلاب الصخيرات ولجأ عند عمته. أعطى تفاصيل عديدة عن المنطقة التي يعرفها معرفة جيدة.

فسأله مضيفه بعد أن أنصت إليه في غير انتباه: "لماذا تخبئ عني الحقيقة؟ أنت محارب. لا تخف. فلن أبلغ عنك". شعر الصغير بأنه من غير المفيد أن يواصل الإنكار. فالرجل يمده بالمؤونة ويعطيه معلومات عن المنطقة. فاتجه الصغير إلى بني ملال.

غدت مدينة بني ملال نقطة تجمع المحاربين المعزولين الذين أصبحوا يواجهون بداهة فشلهم. كانوا يقطعون ليلا مئات الكيلومترات، مشيا على الأقدام. كانوا يسيرون في صمت، سرا. فالحيطة والحذر من الأمور الغريزية. يقتاتون في الطريق بفضل حيلٍ عدة.

إن كانت الأراضي واسعة فسيحة، فإن محيطهم بخل عليهم بالموارد، إذ جعل من استضافة السكان لهم قاعدة مقدسة هي وحدها التي تضمن لهم معيشتهم. ولكن في هذه المنطقة ذات الحدود المجهولة وذات الأبعاد غير الواضحة، فقد كان الخوف من المجهول دائمَ الحضور. كثيرون أولئك الذين قدموا إليهم يد المعونة. ولكن عددَ الرافضين أخذ يتزايد كلما تقدموا، وأصبح بقاؤهم رهين استراتيجية التفادي والاجتناب التي يتميز بها البدو الرحل. وغالبا ما يزعمون بأنهم من الرعاة. ولكن الاحتياط لم يعد ذا جدوى. بات فلاحو المنطقة يعرفون هويتهم. وأصبح ظلام الليل هو المتواطئ الوحيد معهم. وغدت الظلال آخرَ ملاجئهم. وأما الأضواء التي كانت في السابق تبشر باستضافة تجود بها الأقدار وبوجبةٍ هادئة ساخنة، فقد أصبحت كلها علامات تدل على شَرَك يتهددهم. وأمسى الأفق، مصدرَ خطر محدق، إذ يمكن أن تظهر منه فجأةً مَفرَزةٌ من الجنود مسلحة.

ورغم كل الاحتياطات، وقعت بعض الاشتباكات كما كان الشأن في بوزينور حيث نجا النجار وسي ابراهيم بأعجوبة بعد تبادلٍ دموي لإطلاق النار ما دفع مطارديهم إلى التراجع.

ماي 1973، اللقاء في بني ملال

وأما الصغير، الذي كان يمشي مترنحا، وقد تجمد وجهه من الأرق ومن التعب، فقد استطاع أن يلجأ إلى آيت أقبلي قرب سوق العربة بنواحي بني ملال. تاه في مسيرته

أياما وأياما. وتاه عن الطريق مرات عديدة بسبب الثلوج. كان الرجال الذين يسألهم عن الطريق ينظرون إليه نظرة ريبةٍ وشك. لا شيء يفضحه أمام أعين المتطفلين اللهم هدوءه وثباته في منطقة توجد تحت حظر التجول. واستطاع الصغير، بفضل حيله الكثيرة، أن يُبقي المتطفلين والأعداء بعيدا.

حتى ذلك اليوم عندما انتهى من وجبة أكل دُعي إليها رأى أنه من البلاهة رفضها. فوجد نفسه وجها لوجه مع مُقَدم يصحبه ستة من رجاله. لم يكن أمام الصغير من خيار، كان عليه أن يشرب الشايَ ثانية تحية للقادمين الجدد مهما كانوا غير مرغوب فيهم. لم تتأخر الأسئلة. ولكن أجوبة الصغير كانت مهيأة سلفا. لم يكن عليه إلا أن يعيد السيناريو الذي وضعه ليُقنع به مضيفه:

— أنا من إفسفاسن. وقد جئت لأسترجع المال الذي أقرضه أبي لأحد أفراد المنطقة.

بيد أن الشك مهنةٌ احترفها المقدم. سأله طويلا عن أسماء سكان إفسفاسن. وبعد أن ساوره الشك، طلب منه أن يبقى في مكانه ريثما يتأكد من أقواله. ولأن الصغير تبين بعضَ التردد عند محاوريه، فإنه لم يرضخ ورفض رفضا تاما. حاولوا أن يفتشوه، فرفض ثانية. وفي المقابل، ولربما كيما لا يتحول تناول الشاي إلى مطاردة ومصائد، قال لهم الصغير بأنه مستعد ليتبعهم. ما كادت المجموعةُ تمشي كيلومترا واحدا حتى أخرج الصغير مسدسه وسدده نحو مرافقيه. خاطبهم:

— مَن كان منكم لا يريد أن يموت، فعليه أن يغادر المكان.

ولأن المقدم ورفاقه فوجئوا بالأمر، فقد هربوا وهم لا يلوون على شيء.

عرف وصول مجموعة النجار إلى بني ملال اضطرابات أقل. فبعد أن غادروا تنغير يوم 31 مارس، عبروا هضاب الأطلس المتوسط العليا، وعاشوا حياة الرعاة وترحالهم. مشوا ليلا وناموا نهارا في مخابئ خربة، يأكلون العشب (الفصة) بعد أن يخلطوه ببعض الملح. وصلوا إلى الفقيه بن صالح في سيارة أجرة يوم 20 أبريل وأمضوا الليل في المقاهي الليلية، التي جاءتها جموع الباعة المتجولين الذين حضروا لبيع بضائعهم في السوق الأسبوعي الذي يعقد في اليوم الموالي.

منذ الفجر، بدت هذه الجمهرة، التي تُذَكر بأجواء حفلات الأعياد الموسمية الأوروبية التي تُنَظم في الأسواق، عالَماً اختلطت فيه ألوان النساء والرجال وقد غطت رؤوسهم عمامات، يتسلقون الأماكن وسط صُرر الثياب والبهائم. كان المحاربون ينوون استغلال هذا الهرج الذي تعرفه أيام الأسواق ليعودوا إلى بني ملال دون أن يثيروا الانتباه. ذلك أن الجيش كان لا يزال حذرا محترسا. زد على ذلك أن في القصبة، وهي قرية توجد على بعد يوم مشيا على الأقدام من بني ملال، كان عليهم أن يغادروا الطريق ليتجنبوا حواجز عسكرية.

بعد ذلك بقليل، التحق سيدي حمو والملكي بالصغير ومجموعة النجار، كانا آخر من وصل إلى بني ملال.

بعثت هذه اللقاءات بعد أسابيع من التيه، الأمل من جديد. فالثوريون، بعد أن اجتمع شملهم، تشبثوا بحماس يائس وبوهم تحرير قريب. وكأن الإشاعة بدورها أرادت أن تغذي هذا الأمل الجديد. فانتشر خبرٌ في المنطقة مفادُه أن الفقيه البصري قد أرسل رجالا ليدعموا ويسندوا الباقين. أكد النجار وسيدي حمو على المسؤولين المحليين للحزب بأن يساعدوهم ليعيدوا إشعال مشعل الثورة المتردد. طالبوا بمساعدة مادية وباتصالات وبرجال ثقة يحملون السلاح، وأخذوا يُعيدون تَعداد المناضلين المستعدين للقتال.

علت وَجْهَي المسؤولَيْن المحليين عن الحزب اللذين تسلما طلباتهم ابتسامةٌ حرجة. فهما يميلان إلى المبالغات التحليلية ويطنبان في الحديث عن "الآفاق". وهي جُملٌ الهدف منها هو تقديم بديل لتردداتهما. ثم تباعدت مواعيد اللقاءات، ثم تلاشى حماس المسؤولَين السياسيَين. تمت فعلا بعض الاتصالات، ولكن الأمور لم تتجاوز هذا الحد. ونظرا ولا شك لضيق الوقت، إذ كان المناضلون المحليون يزعمون بأنهم مشغولون بالإعداد لفاتح ماي، فإن الثورة يمكنها أن تنتظر. ووسط هذا الخضم من الكلمات الجوفاء، لمس النجار وسيدي حمو ورفاقُهم بأن لا شيء مما يطلبونه سوف يتحقق. وكأنهم شعروا بأن عليهم أن يضحوا بأفضل ما يملكون، قدموا أقصى ما يمكنهم تقديمه لإتمام العمل الثوري الذي ضحى محمود من أجله بحياته. حاولوا يائسين، وفي محاولة أخيرة، تحريك جمود الحزب في أقصى مناطق البلد. ولكن الخوف اجتاح الأطر السياسية ودفعها إلى اعتبار شجاعة المحاربين حماقة متجاوزة. فكانوا يباركون جُبْنَهم على أنه الحكمة التي تقتضيها الظروف.

وبعد استنفاد جميع الوسائل، فكر المحاربون في الهروب دون أن يتركوا أثرا وانتظار الظروف المواتية. ولأنهم قبلوا بالأمر الواقع وأصبحوا مهمشين، فقد لجأوا إلى السرية الهشة. فأتمّت الخيانة والوشاية الباقي. أخبر واش السلطاتَ. اعتُقِل العديد من المحاربين والمناضلين السريين[8]. وقع الملكي بدوره في شباكِ القوات المساعدة. لم يكن يملك أوراق التعريف، ادعى هوية مزورة فأطلق سراحُه بأعجوبة بعد أربعة أيام من الاعتقال: كانت "حيلة" عمه سيدي حمو ما زالت سارية المفعول بعد مرور أربع سنوات. ولكن ليس طويلا، إذ اعتُقِل الملكي مرة ثانية في شتنبر، ذلك أنه تَم التعرف عليه ونُقِل إلى درب مولاي الشريف بالدار البيضاء.

استطاع سيدي حمو، صحبة سي ابراهيم والنجار والصغير، أن يفلتوا بأعجوبة. باتوا أربعَتُهم فارين هاربين، وأصبح بقاؤهم رهينا باستضافتهم من قِبَل مناضلين شجعان قليلين نجوا من اعتقالات البوليس. نجوا من مهمة مستحيلة، فانتبهوا وسط عزلة تيههم إلى أمر بديهي: "يجب العودة إلى الجزائر". باتت هذه المحاولة المليئة بالصدف هي المنفذ الأخير.

---

8 من بينهم سعيد أوخويا وموحى أوحمو والمعطي نايت عزيز وبوكري

ثمن الهزيمة

خيار تندوف

من الجزائر العاصمة حيث يتابع الفقيه البصري الأحداث، أخذ يكتشف تدريجيا هول الكارثة. لقد فشلت المحاولة الانقلابية في الأطلس ولم يتحرك الجيش. ولكي يبلغ هدفه لم يعد أمامه سوى حل واحد: تغيير ميدان القتال. أرسل الفقيهُ البصري آيت قدور وبنيحيى إلى موسم تندوف. كانت مهمتهما هي التعرف على مدى استعداد قبائل الجنوب التي تحضر عادةً هذا التجمع الكبير للانتفاضة. كان المشهد في تصور الفقيه البصري هو انتفاضة تنطلق ضد الأسبان، ثم تُوَجه توجها غير مباشر ضد الحسن الثاني.

وهاهو آيت قدور يتذكر : "أمضيت أسبوعا في موسم تندوف متخفيا وراء شاشِيَتي السوداء أضاعف اللقاءات مع الشيوخ وقادة القبائل الصحراوية[1]". وعند عودة آيت قدور إلى الجزائر العاصمة، أكد بأن المنطقة غير محمية وبأن الجزائريين سوف يكونون أول المهتمين بالأحداث. إذ إن مساندة الجزائريين ولو كانت ضمنية فلا غنى عنها. فانطلقت المفاوضات مع السلطة الجزائرية.

كان هدف التنظيم هو الحصول في أحسن الأحوال على مساندة جزائرية، وفي أسوءِ الأحوال على حياد في صالح الثوار. بقي رد الجزائريين غامضا. في الواقع، وفي المرحلة الأولى، استغنى الجزائريون عن الوالي. والوالي مجند شاب جنده محمود في وهران، تكون وتدرب في ليبيا، وكان بالفعل مقترَحاً داخل أوساط التنظيم ليقود العمليات العسكرية ضد المحتل الإسباني. والحال أن الجزائريين كانوا يرون أنه أقرب إلى القذافي. فكانوا يفضلون عنه إدواردو موحى، الذي قُدم على أنه زعيم "حركة الرجال الزرق". ودون أن يعي الجزائريون بالأمر ضلوا الطريق. إذ سرعان ما تبين أن إدواردو موحى كان يعمل لحساب المخابرات المغربية.

وخلال هذه المفاوضات، سرعان ما اكتشف التنظيم لعبة الجزائريين المزدوجة. ضاعف رجال المخابرات الجزائرين زياراتهم للثوار المغاربة، يحدثونهم بإطناب عن شؤون

---

1 حوار مع المؤلف.

الدولة. ولكنهم وعلى وجه الخصوص، كانوا يَسيرون خُفْيَةً أهدافَهم. وحينها وقع ما لم يكن بالحسبان. فبعد غيبة طويلة عاد الدراعيا، وهو رئيس الأمن الجزائري، إلى الجزائر العاصمة. علم آيت قدور دون قصد بأنه تاه في الصحراء خلال مهمة للتعرف على الأماكن الصحراوية. وفي آخر المطاف، ألقت عليه قوات الاستعمار الإسباني القبض وكاد الحادث يتحول إلى نزاع دبلوماسي. تحدث آيت قدور في الأمر مع الباهي، الذي كان يعرف بأنه على اتصال بالدراعيا:

— بما أن المغرب يبدو راضيا على أن يبقى الوضع كما هو عليه، فلِمَ لا يساند الجزائريون أنفسُهم عمليةً عسكرية في الصحراء ؟

فكر الباهي في الاقتراح ثم أبلغ به الدراعيا. هل كان الأمر اختبارا مكيافيليا أم عملا أرعنَ قام به الباهي؟ فارت سَورة غضب الدراعيا، إذ هاهو ذا مشروعٌ كان يعتبره بالغ السرية، يتحدث عنه ذاك الذي كانت مهمته هي أن يوضح له نوايا الثوار المغاربة. كان الدراعيا قد اعتاد وتمرس على مناورات الكواليس، فلم يصدق لحظة بأن الأمر مجرد صدفة. ولأنه بات مقتنعا بأن خطته قد انكشفت، أخذ يلح ثم يلح ليدله الباهي على "الواشي".

ويــوم 10 ماي من سنة 1973، أي بعد شهرين من اختفاء محمــود، وهو التــاريخ الذي يكاد يصادف تاريخ الإعلان عن موت النمري، البطل الأسطــوري في صفوف جيش التحــرير الوطني-منطقة الجنــوب، والذي كان يعتبره الوالي الأب الروحي، قرر الوالي أن يأخذ بزمام الأمور ويتحكم في مجرى حياته: فأسس البوليزاريو. وبعد عشــرة أيام، شن أولَ هجوم له على مركز إسباني بالخنكا. إنها بداية قصة أخرى. فعمل الجزائريون على انبعاث التنظيم من جديد غداة هجوم المغاربة في الصحراء، ولكن دون جدوى، إذ سار التنظيم في اتجاه، وسارت الحكومة الجزائرية والبوليزاريو في اتجاه آخر. سار كل منهما في طريق تختلف عن طريق الآخر. طريقان لن تلتقيا أبدا.

الخميس 2 غشت 1973، الجزائر العاصمة

صبيحة يوم الخميس 2 غشت، اجتمع ثمانية أشخاص في فيلا حي البيار بالجزائر العاصمة: الفقيه البصري وعبد الرحمن اليوسفي وآيت قدور وابراهيم وأحمد الطالبي وبنيحيى وعباس والخصاصي. جدول الأعمال هو معاينة الفشل الذي لا يُسَمى باسمه وما ترتب عن ذلك فيما يخص العلاقات المقبلة بين الحزب وجناحه المسلح. كان بروتوكول هذا اللقاء أكثر من إعادة توزيع المهام أو وضع أي خطة عمل. بل إن بروتوكول هذا الاجتماع وضَعَ كتابةً محاولة اتفاقٍ تحسباً للخلافات المقبلة.

وكأن الفقيه البصري أخذ يبحث عما يواري به النكسة التي تتهدد عزم مناصريه، فإنه رفض أن يُعلن رسميا فشلَه. اعتُبِرت الأخطاءُ التي ارتُكِبت أخطاءَ الميد. إن وقع وأجْمَع الفقيه البصري وآيت قدور وبنيحيى على كلمة واحدة، فإن ذلك يكون عند الحديث عن الميد. فكلهم يعتبرونه مسؤولا عن فشل مارس من سنة 1973. لقد كان صهيرة انتهازية عند البعض، وجاسوسا عند البعض الآخر. فاعتُبِر المسؤول الأول والأخير. أكد الذين يدعون انهم ما زالوا مستعدين لخوض الحرب بأن الموارد من الرجال والعتاد ما زالت متوفرة. يكفي في نظرهم، أن تتأتى الظروف المناسبة. ذلك أنه ضمن الحاضرين، لم يكن الفقيه البصري وحده الذي يريد أن لا يرى إلا مرحلةً فيما هو في الحقيقة نهايةٌ مأساوية.

وأما عبد الرحمن اليوسفي من جهته، فقد كان همه هو إنقاذ الحزب الذي غدا وُجوده مُهَددا. كان كل يوم يمر يأتي بنصيبه من الضحايا. لقد تم تعليق جناح الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بالرباط، فأُقفِلت المقرات وأُدخِلَت الأطرُ السجن.

وبعد نقاشات وسجالات طويلة شاقة، اتفق الحاضرون على أرضيةٍ تكون تمهيدا لـ"بلاغ مكناس" الذي كتبه على وجه السرعة، غداة ثالث مارس، بنيحيى والطيب بناني. لقد حُرر "بلاغ مكناس" بمباركةٍ من عبد الرحمن اليوسفي، وكان يتبنى العمليات المسلحة باسم "الجبهة الوطنية لتحرير المغرب"، وهي الجبهة التي انبثقت من العدم. كانت المسألة طبعا مغالطة، الغرضُ منها هو حماية الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، الذي أصبح هشا، من عمليات انتقام جديدة. كان هذا هو التنازل الذي طالب به عبد الرحمن اليوسفي وألح في الطلب، في مقابل مواصلة العمليات المسلحة.

كانت أطر الاتحاد الوطني للقوات الشعبية ما زالت تتذكر اعتقالات دجنبر من سنة 1969 التي قضت على صفوفهم. في ذلك العهد، كان الحزب يملك ما يكفي من الموارد ليسمح لنفسه بأن يُظهر مساندةً لا تشوبها شائبة للمناضلين السجناء. والحال أنه في الظروف الراهنة، ورغم أن الأمر يهم الرجال أنفسهم والمنظمة نفسها والمشروع الثوري نفسه، فإن الوضع قد تغير وتدنى. بالفعل، إنه مُنعَطَفٌ.

حصل عبد الرحمن اليوسفي من الفقيه البصري على أن يتحمل مسؤولياته. إذ إن الهيأة المتميزة التي تبنت العمليات المسلحة سوف تحمي الحزب من انتقامات مكثفة لا بد وأن تتسبب فيها محاولة انتفاضة ثانية إن هي باءت بالفشل.

ولكن لن تكون هناك من محاولة ثانية.

بقي الفقيه البصري متخندقا وراء آخر معاقله. لقد كان عنيدا يعرف دائما كيف يتخلص من مثل هذه الأوضاع.فقد مكنه حدسه من أن يُنقذ ماء الوجه أمام عقولٍ صارمة ومدججة بالشواهد، كما هو شأن أطر الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

ولكن فشل مارس 1973 كان هو نهاية النكسة. وأما باقي الأحداث فقد انتهت نهايةً حزينة. أدت آليا بضع محاولات فاشلة بغرض استعادة النشاط العسكري إلى فرار العديد من الرجال من الجيش أو طردهم منه. استقل بنيحيى الطائرة إلى باريس. وتبعه بعد وقت قصير آيت قدور في رد فعل يعبر به عن تمرده. وأما عبد الرحيم بوعبيد فقد غادر باريس وعاد إلى المغرب بعد شهر من الانتظار. ما كاد ينزل من الطائرة، حتى حُجز جواز سفره ووُضِع رهن الإقامة الإجبارية.

إجهاض ثورة

عندما وضع رجال المخابرات الجزائرية يدهم على وثائق التنظيم، لم يصدقوا أعينهم. وهاهو ساعة، الذي اعتُقِل كما هو شأن آخرين، لتحقق معه الشرطة الجزائرية، يتذكر رعبهم وذعرهم. فقد قال له العميد الجزائري وهو يطالع الوثائق المنثورة فوق مكتبه، وكأنه في حلم :

— ما يوجد في هذه الوثائق يجعل الحسن الثاني عاريا قبل أن تُطلقَ أول رصاصة.

ومع ذلك ...

بعد محاولَتي الانقلاب، أصبح المغرب يعيش حالة غليان. كانت نهاية الملكيات المخلوعة تبدو قريبة. والحال أن أطر المحاربين الأكثر كفاءة والذين كان من المفترض أنهم هم الذين سيُغيرون مجرى التاريخ، قد وقعوا في الفخ. وقد اندهش ضباط القوات المساعدة وقادة الوحدات الخاصة داخل صفوف الدرك الملكي، اندهشوا من نوع التجهيزات العسكرية المتطورة التي كانت بحوزة محمود ورجاله. فيطرحوا التساؤل نفسه:

— لماذا لم يبادروا إلى القيام بشيء[2] ؟

لما بدأ سباق السرعة، لا شك أنه كان بإمكان محمود أن يتجاوز الطوارئ التي عرفها التنظيم وأن يستغل الفرصة التاريخية التي سنحت له. ولكن هل كان الفقيه البصري ليقبل بالتنازل عن الزعامة لرجلٍ من تلك الطينة؟ كيف يمكن تناسي التخوفات التي قد يشعر بها قائد أمام رجل من رجاله بارع وماهر أكثر مما يجب؟ أكيد أن محمود له خصائص المُسَير الذي تَكَون في إطار صرامة العمل الثوري وانضباطه. لا شيء كان يدل على أنه سوف يتحرك بمحض إرادته ولوحده ليدافع عن صلاحياته. ولكن الفقيه البصري كان يعرف أن محمود غير مستعد لأن يتخلى عن قيادة التنظيم للمسيرين الإداريين للثورة. ولأنه مارس الثورة فقد كان يخشى أن تندلع ثورةٌ داخل الثورة.

2 سوف يحكي حميد بن عمر، صديق محمود منذ الطفولة، ومهندس في خريبكة خلال الأحداث، يحكي ما باح له به كولونيل في الدرك الملكي كان يجهل، على ما يبدو، مع مَن كان يتحدث (حوار مع المؤلف).

منذ أن عاد محمود إلى التسيير، وجد الفقيه البصري نفسَه وسط فريق من الأطر الشابة، تنظم الأمورَ وتشترك في اتخاذ كل القرارات. وإن كان الفقيه البصري يتظاهر بالرضوخ لقواعد المنظمة، فإنه بقي وفيا لعاداته القديمة. وفي الواقع، الفقيه البصري يثق قليلا بالمجهودات التنظيمية والحركات الشعبية العفوية. كان الفقيه البصري، وتحت غطاء النضال الثوري، يمارس المخابرات-المضادة، يحدوه في ذلك يقينُه بأن مع أول طلقة نار سوف تقوم ثورةٌ من أعلى بخلع الملكية.

ولئن كان محمود يشك في أن التنظيم قد تم التسرب إليه على أعلى مستوى، فإن وابل الاعتقالاتِ التي طالت مناضلين جاءوا لحضور لقاءات زُعِم أنها سرية في أوروبا أو الجزائر، جعله يتيقن من الأمر. وهكذا اكتشف حقيقةً سوف يُمضي آخرون سنواتٍ قبل معرفتها. الفقيه البصري لا يملك استراتيجية سياسية، وإنما لديه منهجيةٌ : وهي مبدأ الإقحام. فمنذ درس الانقلاب الثاني، كان محمود يعمل على أن يتجنب المحسوبية السياسية التي كانت توجه عمل الفقيه البصري. ولأن طبعه كان يميل إلى الحيطة والحذر، فإنه أحاط نفسَه برجالٍ مدربين على تقنيات حرب العصابات، استطاع أن يختبر وفاءهم وفعاليتهم على مدىً خمس سنوات من المحن المشتركة.

أهيَ إمكانية اندلاع انتفاضة شعبية غير متوقعة هي التي لم تشجع الفقيه البصري على تزويد محمود بالأسلحة والرجال الذين كان يطالب بهم؟ على أي حال، يبدو أن زيارة بشير الفيكيكي إلى الجزائر العاصمة هي التي سرعت قراره بأن يبدأ الهجوم. وإلا كيف يمكن تفسير انطلاق العمليات العدوانية في الدار البيضاء واخنيفرة، وهما المنطقتان اللتان لم تكونا خاضعتين لمراقبة محمود؟ أوَ كان هذا الأخير يُعِد ثورةً، فما الذي كان يطمح إليه الفقيه البصري، بهذه الأعمال المتناقضة على ما يبدو، إن لم تكن انقلاباً عسكريا؟ بموجب هذه الفرضية، كان من المفروض أن يبقى عمل محمود محدودا قدر الإمكان، فقط ما يكفي لزرع الإحساس بعدم الأمان، وهو الإحساس الذي يخدم دخول الجيش إلى الميدان. اتخذ محمود تدابيره من أجل الحد من الإهمال والفساد داخل التنظيم. ولكنه بكل تأكيد لم يستطع أن يتوقع ما لا يمكن تصوره : صفقة مع الدليمي.[3]

3 إضافةً إلى التواطؤ مع موحى أوالحاج وزيارة البشير الفيكيكي، فإن فرضية مشروع انقلاب يدبره الدليمي سنة 1973، بتواطؤ نشيط أو صامت مع الفقيه البصري تسندها العديد من الأدلة المترابطة. سوف يشهد العديد من السجناء أن الدليمي، خلال حصص التعذيب، كان يتهددهم بأبشع ضروب التعذيب والموت الأكيد إن هم باحوا بالمتواطئين معهم في صفوف الجيش. والشهادة الأخيرة التي تتوافق مع ما سبق من حيث التاريخ هي شهادة الاخوة بوريكات، الذين نجوا من تازمامارت. إنهم من رجال القصر، ويشهدون بأن جنرالا تقرب منهم سنة 1973 ليخبرهم عن ميول الدليمي الانقلابية، وطلب منهم أن يخبروا الملكَ بالأمر. وهو ما فعلوه. وبعد ذلك بأسبوع، يوم 8 يوليوز 1973، اختفوا بدريعة قصة أخلاقية بليدة وأموال قذرة كما تزخر بذلك حدائق القصر.

في غياهب النسيان

كانت أولى لفحات حرارة الصيف في كلميمة قيظاً شديدا. كانت المنازل تبدو وكأنها وسط المياه بفعل سراب الشمس الحارة التي تُغرق التضاريس وسط بريق ولمعان يمنع الأعين من الإبصار. وكلما اقتربت الشمس من السمت، إلا ودفعت الحياة إلى أحشاء هذه الأرض الجافة الغارقة في الأضواء. وتحت ظل خانقٍ لبنايةٍ وَسَطَ تجمع سكاني، تكدس رجالٌ جلسوا القرفصاء مكبلين، وُضعوا في صفٍ واحدٍ وأعينهم مغطاة. ويا لسخرية الأقدار، فقد كانت قطع القماش التي تغطي أعينهم قد قُطعت من أكياس دَقيقٍ كُتب عليها "هبةٌ من الشعب الأمريكي". إنها الأكياس ذاتها التي وُزعت بسخاءٍ على السكان من أجل تحميسهم أكثر على التعاون.

أغرقت الحرارة الخانقة داخل الغرفة المعتقلين في نوع من الخمول المنهك. كان صمت مخيف يسود، تتخلله أنات قليلة تكاد لا تُسمَع. إنه صدى الإنهاك المعنوي والجسدي لهؤلاء الرجال الذين ظهر عليهم الإحباط أمام نهايتهم الحتمية. إن اللحظة أبدية. ونظرا لغياب مقر أوسع لاستقبال جموع المعتقلين، وُضعوا في ملجئ خيري تحول إلى مركز للاعتقال[4]. فبينما لم يكن عدد سكان كلميمة حينها يتجاوزً الستة آلاف نسمة، بلَّغ عدد الأشخاص الذين مروا من هذا السعير المئات. وأما رجال الشرطة بكلميمة، وأغلبهم من المتعاطفين، فإنهم عاملوا المعتقلين بلطف. أو على الأقل، فإنهم لم يعذبوهم.

ولكن منذ وصول الفرقة الخاصة التي جاءت من الرباط، بدأ الكابوس. تحول مطبخ البناية إلى قاعة للتعذيب. وليتجنب الرجال الشعور بأن المناسبةَ مناسبةُ جنازة وتأبين، فإنهم كانوا يتكلمون ويحكون عن عذابهم، يتبادلون كلمات هزل وسخرية. ولكن بحذر شديد لأن الشك كان يسود طالما أن مصدر الخيانة مجهول لم يُعرف.

كانت مشاهد بشاعة فظيعة تتكرر في حوالي العشرة من مراكز التعذيب الأخرى الموزعة على المملكةً: اخنيفرة وفيكيك وإملشيل وورززات وأغادير والدار البيضاء والرباط ومكناس ووجدة. وشهادات الناجين تزيد الواحدة منها عن الأخرى في وصف الفظاعة[5]. فتقنيات التعذيب تُوظِّف العنفَ الجسدي والنفسي، وذلك بفعاليةٍ تَدين بالكثير لتأطير خبراء أجانب. وهاهو أحد مسؤولي التنظيم يتذكر : "بعد أن أُبقيت بدون ماء حتى أحس بعطش شديد، قُدم لي ماءٌ فيه مواد مخدرة، ثم عُرض علي شريطٌ

---

4 منذ ذلك الحين، حُول هذا المقر إلى مخفر للشرطة المركزية لكلميمة.

5 العديد من هذه الشهادات نُشرت سنة 1999. أنظر الكرامة، رقم 4، يونيو 1999 . منشورات المنظمة المغربية لحقوق الإنسان، أو النشرة، عدد 13، يونيو 1999. وحسب "السر"، أحمد البوخاري، (ميشيل لافو، باريس، 2002)، فإن العنف الذي كانت تمارسه المصالح التي كان يعمل بها البخاري في حق أعضاء شبكة دهكون كان من الوحشية بحيث إن نِصف المعتقلين ماتوا تحت التعذيب.

يصور مشاهد من كلميمة وتنغير واخنيفرة مرفوقة بأصوات رفاق معتقلين. عندها فهمت بأن السائح الكندي الغريب الذي تبعني في آزرو وكلميمة كان عميل المخابرات الأمريكية. والصور التي كانت تُعرَض أمامي أخِذَت بآلة تصويره[6]".

ومن بين الجلادين المغاربة الأكثر تفانيا في عملهم، والذين أطرهم خبراء أجانب، تعرف الضحايا على العقيد خاتوش من كلميمة والعقيد أرزار والعميد الحمداني من الرباط، والعميد قدور اليوسفي من الدار البيضاء، وهو الذي يلقبه ستيفن سميث ب"موزار التحقيقات[7]". وسنة 1973، أبدى العازف الماهر براعةً لا تُضاهى. فبعد "التحقيق العلمي"، تَم إخصاءُ إطار التنظيم الذي تحدثنا عنه سالفا، وكُسِر فكه وفقد بصره. وأما رئيس الجوقة التي تعزف هذه الفظاعة فلم يكن سوى الدليمي نفسه[8].

وأما الثمن الذي دفعه موحى أوالحاج فيتجاوز ما يُمكن تخيلُه. إذ عُذب عذابا وحشيا تحت أنظار أطفاله. ولم تكن النساء لتسلمن من التعذيب. وسوف تشهد إحداهن، أم حافظ، زوجة أحد مناضلي اخنيفرة السريين، بما لا يمكن للعقل السليم أن يتصوره : أن تلد المرأة تحت التعذيب.

وهاهو أحدُ مناضلي كلميمة السريين يتذكر : "كنا مكدسين داخل قاعة بمرأب الطائرات بمطار آنفا. إذ هناك، تَم إحضار المعتقلين مباشرة بالطائرة من مكناس ووجدة وقصر السوق وورززات. كانت هناك أربع قاعات متشابهة تضم مئات المعتقلين. إنها ورشات لاختبار محركات الطائرات. كانت عمليات التعذيب تجري في الأروقة. استمر الكابوس شهورا. مات العديد من رفاقي من تبعات التعذيب[9]". وبالفعل، ورغم قوتهم البدنية، لم يغادر العديد من المناضلين أحياءً هذا الجحيم. التفاصيل غريبة صادمة. ثم يواصل المناضل كلامه : "هناك اكتشفت بأن القُمل يغادر الأجساد الميتة. مات رفيق وهو إلى جانبي بعد أن احتُضِر طويلا. غادرَت الطفيلياتُ عندها جسده الذي بات لا يتحرك وانتقلت إما نحوي وإما نحو الرفيق الذي كان يوجد من الجهة الأخرى. كان سوء تغذيتنا قد وصل درجةً جعلتنا لا نتبرز إلا بعد مدد طويلة وأصبح غائطنا أصلب من روث الماعز".

ويتذكر مناضلٌ من أغادير، اعتُقل لأنه أذاع تسجيلات لراديو ليبيا، أنه جاور في درب مولاي الشريف فريكس، الذي سقط إلى جانبه محمود وسليمان العلوي : "كانت ملابسه ممزقة وكان ينزف نزيفا قويا من ساقه الأيسر. وفي يوم من الأيام،

---

6 حوار للمؤلف مع محمد الفاسيمي.

7 أوففير. مصيرٌ مغربي. منشورات كالمان ليفي. 1999.

8 تدل شهادة الدكتور عمر الخطابي على أن هذا النوع من المعاملات كان في الغالب ضربا من السادية: فبحركةٍ كان يمكنها أن تكون حركة تسامح ورحمة، سلمه الدليمي مسدسا، في اللحظة التي كان فيها الرجل خائر القوى بعد أن تعرًض لعدد من حصص التعذيب. فواساه بأن أعطاه فرصةً للانتحار،وفي اللحظة التي ضغط فيها على الزند بعد أن وضع المسدس على صدغه، سمع الدكتور الخطابي دقة الزند. لقد كان المسدس فارغا من الرصاص.

9 حوار للمؤلف مع علي زابول.

قاده الحرس واقتلعوا منه رصاصة وهو في كامل وعيه. وعندما أرجعوه، كان خائر القوى يتصبب عرقا[10]".

الاثنين 25 يونيو 1973، محكمة القنيطرة

قُدم للمحاكمة 149 متهما داخل الأجواء الرطبة والضيقة للمحكمة العسكرية بالقنيطرة: قادة الانتفاضة ومسؤولو الحزب. وسيَمثُل 123 متهما آخر. وهم في أغلبهم مناضلون يُكَونون هيكلَ الخلايا السرية في الأطلس، والذين اعتُقلوا خلال حملات الجيش، أمام محكمة مكناس التي نطقت بالحكم يوم 20 يوليوز 1976، أي بعد مرور ثلاث سنوات على الوقائع. ولكن الأغلبية المتكونة من عدة مئات من المناضلين الذين ألقي بهم في مراكز التعذيب، فلم يُحاكموا. وأما الذين استطاعوا البقاء أحياء فإنهم ظهروا من جديد ظهورا غريبا، كما كان شأن اختفائهم أول مرة.

في قاعة المحكمة بالقنيطرة، كان يوجد دهكون والعديد من رفاقه، ومنهم المهتدي والجدايني، جنبا إلى جنب. كان هناك كذلك زهاء العشرة من أطر حرب العصابات الذين عادوا مع محمود[11]. لقد اعتُقلوا والسلاح في أيديهم، فلم يكونوا واهمين فيما يخص المصير الذي ينتظرهم. إلى جانبهم تكدس قادةُ الخلايا السرية في الأطلس[12] وأطر الحزب، عمر بنجلون واليازغي على رأسهم. وأما عبد الرحيم بوعبيد فإنه كان مطلوبا للمثول أمام المحكمة بصفته شاهدا.

لاشك أن هذا العمل كان مناورة ناجحة من مناورات القضاء بالمغرب. ما دامت هذه المناورة ستمنع عبد الرحيم بوعبيد من أن يترافع وأن يحقق النصر نفسه الذي حققه في مراكش، ثلاث سنوات قبل ذلك. كانت السلطة تنتظر منه أن يأخذ مسافته ويبتعد عن الثوار.

لم يكن الهدف من هذه المحاكمة السياسية هو محاكمة الثوار بقدر ما كان هو القضاء عليهم. وُصِف رفاق محمود بأنهم "أنصار العنف". وأما الحكم عليهم بالإعدام فليس استشهاداً بل هو خزي وعار. فتنفيذ حُكم أو العفو، يُقَيمه الحكم الملكي المطلق حسب تنازل الضحية عن كرامته الإنسانية. وهكذا فإن الوكيل العام، الذي كان يُجيد استعمال الخداع، طلب من كل معتقل رأيه في النظام الملكي.

ولأن العديد من المعتقلين كانوا منهزمين منكسرين، بدءاً من أطر الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، فإنهم لم يترددوا في أن يديروا ظهورهم للثوار. ولأنهم أصبحوا

10 حوار للمؤلف مع حافظ بكباشي.

11 يهم الأمر صابري وبا العمراني والناصري والعثماني وبوزيان ودحمان سعيد وفريكس وآيت عمي والجزار.

12 لاسيما موحى أوالحاج وحديدو وعدي شان وعلي أوسكونتي وعبد الرحمن مازين وموحى أوحمو وسعيد أوخويا وحسين آيت زايد وبوكرين وسكو أفادر وتوركي عدي.

يائسين من قضية يعتبرون أنها قد ضاعت ضياعا لا رجعة فيه. فقد أعلنوا بيعتهم للسلطة الملكية آملين أن ترحمهم المحكمة.

كان رفاق محمود يشهدون صامتين الخيانةَ الأخيرة. كانت المبادئ التي أعلنتها أطر الحزب، والتي كان الكثير منها يناشدهم القيام بالكفاح المسلح، قد تأرجحت أمام يد السلطة الممدودة. ألقى بهم هذا التنكر في عزلة حلمهم الذي لم يكتمل. هم الذين فضلوا صمت الشجاعة على هرج الجبن والذين شهدوا قائدهم يبقى وفيا لَهُم حتى عند مماته، قد باتوا، وكأنهم منفيون مبعدون، يتنكر لهم إخوانهم. وكانت أنظار المتهمين الآخرين، والتي لربما كان بإمكانها أن تكون رحيمة أكثر، تتفادى النظر إليهم، وكأنها تريد أن تشدد على سوء حظهم.

فضل سعيد أوخويا، أحد قياديي حرب إملشيل، عزلةَ الفشل على نفاق العناية والاهتمام، فصمد اعتدادا بكرامته. عندما جاء دوره، أخذ محامو الدفاع يستعدون لإعادة مرافعة متفق عليها سلفا :

— الأسلحة؟ كانت تستعمل في تدريب المناضلين من أجل أن يلتحقوا بالشرق الأوسط ويساهموا في تحرير فلسطين.

— الرصاص الذي خرج من الرشاش؟ أُطلق على طرائد صيد.

بالنسبة إلى سعيد أوخويا، فإن خط الدفاع المتفق عليه حساس وهش. كانت بندقيته فارغة لأنه قتل العديد من عناصر القوات المساعدة. لما تَم تقديم سلاح سعيد أوخويا كدليل إثبات، انفجر ضاحكا وقال:

— ماذا تعتقدون؟ هل هي عصا راع يرعى قطيع نعاج؟ لا، إنها بندقية-رشاشة من أجل تحرير بلادي من الاستبداد. ولو بَقِيَت هناك رصاصة واحدة في بندقيتي، لما كنت هنا اليوم[13] .

أطلقت صراحة سعيد أُوخويا داخل هذه المعزوفة من الكذب والتظاهر، والتي كان الغرض منها إنقاذ المظاهر، موجةً من الهمسات المؤيدة بين الحاضرين. أمام أنظار المحامين المندهشين. وأما أشجعهم فقد ضحك ضحكةً خفيفة محتشمة غطت بتواضع مرارةَ هؤلاء المحاربين الذين يتنكر لهم في تلك اللحظة أولئك أنفسهم الذين كانوا سينسبون إلى أنفسهم رفع لواء الثورة، لو أنها تكللت بالنجاح.

كانت مواجهة هؤلاء الرجال بمصيرهم تُظهر ثانية وبقوة مأساة تضحيتهم المعزولة. انهار فريكس باكيا، كان منهكا خائر القوى. وهاهو أحد المتهمين الذين كانوا بجانبه يتذكر : "كان يعرف أنه سوف يموت، ولكن لم يكن شيءٌ يواسيه في موت محمود. كان يكرر اسمَه وكأنه تعزيم يائس.

— لقد فقدنا محمود. لن يعرف المغرب أبدا رجلا مثله[14] .

ويتذكر الناجون من حكم الإعدام جميعهم: "وحده الدكتور عمر الخطابي بقي متضامنا معنا، وكان يرفع من معنوياتنا". الدكتور الخطابي ليس رجل حزب، ولكنه

---

13 حوار للمؤلف مع محمد القاسيمي.
14 حوار للمؤلف مع محمد القاسيمي.

رجل مبادئ. ليس عضوا في منظمة سياسية. وهو رجل كل المعارك. كان تعاطفه مع المحاربين فوريا. كان لا يزال محتفظا في ذاكرته بالثورة التي قادها عمه عبد الكريم. إنها لحظة فريدة شهدت شعبا مستَعبَدا يرفع رأسَه ويأخذ مصيرَه بيده. إن كان السلطان ابن يوسف قد انضم إلى القوات الاستعمارية الفرنسية الإسبانية لسحق ثورة الريف سحقا دمويا، فإن ذلك دليل، في نظره، على الدور الضار الذي تلعبه الملكية المغربية في المغرب. وبالنسبة إليه، فإن صك الاتهام لا يذكر سوى لقاء مع الفقيه البصري في القاهرة سنة 1972. وفي الحقيقة فإن القصر يريده أن يدفع ثمن تورطه في الانقلاب الفاشل لسنة 1972. وعندما جاء دوره ليتقدم أمام النيابة العامة ليعبر عن رأيه في النظام الملكي، بقي الدكتور الخطابي، رغم التعذيب الذي تعرض له والذي مزق جسدَه، وفيا لنفسه:

— إنها فعلا أول مرة يُطرحُ علي فيها هذا السؤال في هذا البلد. واحتراما للمحكمة، واحتراما لكرامتي، لن أجيب عن هذا السؤال[15].

السجن المركزي، القنيطرة

نُطق بالحكم يوم الخميس 30 غشت 1973: ستة عشر ممن حُكم عليهم بالإعدام يوجدون في قفص الاتهام، خمسة عشر حُكم عليهم بالمؤبد، وأما الباقون فحُكم عليهم بعدة عقود من الحبس، وبُرئ البعض. ولكن الحكم لم يُرضِ السلطات العليا. وباستثناء المعتقلين المحكوم عليهم بالإعدام، أعيدت مُحاكمةُ الباقين بأكملهم، بمن فيهم أولئك الذين برأتهم المحكمة.

بقي يوم النطق بالحكم محفورا في ذاكرة أحمد بنجلون : "في ذلك اليوم، أُخرِجْتُ أنا ورفاقي الذين حُكم علينا في محاكمة مراكش من السجن المركزي بالقنيطرة، لنُخْلِيَ المكان للقادمين الجدد. قادونا إلى السجن المدني بمكناس[16]".

وأما الجنود الذين حُكم عليهم في قضية الانقلابين الفاشلين، والذين كانوا يتواجدون في سجن القنيطرة، فقد اقتيدوا إلى اتجاه آخر لم يكن معروفا. بعد عشر سنوات، وبفضل نداءِ استغاثة انفلت لجهاز مراقبة نظام سجنٍ تضاهي وحشيتُه انغلاقَه وانسداده المحُكَمَين، تبين أن المكان يحمل اسما : تازمامارت. إنه سجن جُهز خصيصا ليكون مأوى جماعيا للمُحتَضَرين.

وأما دهكون وباقي المحكوم عليهم بالإعدام فقد كُدسوا في الجهة المخصصة للمحكوم عليهم بالإعدام. كل صباح، كانوا ينتظرون أن يُخْرَجوا من زنزانتهم ليُنفذَ

---

15 برأت المحكمة الدكتور الخطابي. حوار مع المؤلف.
16 حوار للمؤلف مع أحمد بنجلون.

فيهم حكمُ الإعدام. داخل زنزانتهم، كانوا يتفكرون ويتأملون، صامتين. المرارةَ المتبقية في أعماقهم. إن ما يفصلهم عن زملائهم في جهة المحكوم عليهم بالحبس أكثرُ من العزلة. إنه موتهم الوشيك.

لم يعودوا ينتمون إلى عالم الأحياء. حررهم الامتياز البائس بكونهم غدَوا بدون مستقبل، من كل احتمال أو عارض. لم يعد أمامهم إلا ملء فضاء الأيام. كان فكرهم كله منهمكا في تأمل معنى عملهم ومداه. وبعد أن انقشعت الشكوك الأخيرة، في أي تراتبية يمكن أن تُصنف أحاسيس الندم التي ذهبت بها حياتهم التي لم تكتمل؟

في الجِهة الأخرى، جهة الأحياء، كان التفكير في الشكل الذي يجب إعطاؤه للكفاح ولمستقبله ولمجراه ودربه. باح العديد من المعذبين بالسر. وهاهو أحد المناضلين السريين بخنيفرة يتذكر : "كانوا يواجهون الموت بعزة وكرامة، ولكنهم كانوا يشعرون بالمرارة، كانوا يحسون بأن هناك مَن غدرهم وخانهم. فهم قد قاتلوا داخل صفوف الفلسطينيين، ونجوا من معارك قاتلة، وهنا في المغرب، سوف يموتون دون أن يحاربوا، أَو كُذب عليهم؟"[17]

أظهر دهكون حتى النهاية ذلك العزم الذي لا يتزعزع والذي لا يشعر به سوى أولئك الذين حاولوا بكل قواهم أن يحققوا مثَلَهم الأعلى. ولأنه قاد الكفاحَ إلى حد التضحية بالنفس، فإنه بات يعرف أن دوام الاستبداد مَدين لاستعباد الرجال الذين لا قناعة لهم. قال لعمر الخطابي الذي رأى فيه رجلا شريفا نزيها :

— أنت الذي سوف تخرج، كن شاهدا علينا. أما نحن، فإننا سوف نموت، ولكن مُسَيرينا سوف يخرجون من هنا لينهوا أيامهم في الوزارات. قل للرفاق إن العدو يوجد بيننا[18]!

نُفِّذ حكم الإعدام في دهكون فجرَ يوم الخميس فاتح نونبر من سنة 1973 مع أربعة عشر رفيقا من رفاقه. كان يوجد في صف واحد إلى جانبه لحظة تنفيد حكم الإعدام :

- اثنان من رجاله، الجداينـي ويوس مصطفى،
- حسين آيت زايد (قائد خلية تنغير) وحديدو (قائد خلية إملشيل) وموحى أوالحاج (قائد خلية اخنيفرة)،
- تسعة من رجال محمود المقرين : دحمان سعيد والناصري وبوزيان والعثماني وآيت عمي وبا العمراني والجزار وصبري وفريكس.

نجا المهتدي مؤقتا من تنفيذ حكم الإعدام. ذلك أن تصريحاته غذت بفعالية مرافعةَ النيابة العامة، فقرر القاضي إدراجه كشاهد إثبات مرة أخرى، خلال المحاكمة الثانية. انتهت المحاكمة الثانية يوم 18 يناير من سنة 1974 بالنطق بستة أحكام جديدة بالإعدام. وفي المجموع، كان هناك 84 حكما بالإعدام مصحوبا بعدة قرون من الحبس.

وحسب حساب مشؤوم يريد أن يُبقي على التوازن بين العفو وبين الإدانة، فقد أُطلق سراح سبعةً محامين منهم عمر بنجلون واليازغي صباح يوم 27 غشت من

---

17 حوار للمؤلف مع عبد الرحمن مازين، حُكِم عليه بعشرين سنة حبسا.
18 حوار للمؤلف مع عمر الخطابي.

سنة 1974، في حين أن سبعة ثوار تمّ إعدامهم في ذلك الصباح نفسه بالسجن العسكري بالقنيطرة.

دُفِنوا على وجه السرعة، كانت جُثتَي قائدين من حرب إملشيل، سعيد أُوخويا وموحى أوحمو، وخمسة من رفاق دهكون : المهتدي وجناح بوجمعة ومحمد الحجاوي وميري بوجمعة وادريس المليانى. نُفِد حكمُ الإعدام في آخر محكوم عليه، ادريس المليانى، وهو مدرس بسلا، فذهب برفيق سابق آخر من مدرسة النهضة بسلا.

الناجون

كان مرزوق يميل دائما إلى كفاح الثورة التحريري، ولكن هاهو أمام نوعٍ جديد من الكفاح، الكفاح من أجل البقاء. بعد أن أصبح الهروب إلى الجزائر مليئاً بالصدف والمفاجآت، قرر، لينجو من قوات التدخل الخاصة، أن يدفن نفسه حيا. كان عزمه في مستوى الخطر الذي يتهدده، بنى حوله حائطا مزدوجا في منزله. عندما وضع الحجر الأخير لبنائه، يوم 11 غشت من سنة 1973، لم يكن يعرف أنه سوف يبقى أربع عشرة سنة داخل سجنه الإرادي، أربع عشرة سنة من الانتظار. علم فيها بالحكم عليه بالإعدام غيابيا، وبتنفيذ حكم الإعدام في رفاقه،وخاصة شَهِد موكب الحياة يمر أمامه، كبُر أبناؤه وتزوجوا، مات أبوه، حدث كل هذا وهو الحاضر الغائب.

كان سبيل الصغير الوحيد للعيش هو درايته بالمراوغة ومواصلة العيش، فاستطاع أن يصل إلى الجزائر عبر وجدة. التحق به النجار يوم سابع شتنبر 1973، ثم سيدي حمو وسي إبراهيم يوم 27 أكتوبر 1973. وفي وهران، التقوا مناضلين آخرين نجوا هم كذلك من الكارثة، كما هو شأن اللوزي، قائد التنظيم في كلميمة. كانوا كلهم يحسون بأنهم عادوا من مكان بعيد سحيق، تركوا في الأطلس رفاقهم ومعهم، أفضل ما عندهم، الأمل في إرساء الحرية.

كان انهيار حالة أجساد هؤلاء الناجين لا يساوي شيئا أمام إحباطهم المعنوي، فالإحساس الذي يلازمهم أكثر هو الإحساس الغامض بأنهم قد كُذِب عليهم. في الجبال، كانت ضرورات حرب العصابات تستحوذ على فكرهم، ولكن في المنفى، لحق بهم الواقع، واقعٌ لا يمكن وصفه بالكلمات، فلاذوا في آخر المطاف بالصمت المطبق.

ومع مرور الوقت، انتصرت الحياة، والسياسة كذلك، فتوالت الاجتماعات، ملؤها تعابير وكلمات متفق عليها سلفا : كانت أغلال الإيديولوجية تخفي المأساة التي عاشها هؤلاء الرجال الذين لم يعد لهم جسد، والذين سوف يمضون سنوات ليستعيدوا كينونتهم. آخر من التحق بالجزائر هو أمدة، مرفوقا بثلاثة محاربين، بقوا مختبئين في الجبل ينصتون إلى جهاز الراديو في انتظار أن تصلهم إشارة تعلن عن قيام انتفاضات أخرى.

استمر الانتظار حتى .. . شهر أبريل من سنة 1975.

وصل أمدة ورفاقه إلى وهران يوم 26 ماي 1975 بعد رحلة دامت خمسين يوما عبر الجبال.

الملكي، الذي وقع في شباك البوليس في شتنبر 1973 ، سوف ينجوا بأعجوبة من تنفيذ حكم الإعدام فيه. فبعد سبعة شهور من الحبس السري، نُقِل إلى سجن القنيطرة في أبريل من سنة 1974. الملكي، محكوم عليه بالإعدام، رقمه 18659، دخل الجهة التي مرت بها موجتان من موجات تنفيذ حكم الإعدام. كان في الزنزانة نفسها التي يوجد بها الخياري، وهو من رجال دهكون، والمحكوم عليه كذلك بالإعدام.

في الجهة الأخرى، جهة المحكوم عليهم بالحبس، يتذكر أحد رفاق سيدي حمو أنه تقاسم الزنزانة مع الدكتور عمر الخطابي. وكان فلاحو الجبال، الذين بهرهم أداؤه، يقدسون شهادته وكذا سلالته الشهيرة، فكانوا ينادونه بكل تقدير واحترام "الدكتور". ولكن الدكتور الخطابي لم يكن الرجل الذي يجد متعةً في الافتخار بنفسه. فأجابهم يوما :

— لا تنادوني دكتور، نادوني تراكتور (جرار). أنا لم أصنع شيئا. أنتم، رجال الجبال، أنتم الذين تجرأتم وحملتم السلاح ضد القمع والاستبداد من أجل تحرير البلاد[19].

وعلى العكس، فإنه لم يكن يجد الكلمات القاسية بما يكفي لينعت بها أطر الاتحاد الوطني للقوات الشعبية:

— لكثرة ما لوى المغاربة ظهورهم خضوعاً وخنوعاً، أصبحوا لا يملكون عمودا فقريا. إن مسيريكم ليسوا في مستوى تضحياتكم.

سوف يستفيد جل المحكوم عليهم بالسجن من المهلة التي سيتيحها النزاع حول الصحراء، وسوف يطلق سراحهم أخيرا سنة 1980. كان من بينهم الملكي، المحكوم عليه بالإعدام. غادر سجن القنيطرة، مع ستة عشر رفيقا آخر، يوم17 يوليوز من سنة 1980. وأجاب مدير السجن الذي أخبره بإطلاق سراحه، أجابه بكل هدوء:

— الحمد لله.

فصحح الموظفُ على وجه السرعة وهو متغطرس مزهو بنفسه:

— الحمد لله ولجلالة الملك الحسن الثاني.

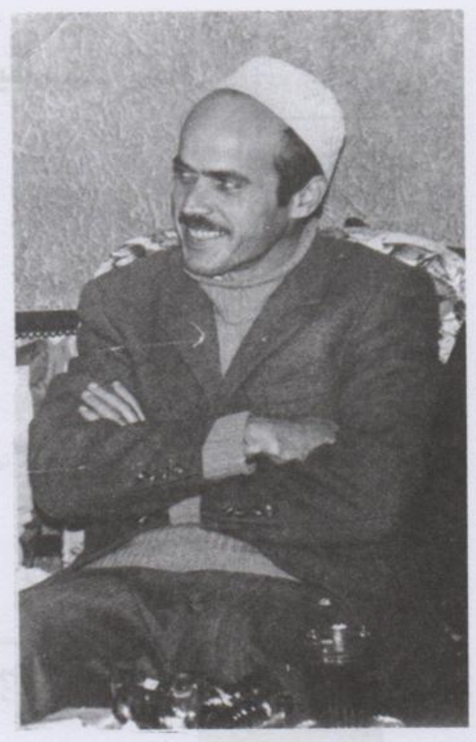
فهو قد لاحظ أن لا أحد من الثوار المحكوم عليهم التمس العفو الملكي، كما جرت العادة. إذ بهذا الالتماس، يكون السجين قد قبل التنازل عن آخر معالم كرامته ثمنا لحريته. ولكن الأمور سوف تجري على غير هوى مدير السجن ولا رِضاه، إذ أجابه الملكي ببساطة وهو يبتسم قبل أن يوقع شهادة الخروج[20] :

— الحمد لله.

---

19 حوار للمؤلف مع توركي عدي.

20 حوارٌ للمؤلف مع عبد الله الملك

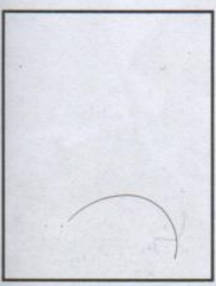


محمود. القاهرة، 1972.



منزل المقدم عدي شان بأملاغو حيث وقع الاشتباك الذي انتهى بوفاة محمود وسليمان العلوي. ما زالت توجد أمام البناية بقايا الحائط الذي كان يأوي في السابق البئر التي ترصد خلفها محمود وسليمان العلوي بالعساكر.

الأطر الثورية بكلميمة



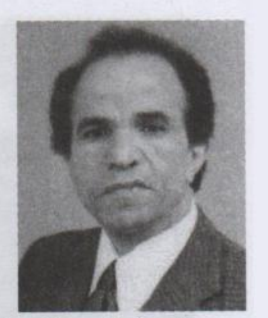
سليمان العلوي، المعروف بمولاي عمر.
توفي في ساحة المعركة بأملاغو يوم 5 مارس 1975.



عبد الله بن محزون، المعروف بفاريكس، وبيهي، ومنصور.
وُلد سنة 1941. نُفذ فيه حكم الإعدام بالقنيطرة يوم فاتح نونبر 1973.



بشير الزين بن قدور، المعروف بالنجار، والخيراني، وموسى.
حتى حدود سنة 2002، ما زال يعيش في الرباط.



محمد نايت الهاشمي، المعروف بسي إبراهيم.
يعيش حتى حدود سنة 2002 بوهران.



محمد بلقاضي، المعروف بالصغير.
يعيش حتى حدود سنة 2002 بليبيا.

الأطر الثورية بالخنيفرة



محمد أسكور، المعروف بكاسترو.
توفي في ساحة المعركة يوم 6 مارس 1973 بأجدير.



[illegible] الحسين، المعروف بصابري، وهوشي مينغ.
[illegible]. نُفذ فيه حكم الإعدام بالقنيطرة يوم فاتح نونبر 1973.



برو امبارك، المعروف ببا العمراني.
وُلد سنة 1936. نُفذ فيه حكم الإعدام بالقنيطرة يوم فاتح نونبر 1973.



[illegible]
[illegible]. نُفذ فيه حكم الإعدام بالقنيطرة يوم فاتح نونبر 1973.



لحسن الإدريسي، المعروف بالناصري.
وُلد سنة 1948. نُفذ فيه حكم الإعدام بالقنيطرة يوم فاتح نونبر 1973.

الأطر الثورية بتنغير



محمد بوشاكوك، المعروف بالعثماني. وُلد سنة 1937.
نُفذ فيه حكم الإعدام بالقنيطرة يوم فاتح نونبر 1973.



لحسن التاركيستي، المعروف ببوزيان. وُلد سنة 1934.
نُفذ فيه حكم الإعدام بالقنيطرة يوم فاتح نونبر 1973.



دحمان سعيد بن لحسن. وُلد سنة 1928.
نُفذ فيه حكم الإعدام بالقنيطرة يوم فاتح نونبر 1973.



موحا أوموح نايت بري، المعروف بالجزار.
وُلد سنة 1934. نُفذ فيه حكم الإعدام بالقنيطرة يوم فاتح نونبر 1973.



عبد الله الملكي، المعروف بالمختار.
مازال يعيش في الدار البيضاء حتى حدود 2002.



دهكون والمهندي (في الجزء العلوي من الصورة) خلال مواجهة بمحكمة القنيطرة.



دهكون خلال إحدى الجلسات بمحكمة القنيطرة.





عرض الأسلحة المحجوزة كوسائل إثبات بمحكمة القنيطرة.



أقدار

"يموت الجبناء قبل موتهم الأخير،
أما الرجال الشجعان، فيبقون أحياء حتى بعد موتهم".
شكسبير

لا ننجو من العقاب عندما نحرك الماضي، لا سيما عندما يقضي هذا الماضي على بعض الأساطير ويفسح المجال أمام أبطال لم يكن أحد يعرف وجودهم. استقبل البعضُ هذا البحث الذي وصل إلى نهايته بتردد وشك، واستقبله البعض الآخر بحماس واهتمام. ما هي الخاتمة التي يمكن أن نضعها لهذا البحث؟ الآن، بعد أن تغيرت المناهج والقناعات، يصعب ربط حبل المنطق من جديد. إن تتبعَ الذهن لمسار الفرص الضائعة تمرينٌ صعب شاق. كم هي الطموحات التي ضاعت وسط آفاق غامضة؟ كم هي الخصال البشرية التي تَم إفسادها؟ ماذا تبقى من الموتى، ومن الأحياء، ومن الموتى-الأحياء؟ هل هناك من مغزى يجب الاحتفاظ به كدرس يُعلمه ذلك القدر المتناقض لهؤلاء الرجال الذين قرروا، رغم ذلك، توحيد مصيرهم؟ إلا إن كان الجواب يكمن بالضبط في الصمت العنيد الذي لطالما غطى هذا التاريخَ المأساوي؟

وسط شساعة الجبل الواسعة، كان محمود يعيد ويتدرب على موته، وهو النهاية الحتمية لملحمة مأساوية. كان حافزه هو طموحه الذي كان يجهل المجد الشخصي، إنه عمل يدعو إلى كفاح يستمر حتى امحاء الذات نفسها.

ولكن التاريخ يتقن نسج الأقدار التي لا تكتمل والطموحات الخفية. انضاف محمود إلى لائحة طويلة من شهداء الحرية. بموته في سن الخامسة والثلاثين، أصبح أحد الرجال الذين يضع اختفاؤهم خاتَماً على مصير أوسع من مصيره هو وحده.

هو من الرجال القلائل الشجعان، من ذوي القناعات الذين يحلُمون بانعتاق رعايا يخدمون، أو فُرض عليهم أن يخدموا دكتاتورية مقدسة. إن القبول الذي اعتاد الانحناء والطاعة قد أبان عن حدوده. إذ إنه بعد أن أعياه هذا الكم الهائل من الاستعباد، عمل على إرساء مغربٍ حر حيث يمكن للفرد من الرعية أن يصبح مواطنا. فضل محمود إذن خيار السلاحٍ للقضاء على سيادة الرعب الذي يَدين له حكم الملكية المغربية

المطلق بعمره المديد. والذي كان محمد أوفقير وأحمد الدليمي وإدريس البصري رجالَه الذين يثيرون الرعب والناجعين الفعالين في الآن نفسه. اختار محمود هذا الإختيار بصدق وإخلاص.

لا شك أن محمود من خلال قراءاته العديدة، اكتسب القناعة بأن الحضارات تمر وأن الأحلام الطوباوية تفشل. كان يعرف أن كل نصر هو نصرٌ عابرٌ وأن الزمن يستبدل الإيديولوجيات الواحدة بالأخرى. ولكن لا تهم التقسيمات والتمييزات داخل المجتمع عندما ينحني شعبٌ بكامله، أبقيَ عليه بائسا جاهلا خاضعا خانعا أمام سلطة مطلقة تدوس عليه وهي تتبجح؟ إنه أمر جميل بالنسبة إلى المؤرخين. وحدها ثورة يمكنها أن تختصر الطريق تجاه مجتمع أكثر عدلا وأوفر كرامة. أن يكون المرء ثوريا، يعني أنه انتصر على شكوكه ليختصر عدة عقودٍ من الإهانة والخنوع في التوسل كيما يُتَصدق عليه بحريةٍ. وهكذا قرر محمود أن يدفَع بآخر الشجعان إلى عمل يُمكِنُه أن يحقق كل شيء أو لاشيء.

قدر أُمة

والمفارقة هي أن عمله كان بداية مسار تطبيعٍ سياسي طويل ومكلف. هل سمع القصر ناقوس المعركة الأخيرة يدق؟ كل الأمور توحي بذلك. ذلك أنه وفي هذه المرة، لم يأت ناقوس الإنذار بالخطر من "جنود يبحثون عن مصائر وطنية". بل من أعماق الشعب. ويحتفظ التاريخ بعد مرور بضع سنوات بكون صفحةِ "سنوات الحديد والنار" قد طُويت، وفضل القصر عندها الفساد على القمع.

بدأَ تعلم الديمقراطية الذي يُدينه التوريط. عوضت الانتهازيةُ الخوفَ. فأخذت أطر الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية تتغنى جماعةً بالحب القديم الذي عاد ثانية. الحب بين القصر والمعارضة. لقد أصبح الزمنُ زمنَ التنكراتَ والصمت وغيرهما من الإنحطاطات. إنها معزوفةٌ من مديح يتجاوب تجاوبا غريبا مع ترتيب فرنسي يستملح على وجه الخصوص عباراتٍ المجاملة والجمل القصيرة التي تتظاهر بالتفكير العميق والتي كان ينطق بها ملكٌ يتقن توزيع أمارات رضاه توزيعا أنيقا. فكانوا يُحَيون فيه صانعَ مغربٍ تُشتَمُّ فيه رائحة الاستعمار.

وحفاظا على المظاهر، لم يمنع القصر نفسه من أن ينسب إلى نفسه الكفاح من أجل تحرير فلسطين. ففي اللحظة التي كان فيها رجال محمود، رفاق الفدائيين الفلسطينيين في السلاح، يُعدَمون رميا بالرصاص، كانت مفرزة من القوات المسلحة الملكية تشد الرحال إلى الجولان تحت قيادة اللواء (الجنرال) الصفريوي.

بيد أنه وراء الشعارات، كان الواقع عنيدا. ذلك أن موعد اللقاء بين المغرب وتاريخه، وهو اللقاء الذي لم يحدث، دشن مآسي المستقبل.

في يوم 10 ماي من سنة 1973، وبعد أن استخلص مصطفى الوالي الدروس من الفشل، أخذ مصيره بيده وأسس البوليزاريو.

وفي يوم 18 دجنبر من سنة 1975، سقط عمر بنجلون برصاص فريق مسلح وقّع بالدم صعودَ مذهبٍ جديد: الإسلاموية. إن فشل ثورةِ آخِرِ فرصةٍ هذه قد زج بالبلد في صراع مع خروجٍ غير تام للاستعمار ومع إفلاس اجتماعي سوفً يغذيان على التوالي حربا دامت ثلاثينً سنة وإسلاموية زاحفة. سوف يُمضي المغرب عقودا وعقودا من أجل اختتام فشل الاختيار الثوري.

قدر قائد

لم يغير الحِداد والألم اللذان يتخللان مسيرة الفقيه البصري من سيرته شيئا. فرغم عودة الحظوة والعناية للفقيه البصري، فإنه سوف يحلم حتى النهاية بالمساء الموعود الذي سوف يبتلع نظاما غاص في الغلط ليجعل غداً جديداً يحل. إن همه سوف يبقى دائما هو الثأر المستحيل. تكسو مَسَارَه سلسلةٌ من الأعمال الفاشلة، التي كانت عديدة وفيرة مما جعل البعض، ممن انتابهم الشك، يقولون بأن هذا الفشل لم يكن محض صدفة.

وفي خريف حياة الفقيه البصري، ثاب الرجل وأخذ يطالب بالشرعية التاريخية ما دام لم يستطع أن يوجه مستقبلَ هذا التاريخ. إن حَرَسَ الذاكرة قد بدأوا وضع رواياتهم الخاصة بملاحم الغد؟ وقد جاء هذا في حينه، إذ إن الفقيه البصري لا يرفض هذه الصفحات البطولية التي تُطَعمُ روايةَ حياةٍ حتى تأخذ طابعا أكثر مأساوية.

عندما عاد إلى بلده، كانت له حظوة وسائل الإعلام وتحدث بإطناب بعبارات مغلّفة أنيقة عن دوام الروابط المتينة التي تربط العرش بالشعب المغربي، وهو الخطاب الذي يرتهن ارتهانا بظروف اللحظة.

وها هو ذا الرجل قد بات يتجنب مواجهة ماضيه[1]. وهو إن تحدث عن هذا الماضي، فإنما يفعل ذلك من أجل تغيير طبيعة هذا الماضي أو تلميع ساعات المجد السالفة. ففي حوار طويل نُشِر في شهر يناير من سنة 1999[2]، وضع ميزاته وخصائصه على أنه رمزٌ تاريخي. ولكن رجل دسائس الكواليس والعمل السري لم يكن مرتاحا في هذا التصنيف. ولأن الزمن قد فعل فعله، فإنه حاول دون توفق أن يشرح بأن عمليات مارس

---

[1] لم يتفضل الفقيه البصري بمقابلتي رغم المحاولات العديدة.

[2] نشرته يومية الاتحاد الاشتراكي، لسان حزب الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية.

1973 جرت دون علمه. وهكذا فإن دخول محمود ورجاله وكذا انطلاق العمليات، كلها أمور حدثت دون علمه. زد على ذلك أنه لم ينتظر الأوقات الضائعة التي وفرها له تقاعـــده وعـــزلته ليتحدث عن التاريخ كما يطـيب له. وهاهو سنةَ 1974، في رسالة[3] بعث بها إلى عبد الرحيم بوعبيد وعبد الرحمن اليوسفي، والتي حررها في رد فعل على سياسة التسوية الظرفية التي فُرِضَت في الجزائر العاصمة، وهو الأمر الذي كان يعطي انطباعا عما كان سيحدث في مؤتمر الحزب سنة 1975 حيث تَم رفض الاختيار الثوري: في هذه الرسالة يتحدى الفقيهُ البصري الذين عزموا على دفنه بسرعة.

وبخصوص ما وقع في شهر مارس من سنة 1973، كتب الفقيه البصري: "بين الفترتين، دُعيت إلى ليبيا، بعد استئناف العلاقات بين البلدين، في مقابل إغلاقٍ الإذاعة الموجهة إلى المغرب العربي. كان الرفيق آيت قدور يرافقني في هذه الرحلة. وتزامنا مع هذا الحدث، كان الشهيد محمد بنونة قد دعا إلى اجتماع في باريس من أجل البث في عدة مشاكل لها علاقة بالتنظيم العسكري. ولكني، فيما يخصني أنا شخصيا، كان علي أن أتغيب عن هذا الاجتماع نظرا للمشاكل التي كانت تتخبط فيها ليبيا. فيما يخص هذه النقطة بالذات، يمكن للرفيقين آيت قدور وبنيحيى أن يدليا بمضمون الاجتماع السابق الذكر وبالتدابير التي اتخِذَت. عند عودة آيت قدور، أخبرني بعد أن وقع ما وقع بأن محمد بنونة ومجموعة من المناضلين قد عادوا إلى المغرب. وقد عاش الرفاق الخصاصي ومحمد آيت قدور ومحمد بنيحيى هذه الأحداث". ثم يختم : "إن العمل المسلح، باسم الجبهة، قد اقتُرِح ودخل حيز التنفيذ انطلاقا من باريس، وخطة ثالث مارس حررها محمد بنيحيى".

من غير الجدي أن ندفع بالتفسير أبعد من هذا لنرى بأن الأمر هنا يهم تمرينا لمراجعة الأحداث. وبادئ ذي بدء، لم تتوقف برامج راديو ليبيا إلا في صيف سنة 1973، أي بعد موت محمود، وليس إبان حياته. إنها إحدى التنازلات التي انتزعها عبد الرحمن اليوسفي من الفقيه البصري خلال الاجتماع-الحصيلة الذي انعقد في الجزائر العاصمة. وبعد ذلك، لم يكن لاجتماع باريس هدف عسكري وإنما كان له هدفٌ تنظيمي واستراتيجي، وليس هدفا عسكريا. ويكفي حضور مشاركين لا يتقاسمون أي صلاحية عسكرية داخل التنظيم للتدليل على ذلك. أما "العمل المسلح"، فإنه لم يتم تصوره في باريس في غياب الفقيه البصري، ولكن في ليبيا، وبحضوره. وأخيرا، كيف يمكن أن نتصور أن الفقيه البصري علم "بعد أن وقع ما وقع" برجوع محمود ورجاله في حين أن هذا الرجوع تَم بمساعدة الميد، وهو ساعِدُ الفقيه البصري الأيمن في تلك الفترة؟ عندما نعرف ما كان يحس به محمود تجاه الميد، يمكن أن نخمن بسهولة أنه كان سيزيحه إن هو تصرف بمبادرة خاصة منه. وأما الباقي، فليس سوى أمور رُتِبَت "فيما بعد"، وأسست على حقائق مغلوطة، يتم به استنكار عمل اعتُبِر عملا غير مسؤول.

---

3 نشرتها لوجورنال (الصحيفة)، عدد 145، يوم 25 نونبر-فاتح دجنبر 2000. لم يعترف المعني بالأمر صراحةً بالوثيقة، ولكنه كذلك لم يتنكر لها. هذا الصمت، وباعتبار مضمون الوثيقة الخطير، يحمل خاتم اعتراف ضمني.

ذُهِل أولئك الذين كانوا يعتقدون بأنهم كانوا يقاتلون من أجل مبادئ :
— كيف يسمح الفقيه البصري لنفسه أن ينكر دوره ومسئوليته في حين أن أكثرنا ما زال حيا[4]؟

منذ ذلك الحين واللغز لا يزال قائما. وكأن حامل اسمه العائلي السيئ الذكر، وزير الداخلية السابق ادريس البصري، يريد أن يجعل الظنون مادية محسوسة. فدخل سنة 1984 في مفاوضات انتهت بعد بضع سنوات بعودة المعارض الدائم. إنه اتصال يواصل ما قام به وسيطٌ مناسب: البشير الفيكيكي، الروح المنبوذة في مؤامرة 1973، والذي أصبح بعد ذلك برلمانيا.

قدر حزب

بالنسبة إلى العديدين، فإن تنبؤ دهكون قد تحقق. فعبد الرحمن اليوسفي، عكس الفقيه البصري، تأقلم مع شر آخذ في الزوال، مقتنعا بأنه في آخر المطاف سوف يكون النصر له. وهكذا وفي فبرايرٍ من سنة 1998، قبل دعوة الحسن الثاني بأن يشكل حكومة. ولكن، وكما هو شأن الفقيه البصري، سوف يخصص مجمل طاقته لإنقاذ المظاهر. التحق بديوانه اليازغي وعجول وآيت قدور وبنيحيى. ومع ذلك، فإن أول التحولات السياسية وقع قبل ذلك. وهكذا فإن المهدي العلوي قد جُوزِيَ بمنصب سفير، والخصاصي أصبح برلمانيا، وماسين، عاملا على اخنيفرة، وهي المدينة التي وضع فيها قنابل سنة 1973.

منذ إعادة تشكيل الحزب سنة 1975، كان له الوقت الكافي ليتحول ويتغير، فربح من احترام القصر له بقدر ما خسر من مصداقية عند الجماهير. غير اسم الحزب فأصبح الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية، والتحق وسط الفرحة العارمة إبان المسيرة الخضراء بالمعارضة الدستورية. وفيما يخص ممارسة السلطة، فإنه لم يعد ينافس الملكية، ولكنه أصبح ينافس الأحزاب الأخرى. لقد بات جزءاً لا يتجزأ مما كان المهدي بن بركة يسميه "معارضة صاحب الجلالة". وأصبح يحاور اليوم أحزابا كان بالأمس يعتبرها في خدمة القصر. إن الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية قد غير شكل عمله، ومن ثمة فإنه ضَحى برباطه النضالي مقابل تصورٍ باهت للخلافات السياسية. لقد فشل الاتحاد الاشتراكي في استئصال الشر من جذوره، وهاهو الآن يحاول أن يعالج آثار هذا الشر. وهكذا، فإن الحزب تاه وسط تردداته، فالتحق بتوافق سياسي هش. والحزبُ عندما تسلم القضايا والشؤون سنة 1998 ، لم يعد يملك شيئا من تلك المنظمة الجماهيرية التي كانت تؤطرها نخبة البلد الفكرية، والتي كانت بالأمس مصدرَ فخره واعتزازه. لقد بات حزباً للأعيان، مرغما على أن يتعامل مع أوليغارشية المخزن السياسية-الاقتصادية.

---

4 حوار للمؤلف مع أحمد بنجلون.

بأي هدف؟ في المواجهة المتشنجة بالأمس، حيث كان الدفاع عن الحريات يختلط بالكفاح من أجل بقاء الفرد حيا، كان الرهان لا يقبل أي إبهام أو غموض. والآن، بعد أن أصبح المهم هو إعطاء مضمون لحريةٍ يُزعم بأنها ممكنة، تعطلت الآلة. إن الحزب الذي كان يعشق الحرية بدون قيد أو شرط، وذلك لأنه يرفض الحكم المطلق أكثر مما كانت له ثقافة ديمقراطية حقيقية، إن هذا الحزب، ولأنه لم يعرف كيف يرفع تحديات التغيير، فإنه قد ضاع وسط خطابات طائفية بالية.

هذا في الوقت نفسه الذي تعرف فيه الإقطاعية تراجع الانتقادات تجاهها، بدافع من ملك جديد شاب ومرحب، سوف يقود حملة عُبئت لها بقوة وسائل الإعلام، ومن ثمة فهي حملة تجميع وائتلاف، ضد الشرور والآلام التي كان الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية قد تطوع من قبل لمحاربتها: البؤس المُستَوْطِن والأمية والتخلف وحرية التعبير وحقوق الإنسان وغيرها.

والحال أنه، وأكثر من أي وقت مضى، ما زال احتكار المخزن وهيمنته، وهو الذي أبقى البلاد في الفقر الاقتصادي والبلاهة السياسية بتبذيره للموارد تبذيرا، ما زال عائقا أمام الحداثة التي قد تعطي للمغرب مكانته في الألفية الثالثة.

يبقى الإرث الثوري الثقيلُ المزعج. لقد تغير الزمن وفقدت القضية من طراوتها وجدتها، لصالح "آفاق ديمقراطية" أكيدٌ أنها لا تَحْسِمُ الأمورَ إلا قليلا، ولكنها تورط أقل. وفيما يخص جيل الأطر الجديدة الذي ينعم بحياةٍ لم تعرف تقلبات سنوات الحديد والنار، فإن الثورة أخذت مظاهرَ إحياءِ ذكرياتِ حنينٍ متقادمة. توحي لهم ثقةٌ مستقيمةُ الرأي بواقعية قويةٍ سرعان ما تربط الكفاحَ من أجل الحرية بصبيانية سياسية. إن تفكيرهم متعبٌ، فهم ينظرون إلى الناجين، الشاهدين على التمزق، في أحسن الأحوال، نظرةَ تعاطف يمتزج بالتسامح، وفي أسوء الحالات، نظرة اللامبالاة.

إن الفكرة نفسها القائلة بأن رجالا كافحوا في المغرب من أجل بديلٍ للمَلَكية، لا يمكن التفكير فيها ولو تفكيرا سطحيا لا قناعة فيه. ومن ثمة، فإن الحزب تبنى أطروحة تيارٍ ثوري تحرك في استقلالية عن الحزب الذي يبقى متشبثا بدوام المَلَكية. لقد سمحتْ التواءات الزمن بهذا النوع من التكيف الذي لا يكلف كثيرا. بيد أنه سنة 1973، كان هذا الطرح يملك من القوة ما كانت تملكه خرافة الملك الطيب الواقع ضحيةَ حاشية سيئة النية. في ذلك العهد، كان الفرقُ البسيط ضربا من التكتيك. وأما الهدف فكان لا يقبل أي مجادلة، كان يجب القضاء على الملكية لتنظيف المغرب من إدارة متقادمة يتحكم فيها إقطاعيون يساندون الاستعمار الجديد.

تسبب فشل سنة 1973 في الفصل بين تيارين يتميزان بحسب قراءتهما للأحداث. "التيار المغامر" بالنسبة إلى البعض، الذي كان يسارع إلى أن يتميز عن

فشل ثقيل مزعج ومورط. و"عمل يُنْذِر ويُحَذر" من توجه نحو الراديكالية مستقبلا. بالنسبة إلى البعض الآخر. زادت هذه الازدواجية في تغذيةٍ انفصام سياسي سوف يحسن القصر استغلاله وذلك بالتحكم في معارضة أصابها مرض النسيان الذي كان يُشكل مع ذلك النجاة. توجد في هذا التوافق السياسي الذي باركه النسيان مفارقةٌ مذهلة. لما أزاح الحِزبُ الماضيَ باسم توافق سياسي. من المفروض أن يضع قواعد تناوب نحو الديمقراطية. ألَمْ يَعُدِ الحزبُ مهددا بأن يدفِنَ تراثا من الكفاح. يمكنه أن يعطي لهذه التجربة مداها التاريخي الواقعي؟ إلا إن كان الحزب. ودون أن يتجرأ على أن يعترف بالأمر لنفسه هو. قد اختار "التناوب الممنوح" بهدف واحدٍ وهو ضمان بقاء المخزن بعد اختفاء الحسن الثاني. مادام لم يستطع تقديم بديلٍ قابلٍ للحياة والاستمرار؟ إن بتر الذاكرة يَبقى عندها الوسيلةَ الوحيدة لإخفاء الفشل.

قدرُ جيلٍ

إن موت رفاق توفيق. ومن بينهم. إعدام أقرب رفاقه. دهكون وادريس الملياني. سوف يَسكن طويلا ذهن الرجل. إن هذا الاختفاء يحمل حِدادَ نجاته هو نفسه. إن إحساسا محتدا هائجا سوف ينتصر على قدرته على المقاومة المعنوية. فخلال لقاء قصير في مقهى بالدار البيضاء. كان توفيق ذا حماسٍ محزن مؤثر. وعينين مبللتين حزينتين.كان توفيق يرمزُ إلى صورة جيلٍ كامل من المناضِلين. إن الملحمة المأساوية. ملحمة فشل الاختيار الثوري. قد أورثتهمْ حاضرا شوهه الماضي.

وأما المصير الذي يعرف كيف يتعامل بدون رحمة مع المغمورين في التاريخ. فإنه لم يرحم كذلك مستقبلهم.

بعد أن عُفي عن أحمد بنجلون. استقبله عند خروجه من السجن يوم الجمعة 12 دجنبر 1975 أخوه عمر. كان اللقاء قصيرا. فبعد ستة أيام. أي يوم 18 دجنبر. مات عمر بنجلون مقتولا أمام باب بيته. ورغم أن أحمد بنجلون نجا فإنه ظل مصدوما. وعكس آخرين. فإنه لا يجد في فشل الحلم الثوري أي تبرير للهدنة السياسية. ولأنه لم يقبل بنصف انتصار. فإنه عاد إلى السجن سنة 1980 و1981 و1983 لـ"يتعامل معه" نفس جلاديه.

وفي نهاية الثمانينيات. غادر الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية وأسس حزب الطليعة الديمقراطية الاشتراكية. والتحق به صديقاه في دمشق. اليزيد وخالد. بعد أن غادر هذا الأخير تدريجيا التشكيلات السياسية بسبب الغيظ أكثر مما كان بسبب الخلافات السياسية. احتفظ بموقف متحفظ. مترددا فيما يخص الهوية السياسية لكفاحه. في باريس سنة 1995. عشية رجوعه إلى المغرب بعد أزيد من ثلاثين سنة من المنفى. كان لا يزال يُقَدم نفسه على أنه مقاوم.

سكن الإصرارُ نفسُه الكوار الذي أصبح، بعد أن خرج من السجن سنة 1975، عضوا في المكتب السياسي لمنظمة العمل الديمقراطي الشعبي. بالأمس كما هو شأن اليوم، ما زال يُظْهِر عَزْمَ ذاك الذي يتبع الطريق الذي تحدده له قناعته.

بالنسبة إلى البعض، كانت العودة إلى الأمور الواقعية بطيئة وأليمة. انسحبوا من ميدان السياسة بعد تفكير منعزل، تسلل إليه الوعي بأنهم كانوا مثاليين عازمين على الرقي بالشعب المغربي إلى مصير لربما لم يكن هو قدره. إن تجربة الفشل الأليمةَ قد جعلت ذاكرتهم ذاكرة انتقائية، فأخذوا يجترون تاريخا لم يهضموه جيدا. أصبحت حياتهم مسرحا للظلال تنعكس فوقه أشباح الماضي. وغدت الأحقاد المكدسة ميراثَهم المشترك. إن تحدثوا فإنما يتحدثون وكلهم شك، يستعملون كلمات مراوغة فيها غيظ صامت أثقلته المرارة. إن ما يستهجنونَهُ هو موضوعُ فضولي ذاتُه أكثر مما يستهجنون أسئلتي، وكأن هذا الموضوع خيانةٌ دون أن يستطيعوا تفسير أي خيانة هي. وعلى وجه العموم، لا يقدم الحديث والحوار شيئا، ما دام المحاوِر يبدو عازما على أن لا يكون الأمر سوى تبادل عادي لعبارات المجاملة.

ولكن الأسباب نفسَها تؤدي أحيانا إلى نتائج مختلفة. فبالنسبة إلى آيت قدور كذلك، فإن التاريخ لم يتحسن مع مرور السنوات. لقد تكون عنده غيظ دائم، فتحول ناسك الثورة إلى مناضل بالذاكرة. والمفارقة هي أن تعليقاته السخية على هذه الملحمة تَلزَمُ الصمتَ فيما يخص المسالة الأساسية: دوره في إدارة التنظيم سنة 1973. فكانت محاولتي للحديث عن تفاصيل معينة تصطدم بتظاهره بأن الأمر يفاجؤه. وعلى العكس من ذلك، كانت شهادته مرافعةً لا رحمة فيها ضد الفقيه البصري : اختلاسٌ وخيانة سياسية وولع بالأكاذيب.

وضمن الأقدار التي تحطمت ورُميت في غياهب نسيان التاريخ، هناك مصير الحسين المانوزي الذي ضاع في سجون القصر الملكي. فإضافةً إلى كون الحسين المانوزي كان إطارا في الكفاح المسلح، فقد كان أهم مذيعي راديو-ليبيا الذي كان يُشعل النار في الملك وفي القصر. وعندما نعرف أن الحسن الثاني كان يمارس السلطة ممارسة شخصية خاصة، نخمن بسهولة أن الحسين المانوزي كان بالنسبة إليه ضيفا مرموقا. لما تعرف عليه بدار المقري العديدُ من المناضلين المعتقلين سنة 1973، ألصقت صورته على حيطان أزقة الرباط يوم 13 يوليوز 1975: مطلوب للبحث لأنه هرب ليلة 12-13 يوليوز. كان ضمن الهاربين أيضا المقدم (ليوتنو كولونيل) عبابو، أخ قائد الانقلاب، والمساعد (أدجودان) عقا، والقبطان الشلاط والمرشح لرتبة ضابط (أسبيران) مزيرق، وكذا الإخوة بوريكات الثلاثة، وهم وجوهٍ معروفةٍ أخرى تواجدت داخل سجون الملك.

ولما ألقي القبض ثانية على الجنود، أعدموا وأرسل الاخوة بوريكات إلى السجن-المقبرة تازمامارت الذي لن ينفلتوا منه إلا في دجنبر من سنة 1991. وأما عن الحسين

المانوزي. فليس هناك من خبر. سوف تشير مصادر بوليسية إلى وجوده بالقيادة العليا للدرك الملكي بالرباط من سنة 1975 إلى سنة 1981. وكان إفراغ سجن تازمامارت نهاية سنة 1991 قد ولد الأمل من جديد عند أقربائه : فقد تحدثت مصادر شبه رسمية عن قرب إطلاق سراحه. ثم لاشيء.

وفي مارس من سنة 1998، وبعد تعيين حكومة عبد الرحمن اليوسفي، وعدت "مصادر مرخص لها" بإطلاق سراحه عما قريب. ويوم 15 أكتوبر ظهر اسمه ضمن لائحة للمختفين صُرح بأنهم قد توفوا. إنه اسمٌ أصبح رقماً مجهولا. بدون جثة وبدون قبر. وكما هو شأن المهدي بن بركة، فإن آثاره سوف تختفي مع شيخوخة الذين عُذبوا في عهد الحسن الثاني.

خاتمة

عدة مرات، كان الصحافي الذي يترجم لي كلام سيدي حمو يقف ليهدئ زوجة مرزوق. جرى الحوار داخل منزل، بعيدا عن أنظار المتطفلين. ولكنه دام أزيد من الساعة الواحدة فأخذ يجلب الجيران الذين حيرهم أمر وجودنا. كان الزوار غير المنتظرين، إما يستفسرون عن الأخبار، وإما يطلبون خدمةً ما؛ تضاعف عددُهم. وكانت إشاراتهم المستفسرة تَعبُر في كل مرة فتحةَ الباب. تزايدت عصبيةُ زوجة مرزوق. بدأ الصحافي يجد صعوبة في تهدئتها. وأما سيدي حمو فواصل حكايته غير مكترث بشيء. وأما مرزوق، وهو الثوري السابق بكلميمة، والذي يستضيفُ اجتماعَنا هذا في بيته، فإنه مدينٌ بحياته لزوجته. فخلال أربع عشرة سنة من السجن الإرادي، استطاعت أن تحافظ على سرٍّ كانت حتى بناتُها تجهلنه. وتتذكر إحداهن بكل بساطة أن أمها كانت تغسل الملابسَ خلال الليل، وأن خبزةً واحدةً كانت تختفي بانتظام من الفرن.

فكانت أمها تشرح لها الأمر قائلة:

— إنها خُبزَةُ المتسول.

عندما عاد مرزوق إلى سطح الأرض سنة 1987، أنجب فتاةً ثالثة سماها حياة.

بعد أن روى سيدي حمو تعطشي وفضولي خلال اللقاءات الثلاث الطويلة، ودعني ورحل إلى الرباط يوم 31 غشت من سنة 1996، وقال لي:

— في المرة المقبلة، زُرني في تنغير. إنني أسكن منطقةً يحبها السياح كثيرا لأن بها الكثير من الأشياء التي يجب اكتشافها.

انتبهت إلى نبرة الاستهزاء التي تتخلل دعوتَه. غير أنه لم تكن هناك من مرة مقبلة. فقد توفي سيدي حمو بعد ثلاثة أيام من ذلك، يوم ثالث شتنبر من سنة 1996. كان لا يفارق عصاه وجلبابه، إذ كان يُعَبر بهما عن إحساس عميق بالإهمال. عندما علمت بوفاته، تذكرت ما كان يقوله عنه، سنة 1973، سكان الأطلس :

— إنه يوجد في كل مكان، ولا يوجد في أي مكان.

بعد انصرام ربع قرن على مرور هؤلاء الثوار من هذه الربوع الأطلسية، وجدتني أقتفي مسارهم ثانية. كنت أجهل ما الذي سوف أكتشفه، فاستسلمت لمفاجآت مظهر المنطقة المتواضع البسيط. كان البؤس والكآبة لا يزالان هما نفسهما بدون شك كما كانا في السابق. منذ ذلك الحين، خرب التصحر واحات النخيل التي كانت تحيط في السابق بالدواوير. وأصبحت اليوم تلال تتغير حيث كانت تقفز الغزلان. وهي الطريدة التي كان يفضلها في الماضي موحى أوالحاج. عارية جافة. ولكن هناك مع ذلك تقدمٌ ملحوظ : أنشأت منظمة غير حكومية ألمانية خطا كهربائيا يمتد حتى أميلاجو. هناك عزاء آخر، إن صح أنه فعلا عزاء، وهو أن المنطقة أصبحت القِبلة المفضلة لهُواة المشي في الصحراء وسباق السيارات.

كيف يمكن للمرء أن يفكر دون أن ينتابه الرعب بأن هذه المناطق الخلابة التي تبهر السياح، كانت مسرحَ مأساة سالت فيها دماء ودموع كثيرة؟ إن مرور الزمن الذي لا ينفتح على الذكرى، يكشف حقيقة لم تتغير. إنه شاهدٌ صامت على المأساة التي وقعت هاهنا. في بعض الأماكن، تظهر آثار القتال على حيطان بعض المنازل. وتبدو معنوياتُ الناجين الذين ألتَقِي بهم داخل هذه المنازل معنوياتٍ سالمة. فقد عُذبوا وحرموا من حريتهم وانتُزعت منهم ممتلكاتهم، ولكنهم يتبنَّون أعمالَهم الماضية بفخرٍ ويمدحون الشهداء الذين اختفوا مدحا كثيراً.

ومع ذلك، فإن استقبالَهم مهما كان حاراً، لا يمكن أن يخفي الحقيقة المرعبة. إن مثالهم الأعلى قد ضاع وسط رجة عالَم تصنعه واقعيةٌ سياسية لها نبرة الاعتراف بالعجز. إنها أرواحٌ متقززة تنظر نظرةً مرعوبة إلى أعداء الأمس وهم يتبادلون أحاديث ملساء منافقة مع أولئك بالذات الذين كانوا يناشدونهم قديما القيامَ بالكفاح المسلح. اختلطت عليهم الأمور فلم يعودوا يفهمون شيئا مما يجري سوى أن هذا الغرام سوف يمدد طويلا عمر التهميش الذي يعيشونه.

إن مسارات الثورة قد تاهت في اللامبالاة، حاملة معها الذكرى الرهيبة لكفاح يحلم الكثيرون في سرهم أن يعود ثانية في أجواء أرحم. عند الحديث عن محمود، تبتل أعينهم وتختنق أصواتهم. فيصبح لمأساة بؤسهم المخبأة فجأة وجهٌ: إنه وجه إطار سياسي. كان إضافة إلى هذا مهندسا ينتظره مستقبلٌ زاهر. مهندس تقاسم معهم حياتهم لدرجة أنه وهب حياته لخدمة تحريرهم. إنهم في حدادِ شجاع نبيل. حدادٌ لن يشعروا به أبدا تجاه قائد سياسي آخر.

لتُعطَ الكلمة لذاكرة الماضي، وسوف ترون أن هذه الذاكرة لم تتوقف عن غزو واقع الزمن الحاضر.

السبت 7-8-71

الأخ محمد، تحية طيبة وبعد،

أود الجواب على رسالتك المؤرخة ب 21-7-71 بتفصيل، وحتى تدرك جوابي فإنني أبدأ بإعادة كتابة نص رسالتك:

" 11-7-71.

1- "الماتسي سيبقى بالاتصال معكم بالعناوين التي تراسلونها."

2- " يظهر أن العمل يمشي ببطء، رغم ما تتطلبه المرحلة من العكس".

3- " بن موسى لا علاقة له بالمساوي جغرافيا وقبليا وعائليا. أتخوف من أنا يتغيب في عطلة ويضيع الوقت كله".

4- " عبد السلام والتراخي في الاتصال معه. وأنتم تعرفون أن ربط الاتصال على أقل تقدير ليس مجرد ضرورة بل إن لم يقع يمكن أن ينقلب لكارثة، خصوصا وأن الجانب المادي ملح والجانب النفسي".

5- " كان بودي أن يحصل في أقرب وقت من أجل دراسة خطة الأطلس معه والحطاب بصفة كاملة. وقضية الرباط وأرفقيو بصفة خاصة. وقد بات من اللازم الأكيد أن هذا التأخير يمكن أن يكون غلطة قاتلة لإمكانية وخطة".

6- "يجب أن تكون الأدوات مهيأة بأقصى ما يكون التنظيم والحزم".

7- " بمجرد رجوعي نقرر في اللائحة التي اخترتموها للتدريب وكذلك الحاج بريبوش. لكن إلى ذلك الوقت يجب فصله حالا على الشيباني حالا".

8- " بمجرد ما يستعد أمر الطوارق بالبوغاز أي بمجرد ما تسمح الظروف بالدخول سيحمل زهير معه الخطة والأدوات من أجل إنجاز مهمة هنالك".

9- " هل من الممكن استعمال شخص خاص بالرباط مثلا ابن أخ الحسين إن كان لا زال كما عرفته. يجب تهيئ جماعة ~~ ~~ تستطيع القيام بعملية مهمة بوجدة كما يجب تأسيس شبكة الاستخبارات تكون مهمتها التقاط كل ما يمر بذلك الإقليم استعدادا لهذه العملية نفسها".

10- " إن تركت على النظام ينعم باسترجاع أنفاسه وبناء جهازه المحتل والمنهار حاليا سيكون غلطة لا مثيل لها. لذا فالمطلوب عدم ضياع الوقت".

11- " ومن جهتي فهناك آفاقا مهمة تتطلب التفرغ ومعنى هذا أن تكفونا عن استشارتي حتى في الجزئيات..."

12- " يجب استغلال موقف الجزائر إلى أبعد مدى في النقاش مع الأطر الجزائرية. بمجرد رجوعي سأعمل على لقاء الأستاذ مجيد مزيان".

13- " يجب الحرص على (!) كل واحد إلا بما يهمه فقط والكف عن استعمال محكمة الثقة مكان محكمة التنظيم من أجل إشاعة التفاؤل فقط".

2

أعتقد أن هذه الرسالة، والتي لم أتسلمها إلا يوم ١٣-٤-٧١ أي عندما كنت غائبا، بها من الصيغة والمضمون ما يتطلب تحديد عددا من المواضيع بوضوح لإزالة كل لبس. وهذا جوابي على نقاطها من ١ إلى ٨ أؤديه بوفاء للمبادئ التي تجمعنا :

١- إن الاتصال مع حاتمي، في غيابك، لا يحل المواضيع التنظيمية هنا، هذا منذ أشهر، طلبنا بعقد موعد جديد مع عبد السلام الذي جاء في رسالتي لك والمؤرخة يوم ١٢-٣-٧١، ولكن هذا الطلب بدون جواب. ومعنى هذا أنه لم يتم لحد الآن ما سبق وأن كررناه في أحاديثنا بخصوص إقامة جماعة بباريس تتسلم تلك العلاقات مع المغرب وذلك كخطوة نحو خروجك من فرنسا عند بداية العمل، وبذلك تتعطل الأشغال إنتظارا لمجيئك لباريس حتى تمارس مهامها بنفسك.

٢- إن العمل يمشي فعلا ببطء، رغم ما تتطلبه المرحلة من العكس. وذلك ليس هنا فقط ولكن أيضا في فرنسا وغيرها. وإن ذلك راجع لشكل تنظيمنا؟ أما من جانبنا فسأتعرض إلى هذه النقطة في موضوع بن مرسي وعبد السلام، وأما من جانب التنظيم بصفة عامة فإن العمل يمشي ببطء في الظروف العادية، بل كثيرا ما يتعثر، فكيف له أن يمشي بالسرعة التي تتطلبها الأحداث العارضة. إن الحقيقة المرة هي أننا لا نستطيع - ما دمنا على شكلنا الحالي - أن نتحرك بسرعة الأحداث ونستفيد من الهزات التي يعيشها مجتمعنا منذ ٦٥.

٣- في موضوع بن مرسي: لم يكن عندي عنوانه كاملا كما سطرت إلى هنا في ما يخص عنوان بعثته لي مرتين بالعنوان الذي طلبته منك، وكان في المرة الأولى غير واضح وناقص. وبجهود توصلت به كاملا أحد الإخوان ليبعثه إليه وكان ذلك يوم ٢٨-٦. وبعد يومين أعلن عن الكوليرا بالمغرب، فأغلقت الحدود وطلبت وقف التلقيح لكل من يغادر الجزائر إلى المغرب. فاستغرق الأخ المذكور مدة طويلة ليكون جاهزا للسفر يوم ٢٥-٧. وليس هذا البطء راجعا إليه وإنما إلى عوامل إدارية وقرارات متخذة من طرف الدولتين. [في هذه الأثناء، لأن محمد غائبا في فرنسا وكنا ننتظر رجوع عمه حماد العربي كان غائبا وهو الذي كلف بالإتصال بوسيلة للحصار من يوسف عن محمد كما أن الاجتماع وهو آخر من تركهم السيد لا يتعامل معهم، ذهب في جولة كبرى بعض المدن ولم أعلم بذلك إلا بعد غيابه، ولم يرجع من رحلته إلا يوم ١٥-٧.)

٤- في هذه الأثناء، أي عندما كنت أنتظر أن يسافر الأخ إلى بن مرسي، جاءت رسالتك تقترح لنا فيها موعدا مع عبد السلام ليومي ١٠ و١١-٧، ولم تصل رسالتك إلا يوم ٦-٧، فكان يوم ١٥-٧ لم يعد ممكنا الاتصال ولم يبق إلا يوم ١١-٧، في هذه الأثناء وصل محمد والتحق الشباني

ولابد وإ نقطعت إمكانيتهم، أي لقد إنقطعت علاقتهم بالداخل وفقدنا من يساعدنا على عبور الحدود، كما فقدت إمكانية المراسل إلى عبد السلام، لذلك قررت التخلي عن الإتصال بين موسى سوقتنا والإتصال مع عبد السلام نظرا للأهمية هذا الإتصال، ونظرا لأنني لم أعد أتوفر إلا على مراسل واحد لذلك بعثت هذا الأخ يوم ٩-٧ مزودا بالجواز والنقود والمعلومات لتأجيل قدوم عبد السلام لغاية ما يعلمه السيد هذا الموضوع - ولهذا السبب أخبرتكم بدخول الشيباني وابنيه (وكنت أنوي تأخيرهم وعبد السلام بمدة أسبوعين. هذا ما بلغته للمراسل). إنه غير صحيح أنه تتوفر لنا إمكانية أخرى دون هؤلاء، لعبر الحدود. والسيد يعرف ذلك.

ويوم ١٥-٧- أقفلت الحدود، وبعد هذا التاريخ أصبحت منطقة وجدة منطقة لوضعية خاصة، من حظر التجول وتبين لنا أن طرقات المغرب أصبحت ممتلئة بالباراجات، وصاحبنا المراسل لا يتوفر على ورقة تعريف مغربية وليست إقامته بالجزائر عادية، فرجع من الحدود وقررت عدم بعثه في تلك الظروف وطلبت منك يوم ١٤-٧-١٠ أن تجدد لنا الموعد. لذلك وجهت هذا الأخ يوم ١٦-٧ لعند بنموسى، في إنتظار إمكانية جديدة للإتصال بعبد السلام، ونظرا للرض تأشيرة الخروج من البلد؟ وحجز جواز السفر لكل المار ونية إلى المغرب، من الجزائر، فقد ظل صاحبنا هنا ولم يذهب في مهمته إلا أخيرا حيث ذهب ليعبر الحدود بطريقة سرية. (كان هذا في نهاية يوليوز، يوم ٢٧).

نظرا لكل هذا فإنني أستغرب لعبارة "التراخي في الإتصال" مع عبد السلام، وأرفضها لغلطنا وصعبنا. إنني كنت جد حازما على أن ندخل تعديلا على مخططنا هذا وطلبت ~~الإتصال~~ لنتصل معك تيليفونيا مرارا من ألمانيا والسيد وبقيت أنتظر معتقدا أنك موجود منذ يوم ١٥-٧ في الشرق كما جاء في إحدى رسائلك. حقيقة أن عدم الإتصال قد ينقلب إلى كارثة أخطر مما يمكن أن نتقدر أبعادها حاليا، إن ذلك ليس خافيا علي لذلك حاولت الإتصال بك مباشرة للإتفاق معك على خطة جديدة بالنسبة لعبد السلام والعمل في الأطلس حتى نكيفه بسرعة تحركنا مع الوضع الناتج عن ١٥-٧... غير أن المساعي كثيرا ما تضيع لأن أحد الإخوان أو بعضهم يعتبرونها غير جديرة بالإهتمام نظرا لعدد من الإعتبارات نحن في غنى عن ذكرها لأنها لا تبرر شيئا.

5- إنني صدرك كما قلت لضرورة الإتصال مع عبد السلام لذلك طلبت منك تجديد الموعد. أما الإمكانية التي تتحدث عنها بعد فقدان إمكانية الشيباني وأبنائه، فذلك لا وجود له، وقد إنتظرت مدة ١٥ أيام قبل أن أحرك أبناء الشيباني من جديد وهم الآن في مهمة استطلاعية وربط الخيط.

6- إنك تعرف "الأدوات" المهيأة: فبالنسبة للرفاق الذين رحلوا من المغرب بعد الإعتقالات فإنهم مثال في الإنضباط والإمتثال

4

بالإضافة إلى تكوينهم السياسي، فمثلهم مثل رفاقنا الباقون في الشرق،
وهم جميعا مناضلون أسمى من "الأدوات". أما بالنسبة للإخوان
المسلمين وأصحاب العبور (فإذا استثنينا الأخ المعلم والإمام) فإن
الأمر مختلط عندهم ما بين "عمل وطني" و"تهريب"، ما بين طموح
في الوصول ورغبة في الاستفادة... وأحسن وصف أستطيع إطلاقه
عليهم هو "Anarchists". ليس هؤلاء الناس مناضلين مادام
البقشيش هو الرابط، وأسلوب الترضية سائد وعقلية الولاء
كامنة في نخاعهم وما إلى ذلك من رواسب مجتمع الإقطاع... إن كانت
الضرورة تقتضي التعامل مع هؤلاء الإخوان فلذلك حدود، ولم يخدم
بعضهم المنظمة بأمانة واستماتة مادام لم يصبح أحد منا ضابطها.
إنهم في الحقيقة تربة خصبة لتكوين مناضلين أشداء في الميدان المسلح
على أساس أن تنقلب العلاقة معهم رأسا على عقب وأن تتخلى لعقليات
النضالية الحقة... وبعد هذه المجموعات فليس هنالك "أدوات"
أخرى يمكن التحدث عنها الآن. وإن كان هنالك سبب لإثارته هذا
الموضوع فأرجو توضيحه لأنني لم أدركه.

7 - بعدما وصلتنا أن زهير ثم الصياد سيحضرون معهم التفاصيل في موضوع
الأطلس والدار البيضاء والسلاح، لم يحضر الصياد معه شيئا في الموضوع،
أما زهير فلم تغتنم فرصته: إن كان المقصود هو أن يتكلف زهير بمهمة
الدار البيضاء فهو أحسن حل لأننا عوض أن نشتت إمكاناتنا سنجمعها
في عملية الأطلس والريف، وهذا عمل أكثر.

8- لم يجتمع الحاج بالشيباني قط، فهل كان عندكم نبأ خالفنا لذلك؟ في موضوع
التهريب إن لم يتم بسرعة فستضيع الفرصة.

9- إن أخ الحسين مريض بالرأس منذ 6 أشهر، وقد بعث الحسين في طلب
أحد الأشخاص من العاصمة ليكلفه بالاتصال مع حماد ويعتبر الحسين مرضى
بوسيرك وأوفقير في جديد
أما الجماعة التي ستقدم بجهة وحيدة كما تخبر بها فليست هنالك سوى
الجماعة التي تعرفها أي الرفاق الذين قد مروا من الشرق والباقون فيه.
وسنستطيع تعبئة هذه الجماعة إن أنتم أخبرتمونا بنوع المهمة لنقدر
عدد الأفراد ونوعيتهم وما يتطلبه الموضوع من ترتيبات. أصحاب
أما بالنسبة لشبكة الاستخبارات فإننا نسعى بواسطة [illegible] السيد أبي
أبناء الشيباني والمعلم لأن الأخ [illegible] استخبارا منظما إلى حد ما، غير أنه
لا يمكننا أن نحلم بشبكة تكون مهمتها التقاط كل ما يجري في ذلك الإقليم
لأن هذا يتطلب بناء تنظيميا محكما لا يحدث بسرعة وقبل العملية نفسها.
إن فكرة "الضغط على البوليسات" مهم في هذه الحالة كحالات عديدة
أخرى. لأن ما لدينا من إمكانيات، وليس هنا نقط، مهم وما تحقيق
هذا الشعار.

٢

١٠ - حقاً أن النظام تعرض لهزة عنيفة في جهازه وهو يتسابق مع الوقت لتدارك الحالة ، وعدم تحركنا في هذا الوقت بالذات غلطة لا تغتفر بل نحاسب عليها .. بما أنا سنواجه وكيف . إنتظرت مكالمتك على أحر من الجمر في الوقت الذي كنت أرغب أكثر في أي رفيق أن تعطانا الإشارة لننطلق بشكل منظم ومنسق معك . بالنسبة لا ولبقية الرفاق فإن مرور الأحداث الأخيرة أمام أعيننا ونحن ما جزيه عن القيام بواجبنا خلف صدمة أعنف من الصدمة التي تركتها فينا حملة إعتقال رفاقنا بسنة 75 . ومن المؤكد أن المطلوب ليس هو عدم ضياع الوقت فقط ولكن إعادة تقييم الوضع من جديد وبسرعة وتحقيق الخطوات الأولى بسرعة من أجل بداية العمل ، بل يجب أن يبدأ العمل . إن الذي يحول بيننا وبين العمل حالياً هو السلاح والعلاقة مع الداخل . لهذا يجب التعجيل بمهمة ليبيا لتزودنا بالسلاح ، واستقدام الرفاق من الشرق واعطا لنا موعدا جديدا مع عبد السلام .

١١ - إنني من أحرص الناس على تتفرغ لمهمة أهم مما تقوم به في باريس وقد قال لك كعدد من الرفاق في هذا الموضوع مرة مرتين وربما كون من الأوليين الذين يصدون لك تخليك عن الإهتمام بالجزئيات والتفرغ للمهام القيادية الفعلية . لكن من جهتي ومن جهة باقي أطراف التنظيم سنظل مضطرين إلى طرح الجزئيات معك ما دمت مشرفا على كل صغيرة وكبيرة . وإن راجعت المواضيع التي طرحتها عليك بجزئياتها فسترى أنها مرتبطة بك .

١٢ - لقد كاتبتك في هذا الموضوع في الرسالة السابقة .

١٣ - أرجو أن تشير بوضوح إلى العناصر أو المهمات التي استعملت فيها " سمة الثقة مكان مهمة التنظيم من أجل إشاعة التفاؤل فقط " حتى يتضح لي ذلك . أما في موضوع التفاؤل فإنني لم ولن أعاتب أحدا إلا بما أنا متشبعا به ، وكلما أعمل هو أنني أنفي جوانب الضعف والنقصان عندنا ولا أشير إلا الجوانب الموجبة ، أو أتحدث عن الثورة كتحليل ليفتح إلا أنما إذا كان المقصود هو تعاملي مع عبد الله فذلك من باب الإستثناء حتى أستفيد من معلوماته وأتخذ قراري بناءا عن معلومات مسبقة وليس عن جهل .

أغتنم فرصة الرد على هذه الرسالة لأثير عددا من المواضيع كنت دائما أرغب في مناقشتها معك سابقا في توضيح جوانب أراها من النواقص العالقة تنظيميا ونظريا أسلوبا وتعامل .
إن أحداث ١٠ - ٦ وما نتج عنها من وضع ناضج لخوض معركة الإنتفاضة المسلحة ، وعجز من أخذ زمام المبادرة والاستفادة من عجز الحكم ليست هي أول مرة نقف فيها متفرجين على الأحداث التي تهز المغرب ... إن عجزنا في تحرك راجع لمشكل تنظيمنا :

- غياب القيادة المركزية الجماعية التي تعطي أضعاف ما يمكن أن تعطيه قيادة شخص واحد مهما بلغت عبقريته وطاقته على العمل الذاتي المنتج. وهذا الشكل من القيادة للحركة السياسية أو القيادة الجماعية هو الشكل الصحيح والعملي وما عداه إنما هو مخالف لسير التطور والتاريخ ومصلحة الشعب.

إن المناضلين مختلف ميولهم يطالبون بتحقيق هذه الخطوة وقد نضجت الظروف لتحقيقها في أقرب وقت بشكل منظم ومع التزام وليس بتوزيع المهام والمسؤوليات والقذف بالمسيرين من أعلى الشيء الذي أظهر من خطورته والمشاكل التي يخلقها. وما تخبط اليسار المغربي في تناقضاته إلا نتيجة مثل هذه الأساليب التي تخلق نوعا من الزعامات الفارغة والمتسلطة، لم أقصد تطبيق أسلوب الانتخاب الديمقراطي، إذ لم تقم الثورة بالانتخابات كما قال تروتسكي، وإنما أقصد بناء جهاز قيادي مركزي مسؤول على التخطيط والتسيير والتوجيه من الكفاءات المناضلة المتوفرة.

- غياب البرنامج السياسي الذي يعرف بأهداف الحركة ويشكل بديلا مقنعا لبرنامج ~~يوجه المناضلين~~ الحكم الإقطاعي القائم وبديلا أيضا لبرامج الأحزاب السياسية المعارضة التي لم تتطور مع الأحداث. برنامج يوجه المناضلين ويوزع مادة التحرك أو عاملا لإثارة الكادحين والطبقة المتوسطة ضد الحكم. وموقف قيادتنا المهدي بن بركة من المطالبة بالبرنامج هو "الاختيار الثوري" موقف غير صحيح. إن رفض الطلب بالبرنامج والسكوت عنه لا يحل شيئا وإنما يغيب أمل السواد الأعظم من الإطارات ويترك الحركة ناقصة من أداة قوية لمواجهة الحكم. ولا يمكن الاعتماد فقط على الشعور أو السخط والاستياء ولا حتى الإرادة إذ أن هذا كله لا يشكل مضمونا مبدئيا أو شعارا، إنما تحديد المبادئ في برنامج تتجند الحركة بتطبيقه كبديل، وتمشي بوعدها. هو سبب استمرار السخط والتضحية ضد الحكم للتعجيل بنهايته.

- غياب التنظيم الثوري الصلب بجناحيه السياسي والعسكري:
لا يمكن لمن يصادق نفسه معنا ويصادق الناس أن يدعي أن ما لدينا هو تنظيما سياسيا ثوريا صلبا. فإن تنظيمنا ما هو بسياسي ثوري ولا هو بصلب، ليس بتنظيم سياسي ثوري، لأن لهذه العبارة مدلول طبقي وما ينتج عنه من إيديولوجية الطبقة الكادحة أي شكل تنظيمي طليعتها التي تحقق التوعية السياسية وتعبئة الطبقة وتحقيق استيلاء السلطة بالانتفاضة المسلحة أو الحرب الشعبية.

أما الجناح العسكري فإن اعتقالات 70 تبين أن أغلبية المعتقلين من الفلاحين وهذه نسبة تعكس الوضع الاقتصادي والاجتماعي الصحيح للبلاد وتجعل من اختيار الحرب الشعبية الطويلة النفس

اختيارا صحيحا، مع أن الشكل الذي تم عليه الإخوان في البادية ظهر بسبب محاضر الشرطة وجلسات المحكمة على أنه فيه إطراف، ويدل أن المسؤولين كانوا لا يدركون شكل العمل المطلوب منهم تحقيقه. أما ما تبقى بعد الاستقالات نجده من المناضلين لا يجد ورائهم وسط الجماهير المغربية، وهو الموجود بالخارج، والمبدأ الأساسي لحرب التحرير الشعبية يطعن في ذلك. وهذا الشرط يتوفر حاليا وتنظيميا في الأطلس، هذا هو الأمل الذي يبرق دوما أمامنا ويبقى الإمكانية الوحيدة التي تتوفر مبدئيا على الشروط الضرورية، والأمل هو أن لا يكون هذا الجزء من تنظيمنا "كورة ماء صابون" هو أيضا كما اتضح بالنسبة للكثير من "الإمكانيات".

- غياب استراتيجية سياسية وعسكرية واضحة المعالم: إن ما يربطنا هو اتفاق عام وهو بذلك غامض. إن مجرد إثارة هذا الموضوع مع المناضل أو المسؤول من بيننا تثير جدالا حادا لاختلاف المفاهيم. وليس الغرض هو توحيد المفاهيم فحسب وإنما تزويد الجناح السياسي والجناح العسكري على الخصوص باستراتيجية محددة يلتزم بها الكل ويعمل على تحقيقها، تنظم صفوفنا وتوحدها وتجعل حدا للفوضى الفكرية والتنظيمية وتقطع الطريق عن التصرف الذاتي وتزود المناضلين غدا في ميدان المعركة بخطوط تحركهم.
وفي هذا الصدد فإن الاعتماد على أفراد منعزلين ليقوموا بوضع ما تحتاج إليه الحركة من برامج وتخطيطات متسرعة وأظهر لنا من جملة ما أظهر أن المشروع يكون دائما غير كاف ودون المطلوب، لذلك يجب اعتماد طريقة العمل الجماعي وبشكل منظم منذ الآن. بشرط أن يحول ما يخطط إلى حيز التطبيق وأن لا يلقى به في رف من الرفوف.

أما ما نقوم به اليوم نظرا لواقعنا وأساليبنا فليس من الممكن أن نعتبره بداية العمل الثوري ولا حرب التحرير الشعبية، وإنما هو إشعال نارها، معتبرين أن عملنا هو إثارة الأحداث وتحريك القوة المنظمة والقوية تستغل نتائج العملية لصالح طبقتها، وبالتالي لن تكون هذه القوة من القوة الشعبية ما دامت بعض الشروط لم تتوفر ومنها التغلب على النواقص التي أشرت إليها إلى بعضها. من اللازم تهييء تحقيق هذه الشروط بمجرد ما تنطلق العملية في الجبال. فقط في هذه الحالة يمكن أن نعتبر أن العمل الذي نحن مقبلين عليه هو بمثابة شعل نار الثورة أو حرب التحرير الشعبية، وإلا فلن يكون سوى شعل نار الفتنة وتمكين إحدى الطبقات المستغلة من السيطرة على السلطة. وهذا الاحتمال له حظوظ كثيرة ليحدث. أما متى وإن نجحنا في المحافظة على الاستمرار وهذا واجبنا - وأن نستمر بشكلنا الحالي فإننا نعمل سوى على تعويض حكم فاسد بما قد يكون أفسد منه. لأن حركتنا قائمة على الولاء الشخصي في مختلف مستوياتها بدلا من أن تقوم على الارتباط العقائدي والتنظيمي والاختيار

4

الحي المقنع ، وقائمة على سلسلة من الأساليب القديمة أغلبها من رواسب المجتمع الإقطاعي ، وأنا على إستعداد إلى ذكرها بتفصيل في غير هذا المكان . وإن كنا نلتزم بما يحلو لنا ترديده في مناشيرنا من اعتماد التحليل العلمي فيجب علينا عند تقديرنا لوضع من الأوضاع ووضع خطة من الخطط أن ننطلق من الوقائع لا من الممكن ، غير أن التحليل يبقى عندنا وهم واسطورة وفي أحسن الأحوال حلى تتزين به مركتنا ، ما دمنا نستعمل الصيغ المحفوظة نرددها كما هي ، كباقي المنزلات السماوية ، تكون في أحسن الأحوال قادرة على إبراز أهداف عامة وبصفة تقريبية ، وأخطر من هذا ترك المغالطات تروج بين صفوفنا بل وإثارتها.

لست أحاول هنا احياء مسامعك بنصوص نظرية ، إذ أن مرض "الجملة الثورية" من أكبر المعوائق ، وإنما هي بعض الملاحظات أراها أساسية بل ومنها المبدئية طلبته بإجتماع لطرحها في إطاره بعد إنتهاء مرحلة الشرق وقبل أن نقدم على مرحلة الحقول سنة 69 ، غير أن ذلك لم يحدث ، وأعرضها عليك بكل وضوح مبادا على إقتناعي بأن التنظيم الثوري الحقيقي هو إلى جانب "الإنضباط الحي" و"الطاعة الحديدية" فإنه أيضا متفتح لدرجة تسمح بتنقل الأفكار والإبداع في تيار مزدوج من القمة إلى القاعدة ومن القاعدة إلى القمة وهذه إحدى الضمانات الأولية ليكون التنظيم طليعة فعلية للطبقة الكادحة يعيش واقعها ويعيه في زمنه ويعيش مشاكله . . .

ليس غرضي محاولة للطعن أو النقد الغير المسؤول ، وإنما قصدي إثارة عددا من المتطلبات الضرورية التي لا مجال التي لا مجال لتجنب تحقيقها والتي وعاها جل المناضلين ويطلبون بإلحاح تحقيقها.

وأخيرا فإن إثارتي لكل هذه المواضيع ليس وليد تفاعل نفسي أو عاطفي ، نتيجة أسلوب رسالتك — إذا كنت تقصد بها التوبيخ ، أو إن كنت ترى أني المسؤول على " البطء في العمل " و " التراخي " في ربط دبد تصال " وعدم الحزم والصرامة " — فإني أرفض الرسالة عبارات ومحتوى لأن ليس لكل هذا محل من الواقع والموضوعية ، مع علمي بأن النقد ضرورة تكوينية وتربوية ، ضرورة إصلاح وتقويم . ليس المسؤول هو شخص ، وإنما شكل التنظيم وأسلوبه ، وإنما إخترت إستعمال الفرصة التي تتيحها رسالتك لإثارة هذه المواضيع معك .

أملي أن تتسع من كل ما جاء في هذه الرسالة وتوليها ما تستحق من عناية إذ أنها تحتوي على بعض متطلبات التنظيم الضرورية . كان من الممكن أن تصلك من المغرب أو من أي مكان آخر ، وأن تقول الحقيقة المرة بكل بساطة ووضوح ، بلا لبس وإبهام ، طريقة من أجود

9

طرق التوضيح وحل المشاكل وإنني مقتنع بأنها من الأساليب الحيوية لمناضلة المستعمرين والمنافقين وجماهير الحركة تبيين جدية الحركة وصدق أقوالها.

كتبت نسخة من هذه الرسالة قبل ١٥ أيام سلمتها مغلقة إلى عبد الرحمان على أساس أن إبراهيم سيحملها لك. غير أن إبراهيم سافر دون أخذها. وظلت الرسالة في العاصمة في إنتظار أن يأخذها بناني معه إن كان سيعبر عن باريس. ونظرا لجهلي هل أخذها بناني معه أم لا، وحتى أغتنم فرصة سفر الأخ عبد الرحمان فإنني أعدت كتابتها.

جرد الأحداث

1952

نونبر: ألقى الملك محمد الخامس خطاب العرش ونادى "بالتحرير السياسي الشامل والفوري للمغرب".
دجنبر: اضطرابات في المدن. اعتقال زعماء وطنيين، من بينهم المهدي بنبركة.

1953

20 غشت: خلعُ محمد الخامس، ونفيه هو وأسرته إلى جزيرة كورسيكا أولا، ثم إلى مدغشقر. تنصيبُ ابن عرفة سلطانا على المغرب.

1954

5 أكتوبر: إطلاق سراح معتقلين وطنيين، من بينهم بنبركة، كانوا قد اعتُقلوا منذ سنتين.
9 دجنبر: قبول حزب الاستقلال التفاوض مع فرنسا، ولكنه طالب بعودة محمد الخامس.
26 دجنبر: قبول محمد الخامس لخطة التفاوض الفرنسية.

1955

14 يوليوز: انفجار قنبلة بالسوق المركزي بالدار البيضاء وملتقى الطرق بمرس السلطان.
غشت: اجتماع حزب الاستقلال بمدريد.
20 غشت: مذابح بوادي زم. بداية عمل جيش التحرير الوطني بالريف.
22-27 غشت: مناظرة إيكس ليبان بين فرنسا والوطنيين المغاربة، من بينهم المهدي بنبركة.
12 شتنبر: وصول محمد الخامس إلى فرنسا.
فاتح أكتوبر: عزل ابن عرفة.

6 نونبر: افتتاح المفاوضات بسيل سان كلو بين بعثة مغربية والحكومة الفرنسية.
16 نونبر: رجوع محمد الخامس إلى المغرب.
20 نونبر: حصيلة ضحايا 6000 عملية ما بين سنتي 1955 و1956: 710 قتيل، من بينهم 103 أوروبي، و2000 جريح، من بينهم 460 أوروبي. سرقة أسلحة من ترسانات أمريكية.
2-4 دجنبر: أول مؤتمر استثنائي لحزب الاستقلال الذي أُحدث سنة 1944، طالب بتنصيب هيئة استشارية مغربية إلى جانب الملك بعد الاستقلال.
7 دجنبر: أول حكومة مغربية يرأسها السيد البكاي، تضم 21 عضوا من بينهم 10 من حزب الاستقلال، و6 من الحزب الديمقراطي للاستقلال للحسن الوزاني، و 6 أعضاء مستقلين.

1956

يناير: اجتماع القيادة الجزائرية-المغربية لجيش التحرير الوطني بمدريد.
2 مارس: توقيع الإعلان المشترك للاستقلال بمدريد والذي يلغي معاهدة الحماية.
7 أبريل: الإعلان المغربي الأسباني الذي يلغي مقتضيات الحماية على المنطقة الشمالية. سفر محمد الخامس إلى أسبانيا.
ماي: نزول جيش التحرير الوطني إلى الجنوب.
14 ماي: إنشاء القوات المسلحة الملكية التي ضمت جزءً من جيش التحرير الوطني.
يونيو: اغتيال عباس مسعدي في الريف، وهو وطني مناهض لحزب الاستقلال. نُسبت العملية إلى حزب الاستقلال.
يوليوز: تراجع جيش التحرير الوطني منطقة الجنوب أمام زحف القوات الفرنسية.
غشت: اضطرابات في الأطلس المتوسط والريف مناهضةً لحزب الاستقلال. استقالَ القايد اليوسي، وهو أحد مستشاري الملك الثلاثة وبرتبة وزير، ثم جمع في قصبة تادلة 1400 رجل من رجال القايد عدي أوبيهي، عامل إقليم تافيلالت، الذي انشق عن الحكومة. لم يحسم محمد الخامس في الأمر ووسع مجالات نفوذه. اعتُقل قادة الثوار.
23 أكتوبر: تحويل اتجاه الطائرة التي كانت تُقل بنبلا وخمسة من مرافقيه من رؤساء المقاومة الجزائرية، كانوا قادمين من المغرب إلى تونس.
27 أكتوبر: تشكيل حكومة البكاي الثانية بعد الأحداث الخطيرة التي عرفتها مدينة مكناس. تكونت الحكومة من 17 وزيرا، كلهم من حزب الاستقلال والمستقلين.
7 نونبر: إنشاء لجنة استشارية بظهير، يعينها الملك باقتراح من الأحزاب السياسية والهيئات والتجمعات المهنية التي انتُخب المهدي بنبركة رئيسا لها.
20 دجنبر: قضية قناة السويس. فقد أنزلت القوات الفرنسية والبريطانية بقناة

الســـويس عندما أعلن الرئيس المصري جمال عبد الناصر تأميمها. ثم أُوقف زحفُهُما بعد تدخل سياسي-دبلوماسي من قِبَل الروس والأمريكان.

1957

16 أبريـــل: اســـتقالة 9 وزراء من الاســـتقلاليين نجمت عنها أزمـــة وزارية. ثم حُلت الحكومة.

الصيف: أعلن بنبركة انطلاق أشغال طريق الوحدة.

9 يوليوز: المولى الحسن يصبح وليا للعهد بموجب ظهير ملكي.

23 نونبر: استولى 1500 رجل من رجال جيش التحرير الوطني بقيادة الكولونيل بن حمو، وقبيلة آيت باعمران، على مواقع إسبانية ودخلوا ثغر إفني.

دجنبر: رُسُـــو بوارج بحرية حربية إسبانية قرب أغادير، ووصول إمدادات عسكرية قادمة من جزر الكناري إلى الثغر، وقصف إسباني لجيش التحرير الوطني.

1958

يناير: معارك بإفني بين جيش التحرير الوطني والقوات الأسبانية، وضرب عنيف لجيش التحرير الوطني، والقوات الفرنسية تدخل درعة وعطار بموريتانية.

18 فبرايـــر: مواجهة بين 3000 رجل من رجال جيش التحرير الوطني منطقة الجنوب والقوات الفرنســـية بفور ترانكي، قرب بير موغراين، والقوتان الفرنســـية والأســـبانية تتحالفان وتشنان عملية المزلاج، التي دفعت في ظرف أسبوع واحد جيشَ التحرير إلى التراجع.

28 فبراير: حملة علال الفاسي من أجل إلحاق الصحراء المغربية بالتراب المغربي.

مارس: حاصرت كتائبٌ تابعة للقوات المسلحة الملكية إفني وشكلت حاجزا بين جيش التحرير الوطني والجيوش الأسبانية.

7 أبريل: أزمة حكومية، واستقالة وزراء حزب الاستقلال، وحل حكومة البكاي الثانية.

10 أبريل: اســـتولت الجيوش المغربية، بقيادة الكومندان أوفقير، وهو مقربٌ من الملك، على إقليم طرفاية الذي كان حتى ذلك العهد تابعا للأسبان.

27 أبريل: مؤتمر الأحزاب الوطنية للدول المغاربية بطنجة.

8 ماي: الميثاق الملكي حول الحريات العامة، والوعد بالدستور.

12 ماي:تشكيل حكومة أغلبية أعضائها من حزب الاستقلال يرأسها السيد بلافريج.

غشت: عمر بنجلون، كاتب عام للاتحاد الوطني لطلبة المغرب.

20 غشـــت: خطاب محمد البصري أمام محمد الخامس باســـم المقاومة، داخل بناية المشور بالرباط.

غشت: إجلاء آخر المواقع الفرنسية بالجنوب.
شتنبر: انتفاضة الريف أمام هيمنة حزب الاستقلال. بداية محاكمة عدي أوبيهي والقايد لحسن اليوسي.
8 أكتوبر: تقديم استقالة عبد الرحيم بوعبيد، وزير الاقتصاد ونائب رئيس المجلس، مما عجل بظهور أزمة وزارية دامت شهرين اثنين.
أكتوبر: البيان الأول للحركة الشعبية بزعامة أحرضان، عامل مدينة الرباط، وآخرين. التحق بعض القياد بالجبل وأعلنوا صراحة مناهضتهم لحزب الاستقلال.
8 نونبر: انطلاق أشغال الجمع الاستشاري بخطابين، واحد لمحمد الخامس والآخر للمهدي بنبركة.
21 نونبر: عمليات اغتيال بالخميسات (قتيل واحد و48 جريح) وبالشرق (6 قتلى وأزيد من 60 جريحا)، مواجهات في تازة بين المنشقين والقوات المسلحة. اتهم حزبُ الاستقلال الحركةَ الشعبية.
22-25 نونبر: صدور ظهير الحريات العامة. استقال عبد الرحيم بوعبيد من حكومة بلافريج.
6 دجنبر: استقالة حكومة بلافريج.
23 دجنبر: تشكيل حكومة عبد الرحيم بوعبيد، وتضم 14 عضوا. نزاعات داخل حزب الاستقلال. الحزب الشيوعي المغربي ويسار حزب الاستقلال يناديان بملكية دستورية على وجه الاستعجال.
27 دجنبر: محاكمة عدي أوبيهي (حُكم عليه بالإعدام، ثم عُفي عنه ولكنه سيموت داخل السجن).

1959

8 يناير: استقبل محمد الخامس بعثة من قبائل الريف. استمرت الاضطرابات في الريف وقمعتها القوات المسلحة قمعا عنيفا.
يناير: أحداث ريو دو أورو بين القوات المسلحة الملكية وقبائل الركيبات: إرسال التعزيزات.
يناير: مشاكل داخل حزب الاستقلال: وجّه المهدي بنبركة خطابا إلى اللجنة التنفيذية زاد الوضع تأزما. طرَدَ علال الفاسي سبعةَ مسيرين يساريين من الحزب، من بينهم المهدي بنبركة وعبد الرحيم بوعبيد.
19 يناير: تعيين علال الفاسي رئيسا للمجلس الدستوري.
فاتح ماي: الاتحاد المغربي (عضو في يسار حزب الاستقلال) للشغل يضم 700000

منخرط. ففرض نفسه على أنه أهم قوة سياسية نقابية في البلد.
4 يونيو: أزمة داخل الحكومة. ثم قَدَّمت الحكومةُ استقالتها. ونادى حزب الاستقلال بالدستور.
غشت: المؤتمر الرابع للاتحاد الوطني لطلبة المغرب بأغادير: طالب بإجلاء القوات الفرنسية والأمريكية. اختطاف جيش التحرير الوطني لنائب قنصل فرنسا ببوعرفة. احتلال مواقع عسكرية بحسي زرزور.
6-21 شتنبر: الانشقاق النهائي لحزب الاستقلال بعد أزمة حادة دامت 18 شهرا. وتشكيل الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.
16 شتنبر: إطلاق سراح الكولونيل ميلودي، رئيس جيش التحرير الوطني منطقة زمور الذي كان قد التحق بالجبل يوم 19 أكتوبر احتجاجا على اعتقال أحرضان والدكتور الخطيب.
22 شتنبر: تعليق المحكمة الابتدائية بالدار البيضاء للحزب الشيوعي المغربي.
11 نونبر: المؤتمر الأول للاتحاد الوطني للقوات الشعبية بالدار البيضاء.
16 نونبر: اغتيال عبد العزيز بن ادريس، أحد قادة حزب الاستقلال.
28-30 نونبر: أزمة وزارية: طلب حزب الاستقلال حل حكومة عبد الله إبراهيم.
15 دجنبر: اعتقال محمد البصري وعبد الرحمن اليوسفي بالدار البيضاء بتهمة "التآمر على ولي العهد، والمس بشخص الملك، والتحريض على المس بالأمن الداخلي للدولة، وأعمال تخل بالنظام العام، والمس بأمن الدولة". فقد طالبا بأن تكون الحكومة مسؤولة أمام الشعب ونددا بتصرفات قوات الأمن. أوقفت جريدة التحرير التي كان الأول مديرها والثاني رئيس تحريرها. رفض عبد الرحيم بوعبيد أن يستقيل.
25 دجنبر: إدانة محمد البصري، وإطلاق سراح عبد الرحمن اليوسفي مؤقتا يوم 30. دخل المهدي بنبركة في أول منفى له دام سنتين اثنتين. سافر عبد الرحيم بوعبيد إلى القاهرة. التقى هناك مسيري جيش التحرير الوطني الجزائري.

1960

9 فبراير: حل الحزب الشيوعي المغربي عن طريق القضاء.
12 فبراير: توقيع اتفاقية إجلاء القواعد العسكرية الأمريكية.
22 فبراير: اعتقالات جديدة داخل صفوف الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. استقالة مستشار العرش، الفقيه بلعربي العلوي، تعبيرا عن احتجاجه. إضراب عام للاتحاد المغربي للشغل.
29 فبراير: دمر زلزال أغادير المدينة: العديد من الضحايا.
مارس: إنشاء الاتحاد العام للشغالين بالمغرب، وهو نقابة تابعة لحزب الاستقلال، رغم

احتجاجات الاتحاد المغربي للشغل والحكومة. حل جيش التحرير الوطني.

12-18 مارس: الفنار، تابع لرضى اكديرة، صديق ولي العهد ومستشاره، يهاجم حكومة عبد الله إبراهيم ويؤكد الطابع الملكي للبلاد.

19 مارس: البشير بن التهامي، قايد بني ملال، والقايد السابق بن حمو يلتحقان بالجبال بعد اغتيال عميد شرطة والهجوم على ثلاثة مواقع عسكرية. التحق بالجبل كذلك قائدان ممتازان آخران. اعتُقِلوا بعد شهر واحد. مَثُل أمام المحكمة 81 متهما. بدأت المحاكمة في شهر ماي. حكِمٌ واحد بالإعدام، حُوِّل إلى السجن 15 سنة. انتفاضة قبيلة مسفيوة بنواحي مراكش.

19 أبريل: إلغاء الوضع المؤقت لطنجة التي التحقت بالتراب الوطني.

فاتح ماي: استعراض كبير للاتحاد المغربي للشغل بالدار البيضاء.

8 ماي: هيمنة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية على الانتخابات الأولى لغرفة التجارة.

20 ماي: إلغاء حكومة عبد الله إبراهيم. عُوضت يوم 27 بحكومة يرأسها مباشرة محمد الخامس، نائبه هو مولاي الحسن.

28 ماي: حجز عدد جريدة لوموند (العالم). كان يضم حوارا مع المهدي بنبركة، يتحدث عن "ترميم وقائي". تحدثت مجلة لونوفيل أوبسيرفاتور (الملاحظ الجديد) عن "انقلاب على النظام الملكي".

29 ماي: أول الانتخابات الجماعية والبلدية. نجاح الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في المدن الكبرى. انهزام كبار زعماء الاستقلال.

30 ماي: الأمر بعدم وجود وجه لمحاكمة اليوسفي في قضية دجنبر 1959. إطلاق سراح البصري والعفو عنه يوم 5 يونيو. إطلاق سراح 71 شخصا آخر، وتقليص مدة الحبس بالنسبة إلى 193 سجينا.

18 يونيو- 2يوليوز: ظهير التنظيم الجماعي والبلدي: عارضه الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

12 يوليوز: تعيين أوفقير، الذي أصبح كولونيل، على رأس هيئة الشرطة. وعُين سابقه الغزاوي، على رأس المكتب الشريف للفوسفات.

6 شتنبر: انعقاد المجلس الوطني الاستثنائي للاتحاد الوطني للقوات الشعبية حول موضوع إجلاء الجيوش الأجنبية.

13 أكتوبر: توقيع اتفاقية إجلاء الجيوش الفرنسية ابتداء من 2 مارس 1961.

25 أكتوبر: سلسلة أحداث على الحدود مع الجيوش الفرنسية، مرتبطة بحرب الجزائر.

8 نونبر: اكتشاف مخزون من الأسلحة، الذي لربما كان موجها للاتحاد الوطني للقوات الشعبية، داخل أكياس لوز بميناء الدار البيضاء. اعتقال 60 من رجال المقاومة والاتحاد الوطني للقوات الشعبية. حواجز على الطرق. تزايد المراقبة. منع مغادرة المغرب بدون

إذن. حجـز جرائد الاتحاد الوطني للقوات الشـعبية، واستفسـار زعمائها المتواجدين بالمغرب.
21-23 نونبر: عصيان شعبي بالعرائش: 4 قتلى، والعديد من الجرحى، و300 معتقل.
دجنبر: محاكمة الطليعة، تابع للاتحاد المغربي للشغل.

1961

7 يناير: اغتيال بلحاج بوبو بالدار البيضاء.
26 فبراير: وفاة محمد الخامس بعد إجرائه عملية جراحية.
3 مارس: اعتلاء الحسـن الثاني رسـميا العرش. طلبٌ سـابق لأوانه بإجلاء القواعد الفرنسـية. الإجلاء تم تدريجيا من أبريل إلى شتنبر. حكومة الائتلاف الوطني باستثناء الاتحاد الوطني للقوات الشـعبية. اتفاق مع الجزائر على إرجاع المناطق التابعة للتراب المغربي بعد استقلال الجزائر.
ماي: مساندة المغرب للمجموعة الشعبية للثورة الجزائرية.
2 يونيو: حكومة جديدة يرأسها الحسن الثاني، بمشاركة حزب الاستقلال.
10 يونيو: نداء حزب الاستقلال بإنشاء دستور.
27 يونيو: جدل حول موريتانيا التي يعتبرها المغرب جزء من ترابه، والتي تريدها فرنسا مستقلة.
20 غشت: إنشاء المكتب الوطني للمقاومة.
فاتح أكتوبر: إجلاء آخر قاعدة فرنسية، قاعدة مراكش.
نونبر: مظاهرات من أجل إطلاق سراح بنبلا: مبادرة رسمية من المغرب نحو فرنسا.

1962

17 يناير: مؤتمر حزب الاستقلال.
3 مارس: وقف إطلاق النار بالجزائر.
22 مارس: جمع عام للمجموعة الشـعبية للثورة الجزائرية بالرباط، بعد وصول بنبلا ورفاقه.
25-27 يونيـو: المؤتمر الثاني للاتحاد الوطني للقوات الشـعبية بالدار البيضاء حضره 2000 مشـارك. رجوع بنبركة بهذه المناسـبة. توتر مع الاتحاد المغربي للشغل الذي تشبث باستقلالية العمل النقابي.
شتنبر: إعلان استقلال الجزائر.
7 شتنبر: عمليات تفجير بمطبعة جرائد الاتحاد المغربي للشغل والاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

5 نونبر: انطلاق الحملة الاستفتائية. خُطبٌ راديكالية. تساءَلَ الاتحادُ المغربي للشغل إن كانت الملكية فوق القانون. أطلق حزب الاستقلال، الذي كان لا يزال في الحكومة، برنامج مساواة اقتصادية. لقاءات جماهيرية للاتحاد الوطني للقوات الشعبية الذي يعتبر أن الدستور "ممنوح"، والذي نادى، صحبة الحزب الشيوعي المغربي والاتحاد المغربي للشغل، بالمقاطعة.أيد الفكرةَ حزب الاستقلال والحركة الشعبية والمستقلون. حملة خاصة للحسن الثاني. محاولة اغتيال المهدي بنبركة.
7 دجنبر: مصادقة 3.7 مليون ناخب على الدستور الأول (4.6 ناخب مسجل من بين 6 ملايين ناخب مفترض): 80.10 % صوتوا بنعم.
دجنبر: سفر الملك إلى الجزائر.

1963

4 يناير: غادر الحكومةَ الوزراءُ الثلاثة التابعون لحزب الاستقلال (علال الفاسي وبوستة والدويري) نظرا لخلاف مع رضى اكديرة الذي نُعت "بالحاجب الكبير". انتقادات للحكم المطلق للملك. حكومة جديدة يترأسها الملك، واكديرة وزير الداخلية، وأحرضان وزير الدفاع.
6 فبراير: وفاة عبد الكريم الخطابي بالقاهرة.
مارس: المنشقون الموريتانيون بزعامة فال ولد عمير (وزير دولة) يغادرون المغرب ويلتحقون بموريتانيا.
12 أبريل: إنشاء رضى اكديرة للتحالف، سُمي جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية FDIC، مع الحركة الشعبية والمستقلين الأحرار والحزب الديمقراطي الدستوري.
17 ماي: أولى الانتخابات التشريعية داخل 144 دائرة. من بين 4.8 مليون ناخب مسجل، صوّت 3.4 مليون ناخب، أي بنسبة مشاركة بلغت 78.3% و1.3 مليون ناخب لم يشاركوا. حصلت جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية على 33% من الأصوات المعبر عنها، وفازت بـ69 مقعدا من بين 144، ولكن وزراء الجبهة انهزموا. حصل حزب الاستقلال على 30% من الأصوات وعلى 41 مقعدا، والاتحاد الوطني للقوات الشعبية على 22.3% من الأصوات و28 مقعدا، رغم راديكالية المعركة والتركيز على أهم المدن الكبرى. حصل غير المنتمين سياسيا، المقربون من القصر، على 14.5 من الأصوات وعلى 6 مقاعد. طعن حزبِ الاستقلال في النتائج: اعتُقِل نوابُه و5 من نواب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. أُلغيت 7 مقاعد.
5 يونيو: تعديل وزاري: لم يعد اكديرة وزيرا للداخلية، عوضه عبد الرحمن الخطيب. أحداث حد كورت في منطقة الغرب بين جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية وحزب الاستقلال: قتيلان اثنان و4 جرحى واعتقال 48 شخصا. حُكِم على ممثل جبهة الدفاع

عن المؤسسات الدستورية بالحبس 10 سنوات. وُضعت المنطقة في حالة حصار. اعتقال 5 شخصيات من حزب الاستقلال من بينهم 4 منتخبين من منطقة الغرب. إلغاء الانتخابات التشريعية لعلال الفاسي. 200 لجوء إلى القضاء. 7 قتلى من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. مئات الجرحى. العديد من الاعتقالات. العديد من الدعاوى القضائية المتعلقة بالانتخابات. رفض الدعوى الثانية للحزب الشيوعي المغربي لرفع الحظر عنه.

16 يوليوز: اعتقال حوالي مائة شخصية ومنتخَب من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية عند اجتماعهم بالدار البيضاء بتهمة التآمر. قُطعت الطرق ووسائل الاتصال التي تربط المغرب بالجزائر.

19 يوليوز: قاطعَ اليسارُ الانتخابات الجماعيةَ التي فازت بها جبهةُ الدفاع عن المؤسسات الدستورية، كما كان شأن الانتخابات المهنية الموالية (8 في المجموع، حتى نهاية السنة).

30 يوليوز: المؤتمر الثامن للاتحاد الوطني لطلبة المغرب الذي كان حميد برادة كاتبُه العام في حالة فرار.

غشت: إطلاق سراح 61 معتقلا من آلاف المعتقلين في صفوف الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. بقي 103 معتقلين في السجن. ظهور جرائد الاتحاد الوطني للقوات الشعبية من جديد بعد منعها. فتح الحدود من جديد مع الجزائر.

6 شتنبر: أصبح أوفقير جنرالا.

13 شتنبر-2 نونبر: حرب الرمال مع الجزائر. أحداث على الحدود ناجمة عن مشاكل داخلية (المغرب يتهم الجزائر بمساندة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، والجزائر تتهم المغرب بتشجيع انشقاق آيت احمد في القبايل) وعن مشكل الحدود الذي لم يجد حلا.

18 شتنبر: طالب علال الفاسي بإلغاء الانتخابات قائلا: "مع كل الاحترام الذي علينا أن نعبر عنه اتجاه الملكية، فإن النظام الحالي غير مشروع لأنه مناف للدستور".

8 أكتوبر: غارات مغربية داخل التراب الجزائري.

13 أكتوبر: حصلت جبهة الدفاع عن المؤسسات الديمقراطية على أغلبية واسعة في الغرفة الثانية: 107 مقاعد من بين 140.

18 أكتوبر: هجوم الجيش الجزائري على موقع إيش.

24 أكتوبر: اتفق الطرفان على وساطة منظمة الوحدة الأفريقية. قطع المغرب علاقاته الديبلوماسية مع كوبا واستدعى سفيريه بدمشق والقاهرة.

25 أكتوبر: فتح مسطرة في حق المهدي بنبركة وحميد برادة أمام المحكمة العسكرية بالرباط.

30 أكتوبر: الاتفاق الأول حول وقف إطلاق النار. هجوم الجيش الجزائري على فيكيك ليلا.

2 نونبر: وقف النار النهائي. اتفاقية بين الحسن الثاني وبنبلا بباماكو.
9 نونبر: حُكم على بنبركة بالإعدام غيابيا.وإلغاء انتخابه بالرباط.
13 نونبر: حكومة جديدة برئاسة أحمد باحنيني (للمرة الأولى منذ ثلاث سنوات. أصبح هناك وزير أول). اكديرة وزير الخارجية.
18 نونبر: تولية البرلمان الجديد.
19 نونبر: العفو عن 158 شخصا نُكِّل بهم يوم 27 مارس 1958 وإعادة الاعتبار إليهم.
17 دجنبر: إجلاء آخر القواعد الأمريكية.

1964

10 يناير-مارس: إضراب عام للطلبة. مظاهرات بالثانويات.
فبراير: إعادة ربط العلاقات الديبلوماسية المغربية الجزائرية.
16 مارس: محاكمة 85 متهما من بين 102. 11 حكما بالإعدام من بينها 8 غيابيا. و3 مَثَلوا أمام قفص الاتهام (البصري وعمر بنجلون وميمون الدويري).
12 أبريل: إنشاء اكديرة للحزب الاشتراكي الديمقراطي. أحد مكونات جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية.
13 أبريل: التحاق الكولونيل بن حمو. مقاوم سابق في جيش التحرير الوطني منطقة الجنوب وعامل سابق على إقليم الناضور. بالجزائر.
2-13 يونيو: اصطدامات في بوبكر على الحدود الجزائرية. العثور على مخازن أسلحة ببركان. اعتقال 6 أشخاص مسلحين بالحدود. وزير الداخلية يتحدث في بلاغ عن "عصابات مسلحة تسربت من الشرق ومدربة في الجزائر". اصطدامات في مناطق بركان وملوية والأطلس المتوسط.
3 يونيو: الحكم بالإعدام على 6 أشخاص بمحكمة مكناس.
10 يونيو: 18 حكما بالإعدام.
7-15 يونيو: عمليات شيخ العرب بالدار البيضاء. قتل رجال الشرطة. 7 قتلى.
9 يونيو: اصطدامات على الحدود الجزائرية المغربية بين القوات المساعدة و20 رجلا من رجال بن حمو الذي اعتُقِل: 5 قتلى و6 جرحى في صفوف القوات المسلحة. 4 قتلى في صفوف الملتحقين بالجبال بهضبة بني يزناسن. 13 سجينا.
يونيو: تقديم الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، بمساندة حزب الاستقلال، ملتمسّ الرقابة ضد الحكومة أمام البرلمان: نقاش حول الفساد. اصطدامات جديدة على الحدود مع الجزائر.
22 يونيو: إدانة 6 متسربين من الجزائر بوجدة بالمس بأمن الدولة.
3 يوليوز: حُكُمان اثنان بالإعدام في محاكمة مكناس.

5 غشت: العفو عن المدانين السياسيين في "مؤامرة يوليوز": الفقيه البصري وعمر بنجلون وميمون الدويري.
7 غشت: وفاة شيخ العرب بالدار البيضاء.
20 غشت: تعديل داخل حكومة باحنيني. نظرا لإنشاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي. أصبح الجنرال أوفقير وزيرا للداخلية.
7-4 شتنبر: المؤتمر التاسع للاتحاد الوطني لطلبة المغرب الذي طالب بتنظيم انتخابات تشريعية.
14 شتنبر: اعتقال م. الحلوي. رئيس الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. إضرابات وإغلاق العديد من المؤسسات المدرسية.
نونبر: عودة أعمال المسلسل المغاربي. منعُ المكافح. تابع للحزب الشيوعي المغربي السابق. بعثة من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية إلى الذكرى العاشرة للثورة الجزائرية. وساطة من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بين بنبلا وآيت احمد.

1965

16 فبراير: المؤتمر السابع لحزب الاستقلال.
25-22 مارس: حركة احتجاج بالمدارس والجامعات اندلعت في الدار البيضاء بسبب مشكل تعليمي. ثم تحولت إلى هيجان شعبي. مظاهرات ومجازر على مدى يومين. قمع عنيف من قِبل الجيش. العديد من الضحايا.
21-20 أبريل: استقبل الملك زعماء الأحزاب ووجه إليهم مذكرة وطلب منهم جوابا كتابيا.
30 أبريل: أعلن خطابٌ ملكي العفو عن المعتقلين السياسيين التابعين للاتحاد الوطني للقوات الشعبية. إطلاق سراح الحلوي وثلاثة من المحكوم عليهم بالإعدام سنة 1964.
فاتح ماي: مظاهرات عمالية.
3 ماي: قدمت الصحف الحوار بين الملك والأحزاب على أنه بحث عن حكومة اتحاد وطني. طلب من بنبركة. الموجود في الخارج. أن ينضم إليها.
يونيو: انقلاب في الجزائر. أطاح بومدين ببنبلا.
7 يونيو: إعلان خطاب ملكي لحالة الاستثناء. حُلَّ البرلمان. وأُوقف العمل بالدستور.
8 يونيو: حكومة تتكون من 23 عضوا. يرأسها الملك.
29 أكتوبر: اختطاف المهدي بنبركة. رئيس منظمة القارات الثلاث. بباريس واغتياله. إضرابات ومظاهرات طلابية. احتداد الاحتجاجات. أزمة دبلوماسية مع فرنسا.
14-13 نونبر: إعلان الاتحاد المغربي للشغل عن إضراب عام.

1966

26 يناير: اضطرابات في المدارس والجامعات.

فبرايـــر: خلال مؤتمر صحافي، اتهم الجنرالُ دوغول الجنرالَ أوفقير باغتيال بنبركة. رفض الملك إدانـــة أوفقير: تجميد العلاقات الديبلوماســية مع فرنســا (ولكن دون قطيعة ديبلوماسية رسمية).

فبراير: بدرب الكبير، بالدار البيضاء، قتلُ شرطيين وكوماندان بالقوات المسلحة الملكية عند قيامهم بتفتيش منزل الكوماندان بوشعيب.

15 مارس: اعتقال عمر بنجلون ثم مثوله أمام وكيل الملك بالدار البيضاء.

21 ماي: غادر الفقيه البصري المغرب.

1967

15 فبراير: اعتقال مناضلين من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب.

3 مارس: طرح المغرب مشكل الصحراء أمام أنظار منظمة الأمم المتحدة.

14 مارس: استقالة أحرضان، وزير الدفاع الوطني.

15 مارس: حكومة جديدة يترأسها ادريس محمدي، وأوفقير دائما وزيرا للداخلية.

17 أبريل: المحاكمة الثانية في قضية بنبركة. سلّم الكولونيل الدليمي نفسَه.

يونيو: حرب الستة أيام في الشرق الأوسط. اعتقال المحجوب بن الصديق، الكاتب العام للاتحاد المغربي للشغل، والحكم عليه بالسجن 18 شهرا.

18 غشت: أصبح محمد بنهيمة وزيرا أولا إبان التعديل الوزاري الثالث خلال السنة.

21 شتنبر: إطلاق سراح عمر بنجلون.

1968

غشـــت: تطبيع العلاقات المغربية الفرنسية بعد ســـنتين من تجميدها. إطلاق سراح المحجوب بن الصديق بعد سنتين من الحبس.

2 أكتوبر: علي يعتة يُنشئ حزب التحرير والاشتراكية (الحزب الشيوعي المغربي سابقا).

أكتوبر: إعلان الانتخابات البلدية والجماعية التي أعلن حزب الاســـتقلال والاتحاد الوطني للقوات الشعبية مقاطعتها نظرا لعدم حياد الإدارة.

1969

4 يناير: قررت إسبانيا إعادة تراب إفني إلى المغرب.

2 فبراير: حُكِمُ محكمة مراكش على علي يعتة بالســـجن شهرين اثنين. اضطرابات

في المدارس والجامعات. اضطرابات داخل أوساط المجتمع.
أبريل: تجديد فترة المنتخَبين الجماعيين والبلديين للمرة الثانية (فقد انتُخِبوا سنة 1963 لثلاث سنوات. ثم مُددت فترة انتخابهم ثلاث سنوات أخرى).
19 أبريل: مذكرة من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية إلى الحكومة.
30 يونيو: الاستعادة الفعلية لثغر إفني. سافر الحسن الثاني إلى مدريد.
18 غشت: حكمُ محكمة الرباط على ثلاثة مسيرين للحزب الشيوعي المغربي سابقا، ومنهم علي يعتة، بالحبس 10 أشهر: رفع دعوى قضائية ضد حزب التحرير والاشتراكية بتهمة إعادة تشكيل جمعية حلّها القضاء.
شتنبر: اعتقالات داخل صفوف الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.
فاتح شتنبر: انقلاب في ليبيا. أعلنت جماعة "الضباط الأحرار" تشكيلها لمجلس للثورة.
3 أكتوبر: انتخابات بلدية وجماعية بدون مشاركة الاتحاد المغربي للشغل والاتحاد الوطني للقوات الشعبية وحزب الاستقلال، تعبيرا منهم عن عدم "تأييدهم لتزوير الانتخابات". 4.7 مليون ناخب: المحايدون 82.70%: الحركة الشعبية، 12.7%: حزب الاستقلال، 4%: الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، 0.50%.
6 أكتوبر: أقال الحسن الثاني م. بنهيمة ليصبح وزير الفلاحة: وعوضه ب م. العراقي كرئيس للوزراء، وهو عضو سابق في حزب الاستقلال.
اعتقال أعضاء من حزب الاستقلال، أزمة داخل جريدة العلم. حبس مديرين لجريدتين تابعتين لحزب الاستقلال، الوطن والعلم، لأنهما كتبا بأن "السيادة للشعب".

1970

29 يناير: اعتقال سعيد بونعيلات (محمد أجار) وأحمد بنجلون بمدريد.
15 فبراير: تسليم أسبانيا لسعيد بونعيلات وأحمد بنجلون للمغرب. تدخل الحبيب بورقيبة لصالحهما.
فبراير: سافر الحسن الثاني إلى فرنسا.
25 مارس: تعديل وزاري: الجنرال إدريس بنعمر يصبح وزيرا للمواصلات السلكية واللاسلكية: والجنرال مزيان وزيرا للدفاع: والكولونيل بولحيمز رئيسا للدرك الملكي.
ماي: التقى الحسن الثاني بومدين بوجدة.
8 يونيو: زيارة م. ولد دادة، رئيس موريتانيا التي استعادت استقلالها منذ زمن قصير: نهاية الخلاف المغربي الموريتاني، معاهدة الصداقة والتضامن وحسن الجوار.
8 يوليوز: نهاية حالة الاستثناء التي دامت 5 سنوات. دستور جديد. قاطعته المعارضة بكاملها وأعلنت المصادقة عليه بنسبة 98.70 % من 4.8 مليون ناخب مسجل.

و1.3% مـــن الأصوات الرافضة. يحدد هذا الدســـتور غرفة واحـــدة ويعزز الصلاحيات المخوَّلة للملك.

14-17 يوليوز: حسب جريدة لوموند (العالم)، عُثر في جبال الأطلس عن بقايا طائرة محملة بالســـلاح الخفيف: 8 جثث، 17 رجلا من رجـــال التنظيم يطلقون النار على رجال الشرطة. اعتقال رئيس الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، م. الخصاصي.

22 يوليوز: أنشـــأ الاتحاد الوطني للقوات الشعبية وحزب الاستقلال الكتلةَ الوطنية، وهي جبهة معارضة.

21-28 غشـــت: انتخابات تشريعية قاطعها حزب الاستقلال والاتحاد الوطني للقوات الشـــعبية. عدد كبيـــر من الممتنعين في المدن (59.93% بفـــاس). صلاحيات البرلمان أصبحت محدودة مقارنة مع صلاحيات سنة 1963. 159 نائبا مستقلا، 8 من حزب الاستقلال، 1 من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. تعديل وزاري جديد.

شتنبر: انقلاب في سوريا، اعتلى حافظ الأسد السلطةَ.

16 نونبـــر: اختطاف محمد اليازغي. نداء ملكي للحوار داخل وســـط التعليم حيث كانت الإضرابات متواصلة.

28 نونبر- 3 دجنبر: مجابهة بحد كورت في منطقة الغرب حيث عارض فلاحون بيع الأراضـــي الفلاحية إلى ملاكين عقاريين كبار: 5 قتلـــى، 6 جرحى، 10 ضمن صفوف القوات المساعدة. أحداث أولاد خليفة.

وفاة جمال عبد الناصر.

أعلنت المحكمة العســـكرية بالرباط عدم اختصاصها في محاكمة 71 شـــخصا من بينهم سعيد بونعيلات وأحمد بنجلون.

1971

يناير: إغلاق مؤسسات تعليمية، وإضرابات طلابية، وطرد أطباء متدربين.

14 ينايـر: الإعلان الرســـمي عن مؤامرة دُبِّرت من الخـــارج، وعُهِد بالقضية للمحكمة الجهوية بمراكش.

18 يناير: بلاغ الكتلة بخصوص محاكمة مراكش.

29 يناير: سافر أوفقير إلى الجزائر في مهمة خاصة.

فاتح مارس:عودة العلاقات الدبلوماسية مع سوريا.

17 ماي: مظاهرات طلابية بالرباط تضامنا مع الماثلين أمام محكة مراكش.

14-24 يونيـــو: بداية محاكمة مراكش: 193 مُدان مـــن بينهم 30 غيابيا، بتهمة المـــس بأمن الدولة ومحاولة قلب النظام. 50 محاميا يرأســـهم عبد الرحيم بوعبيد. منع صحف المعارضة. طرد مراسل جريدة لوموند بالرباط. إضراب عام للطلبة، ودخول

بعضهم في إضراب عن الطعام.
15 يونيو: أوفقير يزور مرة أخرى الجزائر.
29 يونيو: تساؤل في قبة البرلمان: "لماذا سعيد بونعيلات الذي كافح من أجل الاستقلال يوجد داخل السجن؟ ما هي الأسباب التي دفعته إلى فعل ما يُنسب إليه؟"
10 يوليوز: محاولة انقلاب عسكري بالصخيرات إبان عيد الشباب الثاني والأربعين: 100 قتيل ضمنهم وزير السياحة، وسفراء مغاربة وأجانب و4 جنرالات و3 كولونيلات ورئيس المجلس الأعلى للقضاء وموظفين سامين وأطباء. 200 جريح. هجوم على مقر الإذاعة والتلفزة الوطنية وبعض الوزارات: إعلان جمهورية. قطع العلاقات الديبلوماسية مع ليبيا التي أيدت الانقلاب. تخويل كل السلطات للجنرال أوفقير. 158 قتيل في صفوف المهاجمين.
13 يوليوز: إعدام 10 جنرالات وكوماندارات وكولونيلات رميا بالرصاص أمام كاميرات التلفزة بدون محاكمة.
5 غشت: اعتبرت الكتلة أن هذا الانقلاب يدل على "فشل السلطة الفردية". وطالبت بمؤسسات جديدة وانتخابات تشريعية.
6 غشت: تعيين كريم العمراني، رجل أعمال، وزيرا أولا.
28 غشت: الحكم في قضية مراكش: 49 حكما بالإعدام، 121 حكما بالمؤبد.
20 شتنبر-5 نونبر: أضرب 6000 عامل بمناجم اخريبكة. تعزيز قطاع الضرائب، ضرائب على الفلاحة. احتجاجات على توزيع الأراضي.
أكتوبر: انتفاضة في الصحراء ضد التواجد الأسباني.
2 نونبر: اعتقال عدة وزراء وموظفين سامين بتهمة الارتشاء.
21 نونبر: استشار الملكُ المعارضةَ.
28 نونبر: شَنَّ 48 معتقلا سياسيا إضرابا عن الطعام.

1972

27 يناير: اعتقالات في صفوف الحزب الشيوعي المغاربي سابقا والاتحاد الوطني للقوات الشعبية والاتحاد الوطني للمهندسين واليسار الجديد (أبراهام السرفاتي وع. اللعبي) وفي صفوف التلاميذ والطلبة. إضرابات التلاميذ والطلبة. مظاهرات احتجاج جماهيرية في فرنسا.
29 يناير: اعتقال بعض أعضاء اللجنة التنفيذية للاتحاد الوطني لطلبة المغرب، وعضو في تحرير جريدة المحرر (تابع للاتحاد الوطني للقوات الشعبية). إطلاق سراح 13 عضوا من أعضاء الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.
31 يناير: انطلاق محاكمة 1033 من صغار مدبري انقلاب الصخيرات أمام المحكمة

الدائمة للقوات المسلحة الملكية بالقنيطرة.
17 فبراير: أعلن الملك انطلاق مشروع دستور ثالث، رفضته الكتلة.
29 فبراير: حكم محكمة القنيطرة: 1007 براءة، عقوبات حبسية تتراوح ما بين سنة واحدة و20 سنة، 3 أحكام بالسجن المؤبد. وجه الضباط المدانون رسالة عفو إلى الملك.
فاتح مارس: استفتاء دستوري: شارك فيه 92.96% من بين 4.8 مليون مسَجَّل، رغم مقاطعة المعارضة، 98.76% صوتوا بنعم. بعض التعديلات بالنسبة إلى دستور سنة 1970 السابق. مُدد بعض التمديد مجالُ القانون. سُلطٌ أوسع للوزير الأول.
21 مارس: محاكمة 33 متهما من الحزب الشيوعي المغربي سابقا بمراكش بتهمة تشكيل حزب ممنوع (حزب التحرير والاشتراكية، منذ سنة 1969).
12 أبريل: رفض الكتلة المشاركة في حكومة الاتحاد الوطني.
15 يونيو: معاهدة إفران بين المغرب والجزائر.
26 يوليوز: سافر الحسن الثاني في رحلة خاصة إلى فرنسا، استقبله الرئيس بومبيدو الذي خلَفَ الجنرال دوغول.
30 يوليوز: انشقاق في صفوف الاتحاد الوطني للقوات الشعبية: إنشاء مجموعة بالرباط التفت حول عبد الرحيم بوعبيد، وأخرى بالدار البيضاء التفت حول عبد الله إبراهيم والمحجوب بن الصديق من الاتحاد المغربي للشغل.
اعتقال محمد اليازغي.
اغتيال المناضي، أهم شهود الاتهام في محاكمة مراكش، بأمزميز.
16 غشت: هاجمت طائرات مطاردة مغربية، في أجواء تطوان، الطائرة التي كانت تقل الحسن الثاني عند عودته من رحلة إلى فرنسا وإسبانيا. حطت الطائرة بمطار الرباط الذي أطلق عليه النار. العديد من القتلى والجرحى. موت أوفقير في الليل.
16-21 غشت: استعادة التحكم في الجيش الذي أصبح تحت السلطة المباشرة للملك وكذا وزارة الدفاع التي ألغيت. إعادة تنظيم مصالح الأمن.
19 غشت: سلمت إنجلترا إلى المغرب ضابطي القوات المسلحة الجوية، أمقران والكويرة، اللذين كانا قد حطا بجبل طارق.
17 أكتوبر: مَثُل 220 عسكري (14 ضابطا و166 ضابط صف و44 جنديا) أمام المحكمة الدائمة للقوات المسلحة الملكية بالقنيطرة، بعد الهجوم على الطائرة الملكية. اتهم أمقران الجنرالين الدليمي وبالعربي.
أكتوبر: برامج إذاعة ليبيا التي وصفتها جريدة لوموند بالمعادية للملكية.
3 نونبر: أصبح أحمد عصمان، مدير الكتابة الخاصة للملك، وزيرا أولا. كل أحزاب المعارضة، بما فيها الحزب الديمقراطي الدستوري لم. الخطيب رفضت اقتراح الملك. أصبحت الجسور مقطوعة بين الملك والأحزاب.

7 نونبر:حكم المحكمة العسكرية بالقنيطرة: 11 حكما بالإعدام، من بينهم أمقران والكويرة، 43 حكما بالحبس، 177 حكما بالبراءة. مراجعة محاكمة متمردي الصخيرات في اتجاه التشديد. عفو ملكي على 6 من عساكر مآمَرَتَي 1963 و1971 الذين كانوا قد طلبوا العفو.
الحد بظهير ملكي من حقوق الجمعيات وحرية التجمع وحرية الصحافة.
15-16 نونبر: تحدث وزير الداخلية، في بلاغ، عن "مجموعة من الأشرار الذين ينشرون الرعب في عين السفاع" قرب أحفير، في الشرق.
محاكمة 33 عضوا من أعضاء حزب التحرير والاشتراكية سابقا بمراكش ومجموعتين من الأطر الشابة اليسارية (أسيدون وبلافريج واللعبي) بتهمة التآمر على الأمن الداخلي للدولة.
29 دجنبر: عملية اغتيال دهكون للوردي. الهجوم على حارسين من رجال الأمن بوجدة.

1973

8-12 يناير: اعتقال بعض مسيري الاتحاد الوطني لطلبة المغرب.
13 يناير: تنفيذ حكم الإعدام (14) في المدانين في قضية انقلاب 16 غشت 1972، ومن بينهم أمقران والكويرة.
14 يناير: توصل عمر بنجلون ومحمد اليازغي (الذي جُرح جُرحا خطيرا) برسالتين ملغومتين. اعتقال عمر الخطابي في عيادته بالقنيطرة.
24 يناير 1973: منع الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. توقيف منح الطلبة المضربين. إرسال بعض خريجي التعليم العالي إلى التجنيد العسكري الإجباري.
مارس: ظهير تأميم 250 000 هكتار من الأراضي الفلاحية.
2-3 مارس: الهجوم على موقع مولاي بوعزة. انفجار قنبلتين يدويتين بالقنيطرة، ووضع قنبلتين بالدار البيضاء، وقنبلتين بالرباط.
5 مارس: 7 قتلى في صفوف قوات الأمن. وفاة محمد بنونة.
9-13 مارس: اعتقال عمر بنجلون، مدير جريدة المحرر وعدة محامين آخرين وأساتذة مسؤولين في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. انتقادات رسمية لليبيا. تعيين قياد جدد على إقليم بني ملال.
14 مارس: أعلن بلاغ وزارة الداخلية أن ثلاثة من مهاجمي الأطلس قد ماتوا، و11 اعتُقلوا، وحجز أسلحة.
حجز جرائد المعارضة.
16-19 مارس: بلاغ للاتحاد الوطني للقوات الشعبية يدين حملة الاعتقالات (300 على الأقل).

20 مارس: إلقاء قنبلتين بالناضور على مقر الشرطة ومقر العمالة حسب بلاغات رسمية.
21 مارس: إلقاء قنابل بوجدة على العمالة والمحكمة ونيابة التعليم والبلدية (بلاغات رسمية). تحدث بلاغٌ لوزير الداخلية عن "اعتقالات في إطار البحث التمهيدي الذي فُتح على إثر الأحداث التي عرفها الأطلس في الأسابيع الأخيرة" وعن "عمليات المسح" بكلميمة وتنغير. أعلن وزير الداخلية أن مجموعات أخرى من المتمردين تدربت في ليبيا قد تكون على أهبة الاستعداد لعبور الحدود الجزائرية: "إن طرق عبورهم والمتواطئين معهم وأسماء قادتهم وأهدافهم قد باتت معروفة على إثر الاستنطاقات". أدينت نقابة التلاميذ. حل وزير الداخلية بخنيفرة.
22 مارس: أكد الاتحاد الوطني للقوات الشعبية اعتقال 3 محامين. بالقاضي والحلو وبناني. وهم أعضاء في اللجنة المركزية. وصرح بأنه حزب مشروع.
24 مارس: بلاغ من وزير الداخلية أعلن فيه حل عصابات مسلحة واكتشاف منظمة مخربة مهمة. اعتقال عمر دهكون. قدمه وزير الداخلية على أنه المسؤول عن خلايا الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بالرباط والدار البيضاء. اعتقال محمد بوجيهة بوجدة. وهو مسؤول بالاتحاد المغربي للشغل و3 مدرسين.
3 أبريل: مرسوم للوزير الأول يعلق الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. فرع الرباط. وشُمعت مقراته لأنها "استُعملت كغطاء لأعمال سرية تخريبية وغير مشروعة الغرض منها هو المس بمؤسسات المملكة". بلاغ لوزارة الإعلام يدين مؤامرة مصدرها الخارج.حجز جواز سفر عبد الرحيم بوعبيد عند عودته من رحلة إلى فرنسا.إعلان ملكي أمام المجلس الوطني للمقاومة. بلاغ جديد. طويل جدا. لوزارة الداخلية. يَذكر اغتيال المناضي في يوليوز 1972. والهجوم في دجنبر 1972 على الورادي ومحاولات زرع متمردين في جبال خنيفرة وأحفير في يوليوز 1972. اعتقالات بمنطقة سوس.
28 أبريل: تعديل قانون الحريات العامة.
8 ماي: وفاة إبراهيم التيزنيتي. المعروف بالنمري.
25 يونيو-30 غشت: محاكمة 157 متهما في أحداث مارس بالمحكمة الدائمة للقوات المسلحة الملكية بالقنيطرة (من بينهم 8 عسكريين). 137 منهم يتهددهم الحكم بالإعدام. و17 بالمؤبد. و7 متابعون بحيازة السلاح. صرح 12 منهم منذ الوهلة الأولى أن الاعترافات انتُزعت منهم بواسطة التعذيب. احتجاجات في فرنسا. محامون مغاربيون. بينهم جزائريون. مُنعوا من المرافعة. 100 محامي مغربي. من بينهم 64 عينوا في إطار المساعدة القضائية.
27 يوليوز: اغتيال مواطن مغربي. أحمد بوشيخي. بأوسلو. من قِبل كوموندو إسرائيلي.

30يوليوز: محاكمة جماعات يسارية بالدار البيضاء بتهمة المس بأمن الدولة (إلى الأمام وبلفريج): 80 مدانا من بينهم 25 في حالة فرار. اعتُقلوا ما بين 10 و17 مارس 1972: 38 حكما بالحبس ما بين 25 سنة و سنتين. 14 حكما بالبراءة.
غشت: حُكم على أبراهام السرفاتي بالمؤبد غيابيا.
27 غشت: قدم علي يعتة حزبا جديدا: حزب التقدم والاشتراكية.
30 غشت: النطق بالحكم في قضية أحداث 3 مارس: 16 حكما بالإعدام. 15 حكما بالسجن المؤبد. 49 حكما بالحبس مع الأشغال الشاقة. 7 أحكام موقوفة التنفيذ. بعض المحكوم عليهم بالبراءة. كما هو شأن المحامون الأعضاء المسيرون في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. ومن بينهم عمر بنجلون. سيُعتقلون من جديد بتهم أخرى: سوف تُعاد محاكمتهم بعد مضي 6 أشهر. اندهشت جريدة لوموند لغياب تسامح النظام. هذا في حين. تضيف الجريدة. أن "الحسن الثاني كان يعطي الانطباع بأنه يريد طي الصفحة".
شتنبر: لقاء جديد بأغادير بين الحسن الثاني وبومدين وولد دادة.
20 أكتوبر: انتفاضة الفلاحين بتاسولطانت في منطقة مراكش.
فاتح نونبر: تنفيذ حكم الإعدام في 15 من بين 16 محكوما عليه بالإعدام. من بينهم دهكون.

تواريخ أخرى بعد 1973

18-28 يناير 1974: محاكمة جديدة للمدانين في أحداث مارس 1973 بالمحكمة العسكرية: 6 أحكام بالإعدام. 3 أحكام بالسجن المؤبد. 4 أحكام بالحبس 30 سنة. نُعت الفقيه البصري ب"المحرض الخطير". الذي حاول عدة مرات قلب النظام.
27 غشت 1974: إطلاق سراح عمر بنجلون و6 من المسؤولين عن الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. سبق الحكم ببراءتهم سنة 1973 ثم أعيد اعتقالهم.
الترخيص لحزب التقدم والاشتراكية لعلي يعتة. تطبيق الحكم بالإعدام في 7 من المدانين في قضية مارس 1973. في المجموع. نُفذ حكم الإعدام في 22 محكوما عليه بالإعدام.
17 شتنبر 1974: لجوء المغرب إلى محكمة لاهاي للنظر في قضية الصحراء.
10-12 يناير 1975: المؤتمر الاستثنائي للاتحاد الوطني للقوات الشعبية الذي اصبح الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية. تخلى عن الاختيار الثوري بالتصريح بكونه مستعدا للمشاركة في الحكومة.
5 أكتوبر 1975: المسيرة الخضراء.
14 نونبر 1975: اتفاقية ثلاثية الأطراف. المغرب وأسبانيا وموريتانيا. حول اقتسام الصحراء.

12 دجنبر 1975: العفو عن احمد بنجلون.
18 دجنبر 1975: اغتيال عمر بنجلون أمام بيته بالدار البيضاء من قِبل جماعة من الإسلاميين: كان ينتقد المسلسل الانتخابي المزمع تنظيمه وكان يريد الذهاب بعيدا في قضية الصحراء. كان ينادي بحرب شعبية.
3 يونيو: انتخابات تشريعية جديدة.
أحداث العيون: 37 قتيلا و82 جريحا و900 حالة اعتقال. قمع قبائل الركيبات.
فاتح مارس 1977: انظم 4 مسيرين من المعارضة إلى الحكومة كوزراء دولة بدون حقائب لمساندة مسلسل استرجاع الصحراء. من بينهم عبد الرحيم بوعبيد.
مواصلة المسلسل الانتخابي.
7 مارس 1977: قطع العلاقات الديبلوماسية مع الجزائر على إثر قضية الصحراء.
9 غشت 1979: على إثر انسحاب موريتانيا. ضم المغرب الصحراء الغربية.
25 يناير 1983: موت الدليمي.
أبريل 1998: حكومة التناوب.
23 يوليوز 1999: موت الحسن الثاني.

ثبتٌ بالأسماء التي وردت في هذا الكتاب

عباس، واسمه الحقيقي مبارك بودرقة : صديق دهكون في الطفولة، وعضو في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. سوف يجنده دهكون سنة 1971 ليسير خلية سرية من خلايا التنظيم بالرباط. نجا في آخر لحظة من موجة الاعتقالات التي شهدها شهر مارس من سنة 1973، واستطاع الهروب إلى خارج البلد. هو إلى حدود شهر يونيو من سنة 2001 ، كان لا يزال يعيش في فرنسا.

العشعاشي محمد : رئيس خلية محاربة العاملين على قلب النظام التابعة للمخابرات المغربية، يشرف على التسرب إلى حركات المعارضة ، ويشرف كذلك على "الاستنطاقات" التي تجري داخل مراكز الاعتقال السرية. وقد اعتبرته الاعترافات، التي أتت بعد فوات الأوان والتي نشرها عميلٌ للمخابرات في شهر يونيو من سنة 2001، عضوا نشيطا خلال اختطاف المهدي بن بركة واغتياله في باريس سنة 1965.

أكوليز أحمد، المعروف بشيخ العرب : مقاومٌ منذ سنة 1954، نجا من التصفيات التي تَلَتْ تَفْكِيكَ جيش التحرير الوطني ابتداءً من سنة 1956 ليعيش منذ ذلك الحين في السرية. وسنة 1963، لجأ إلى الجزائر فراراً من موجة القمع التي اجتاحت المغرب. عاد سرا إلى المغرب رفقة الفرشي في شهر أبريل من سنة 1964، ومات في اشتباك في مدينة الدار البيضاء سنة 1964.

آيت احمد الحسين : رمز تاريخي من رموز جبهة التحرير الوطني الجزائرية، قاد انتفاضةً في منطقة القبايل سنة 1963. أسكتت القواتُ النظامية انتفاضةَ الحسين آيت احمد واعتقلته قبل أن يركب طريق المنفى. عاد إلى الجزائر سنة 1989 ليترأس بها جبهة القوى الاشتراكية.

آيت عمي لحسن، المعروف بالحاج: لجأ إلى الجزائر حيث التحق بالتنظيم وذلك كي يتابع تدريبا عسكريا في سوريا. وعند نهاية سنة 1969 ، التحق بصفوف الجبهة من أجل تحرير فلسطين. نجا من مجازر أيلول الأسود. وأصبح واحدا من الأطر الثورية التي رافقت محمود إلى المغرب سنة 1973. اعتُقِل بتالسينت في شهر ماي من سنة 1973 مع با العمراني، في الوقت الذي كانا يستعدان فيه لعبور الحدود الجزائرية. حُكم عليه بالإعدام ونُفذ فيه الحكم بالقنيطرة في فاتح شهر نونبر من سنة 1973.

آيت الموذن محمد : مقاوم منذ سنة 1954، ثم عضو في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. نجا من موجات الاعتقال التي جرفت سنة 1969 بمراكش الحبيب الفرقاني ورفاقه. لاذ بالسرية في الدار البيضاء، اعتُقِل إبان تفكيك شبكة الحسين

المنوزي سنة 1970. حُكِم عليه بالمؤبد، وعُفِي عنه سنة 1980. إلى حدود شهر يونيو من سنة 2001 كان لا يزال يعيش بمدينة أغادير.

آيت قدور محمد، المعروف ببولحية : طالب قديم بالأكاديمية العسكرية بمكناس، غادر الجيش سنة 1956 ليتابع تكوينا في الهندسة المدنية. عضو الاتحاد الوطني للقوات الشعبية منذ إنشائه. اعتُقل سنة 1964 ثم أفرج عنه. حُكِم عليه غيابيا لتورطه في الانقلاب الثاني (1972). بدا أحدَ مسيري التنظيم النشيطين حتى سنة 1973. وحتى حدود شهر يونيو من سنة 2001، كان رئيس ديوان بوزارة السكنى التي يسيرها اليازغي.

آيت زايد الحسين، المعروف بعبد السلام : عضو في التنظيم تكَون في سوريا.عاد إلى المغرب سنة 1970. رجل اتصال الخلايا السرية بالأطلس الكبير. اعتُقل بعد اشتباك يوم 10 مارس من سنة 1973 قرب تنغير. حُكِم عليه بالإعدام، فكان المعذب الخامس عشر من بين الذين نُفذ فيهم الإعدام بالقنيطرة في فاتح نونبر من سنة 1973.

عجول العربي : عضو نشيط في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، ثم في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. أصبح نهايةَ الستينيات مثل نقابة الطلبة بفرنسا، وجهٌ رزين ومتكتم، ولكنه وجه حاسم داخل إدارة التنظيم. حُكم عليه غيابيا سنة 1973. عُفِي عنه سنة 1980، وعاد إلى المغرب، كاتب الدولة في البريد من سنة 1989 حتى سنة 2000. انتُخِب عضوا في المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية سنة 2001.

العلوي سليمان، المعروف بمولاي عمر، المعروف بمنصور: من مواليد بني ملاب (تاديغوست)، عضو سابق في جيش التحرير الوطني، هو من بين أهم أطر التنظيم العسكرية، سواء في الجزائر أم في سوريا أم في ليبيا. دَرَّب عددا من المناضلين على الكفاح المسلح. عاد مع محمود سنة 1973، ومات إلى جانبه يوم 5 مارس من سنة 1973.

أمقران محمد : عقيد (كولونيل) في القوات المسلحة، أحد منظمي انقلاب سنة 1972. حُكِم عليه بالإعدام، ونُفذ فيه الحكم يوم 13 يناير من سنة 1973.

أسكور محمد، المعروف بكاسترو : طالبٌ تم تجنيده في الجزائر، تَكَوَّن في سوريا قبل أن يدخل سرا إلى المغرب سنة 1970 مع مجموعة اليزيد. تراجع إلى الجزائر وانضم إلى المجموعة الصغيرة المقربة من محمود والتي دخلت المغرب سنة 1973. شارك في عملية مولاي بوعزة قبل أن يموت في المعركة يوم 6 ماي من سنة 1973.

الباعمراني، واسمه الحقيقي برو امبارك بن أحمد : مقاوم سابق في جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب، أصبح ضابط صف في القوات المسلحة

الملكية قبل أن يلجأ إلى الجزائر. تلقى تكوينا عسكريا في الجزائر وسوريا. وفي سنة 1973، كان ضمن الأطر التي رافقت محمود إلى المغرب. اعتُقل بتالسينت في شهر ماي من سنة 1973 مع آيت عمي، في الوقت الذي كانا يستعدان فيه لعبور الحدود الجزائرية، وحُكم عليه بالإعدام ونُفذ فيه الحكم بالقنيطرة يوم فاتح نونبر من سنة 1973.

بَرو : مقاوم سابق ورفيق أوفقير في الفوج. أصبح قائد السلطة في سلا. هرب من موجة القمع سنة 1963 ولجأ إلى الجزائر. وفي المنفى، تكلف بتسيير معسكر أوواطا حتى إغلاقه سنة 1964.

البصري محمد، المعروف بالفقيه : مقاوم سابق وإطار في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. اعتُقل وحُكم عليه بالإعدام سنة 1963. عُفي عنه وأطلق سراحه سنة 1965. بقي في المنفى منذ سنة 1966، حيث نظم وسير التنظيم. حُكم عليه بالإعدام غيابيا سنة 1971 و1973. توفي سنة 2003.

بنحمو محمد : قائد جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. أصبح ضابطا في صفوف القوات المسلحة الملكية ابتداءً من سنة 1959. وفي سنة 1963، فر من القوات المسلحة الملكية ولجأ إلى الجزائر فتبعه العديد من ضباط الصف. شارك في تأسيس معسكرات للتدريب في الجزائر.

بن بركة المهدي : عضو مؤسس للاتحاد الوطني للقوات الشعبية ورئيس سابق للمجلس الوطني الاستشاري. فرض نفسه على أنه وجهٌ ذو نزعة دولية يعمل على التقريب بين الحركات التحريرية. اختُطِف في باريس في شهر أكتوبر من سنة 1965 واغتيل بها.

بنبلا أحمد : مسير جبهة التحرير الوطني وأول رئيس للجمهورية الجزائرية (1962-1965).

بنيحيى محمد، المعروف بالحاتمي : مسير الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. تم تجنيده في الجزائر، تلقى عدة تداريب عسكرية في الجزائر وسوريا قبل أن يدخل سرا إلى المغرب سنة 1970 مع مجموعة اليزيد. تراجع إلى الجزائر، وحُكم عليه غيابيا خلال محاكمة مراكش. عضو مسير للتنظيم حتى شهر غشت من سنة 1973. عُفي عنه في الثمانينيات. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ملحق صحافي للوزير الأول عبد الرحمن اليوسفي. وهو حاليا نائب برلماني.

بنجلون أحمد، المعروف بعبد المومن : أخ عمر بنجلون ومسير للاتحاد الوطني لطلبة المغرب. أصبح أحد قادة التنظيم في سوريا. اعتُقل بمدريد مع سعيد بونعيلات في شهر يناير من سنة 1970، حُوكم وأدين في محاكمة مراكش. عُفيَ عنه في الثمانينيات، وعاد ثانية إلى الحياة السياسية بصفته محاميا وصحفي

وعضوا مسيرا لحزب الطليعة الديمقراطي الاشتراكي. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في مدينة الرباط.

بنجلون عمر : مسير نقابي وعضو مؤسس للاتحاد الوطني للقوات الشعبية، اغتيل يوم 18 دجنبر من سنة 1975.

بنسعيد محمد إدر : قائد تاريخي لجيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب، حُكم عليه بالإعدام غيابيا سنة 1963. عاد من المنفى في الثمانينيات وأسس منظمة العمل الديمقراطي الشعبي. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، مازال يعيش بمدينة الدار البيضاء.

بنسليمان حسني : لواء (جنرال) بالدرك، عامل سابق على خنيفرة.

بوعبيد عبد الرحيم : عضو مؤسس للاتحاد الوطني للقوات الشعبية، وزير سابق، وكاتب عام للحزب انطلاقا من سنة 1975 . توفي في 8 يناير من سنة 1992.

بوبكر إدريس : قائد تاريخي لجيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب، ورفيق مقرب من النمري، أصبح رائدا (كوماندان) في القوات المسلحة الملكية في الستينيات، وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في الرباط.

بومعزة البشير : عضو جبهة التحرير الوطني الجزائرية، أصبح وزير الاقتصاد في حكومة بنبلا (1962-1965)، قبل أن يلجأ إلى المنفى سنة 1966. عُين رئيسا للمجلس سنة 1968، وأقيل من مهامه سنة 2001.

بومدين الهواري : وزير الدفاع الجزائري، وصل إلى السلطة بعد انقلاب سنة 1965، توفي في يوم 29 من شهر دجنبر سنة 1978.

بونعيلات سعيد، واسمه الحقيقي محمد أجار : وُلد سنة 1920 بتافراوت، مقاومٌ إبان الحماية، حُكم عليه ثلاث مرات بالإعدام، منها مرتان تحت حكم الحسن الثاني، حُول آخرُ حكم بالإعدام لتورطه في "مؤامرة 69" إلى عفو. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش بسوق السبت قرب بني ملال.

بوستة عبد الغني، المعروف بعمر : أصله من مراكش، وهو مناضل في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، تابع دراسته في مدينة غرونوبل نهاية الستينيات في الوقت نفسه الذي كان يدرس بها العربي العجول والطيب بناني وابراهيم أوشلح. لما نال دبلوم مهندس عاد إلى المغرب، وعُين مدير سدود جنوب المغرب. وابتداءً من سنة 1973، غادر المغرب والتحق بليبيا، توفي في باريس سنة 1998.

بوزيان، واسمه الحقيقي لحسن الترجيشت : مقدم سابق في آسفي، لجأ إلى الجزائر، وتابع تكوينا عسكريا في الجزائر وسوريا، وسنة 1969، التحق بنواحي مراكش مع العثماني وشوجار والفرشي. نجا في آخر لحظة من الاعتقالات التي قضت

على التنظيم. ولجأ إلى الجزائر. وسنة 1973، كان ضمن الأطر التي رافقت محمود إلى المغرب. اعتُقل في تونفيت يوم 9 أبريل من سنة 1973 مع العثماني في شهر ماي من سنة 1973، حُكِم عليه بالإعدام ونُفذ فيه الحكم يوم فاتح نونبر من سنة 1973 بالقنيطرة.

بوراس، واسمه الحقيقي بوراس الفيكيكي، المعروف ب"الأعور": وجه تاريخي من وجوه جيش التحرير الوطني، وعضو مؤسس للاتحاد الوطني للقوات الشعبية. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في مدينة الرباط.

ابراهيم، واسمه الكامل ابراهيم أوشلح، المعروف بأحمد بنونة : أصله من سلا، وهو مناضل في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، تابع دراسته في غرونوبل نهاية الستينيات في الوقت نفسه الذي كان يدرس بها العربي العجول والطيب بناني وعبد الغني بوستة. حاصل على دبلوم في الجيولوجيا من نانسي، وأصبح ابتداءً من سنة 1971، مسؤولا عن التنظيم في ليبيا. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في باريس.

الشلواطي محمد : عقيد (كولونيل) وعامل على مدينة وجدة. ساهم في انقلاب الصخيرات سنة 1971، أعدِم يوم 13 يوليوز من سنة 1971.

شجار عبد الرحمن : عضو شبكات شيخ العرب، وهو مدرس بآسفي، تابع تكوينا عسكريا بسوريا قبل أن يدخل سرا إلى المغرب صحبة الفرشي والعثماني وبوزيان. وَشَى به ابراهيم المناضي، فاعتُقل سنة 1969 وحَكَمت عليه محكمة مراكش. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في المغرب.

دحمان، سعيد : من مواليد تنغير، من قدماء المقاومين المقربين من سيدي حمو، وهو من بين الأطر التي رافقت محمود إلى المغرب سنة 1973. اعتُقل يوم 20 أبريل من سنة 1973 بتاغلافت، حُكِم عليه بالإعدام ونُفذ فيه الحكم بالقنيطرة يوم فاتح نونبر من سنة 1973.

دهكون، عمر، المعروف بزُهير : من مواليد أغادير، مناضل سري انطلاقا من بداية الستينيات، التحق بصفوف التنظيم ليتابع تدريبا عسكريا بالجزائر ثم بسوريا. قائد الخلايا السرية بالرباط والدار البيضاء، اعتُقل وحُكِم عليه بالإعدام ونُفذ فيه الحكم في القنيطرة يوم فاتح نونبر من سنة 1973.

الدليمي أحمد : عقيد (كولونيل)، ورئيس المخابرات ابتداءً من سنة 1971، مات في ظروف لم توضح بعد، يوم 25 يناير من سنة 1983 بمراكش.

الدراعيا أحمد : رئيس الأمن الجزائري منذ سنة 1965 والساعد الأيمن لبومدين.

الفرشي، واسمه الحقيقي عمر الناصر : أصله من مراكش، وهو مقاوم سابق هرب من المغرب سنة 1960 لينجو في آخر لحظة من رجال الدرك الذين جاءوا لاعتقاله. تتبع عدة تكوينات وساهم في أخرى في الجزائر ثم في سوريا. دخل المغرب مرتين سنة 1964 مع شيخ العرب ثم سنة 1969 مع العثماني وبوزيان وشوجار، وكان كل مرة ينجو من مطارديه. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في الدار البيضاء.

الهوني عبد المومن : عضو في جماعة "الضباط الأحرار" الذين وصلوا إلى السلطة في ليبيا سنة 1969. فرض نفسه على أنه الرجل الثاني في الحكومة جامعا بين وظيفَتَي وزير الشؤون الخارجية والمخابرات المضادة. دخل المنفى سنة 1975 في القاهرة قبل أن يُعَين في شهر شتنبر من سنة 2000، ممثلا دائما لليبيا في الجامعة العربية.

المالكي عبد الله، المعروف بالمختار : حفيد سيدي حمو، تكون في الجزائر ثم في سوريا. اعتُقِل في مدريد في شهر يناير من سنة 1970، رُحل إلى دمشق. عاد إلى المغرب مع محمود سنة 1973، وهو من بين الناجين القليلين. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في الدار البيضاء.

الميد، واسمه الحقيقي أحمد خير : أصله من فيكيك، وهو مقاوم سابق اتصل به بوراس من أجل تسريب بعض مناضلي التنظيم الذين تكونوا في سوريا، سرا إلى المغرب. حُكِم عليه غيابيا، وابتداءً من سنة 1970، علا شأنه داخل منظمة التنظيم. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في نواحي باريس.

المهتدي محمد : عضو في شبكة دهكون، تكون في سوريا. اعتُقِل في شهر مارس من سنة 1973، حُكِم عليه بالإعدام ونُفذ فيه الحكم بالقنيطرة يوم 27 غشت من سنة 1974.

الوالي مصطفى : مناضل في صفوف الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، التحق بصفوف التنظيم وتكون في ليبيا. أسس البوليزاريو في شهر ماي من سنة 1973. مات في المعركة يوم 9 يونيو من سنة 1976، خلال عملية هجوم على نواكشوط.

اليازغي محمد : إطار في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، حوكم سنة 1970 بمراكش وسنة 1973 بالقنيطرة لتواطئه مع التنظيم. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، وزير السكنى.

فريكس، ويُدعى أيضا نافا العطا أو منصور، واسمه الحقيقي عبد الله بن محزون : أصله من تيزنيت، تابَع تدريبا عسكريا في الجزائر ثم في سوريا. عاد إلى المغرب مع مجموعة محمود سنة 1973، جُرح خلال الاشتباك الذي ذهب بحياتَيْ محمود وسليمان العلوي. حُكِم عليه بالإعدام، ونُفذ فيه الحكم بالقنيطرة يوم فاتح نونبر من سنة 1973.

الفاسي علال: زعيم الاستقلال ومؤسس حزب الاستقلال. توفي سنة 1974.

الفرقاني محمد، المعروف بالحبيب الغيغاي : إطار في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية وقائد الخلايا السرية في منطقة مراكش. اعتُقِل في شهر دجنبر من سنة 1969وأدين. عُفي عنه في الثمانينيات، وأصبح نائبا برلمانيا على المحمدية. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في المحمدية.

الادريسي توفيق : مُقَرب من دهكون، محامي التكوين، عضو في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، تابع تدريبا عسكريا في سوريا، وعند عودته إلى البلد، اعتُقِل وأدين، أطلق سراحه، وسرعان ما اعتُقِل ثانيةً سنة 1973. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال في هيئة الدار البيضاء.

الجزار، واسمه الحقيقي موحى أو موح نايت باري : من مواليد بني ملال، وهو ضابط صف سابق في صفوف القوات المسلحة الملكية، رحل إلى الجزائر سنة 1963. والتحق بمعسكرات التدريب في الجزائر ثم سوريا. عاد مع مجموعة محمود سنة 1973، اعتُقِل مع دحمان سعيد قرب تاغلافت يوم 20 أبريل من سنة 1973. حُكم عليه بالإعدام ونُفذ فيه الحكم بالقنيطرة يوم فاتح نونبر 1973.

الجبلي عبد السلام : قائد تاريخي لجيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب وعضو مؤسس للاتحاد الوطني للقوات الشعبية، عرف المنفى ابتداءً من سنة 1960. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في مراكش.

جبيهة عمر : طبيب رئيس بمستشفى قصر السوق (الراشيدية حاليا) في شهر مارس من سنة 1973، وقف على وصول جثتَي محمود وسليمان العلوي. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، يزاول بمدينة الدار البيضاء.

الجدايني مصطفى، المعروف بعمر : مقرب من دهكون، أستاذ بالثانوي، تكون في سوريا قبل أن يصبح قائد خلية سرية بوجدة. اعتُقِل في شهر مارس من سنة 1973 وحُكِم عليه بالإعدام. نُفذ فيه الحكم بالقنيطرة يوم فاتح نونبر من سنة 1973.

الخضار الحسين، المعروف بجلول : أصله من الرباط، مقاوم سابق، عضو القيادة العليا لجيش التحرير الوطني في المنفى، شارك في تنظيم التنظيم بالجزائر. مات بوهران سنة 1981.

خالد، أو حسن ابراهيم، واسمه الحقيقي محمد التوزاني : طالب وعضو في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب والاتحاد الوطني للقوات الشعبية، استقر في المشرق، وتابع تكوينا في الأكاديمية العسكرية السورية قبل أن يشارك في التنظيم العسكري للتنظيم في سوريا ثم في ليبيا والجزائر. وحتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في باريس.

الخطابي عبد الكريم : وجه تاريخي من وجوه المقاومة. نظم سنة 1921 تمرداً وأعلن الجمهورية الريفية. صمد طيلة أربع سنوات في وجه الجيشين الاستعماريين الفرنسي والأسباني. وهُزِم في آخر المطاف ورُحل إلى جزيرة لاريينيو. مات في المنفى بالقاهرة يوم 6 فبراير من سنة 1963.

الخطابي عمر : ابن أخ عبد الكريم الخطابي. وُلد سنة 1926. على متن الباخرة التي كانت راحلةً بعمه إلى المنفى. مدير مصحة بالقنيطرة. اعتُقل سنة 1973 بعد الاكتشاف المتأخر لتواطئه مع العقيد (الكولونيل) أمقران والفقيه البصري. وحتى شهر يونيو من سنة 2001. ما زال يزاول مهنته في القنيطرة.

اللوزي حدو : قائد خلايا سرية للتنظيم في كلميمة. هرب إلى الجزائر سنة 1973. عاد إلى المغرب نهايةَ السبعينيات. توفي بالرباط سنة 1997.

محمود، واسمه الحقيقي محمد بنونة : من مواليد مدينة الربـــاط. وهو مسير للاتحاد الوطني لطلبة المغرب وعضو في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. أصبح انطلاقا من سنة 1968 أحد أهم مسيري التنظيم. دخل إلى المغرب سرا مـــع عدد من الأطر المنتقاة. مات في المعركة يوم 5 من شهر مارس سنة 1973.

المانوزي ابراهيم، المعروف بالقائد ماو : أصله من تافراوت. وهو ضابط سابق في جيش التحرير الوطني. أصبح خليفةً ثم قائدا (كومندان) بالقوات المسلحة الملكية. اتهِم بالتواطؤ مع منفذي عملية الصخيرات. فأعدم في شهر يوليوز من سنة 1971.

المانوزي الحسين، المعروف بخليل أو أبو علي : إبن أخ ابراهيم المانوزي. عضو في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. تلقى تدريبا عسكريا بسوريا قبل أن يعود إلى المغرب ويُكون خليةً سرية بالدار البيضاء. نجا من الاعتقالات التي قضت على شبكته. فالتحق بليبيا حيث أشرف على تزويد الخلايا السرية بالمغرب بالسلاح. اخْتُطِف بتونس يوم 29 أكتوبر من سنة 1972. واعتُبر مختفيا منذ ذلك الحين.

ماسين عبد الرحمن : قائد إحدى خلايا التنظيم بخنيفرة. اعتُقل وحوكم وأدين. عُفِي عنه سنة 1980. وانتُخِب مستشارا جماعيا سنة 1992. وأصبح البرلماني الممثل لمدينة اخنيفرة منذ سنة 1997.

المذبوح محمد : جندي سابق بالجيش الاستعماري. وزير البريد. وعامل على مدينة الدار البيضاء. أصبح هذا العقيد (كولونيل) رئيس الأمن المقرب من القصر الملكي. ساهم في تنظيم انقلاب الصخيرات العسكري يوم 10 يوليوز من سنة 1971. قُتل خلال العملية.

المليانى ادريس : مقرب من دهكون. مدرس بالثانوي. كان يسير خلية سرية للتنظيم. اعتُقِل في شهر مارس من سنة 1973. وحُكِم عليه بالإعدام ونُفذ فيه الحكم بالقنيطرة يوم 27 غشت من سنة 1974.

ملوك الشافعي، المعروف بأبي علي : إطار في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. واصل تدريبه العسكري في سوريا. وعند عودته إلى المغرب، اعتُقل وحوكم وأدين. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، أمين مال جريدة الاتحاد الاشتراكي بالدار البيضاء.

مرزوق لحسن : عضو خلية سرية للتنظيم بكلميمة. نجا طيلة 14 سنة من البوليس وذلك باختبائه تحت بيته. ظهر ثانيةً بعد عفو سنة 1987. مات في حادثٍ في يوليوز من سنة 2001.

النجار، ويدعى كذلك الخيراني أو موسى، واسمه الحقيقي رشيد الزين: أحد قدماء جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. التحق بالقوات المسلحة الملكية حيث أصبح رقيباً أولا. هرب إلى الجزائر سنة 1963 مع الناصري. تَكَون في الجزائر ثم سوريا. اعتُقل في مدريد في شهر يناير من سنة 1970 ورُحل إلى دمشق. وعند عودته إلى المغرب مع محمود سنة 1973، كان ضمن الناجين القليلين. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في مدينة الرباط.

الناصري، واسمه الحقيقي الحسين الادريسي بن صلاح : من مواليد بني ملال، وهو من قدماء جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. أصبح ضابط صف في القوات المسلحة الملكية. هرب من المغرب سنة 1963 مع النجار ليلتحق بصفوف الثوار في الجزائر ثم سوريا. وسنة 1973، كان ضمن الأطر التي رافقت محمود إلى المغرب. اعتُقل وحُكم عليه بالإعدام ونُفذ فيه الحكم بالقنيطرة يوم فاتح نونبر من سنة 1973.

الناصري فاضل : إطار بالاتحاد الوطني لطلبة المغرب تكون في سوريا، وهو مدير لمدرسة حرة وكان رجل الاتصال بين خلايا الأطلس وخلايا الدار البيضاء والرباط. اعتُقل سنة 1971 وأدين سنة 1973. عُفِي عنه سنة 1981. وهو مازال يعيش في مدينة الدار البيضاء حتى شهر يونيو من سنة 2001.

النمري عبد الله أو التيزنيتي، ابراهيم : أهم وجوه جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب؛ أصبح، خلال سنوات المنفى في سوريا والجزائر، عضوا نشيطا في القيادة العليا لجيش التحرير الوطني بالمنفى. عاد سرا إلى المغرب سنة 1971، ومات في المعركة يوم 8 ماي 1973.

العثماني، واسمه الحقيقي محمد بوشاكوك : رقيب سابق في القوات المسلحة الملكية. لجأ إلى الجزائر حيث تلقى تداريب عسكرية في الجزائر ثم سوريا. التحق بنواحي مراكش سنة 1969 مع بوزيان وشوجار والفرشي. نجا في آخر لحظة من الاعتقالات التي قضت على التنظيم. ولجأ إلى الجزائر. وسنة 1973، كان ضمن الأطر التي رافقت محمود إلى المغرب. اعتُقل بتونفيت مع بوزيان يوم 9 أبريل

من سنة 1973. حُكِم عليه بالإعدام ونُفد فيه الحكم بالقنيطرة يوم فاتح نونبر من سنة 1973.

أوفقير محمد : لواء (جنرال) ووزير الداخلية، كان في الوقت نفسه يتحكم في القيادة العليا للجيش وفي مصالح المخابرات. مات مقتولا بالقصر الملكي في الليلة ما بين 16 و17 غشت من سنة 1972، بعد اكتشاف تواطئه في الانقلاب الثاني سنة 1972.

أوالحاج موحى، واسمه الحقيقي أمحزون : من أعيان مدينة اخنيفرة، ينحدر من سلالة من الملاكين الحلـيين، أصبح، بفضل قرابة الزواج، صهر الملك الحسن الثاني. الممول الرئيسي للنمري منذ تسربه. استقبل وآوى خمسة من القادة الثوريين الذين دخلوا البلاد مع محمود سنة 1973. اعتُقل يوم 4 مارس، ثم حُكِم عليه بالإعدام، ونُفد فيه الحكم بالقنيطرة يوم فاتح نونبر من سنة 1973.

أمدة محمد : من مواليد اخنيفرة، عنصر سابق في القوات المساعدة، تدرب في سوريا قبل أن يعود إلى المغرب سنة 1969. اختبأ في الرباط حتى سنة 1971، استقر في الجبال بنواحي مدينة اخنيفرة ابتداءً من سنة 1971. نجا من اعتقالات مارس سنة 1973، ولجأ إلى الجزائر، حيث توفي سنة 1980.

ساعة، واسمه الحقيقي محمد بن عبد الحق بنعمارة : عضو سابق في المقاومة، أصله من فيكيك، أصبح بعد الاستقلال مساعد قائد المخزن بكلميمة. اعتُقل في سنة 1960 لحيازته السلاح، غادر السجن سنة 1965. وابتداءً من سنة 1971، أصبح قائد خلايا التنظيم السرية بفيكيك المسؤولة عن عبور الحدود الجزائرية-المغربية. هرب من موجة القمع سنة 1973، حوكم غيابيا. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في الدار البيضاء.

صبري، المعروف بهو شي مين، واسمه الحقيقي محمد بن الحسين : طالب تم تجنيده في الجزائر، تكون في سوريا قبل أن يدخل البلاد سرا سنة 1970 رفقة مجموعة اليزيد. تراجع إلى الجزائر، وهو ضمن المجموعة الصغيرة المقربة من محمود التي دخلت المغرب سنة 1973. شارك في عملية مولاي بوعزة قبل أن يُعتقل يوم 9 ماي من سنة 1973. حُكم عليه بالإعدام، ونُفد فيه الحكم بالقنيطرة في فاتح نونبر من سنة 1973.

ساهر، واسمه الحقيقي العربي الفيكيكي : مقاوم سابق، وعضو في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، صِهْر مفتش الشرطة سهيل رمسيس، طلب منه محمود أن يتكلف بربط الاتصال مع بعض الخلايا السرية بالمغرب. توفي بالدار البيضاء سنة 1977.

سباطة عبد الفتاح، المعروف بعباس : مقاوم سابق، عضو في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، حُكم عليه بالإعدام غيابيا سنة 1959 وسنة 1963. شارك حتى سنة 1967 في تجنيد أطر لحساب التنظيم. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال رئيس المجموعة الحضرية للرباط.

الصغير، واسمه الحقيقي محمد بالقاضي : أصله من بني ملال، تم تجنيده في الجزائر حيث تلقى تدريبا عسكريا قبل أن يلتحق بسوريا. اعتُقل في مدريد في شهر يناير من سنة 1970، رُحل أخيرا إلى دمشق. عاد إلى المغرب مع محمود سنة 1973، كان ضمن الناجين القليلين. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في ليبيا.

سي ابراهيم، واسمه الحقيقي محمد نايت الهاشمي : صِهْر حسين الخضار، وحفيد سيدي حمو. تكون في الجزائر ثم في سوريا. اعتُقل في مدريد في شهر يناير من سنة 1970، رُحل إلى دمشق. عاد إلى المغرب مع محمود سنة 1973، كان ضمن الناجين القليلين. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في وهران.

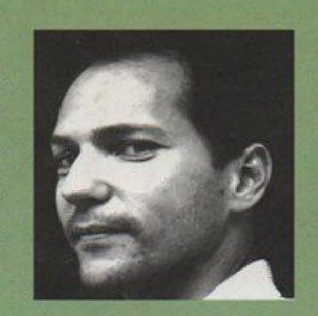
سيدي حمو عبد العليم : وجه من الوجوه المناهضة للاستعمار، وسيبقى هذا الشيخ لِسنينَ طويلة أحدَ معالم الحركة الثورية السرية في الأطلس. نجا من اعتقالات مارس من سنة 1973، توفي في تنغير في شهر شتنبر من سنة 1997.

التانوتي محمد : حارس شخصي للملك حتى سنة 1962، ثم ضابط مسؤول عن مراقبة المراكز الحدودية حتى سنة 1970، وهو تاريخ اعتقاله. قضى عقوبة حبسه عشر سنوات، ما زال يعيش في الدار البيضاء حتى شهر يونيو من سنة 2001.

اليزيد البركة : طالب وعضو في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب والاتحاد الوطني للقوات الشعبية، تابع تكوينا عسكريا في الجزائر قبل أن يساهم في تنظيم التنظيم بسوريا. عاد إلى المغرب سرا عدة مرات، اعتُقل في شهر شتنبر من سنة 1970 وأدانته محكمة مراكش. ما زال يعيش في الدار البيضاء حتى شهر يونيو من سنة 2001.

اليوسفي عبد الرحمن : مقاوم سابق، عضو مؤسس للاتحاد الوطني للقوات الشعبية، ثم كاتب عام للاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية ابتداء من سنة 1992، ما زال يزاول حتى شهر يونيو من سنة 2001 وظيفة وزير أول.

الفهرست



المهدي بنونة

إبن محمد بنونة (المعروف بمحمود).
متخصص في الأنتروبولوجيا.
خريج جامعة لوزان ومعهد الدراسات السياسية بباريس.
يقطن حاليا في سويسرا ويعمل بها.

يعرض هذا الكتاب وقائعَ أحداث عرفها تاريخ المغرب الحديث. يسردها المهدي بنونة بوفاء وأمانة، قدر المستطاع. أبطالُها رجالٌ كان يحذوهم أملُ تحقيق الثورة في المغرب. ولكن قليلون هم أولئك الذين يعرفون هذه الأحداث معرفة جيدة. فهي تُظهِر مسار حياة وتروي كذلك موت العديد من الأبطال المجهولين الذين قاوموا الاستبداد من أجل تحقيق كرامة الإنسان وحريته. تلك الكرامة والحرية التي دفع محمد بنونة وإخوانه في الكفاح حياتَهم ثمناً لهما.

لقد انتهت هذه المغامرة نهاية مأساوية أطلق عليها باحتشام "أحداث مارس 73". إنها صفحة طمسها التاريخ الرسمي وحرفها، بيد أنها أحداث تاريخيةٌ لا غنى عن معرفة حقيقتها، سيما وأنها مفتاح من مفاتيح فهم الواقع السياسي الراهن. فالشعوب يجب أن تعلم كيف تشكلت وما هو المعنى العميق لتضحياتها وآمالها.

«يُعتبَر نشر هذا المؤلَّف حدثا في حد ذاته، ذلك أن الحديث علانية، بالمغرب، حول العمليات العسكرية لفريق مغربي ثائر، على النظام القائم بالمغرب، كان إلى زمن قريب ضمن المحظورات. [...]

لقد أعطانا المهدي بنونة، وهو ابن محمد بنونة المناضل التقدمي، المهندس ذو التكوين الألماني، الذي اختار، حسب قناعاته العميقة، أن يغير المنكر بالسلاح، فقُتل خلال الأحداث، أعطانا المهدي بنونة، الباحث الأنتروبولوجي بسويسرا، درسا في المعالجة النقدية لماضٍ مؤلم. فعلاقته السلالية وتعاطفه مع دهكون وسيدي حمو والنمري، ورفاقهم، لم ينتجا، لا الحقد ولا التحامل ولا التمجيد، بل مقاربة موضوعية، أنقذت من الضياع ذاكرة، كان الخوف والتسلط يدفعانها إلى فضاءات الصمت والنسيان.»

مصطفى بوعزيز

ISBN : 9954-419-29-2



60 درهم